المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

تأليف

أحمد محمود

من الأدب الإيرانى

من "المسافر" إلى "النهاية"

مجموعة قصصية

1376

ترجمة

عادل عبد المنعم سويلم

منى أحمد حامد

الإبداع القصصى

تعد هذه المجموعة القصصية من أفضل الأعمال التى قدمها أحمد محمود وأكثرها تعبيرًا عن الطبقات الفقيرة المعدمة من الفلاحين والعمال فى الجنوب الإيرانى، والذين عاش بينهم أحمد محمود فانفعل بهم وتأثر بآلامهم وتبنى أحلامهم البسيطة.

تصور قصص هذه المجموعة الفلاحين والمعدمين، الذين اقتلعوا من أراضيهم التى أصابها الجفاف بفعل التصحر نتيجة لعدم اهتمام الدولة بهم، ليسقطوا ضحايا فى المدن للصناعات والإنشاءات البترولية التابعة لشركات أجنبية تمتص خيرات الوطن، وتترك أهله يبيعون أرواحهم ودماءهم مقابل لقمة عيش لا تسمن ولا تغنى من جوع.

تمتلئ قصص هذه المجموعة - رغم كونها قصصًا قصيرة - بالوصف النمطى والشرح التفصيلى لمكان الحدث والحبكة القصصية، وتهتم بالتعبير عن عادات أهل الجنوب وتقاليدهم وقيمهم.

وتمتاز من الناحية الأسلوبية بتعدد مستويات السرد فيها وتعدد الأصوات الراوية دون الإخلال بالوحدة الموضوعية أو فقدان الانسجام والتناسق فيها.

من الأدب الإيرانى

من "المسافر" إلى "النهاية"

مجموعة قصصية

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة : خيرى دومة

- العدد : ١٣٧٦
- من الأدب الإيرانى : من "المسافر" إلى "النهاية" (مجموعة قصصية)
- أحمد محمود
- عادل عبد المنعم سويلم و منى أحمد حامد
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة :

از مسافر تاتب خال

أحمد محمود

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo.
E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

من الأدب الإيرانى

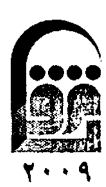
من "المسافر" إلى "النهاية"

(مجموعة قصصية)

تأليف : أحمد محمود

ترجمة : عادل عبد المنعم سويلم

منى أحمد حامد



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

محمود ، أحمد

من "المسافر" إلى "النهاية" : مجموعة قصصية/تأليف:أحمد محمود ،

ترجمة : عادل عبد المنعم سويلم ، ومنى أحمد حامد

ط١ ، القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩

٣٩٢ ص ؛ ٢٤ سم

١ - القصص الإيرانية .

(أ) سويلم ، عادل عبد المنعم (مترجم)

(ب) حامد ؛ منى أحمد (مترجم مشارك)

(جـ) العنـوان ٨٩١,٥٥٣

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٤٣٢٠

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 479 - 479 - 0

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

تقديم

تقديمًا لهذه المجموعة القصصية المختارة من أعمال الكاتب القصصى الإيرانى «أحمد محمود» نتعرف فى البداية على حياة هذا الكاتب وما قدمه من أعمال قصصية وروائية انعكست فى ثناياها مراحل كثيرة من حياته، وأحداث حية وصور من البيئة الجغرافية والسياسية والاجتماعية التى عايشها طوال مراحل حياته، ونعرض لأعماله الأدبية التى ألفها ونشرها بالفعل، ونعرض كذلك لمكانته الأدبية بين كتاب القصة والروائيين الإيرانيين، وكذلك النقد الذى وجه لأعماله الشهيرة، وخاصة بعض القصص القصيرة التى وردت ضمن هذه المجموعة المختارة من أعماله، والتى نحن بصدد التقديم لترجمتها العربية.

حياته:

ولد أحمد محمود (أحمد اعطا) فى ديسمبر من العام ١٩٣١م، فى مدينة الأهواز الواقعة غرب إيران، والتى تتصل فى بيئتها بالجانب الغربى والجنوبى من إيران، حيث تقع فى إقليم خوزستان الجنوبى الغربى.

وقد نشأ أحمد محمود فى أسرة فقيرة، حيث كان أبوه يعمل فى البناء ويعول أسرة قوامها الزوجة وعشرة من الأبناء، وقد أمضى كاتبنا مرحلة تعليمه الابتدائية فى مسقط رأسه، واضطرته ظروف أسرته الصعبة إلى العمل وهو لا يزال فى العاشرة من عمره، خلال العطلات الصيفية؛ لكى يعين أباه على إعالة مثل هذه الأسرة كبيرة العدد[1]. وقد عايش أحمد محمود – وهو لا يزال فى العاشرة من عمره كذلك – استيلاء القوات الإنجليزية على إقليم خوزستان، وشاهد ما قامت به هذه القوات المحتلة من تدمير بلدته "الأهواز" وتسويتها بالتراب، وإحلال الجنود الهنود التابعين للجيش الإنجليزى محل الحامية الإيرانية الوطنية.

أنهى أحمد محمود دراسته الثانوية ليجد نفسه غارقًا فى السياسة، ويتعرض من جراء هذا للسجن، مثله فى ذلك مثل باقى الشباب فى تلك السنوات التى عمّتها المظاهرات والاضطرابات

والاشتباكات السياسية، ونتج عن ذلك حرمانه من إكمال دراسته؛ إذ إنه بعد أن أطلق سراحه من السجن فى المرة الأولى، لم يجد بدًا من الالتحاق بكلية ضباط الاحتياط، إلا أن نشاطه السياسى حال دون استمراره فى هذه الكلية، وأدى إلى سجنه مرة أخرى فى العام ١٩٥٢م ؛ حيث زج به فى السجن العسكرى، وحيث شاهد فى هذه الفترة محاكمات الضباط الشبان واستجواباتهم، وقد انعكست هذه الفترة من حياته فى أحد أعماله الروائية وهى «داستان يك شهر» - قصة مدينة -.

بعد محاكمته، نقل أحمد محمود إلى سجن "تكنة شيراز" ثم إلى سجن "جهرم ولار"، بعدها تم نفيه إلى ميناء "لنگه" حيث عاش هناك لمدة عامين كتب خلالها قصته الطويلة "رنج واميد" - المعاناة والأمل -، وهو العمل الروائى الذى صور فيه حيرة الشباب الإيرانى ومعاناته خلال عقد الخمسينات، وما أصاب هذا الشباب من يأس وإحساس عام بالإحباط.

بعد هذا النفى، عاد أحمد محمود إلى "الأهواز" ليجد دنيا المال والتكالب عليه، قد شغلت السياسيين وحلت محل الاهتمام بالسياسة والمصالح الوطنية ومعاناة الشعب، وليجد البنوك والشركات الأجنبية والمحلية تنتشر وتفرض سيطرتها على الجو العام السائد فى المجتمع، وقد أثر هذا على بعض المناضلين السياسيين، حيث أخذوا يلهثون وراء الثروة والمال رغم احتفاظهم بنشاطهم السياسى الذى فقد فعاليته تمامًا(٢).

بلغ أحمد محمود سن السابعة والعشرين وهو لا يزال عاطلاً لا يجد عملاً ثابتًا أو وظيفة دائمة يتكسب من ورائها ؛ إذ أفقدته الفترة التى قضاها فى السجون وصحيفته الجنائية، كافة حقوقه الاجتماعية والسياسية، وكان عليه أن يتوقف عن ممارسة السياسة والتعاطى معها لكى يجد عملاً يتكسب منه، خاصة وأنه قد أصبح متزوجًا ولديه أبناء، عليه أن يعولهم.

تقدم أحمد محمود إلى وزارة التعمير لكى يعمل بالتعليم فى منطقة الأهواز، إلا أن مؤسسة الشاه الأمنية (السافاك)، لم تترك له الفرصة لأن يستمر فى هذا العمل ورفضت اعطاءه ما يفيد حسن السير والسلوك لكى يستكمل مسوغات تعيينه. لكن صديقًا شهمًا له، كان يعمل مهندسًا فى الوزارة، استطاع أن يعينه - على مسئوليته الشخصية - مشرفًا على منطقة "لرستان"؛ مما أتاح له الفرصة لكى يطوف بكل المناطق والقرى التابعة لهذا الإقليم حتى العام ١٩٦٠م؛ وقد انعكست نشاطاته ومشاهداته وذكرياته فى هذه القرى فى أعماله الأدبية بشكل واضح.

كان أحمد محمود، فى عمله هذا، حريصًا كل الحرص على أن تصل مساعدات الحكومة المادية واهتماماتها إلى مستحقيها من الفلاحين المحرومين المعدمين ؛ وقد أدى حرصه هذا إلى أن يدخل فى خلافات حادة مع الإدارة التنفيذية فى الإقليم، مما دفعه إلى تقديم استقالته من هذه الوظيفة، ليعود من جديد إلى صفوف العاطلين.

ظل أحمد محمود عاطلاً لا وظيفة له ولا عمل؛ حتى وجد فرصة للعمل فى شركة "ايتال كنسولت" كخبير فى الشئون الاجتماعية والتعاونيات، ومكنته هذه الوظيفة من أن يسافر إلى "جيرفت" ويبقى هناك حتى العام ١٩٦٣م. وقد حرص طوال هذه الفترة أيضًا على معاونة الفلاحين وتوعيتهم والاجتماع بهم وتعريفهم بجدوى الشركات التعاونية وفائدتها لتحقيق التضامن فيما بينهم، لكنه فوجئ بأمر من حاكم المنطقة يطالبه فيه بالتوقف عن الاجتماع بالفلاحين ويمنع تجمهرهم معه، وعندما رفض الامتثال لهذا الأمر، صدر أمر إدارى آخر بنقله إلى وظيفة "أمين مخزن قطع الغيار" فى الشركة، فى محاولة لمنعه من الاستمرار فى هذا النشاط، فقدم استقالته وعاد إلى الأهواز عاطلاً من جديد. ليتنقل بعد ذلك فى عدة أعمال ووظائف أخرى ؛ منها أنه عمل فى بلدته الأهواز حتى عام ١٩٦٦م، ثم عمل كمعد لبرنامج إذاعى، كما عمل أيضًا موظفًا فى شركة طيران خاصة، ثم موظفًا فى إدارة الشئون الاجتماعية حتى عام ١٩٧٨م. حيث قرر فى النهاية أن يعتزل العمل الوظيفى ويتفرغ تمامًا للكتابة والتأليف ويصرف كل وقته وجهده للإبداع.

أعماله الأدبية :

بدأ أحمد محمود فى نشر أعماله القصصية عندما قام بنشر عدة قصص قصيرة فى المجلات التى كانت تنشر فى طهران، ومنها مجلة (أميد إيران) – أمل إيران – وذلك بين عامى ١٩٦٤م و ١٩٦٧م، وقد جمعت هذه القصص ونشرت بعد ذلك فى مجموعة قصصية بعنوان (مول).

وتوالى بعد ذلك نشر مجموعاته القصصية وقصصه ورواياته على النحو التالى :

– مجموعة قصصية باسم "بيهودگى" – العبث – وقد نشرت فى عام ١٩٦٢م.

– مجموعة "زائرى زير باران" – زائر تحت المطر – ونشرت فى عام ١٩٦٧م.

– "بسرك بومى" – صبى ريفى –، "غريبه ها" – الغرباء – وقد نشرت عام ١٩٧١م.

- رواية "همسايه ها" – الجيران – وقد كتبها فى عام ١٩٦٦م ونشرت فى عام ١٩٧٣م؛ لكنها صودرت إلى أن سقط نظام الشاه.

- "داستان يك شهر" – قصة مدينة – وقد نشرت عام ١٩٨١م، غير أنه لم يُسمح بتداولها حتى عام ١٩٩٣م .

- "زمين سوخته" – الأرض المحروقة – وقد نشرت عام ١٩٨٢م.

- مجموعة "از مسافر تا تب خال" – من المسافر إلى النهاية – وهى مجموعة تشمل ٢٣ قصة قصيرة تم اختيارها من المجموعات القصصية التى نشرت له بين عامى ١٩٥٦م و١٩٧٤م، وهى نفس المجموعة التى نحن بصدد التقديم لترجمتها العربية.

- ولأحمد محمود عدد من سيناريوهات الأفلام الروائية، نشر منها اثنان تحت عنوان (دو فيلمنامه).

وقد ترجمت بعض أعمال أحمد محمود ومجموعاته القصصية إلى اللغات الروسية والإنجليزية والألمانية والأرمينية[٣].

مكانته الأدبية :

يعتبر أحمد محمود كاتبًا اجتماعيًا، مثله فى ذلك مثل غلام حسين ساعدى ومحمود دولت آبادى. وتتميز أعماله الأدبية والقصصية بالصدق والواقعية، وكانت أكثرها نضجًا تلك القصص التى دارت حول عمال الجنوب وحياتهم وحياة الفلاحين المعدمين. الذين ارتبطت حياتهم وبيئتهم فى الجنوب الإيرانى بثالوث النخل والبحر والنفط، وهى العناصر الثلاثة التى تعد عماد حياة أهل الجنوب الإيرانى وعماد بيئتهم الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية[٤].

بدأ أحمد محمود أعماله القصصية متأثرًا بصادق هدايت، وصادق چوبك، حيث أخذ يصور فى أعماله الإحساس العميق باليأس والشعور بالغربة الدائمة داخل الوطن وبين الأهل، إلى أن بدأت شخصيته الأدبية تستقل وتتضح فى عام ١٩٦٧م عندما ألف مجموعة (زائرى زير باران) – مسافر تحت المطر –، حيث اعتبرت هذه المجموعة القصصية نقطة مفصلية فى حياته الأدبية[٥].

كما يعد أحمد محمود كذلك من بين الأدباء الذين صوروا فى قصصهم القصيرة حياة السجون، حيث صاغوا ذكرياتهم خلال الفترات التى قضوها فى السجون السياسية والعامة فى إطار قصصى وحولوا هذه المذكرات والذكريات إلى قصص قصيرة(٦).

وأحمد محمود فى مجمل أعماله القصصية يُعد كاتبًا – ذاتى النزعة ذاتى الرؤية – إذ أنه قليلاً ما يهتم فى مواجهته للحدث بالواقع المحيط به، وقليلاً ما يحلل أسباب الظواهر المسببة لهذه الوقائع والأحداث، ويكتفى فقط بالقفز فوق سطح الحياة دون الوصول إلى العمق، ليصل به هذا فى النهاية إلى التكرار والعبثية والعدمية. وقد أضفى الأحساس باليأس، الغالب على أفكار المستنيرين فى عصره، لونًا قاتمًا على قصصه كلها، وصبغها بلون من اليأس والإحساس بالمرارة وفقدان الأمل. وشخصيات قصصه فى الغالب تعد نسخًا متكررة لشخصيات وردت فى أعمال صادق هدايت، فهى شخصيات تصل فى النهاية إلى طريق مسدود تفقد معه آخر أمل كان لديها ليفضى بها فى النهاية إلى الموت أو الانتحار.

ففى قصة "المسافر" – أولى قصص هذه المجموعة المترجمة – نجد هذا المسافر المثقف، شخصية تعيش فى عزلة عن المجتمع الذى يذخر بالحركة من حولها، ولا يقيم لعامة الناس أى وزن، فهم جميعًا أغبياء جهلاء، وينظر إليهم نظرة تعالى واحتقار.

والشخصيات فى قصص أحمد محمود فى الغالب شخصيات ليست لها صورة محددة، وليست لها صورة حياة يمكن تلمسها، وما تنطقه هذه الشخصيات من عبارات ومفاهيم ليست من عندها، بل إن شخصية الكاتب تظهر بوضوح وراء هذه الشخصيات.

وقصص أحمد محمود رغم كونها قصصًا قصيرة فإنها تمتلئ بالوصف النمطى والشرح التفصيلى لمكان الحدث والحبكة القصصية، وقليلاً ما نجد فى قصصه تجسيداً للأحداث(٧).

وبشكل عام فإن أحمد محمود بدلاً من الاعتماد على طرح الموضوع فى إطار من القيم النمطية المقولية، يقوم بطرحه فى مستوى من علم الجمال، وبدلاً من صياغة النظرية القيمية يجعل القارئ يصطدم بالواقع الملموس، ومن هنا كانت أعماله بمثابة ميراث فى الآداب الإيرانية الحديثة والمعاصرة(٨).

وأحمد محمود من الكتاب الذين أسهموا فى ظهور ما يسمى بأدب الأقاليم فى القصة والرواية وخاصة مدرسة القصة والرواية فى إقليم خوزستان، وذلك لأن المكان الذى دارت فيه

معظم قصصهم يقع من الناحية الجغرافية فى إقليم خوزستان، حيث صوروا الثالوث المميز لمنطقة الجنوب الإيرانى ؛ النخيل والبحر والنفط فى تلك المنطقة الحارة الشديدة الرطوبة والحرارة والشديدة التصحر والبداوة والتى سد فيها مجال الرؤية ذلك الشبح المهول الذى جاءت به الحياة الصناعية القائمة على النفط لتعيش فيها مجموعات بشرية تتباين فى طباعها وثقافتها وطرق وأساليب ومستويات معيشتها تباينًا شديدًا ؛ وتتمثل فى أشد الطباع بداوة وأدنى المستويات من الفقر والحرمان مع أقصى الأنماط المعيشية مدنية وحضارة، أناس غرباء عن بعضهم فى كل شىء، أناس عرب وفرس وأجانب وأوربيون. وهو ذلك التباين المتنافر الذى أوجدته صناعة البترول فى الجنوب ليعيش سكان العشش والأكواخ من العمال الفقراء المعدمين إلى جانب سكان الفيلات والشاليهات التى تذخر بأشد وسائل المدنية الحديثة مع تدفق هذا السيل الوافد من سكان المدن(٩).

فأحمد محمود يُعد مشاهدًا وراويًا جيدًا وقويًا لحياة الجنوب حيث صور فى قصصه الفلاحين والقرويين الفقراء المعدمين الذين اقتلعوا من أراضيهم، التى أصابها الجفاف بفعل التصحر نتيجة لعدم اهتمام الدولة بهم، ليكونوا ضحية فى المدن للصناعة والإنشاءات البترولية لشركات أجنبية وتابعة وعملية. فقد اهتم أحمد محمود فى قصصه بتصوير عادات وتقاليد أهل الجنوب وطباعهم، وهذا الاهتمام أضفى على المكان والشخصيات فى كثير من قصصه نوعًا من الهوية والطابع الإقليمى المحلى، إذ تناولت هذه القصص فى الأساس حياة المحرومين والمهمشين فى المجتمع الجنوبى، وقد جمع فيها عناصر ونماذج صارخة ومتنوعة للفقر والبطالة والجهل والمرض وعدم التعليم الذى عانى منه العمال والحمالون وعمال البناء والتشييد فى الجنوب وفى ميناء "لنگه"، ذلك الميناء الذى يتخفى فى ظلماته كافة ألوان الفقر واليأس والقنوط، بينما يبدو فى ظاهره وهو يرد عليه سيل من السيارات الحديثة المستوردة، وطابور من ناقلات البترول التى جاءت لتنهب ثروات الوطن، وقد جمع فى قصصه أيضًا عناصر ونماذج ملونة ومتلونة مثل البحر والشمس الحارقة وبساتين النخيل، وهى العناصر التى تضع قصصه فى مكانها وتحدد وجهتها، ولا تعد مجرد زينة للمكان الذى يدور فيه الحدث مثلما هو حادث فى كثير من القصص والروايات المحلية الإقليمية الطابع، فسكان العشش وبيوت الصفيح وعمال النفط والمزارعون والفلاحون الذين هجروا قراهم وأرضهم وانضموا إلى العاطلين وكتلة البطالة فى المدن لكى يقيموا بها مناطق من عشش الصفيح وبيوت فقيرة متهالكة ليعيشوا فيها ؛ كل هؤلاء نجد لهم مكانًا خاصًا ومميزًا فى قصص أحمد محمود(١٠).

ففى قصة "الغرباء" – وهى إحدى قصص هذه المجموعة – نتعرف على حياة رجال اضطروا للهجرة من قراهم وأراضيهم الزراعية التى أصابها البوار، إلى المدينة لكى يعملوا فى أعمال الحفر والبناء والفعلة فى مبانى المقر الإدارى التابع للشركة ولتمهيد الطرق التى ستسير عليها السيارات، وداخل تفاصيل هذه الحياة يشغلنا الكاتب بذكريات عن "نعمت" ذلك المتمرد الشهم الشجاع، الذى يسرق من أموال السلطة والحكومة والشركة والأجانب ليعطى الفقراء والمعدمين والمحرومين، يهاجم القطار العسكرى ليستولى منه على الأغذية والمهمات ويوزعها على أهل بلدته من الفقراء والمحتاجين وقد وفق أحمد محمود فى هذه القصة فى تجسيد الشخصيات بصدق وفى تصوير المكان بواقعية شديدة، ووفق كذلك فى إضفاء حالة واحدة متوحدة على القصة رغم تعدد مستويات السرد فيها وتعدد الأصوات الراوية، ووفق كذلك لأن يحافظ على تناسقها ووحدتها الموضوعية.

وفى قصة "آسمان آبى دز" – سماء دز الصافية – ، وهى إحدى قصص هذه المجموعة أيضا، وربما تمثل كذلك استمرارًا لقصته "الغرباء"، نجد أنفسنا إزاء عمل ناجح صور فيه الكاتب تزاحم العاطلين والمعدمين والمشردين، وهى صورة صادقة جديدة لنماذج من الحياة التى تعيشها أدنى طبقات المجتمع الإيرانى، وقد صور فيها أحمد محمود كيف تنشأ المساكن والتجمعات العشوائية وعشش الصفيح التى يسكنها العمال حول مراكز العمل، كما نجح أيضًا فى تصوير التناقض الشديد والتباين الصارخ بين الحياة البدائية والبدوية الفقيرة والحياة المدنية المتقدمة المرفهة التى أتت بها صناعة النفط.

وفى قصته "پسرك بومى" – صبى ريفى –، وهى إحدى قصص هذه المجموعة أيضا، يصور أحمد محمود المكان ومسرح الأحداث فى الجنوب بأسلوب نثرى فصيح يثير به خيال القارئ ومخيلته، حيث استخدم أحمد محمود الأساليب الأدبية الخفية وراء التعبيرات الطفولية والصبيانية لكى يحى من جديد ماضى منطقة الجنوب الذى لم يمر عليه وقت طويل بعد. فأحداث هذه القصة يرويها الكاتب على أنها وقعت فى سنوات عقد الأربعينات، ويصور لنا فيها ذلك التناقض الشديد الصارخ بين حياة العمال الإيرانيين فى شركة النفط والحياة التى يعيشها المديرون الأجانب والمهندسون فى هذه الشركة وذلك من خلال رؤية صبى إيرانى محلى أحب صبية من أبناء المديرين الأجانب، والقصة نظرًا للرحلة السنية التى يمر بها الصبى والطريقة التى يرى بها الأمور التى تأخذ جانبًا غير مباشر؛ فخلال الاضطرابات السياسية التى سبقت تأميم النفط، يسرد لنا الكاتب خطبة ثورية دامية يلقيها أحد زعماء العمال على

الجماهير الغاضبة والكارهة لوجود الأجانب الناهبين لثروة البلاد، لتنتهى هذه الخطبة بقيام الجماهير الغاضبة من العمال بإشعال النيران فى سيارات الأجانب العاملين فى الشركة، بينما كانت الصبية الأجنبية التى أحبها الصبى الإيرانى مختبئة فى إحداها، ويحاول هذا الصبى أن ينقذها من النيران ويفقد حياته فى هذه المحاولة وتحترق الصبية هى الأخرى داخل السيارة، ورغم أن هذه القصة تصور الواقع وفى زخم، مواجهة الأحاسيس الطفولية الصادقة الصافية الطاهرة للواقع المفروض الأليم وللظروف الاجتماعية الشديدة الوطء التى تكبل هذه. إلا أنها تتخذ كذلك من ثالوث النخيل والبحر والنفط عناصر أساسية لها لتظهر طابعها المحلى.

وبمثل هذه القصص التى ورد أغلبها ضمن هذه المجموعة القصصية يمكن اعتبار أحمد محمود من أقدر القصاصين والروائيين على وصف الحياة النابضة المحمومة فى منطقة الجنوب الإيرانى، فقصصه هذه تفيض بالأحاسيس التى تصب كلها فى اتجاه الإحساس بالغربة داخل الوطن وبين الأهل، وتكمل بعضها البعض لتسير الأحداث فيها فى بيئة وساحة متماثلة وبشخصيات متشابهة شديدة التشابه.

الإحـــالات

(١) عبد العلي دستغيب: نقد آثار أحمد محمود، انتشارات معين، تهران ١٣٧٨هـ.ش، المقدمة ص ٥-١٢.
(٢) المرجع السابق.
(٣) نفسه.
(٤) محمد بهارلو : داستان كوتاه إيران، چاپ هما، تهران، چاپ سوم، ١٣٧٧ هـ.ش، ص٥٩.
(٥) حسن مير عابديني: صد سال داستان نويسي، جلد دوم، نشر چشمه، تهران، ١٣٧٧ هـ.ش، ص ٥٦٦.
(٦) المرجع السابق، ص٥٦٦.
(٧) نفس المرجع، ص ٢٦١-٣٦٢.
(٨) نفسه، ص ٤٨٢.
(٩) نفسه، ص ٥٦٢.
(١٠) نفسه، ص ٥٦٨.

مقدمة المؤلف

إشــــارات

من "مسافر" إلى "تب خال" – مجموعة من القصص التى نشرت فى الفترة من ١٣٣٨ حتى ١٣٥٢ هـ.ش (١٩٥٩ حتى ١٩٧٣م)، فى شكل مختارات منشورة فى الصحف، أو فى شكل مجموعات قصصية.

أردت أن أحصل على تواريخ كتابة هذه القصص، ولكن ذلك لم يكن ميسورًا بالنسبة لى، فلا ذاكرتى أعانتنى، ولا أرشيفًا منظمًا وجدت عندى. ولكن أيًا كان الأمر فإنه لا توجد بين هذه القصص واحدة يرجع تاريخها إلى ما قبل عام ١٣٣٥ هـ.ش (١٩٥٩م).

والكتابة والنشر مسألتان منفصلتان بالطبع، فقد يحدث أحيانًا أن تكون هناك سنوات بين زمن كتابة قصة ما وزمن نشرها.

وعلى سبيل المثال – على الأقل فيما يتعلق بأعمالى – أستطيع أن أشير إلى رواية "همسايه ها"(*)، فتاريخ كتابة هذه الرواية هو عام ١٣٤٢هـ.ش (١٩٦٣م).

وبدءًا من عام ١٣٤٥ هـ.ش (١٩٦٦م) – حيث كنت أسكن فى طهران وقتها – بدأت تنشر مقتطفات منها فى مطبوعات مثل "مجلهء فردوسى"، "پيام نوين" وغيرها تحت عناوين "طرح" و "رازكوچك جميله" و "دوسر پنج"، وغيرها تحت اسم جزء لم ينشر من رواية "همسايه ها".

وفى عام ١٣٥٣هـ.ش (١٩٧٤م) صار فى الإمكان أن تنشر هذه الرواية عن طريق دار أمير كبير للنشر، بمساعدة الدكتور إبراهيم يونسى. ثم حدثت معوقات حالت دون إعادة طباعتها – حتى عام ١٣٥٧هـ.ش (١٩٧٨م) حيث أُعيد نشرها وتوزيعها بشكل واسع النطاق.

إذن فهناك بين كتابتها لأول مرة وطبعها لأول مرة كذلك أكثر من عشر سنوات.

(*) الجيران.

تاريخ الطبعة الأولى لقصص من" مسافر" حتى "تب خال" على النحو التالى:

- "مسافر" – عام ١٣٣٨هـ.ش (١٩٥٩م)، وقد تم اختيار هذه القصة من مجموعة "مول"، وقد طبعت فى طهران على نفقتى الخاصة، ولم تُعاد طباعتها.
- "يك چتول عرق" – تم اختيارها من بين مجموعة "دريا هنوز آرام است"، وقد طبع هذا الكتاب بمعرفة مؤسسة جوتنبرج الصحفية، ولم يعاد طبعه كما حدث مع "مول".
- "غربت" – نُشرت فى آذر ١٣٤٢هـ.ش (أغسطس – سبتمبر ١٩٦٣م) فى صحيفة (كيهان الأسبوعية العدد ٩٣).
- "زير باران" – نُشرت فى آذر ١٣٤٢هـ.ش (نوفمبر – ديسمبر ١٩٦٣م) فى صحيفة (كيهان الأسبوعية العدد ٩٩).
- "در تاريكى"، و "برخورد"، و "مصيبت كبكها" نشرت على الترتيب فى بهمن ١٣٤٤هـ.ش ومهر ١٣٤٥ هـ.ش (يناير – فبراير ١٩٦٥م وسبتمبر – أكتوبر ١٩٦٦م) فى صحيفة "پيام نوين".
- "شهر كوچك ما" و "در راه" و "چشم انداز" و "وقتى تنهاهستم، نه" و "آسمان كور" و "از دلتنگى" نُشرت فى مجلة الفردوسى عام ١٣٤٧هـ.ش (١٩٦٨م).

جدير بالتوضيح أن قصة "آسمان كور" نُشرت فى مجلة الفردوسى باسم "ناف آسمان كور"، وعند إعادة طبعها تم اختصار اسمها إلى "آسمان كور".

- "بندر" و " ترس" و "راهى بسوى آفتاب" نُشرت عام ١٣٤٨هـ.ش (١٩٦٩م) ضمن مجموعة "زائرى زير باران"، عن طريق دار نشر (انتشارات فرهنگ – الطبعة الأولى). و "راهى بسوى آفتاب" مأخوذة من رواية "همسايه ها"، وقد كتبت فى شكل قصة قصيرة، ونشرت ضمن مجموعة "زائرى زير باران" قبل طبع رواية "همسايه ها".
- "پسرك بومى" و "اجاره نشينان" و "خانه اى برآب" نُشرت ضمن مجموعة "پسرك بومى" القصصية فى صيف ١٣٥٠هـ.ش (١٩٧١م)، وقد نشرتها دار نشر. (انتشارات بابك – الطبعة الأولى).
- "غريبه ها" و "آسمان آبى دز" و "باهم" نشرتها دار نشر (انتشارات بابك – الطبعة الأولى) ضمن مجموعة "غريبه ها" القصصية عام ١٣٥٠هـ.ش (١٩٧١م).
- "تب خال" نُشرت عام ١٣٥٢هـ.ش (١٩٧٣م) فى مجلة "الفبا" العدد ٣ .

بعض هذه القصص طُبعت مرة واحدة فقط قبل هذه الطبعة الحالية، بينما أُعيد طبع كثير منها مرارًا.

وأشير هنا على سبيل المثال إلى قصة "در تاريكى"، التى نشرت للمرة الأولى فى مجلة "پيام نوين"، ثم أُعيد نشرها ضمن مجموعة "زائرى زير باران" القصصية التى طبعت بدورها عدة مرات – ثم نُشرت فى صحيفة كيهان اليومية – بتاريخ ٧ مرداد ١٣٥٣هـ.ش (٢٨ يوليو ١٩٧٤م).

ونُشرت بعدها فى كتاب مدرسى بعنوان (آيين نگارش) قبل عام من تاريخ قيام الثورة الإسلامية الإيرانية.

وبعدها نشرت فى المجلد الثانى "أفضل القصص القصيرة فى العالم"، الطبعة الأولى فى ربيع ١٣٦٨هـ.ش (١٩٨٩م)، الذى نشره السيدان "هران بردبار" و "عليرضا مرتضوى كرونى".

وها هى تنشر الآن ضمن هذه المجموعة.

كما حظى عدد من هذه القصص بفرصة الترجمة إلى لغات أخرى، وهذه الترجمات – على حد علمى – هى:

ألف – قصة "غريبه ها". ترجمات روسية وانجليزية وفرنسية، طبعت فى مجلة:

Asia Africa Today

Published in Russia (monthly)

English and French (bi - monthly)

طبعة موسكو – العدد ٤ أبريل ١٩٨٠م.

– أعيدت طباعة (الترجمة الروسية) فى مجموعة (القصص القصيرة الإيرانية المعاصرة) ١٩٦٠–١٩٧٠م طبعة بروجرس – موسكو.

(ب) قصة "شهر كوچك ما"

١– الترجمة الروسية. طبعت فى كتاب "القصص القصيرة الإيرانية المعاصرة" ١٩٦٠–١٩٧٠م طبعة بروجرس – موسكو.

٢- الترجمة الألمانية - طبعت فى كتاب

Touradj Rahnema
Finer aus Gilan
Berlin 1984

المترجمة: السيدة الدكتورة زيجريد لطفى

- أعيدت طباعة الترجمة الألمانية

Touradj Rahnema
Maderne Persische Erjahlungen
Tehran 1991

(ج) قصة "پسرك بومى"

١- الترجمة الألمانية، وقد طبعت فى كتاب:

Bozorg Alani
Die Beiden Elremanner
Berlin - 1984

المترجم: الدكتور مانفرد لورنتسى

٢- الترجمة الإنجليزية - طبعت فى كتاب:

Dr. Heshmat Moayyad:
The Stories from Iran
Washington, D.C. Mage

التى صدرت عن دار نشر

المترجم: Judith Wilks

(د) قصة "زير باران"

١- الترجمة الألمانية - طبعت فى كتاب

Tourad Rahnema
Im Atem das Drachen
Frankfourt 1981

المترجمة: السيدة الدكتورة / كارلا روستائيان

٢- الأرمنية - فى مجموعة "ديدار ٣" الطبعة الأولى عام ١٣٦٩هـ.ش (١٩٩٠م)، وهى مجموعة من الشعر والقصص باللغة الأرمينية، وعدد من القصص الفارسية القصيرة - ترجمها خاچر جالوستيان. القصة القصيرة "خانه اى برآب" ترجمت إلى الأرمينية فى كتاب "مجموعة القصص الإيرانية القصيرة" باسم "جاده ابريشم" ،من مجموعة قصص "ديدار". وقد ترجمت إلى الألمانية. ونشرتْ عام ١٩٧٧م.

والمسألة الأخيرة المتعلقة بهذه المجموعة القصصية - إذا تغاضينا عن الكلمات القليلة التى تم تغييرها للضرورة بسبب غرابتها وندرتها - هى أنه لم يحدث أى تغيير سوى إصلاح الأخطاء المطبعية، حتى أن كلمة "چتول" التى يرى البعض أن شكلها الصحيح هو "چتور"؛ وردت كما هى على صورتها السابقة "چتول".

أحمد محمود

تير ١٣٧١ وارديبهشت ١٣٧٧هـ.ش

يونية ١٩٩٢م، وأبريل ١٩٩٨م

المسـافر

كان الوقت ساعة السحر عندما وصل. حَسَبَ المسألة ببساطة، وقال لنفسه: "ها افطر، وبعدين أتحرك. الطريق مش ها ياخد أكتر من ساعتين، ها اكون هناك الساعة عشرة و..."

غير أن حساباته لم تكن صحيحة، وقد عرف هذا حين قال له عامل التحويلة:

– الطريق مقفول، العربيات راقدة ورا الملف من يومين، والتلج نازل على طول من أول امبارح الصبح لحد من نص ساعة فاتت، وقفل الطريق.

تغيرت هيئته، وأصابه الضيق، وقال في سريرته:

– أنا كنت عارف، كنت عارف أن كل حاجة بتتقفل قُدامي، ما أنا مولود يوم ١٣ صفر...

كان القطار قد ابتعد وغرق في ضباب كثيف، ولم يعد صوته يُسْمَع ... رفع ياقة معطفه الأسود الثقيل ومشى والتلج يخشخش تحت قدميه، وعبر الجسر الخشبي الضيق المعلق فوق مجرى ضحل تجمدت مياهه.

وعلى الناحية الأخرى من الجسر كان هناك كشك خشبي وقد عُلِّقَتْ خلف زجاجه بعض المجلات الباهتة الألوان. وضلفتا باب المقهى كانتا نصف مفتوحتين – كفم ميت عاش حياته كلها يائسًا – وقد انعكس شريط عريض من النور الباهت صادر من بين ثنايا الضلفتين على الثلج الذي يغطي الزقاق.

حين بلغ باب المقهى هبت ريح شديدة من على التلج، ولطمت خديه بسوطها، فدلف إلى المقهى مستعجلاً. كان القهوجي قد ألقى بالأخشاب في المدفأة الأفرنجية لتوه، ثم راح يشعل النار تحت السماور(*).

(*) السماور: غلاية كبيرة يوضع فيها الماء وبها صنبور، فوهتها نصف مفتوحة حيث يوضع براد الشاي الصغير فوقها ليغلى على البخار المتصاعد منها عند إشعال النار.

ألقى التحية على القهوجى، وسرعان ما ندم على ذلك، وقطب جبينه وهو يفكر ويحدث نفسه:

- ما كانش لازم اسلم عليه، أد أيه أنا غبى. أنا دايماً أنسى مكانتى... هو اللى كان لازم يسلم عليَّ، هو مهما كان مجرد بنى آدم قهوجى جاهل. وأنا متعلم ومثقف!...

ذهب وجلس بجوار المدفأة. وبعد لحظات - أى عندما شعر بالدفء قليلاً - أشعل سيجارة، وسأل صبى القهوجى الذى كان قد أحضر له الماء بالسكر:

- هو الطريق مقفول من كام يوم؟... ويا ترى فيه تلج كتير عند الملف؟...

أجاب صبى القهوجى - فى ضيق وهو يغالب النعاس- قائلاً:

- من أول امبارح لحد دلوقت.. وفيه فيه الملف مترين تلج.

- طيب وأيه اللى مفروض يتعمل؟.. إمتى هايتفتح الطريق، أنا عندى شغل، ولازم أكون هناك الساعة ١١، وإلا...

رفع صبى القهوجى كتفيه لأعلى، ومضى دون أن يقول شيئاً.

قال الحمال الضخم الذى كان آخذاً فى فك اللفائف الصوفية التى تحيط بمعصمى قدميه لكى يجففها على المدفأة.

- ما تضايقش نفسك قوى، النهاردة هايتفتح.

سأل الشاب فى عجلة:

- أيه؟ قلت إنه هايتفتح النهاردة!.

تسمرت عينا الحمال -اللتين يتقاطر من أهدابهما الماء - بوجه الشاب وقال له:

- أيوه، النهاردة.

- وانت عرفت منين؟ ها.. أكيد هايتفتح النهاردة؟... هل أنت عارف؟ قبل الساعة ١١؟.

عَصَرَ الحَمَّال أربطة معصمه، وفَرَدها على المدفأة، وشرح له:

- فيه ست أنفار من أمن الحكومة لازم يعدوا، لازم يعدوا من الملف ويروحوا قسم الشرطة، أول امبارح أخدوا العربيات على الناحية التانية من الملف. ودلوقت عاملين

قافلة، يا اتمنى، ها، أنا من شوية صغيرة كنت عندهم، كانوا بيلموا عزالهم، والحارس بتاعهم كان بيقول: "أكيد الحكومة هاتفتح الطريق علشاننا النهاردة".

فكر الشاب قليلاً، وبدا ما يقوله الحَمَّال شيئًا غبيًا فى نظره، وكان يسخر منه فى داخله، ويقول فى نفسه:

– أنا أد إيه غبى علشان أتكلم مع الناس اللى ما بتفهمش دى... دول على نياتهم جداً.

لم يستغرق الأمر أكثر من لحظات حتى ظهر سحاب ثقيل، وبدأت تهطل أمطار شديدة وسريعة، وتدفق عمال السكك الحديدية على المقهى مُحدِثين صخبًا شديداً، وتحلقوا حول المدفأة.

كان النوم يغالب الشاب، وكان يفتح عينيه الحمراوين المؤرقتين بالقوة. ضايقته الجلبة الشديدة فقال فى نفسه:

– الملاعين، ما عندهمش أى إحساس، قلبوا الدنيا دوشة وهيصة زى القرود، قلالات الأدب!.

ثم قام من جوار المدفأة، وذهب وجلس خلف الباب، وأسند ساعديه على المائدة، وأمسك بذقنه بين كفيه، ونظر إلى الخارج.

كان الثلج راسخًا فوق بعضه بحيث جعل المكان كله أبيض اللون، والمظلات التى تغطى دكاكين "البليلة السُخنه"، والجزار، والمخبز المواجهة للمقهى راحت تنفض الثلج عن كاهلها وتصدر أصوات الطقطقة بين الفينة والفينة. وراح دخان أسود يخرج من مدخنة الحمام المبنى تحت الأرض ثم يتناثر هنا وهناك فوق الثلج.

ثم هاهى الأمطار قد توقفت الآن وانقشع السحاب، وراحت الشمس تشرق بنعومة ورقة.

كان البخار يتصاعد من فوق إناء "البليلة السُخنة"، ومن داخل قسط اللبن فى دكان اللبان الملاصق لدكان البليلة.

نادى الشاب صبى القهوجى وقال له:

– هات لى لبن و....

لكنه انصرف مسرعًا.

- لأ، ما تجيبش دلوقت ... أنا راجع.

وقام من مكانه مسرعًا، وخرج من المقهى. وسأل الشيخ الذى كان يسعل خارج المقهى باستمرار:

- "لو سمحت! مفيش هنا شركة سفريات؟".

بصق الشيخ على الثلج بصقة غليظة، وقال:

- هناك، بُص، قُدام هناك، قبل البَلَدية بشوية، فيه هناك جراج.. إنت عاوز تروح فين؟

- أبدًا ... أنا لازم اعدى الملف.

- آه ... الملف ... بس ده مقفول دلوقت!.

- صحيح؟ غريبة! مقفول من إمتى؟ وإمتى هايتفتح؟.

- مش عارف، يمكن بعد يومين، ويمكن كمان ...

وسار فى طريقه دون أن ينتظر الرد على سؤاله، وقال فى نفسه:

- أدى ده كمان بيقول أنه مقفول، غبى!.

كانت أصابع قدميه قد بدأت تتجمد، واصطدمت قدمه بالأماكن التى انزلق فيها الثلج تحت وقع أقدام المارة؛ فأوشك أن يقع، ولكنه حفظ توازنه. مر بالبلدية ووصل إلى الجراج، وسأل السايس - الذى كان قد جمع النار على المنقل، وألقى على كتفيه بطانية بالية:

- ما عندكش عربية تعدى الملف؟

وحين سمع الإجابة "لأ" انتابه الغيظ والحنق، وقال بيأس:

- طيب، يبقى لازم أفضل هنا النهاردة، مفيش فايدة!.

مضى نهار الشتاء القصير سريعًا، وحل الغروب. كان لا يزال جالسًا فى المقهى، وفى زاوية من شفته سيجارة، وقد راح ينظر إلى لوحة قديمة يعلوها الغبار كانت معلقة فى ركن من أركان المقهى. لم يكن بعينيه شىء مميز، أما وجنتاه وأنفه فكأن جلدهما تقشر من شدة البرد.

لقد أصبح الأمر بالنسبة له الآن سواء، يبقى أو يذهب، لم يعد هناك فرق، كان عليه أن يكون هناك فى الساعة الحادية عشرة صباحاً، أما الآن فما دام لم يتمكن من الذهاب فى الموعد، فليذهب كل شيء إلى الجحيم، أضيف هذا أيضًا إلى همومه الأخرى، أضيف إلى كل تعاساته. لقد أجبر على أن يحتمل كل شيء حتى وصل إلى هذه السن، احتمل كل أنواع الشقاء والمصاعب.

بينما هو على حاله ينظر إلى اللوحة تذكر أى شقاء واجهه حين أمضى عامين بلا عمل، وكيف أنه لم يتمكن فى حياته كلها – وخاصة فى هذين العامين من البطالة – أن يلبى أصغر رغباته.

شعر بالتعب، كانت ذكريات الماضى بالنسبة له مؤلمة دائمًا، كانت تثقل كاهله:

– أتفو، أنا أصلاً مليش لزمة، صبى القهوجى ده أحسن منى، ما عندوش أى تطلعات، أما أنا؟...

قطع حبل أفكاره انفجار ضحكات عدة أشخاص كانوا يجلسون حوله، فعاد ونظر إليهم، فرأى أن أحدهم ينظر إليه خلسة، فقال فى نفسه:

– أكيد بيضحكوا عليَّه، السفلة! أنا دلوقت هااكسر أسنانهم بلكمة واحدة.

وقام من مكانه، ونظر إليهم بغضب، ظل على حاله لحظة، ثم مضى، وراح يتأمل هيئته فى المرآة التى تمزق ظهرها المصقول فى بعض المواضع، والتى كانت معلقة على الجدار.

كان طرف حاجبه الأيمن – الذى كان به أثر جرح قديم – أشيب كما هو على حاله. وكانت ذقنه قد طالت قليلاً. وفكر:

– شكلى مفيش فيه عيب، لكن الكرافته بتاعتى؟... يمكن بيضحكوا على ربطتها الكبيرة؟... لكن لأ! دول مفيش فى دماغهم أى حاجة، دول شوية تافهين جهلة!.

ثم أخرج المشط، ومشط شعره الأشعث، سمع صوت الضحك مرتين فقال:

– أيوه، أكيد المرة دى بيضحكوا عليه، لازم أعرفهم السخرية من واحد زيى معناها إيه... الملاعين!.

لكنه تسمر فى مكانه بسرعة جدًا، وقال:

- وهو أنا مين يعني؟ مجرد راجل غلبان، أغلب منهم، وإذا كانوا هما عندهم مقدرة يشتغلوا شيالين فأنا حتى دى ما أقدرش عليها، أنا فى الدنيا دى، وفى المجتمع ده قيمتى أقل من قيمة صرصار، صرصار ملوش لزمة بيقضى عمره كله من الشق ده للشق ده من غير أى هدف، أنا أيه فايدتى بالنسبة لأى حد؟... أيه اللى أقدر اعمله؟... الواحد مش لازم يضحك على نفسه...

سقط يائسًا خائر القوى على أريكة المقهى - كان الغروب ثقيلاً، كانت أوقات الغروب كلها مؤلمة بالنسبة له، لكن هذا الغروب؟... لا! كان هذا الغروب بالنسبة له مؤلمًا أكثر من أى وقت مضى؛ لأنه ارتبط بهزيمة جديدة.

لو وصل إلى هناك فى الساعة الحادية عشرة لخرج من هذه التعاسة حيث كان قد تلقى وعدًا.

- هو ممكن واحد زيه يكذب؟ لا! مش ممكن أبدًا، أكيد كان هايرتبها لى، وساعتها كنت هاقدر ارتب حياتى الملخبطـــة، لكن... آخ، أنا غبى فعلاً، باافكر فى الحاجات اللى ضاعت من إيدى.

كان دخان النرجيلة والسجائر والغليون الممتزج ببعضه قد جعل هواء المقهى ثقيلاً خانقًا. والمصابيح الأربعة التى كانت مدلاة من السقف تشتعل خائرة القوى بينما راحت الأخشاب الندية تطقطق فى المدفأة.

جاء الحكاواتى بسرعة بذقنه المدببة وخصلات شعره الطويلة المخضبة بالحناء، وجسده القصير السمين، وعباءته ذات اللون الجملى، وعصاه وكتاب الشاهنامة.

ملأ صوت الصلوات جنبات المقهى، وفى اللحظة التالية لم يعد هناك أى صوت غير صوت قزقزة اللب، وقرقرة الغليون، وطقطقة أخشاب المدفأة.

استراح الحكاواتى للحظات، ثم نظر فى ساعته التى كانت مربوطة بسلسلة فضية فوق صديريته السوداء الغليظة. ثم قام وهو يضع الفنجان الخالى فى الطبق. وتقدم عدة خطوات للأمام واتكأ على عصاه الأبنوسية، وجال بعينيه الفاحصتين فى المقهى من أعلاه إلى أسفله.

لفت الحكاواتى أنظار الجميع بعمله هذا الذى أداه بهدوء شديد، وعندما أحس بهذا بدأ فى القراءة بصوت رخيم مؤثر:

"من عين على عيوننا نورت

ومن لام على لساننا نطق

ومن ياء على شفنا نور الله

اللى منه اتنشأ نور محمد وعلي"

تأثر الشاب للحظات، ولم يمض وقت طويل حتى جالت بخاطره فكرة:

– آه، إحنا دايمًا عندنا مهازل من دى، ودايمًا عندنا أوقات نضيعها من غير فايدة... دايمًا... دايمًا...

استمر الحكاواتى يقول:

– كلامنا امبارح وصل لحد لما تهمتن(*)

قام الشاب بسرعة شديدة، وبلا هدف، وسحب على الأرض دون حذر الكرسى الضخم الثقيل الذى كان يسد طريقه فأحدث صوتًا شديدًا، ثم مَرَقَ من أمامه.

ابتعدت أنظار الجميع عن الحكاواتى وتعلقت بالشاب، وتابعته حتى خرج من باب المقهى.

قطع الحكاواتى ببرود بقية القصة التى كان يرويها وقال:

– اللعنة على الشكاك.

فردد زبائن المقهى بشكل لا إرادى وفى صوت واحد:

– عليه اللعنة.

ثم تعلقت العيون مرة ثانية بالحكاواتى. كان البرد قد اشتد خارج المقهى، ولثوان بدا هذا البرد للشاب أمرًا عاديًا، لكنه بعد قليل صار مؤذيًا بالنسبة له. كانت قدماه تتقدمان للأمام

(*) تهمتن: أحد أبطال شاهنامة الفردوسى التى نظمها فى ستين ألف بيت من الشعر حكى فيها حكايات ملوك وأبطال الفرس الأسطوريين.

بغير إرادة، وتحملان جسده فوقهما، كان يلف نفسه فى معطفه أكثر فأكثر، وعندما بدأ البرد يضايقه بشدة وقف ونظر وراءه فرأى زجاج أبواب المقهى المغبر – الذى كان النور الأصفر الضئيل يبدو من خلفه – شعر كأنه يحس بحرارة المقهى ودفئه.

وقف متردداً للحظات ثم أشعل سيجارة وابتلع دخانها، هبت ريح خاطفة من على الثلج ولطمت خديه، فعاد ووصل إلى المقهى بأقصى سرعة وهو يسأل نفسه:

– إزاى ها ادخل جوه، دلوقت ها يتتريقوا عليَّه، أنا أيه اللى خرجنى أصلاً؟ ها اروح فين، ده أيه الغُلب الثقيل ده؟... ونظر حواليه.

كان دكان "البليلة السُخنة" إلى الأمام قليلاً، وكانت ضلفة الباب المكسور المتهالك شبه مفتوحة يخرج منها نور مرتعش، حمل نفسه إلى هناك بسرعة شديدة، واختلس النظر.

رأى خلف باب الدكان شبه المفتوح أربعة أو خمسة أشخاص كان واضحاً من ملابسهم أنهم عمال فى السكك الحديدية، كانوا جالسين حول مائدة وهم فى حالة من السُكْر وقد راحوا يحتسون العَرَقى.

دخل الشاب وأغلق الباب. نظر إليه أولئك الذين كانوا يحتسون العرقى، فتوارى عن أنظارهم قليلاً، وراح يحدث نفسه وهو يجلس متعباً منهكًا خلف مائدة:

– الله يلعن الشيطان ... الشيطان ... ليه؟ الله يلعن البنى آدمين، اللى دايماً بيبصوا لى فى كل مكان بعينيهم البجحة... وكأن لىَّ قرون، الملاعين!...

وفرك يديه ببعضهما بعضاً، ووضعها على أذنيه.

فى هذا الوقت جاءت امرأة شابة تكاد أن تهلك من شدة النحافة، وكانت ترتدى معطفًا كاكى اللون من معاطف الجنود وبه رُقَع، وقد لفت رأسها بشال صوفى أصفر، ولم يكن الرجل قد رآها حتى هذه اللحظة، وكان فى يدها نصف زجاجة عرقى، وطبق من اللوبيا المهروسة التى يتصاعد منها البخار، ووضعتها على مائدة الشاب، ثم قالت له:

– مش عاوز حاجة تانى؟

– "مش عاوز حاجة تانى؟... أنا..." كان يريد أن يقول لها:

– وأنا إمتى قلت لك تجيبى لى عَرَقى.

ولكنه أدرك أن هذا الكلام لا مكان له؛ فما دامت قد أحضرته فيجب أن يشربه خاصة أن هذا المكان هادئ ليست به ضجة ولا ضوضاء، والعرقى يُسْتَحَبُ فى البرد كذلك. كان يستطيع أن يشرب ويفكر قليلاً. قال:

- لأ، مش عاوز حاجه تانى.

ذهبت المرأة وجلست القرفصاء بجوار المدفأة.

عندما سرى الدفء فى رأس الشاب وبدنه استند على ظهر المقعد وراح يتأمل السقف الملوث بالدخان بعينين زائغتين، كانت الأرضة قد أكلت الألواح، وبدت الرطوبة من عدة مواضع فى السقف. نسى الشاب لماذا جاء، وإلى أين كان يريد أن يذهب. وتذكر أشياء أخرى... تذكر أنه أحب مرة واحدة فقط فى حياته، وأنه فشل فى هذه أيضًا، وأن فتاته كانت فتاة صغيرة، أو على الأقل كانت هكذا فى نظره هو، فخدعته وضحكت على ذقنه.

- أتفو! الدنيا صحيح مسخرة، وبعدين هى كان فيها أيه أحسن منى؟... يا ترى... لأ! وده يفيد بأيه؟ دلوقت مفيش فايدة، التفكير فى الحكاية دى مش هاييجى منه نتيجة.

تعبت رقبته، وسقطت ذقنه على صدره، وتعلقت عينه بهيئة المرأة الطويلة التى كانت جالسة القرفصاء على كرسى بجوار المدفأة، حدث نفسه:

- "مسكينة، هى كمان من الناس اللى ملهمش مكان فى الدنيا، ريحة الغُلب فايحة منها، أهى دى الدنيا، بعد شوية غُلب وتعاسة الواحد يتمدد، صحيح يعنى أيه؟" وفكر فى المرأة من جديد "يا ترى ربنا خالق ناس زى دى ليه؟ يقصد أيه؟... حاجة غريبة، فعلاً مسخرة".

شق صوت صفير القطار الذى كان يتزود بالماء - فضاء الخارج المتجمد، واندفع من ثنايا مفصلات باب خمارة بيع العَرَقى.

قام الشاب وخرج من الخمارة، فامتزجت حرارة خديه بلسعة البرد فى الخارج فاستمتع بذلك للحظة.

سار بقدمين ثقيلتين وغير واثقتين ناحية المقهى. ونظر من خلف زجاج باب المقهى إلى ساعة الحائط، كانت الساعة الثامنة والنصف، كان الحكاواتى قد أتم روايته، وراح يغلق شاهنامته.

ظل الشاب لحظة مترددًا خلف باب المقهى، وفكر فى نفسه:

– آه، أحسن أنام هنا الليلة، يمكن بكره الطريق يتفتح، لكن اتفتح ولا ما اتفتحش خلاص مفيش فايدة، فات الوقت... لكن على كل حال الأحسن إنى أنام هنا الليلة... أكيد القهوة فيها فَرْشة.

أدار ضلفة باب المقهى على كعبها، وهَم بالدخول، ولكنه قابل الحكاواتى وجهًا لوجه، فوضع يده على فمه على الفور وسأله:

هو قطر الركاب هاييجى إمتى؟.

أجاب الحكاواتى:

– الساعة تسعة.

– وها يتحرك إمتى؟.

– بيقف نص ساعة.

لم يدخل الشاب المقهى، وسار باتجاه المحطة، مر بجوار الكشك الخشبى وعبر الجسر الخشبى الضيق.

فى الطريق حسبها ببساطة:

– أتحرك الساعة تسعة ونص، وأوصل بلدى بكره الساعة ثمانية ونص الصبح، ولازم ها اعمل حاجة... ها اعمل حاجة".

لكن حساباته لسوء الحظ لم تكن سليمة، وقد عرف هذا حين قال له عامل التحويلة:

– لأ! القطر مش جاى النهاردة. وده متأخر اتناشر ساعة.

– غريبة!... اتناشر ساعة؟... ليه؟.

قال عامل التحويلة وهو يطلق القطار المحلى مشيرًا له بالنور الأخضر:

– آه، هو انت ما تعرفش أن سقف النفق وقع؟

... كان القمر قد أخذ فى الاقتراب من منتصف السماء، والقطار المحلى قد ابتعد. مَدَّ الكلب - البنى الذى كان ممدداً أمام مبنى المحطة الحجرى الملوث بالدخان - فمه ناحية القمر وعوى، فأجابه الكلب الآخر - الذى كان قابعًا بجوار النهر المتجمد بصوت قوى.

نظر عامل التحويلة إلى هيئة الشاب المتردد نظرة شك وريبة لحظة، ثم رفع الفانوس عن الأرض عندما بدأت ريح باردة فى الهبوب بسرعة، ورفع ياقة معطف المطر إلى أعلى وابتعد بسرعة.

تحسس الشاب نبضه، وتعلقت عيناه المنهكتان بالسماء، وبقى على هذه الحال عدة لحظات. ثم قال بصوت مكبوت:

- "زى ما يكون عندى حمى"... ثم سار باتجاه المقهى وهو غارق فى حالة من يأس مرير...

* * *

رُبـــع عَــرَقـى

كانت الأمطار التى تنهمر برقة ونعومة تغسل أرضية الشارع الحجرية، والسحب الخفيفة منتشرة فى صفحة السماء. وكانت أشجار الصفصاف العتيقة مصطفة على جانبى الطريق وقد غابت أطرافها فى الظلام.

وكانت المصابيح الخافتة تلقى أضواء شاحبة على أحجار الطريق السوداء المغسولة على مسافات متباعدة.

وكان النسيم الذى يهب يدفع أغصان الأشجار كى تتلامس مع بعضها بعضًا وتدفع أوراق الخريف المتساقطة على أرضية الشارع مع خشخشة لطيفة. وكان هناك احتمال أن تنهمر الأمطار من جديد بعد لحظات.

كانت حالة الجو هذه تُرَغِبُ المرء أن يسير على امتداد الطريق برأس عار وياقة مفتوحة، وأن يتنفس هواءً منعشًا، وأن يكف عن التفكير فى أى شىء بقدر المستطاع.

تحت إحدى أشجار الصفصاف الكثيفة كانت تقف عربة يجرها حصان وحيد أمام خُص شبه مفتوح.

كانت عنق الحصان محنية تحت اللجام الثقيل، والنعاس يغلبه، وقد برزت ضلوعه من تحت الجلد اليابس، وقطرات المطر تنزلق بين ثناياها.

بعد لحظات حين بلغ التعب أشده بالحصان خرج من الخُص شيخ نحيل يلبس على رأسه قبعة مرتفعة الحافة لكنها مستعملة.

وقف الشيخ بجوار مجرى الماء؛ وسحب نفسًا من الغليون، ونظر حواليه، ثم اتجه ناحية الحصان الذى كان عندها فاتحًا عينيه الحمراوين المليئتين بالرمس، وقد راح يدق الأرض بحافره فى حالة من الإعياء.

أفرغ الشيخ الغليون، وغاصت أصابعه فى عُرف الحصان، ثم ألصق وجنته البارزة العظام بجبهة الحصان:

- فيه أيه يا غلبان؟... مالك مكشر كده ليه... إنت فاكر أن أنا ضحكت عليك؟... فاكر أنى أخدت فلوس الشعير بتاعك وشربت بيها عَرَقى؟...

حاول الحصان أن يصغى للرجل؛ لكنه لم يستطع حيث كان يوشك أن يغيب عن الوعى من الجوع. كانت ركبتاه ترتعدان وبطنه غائرة، وخصره مثنى تحت ثقل السرج.

أمسك الشيخ الذى كانت خصلة من شعره الرمادى الخشن تطل من تحت القبعة - بفم الحصان النحيل، وأخذ يقول:

- تعال شم ريحة بُقى، هو الراجل التخين أبو كرش ده هايدى عرقى شكُك لحد! هو ها يفتكر أنا دفعت فلوس أد أيه ثمن العرقى فى الخرابة بتاعته دى! الظالم ما أدانيش حتى ولا رُبع.

هز الحصان رأسه وتعلقت نظرته العارفة بالجميل بهيئة الرجل الذى واصل حديثه:

- أنا عارف كويس إنك جعان جداً يا مسكين... لكن اعمل أيه؟ أنت مش هاتقدر تفهم ليلة واحدة من غير شرب العَرَقى يعنى أيه؟... أنا دلوقت عَمَال ارتعش. بُص لإيدى، شوف عينيه؛ ما بيتفتحوش، لو كان الراجل الخايب ده أدانى كوبايتين؛ كنت اتلميت على نفسى وقدرت اعمل حاجات كتير قوى... أنت عارف... لما دخلت الدكان كان عامل زى الكلب... فهم على طول إنى مفلس. الجبان يقدر يشوف جيب الواحد ويعد فلوسه من ورا الهدوم.

ثم حك ذقنه الصغيرة، وتثاءب بصوت عالٍ، ثم ذهب ناحية منصة العربة، وجلس، وأمسك السوط، وهز اللجام، وقال:

- شى يا حصان، يمكن نصطاد لنا واحد سكران من بتوع آخر الليل، ينجدك من الجوع، وينجدنى من الصداع من قلة الشرب.

لوى الحصان عنقه وأخفض فمه، وحاول للحظات، ثم علا صوت العجلات على الأرضية الحجرية.

كانت جفون الحوذى تزداد ثقلاً؛ فأطلق اللجام من يده، فراح الحصان يجر العربة بالكاد وحيداً. وهطلت الأمطار بلا انقطاع.

كان الصداع قد جعل الحوذى عصبيًا، فصار وقع حوافر الحصان وطرقات عجلات العربة يعذبانه، وقطرات العرق الكبيرة تتدحرج على جبهته، وياقة ثوبه الخشنة التى تحك رقبته تخرجه عن طوره، ففتح الأزرار وأزاحها إلى الوراء و.. (كيلة شعير، ربع عرقى) كان هذا الأمل يداعب كيانه المنهك.

– ... أخ... آخ... لو حصل... كنت اقعد فى الزريبة دى واشرب العرقى وابص للحصان و...

وأمسك اللجام وهزه... اجتاز عدة أزقة، ونظر بحسرة وأسى إلى بعض السكارى الفكهين الذين كانوا يتمايلون ويفحشون لبعضهم القول ويضحكون، سمع منهم أشياء قبيحة، لكن أحداً لم يسقط فى شركه بعد. راح يجيل النظر حواليه بعينين غائرتين تجرى فيهما عروق حمراء... لا... لا جدوى... كان الظلام يثقل على قلبه، وذكريات الماضى تصب فى عروقه ألمًا مريراً.

كان يفكر فى تلك الأيام التى كان يملك فيها عربة يجرها حصانان، وكان حصانه هذا أبلق قويًا جميلاً، وقد ازدان بشرابات ملونة مبهجة.

أما عربته فكانت مبطنة من الداخل بالقطيفة الأرجوانية، أما سقفها فكان من الجلد الفاخر اللامع. وكان هو يدفع على مائدة العرقى عشرين تومانًا كل ليلة... أما الآن؟... لا... لقد أمسك الألم بتلابيبه الآن حتى أنه لا تبدو له نهاية. من طلوع الشمس حتى نصف الليل وهو يقطع الطرقات بحصان منهك وعربة خالية، وقلما طلبه راكبه.

كان الحوذى ممسكًا بالسوط، وقد أطلق اللجام فراح الحصان يجر العربة حيثما شاء... وعلى بعد عدة أقدام وتحت إحدى الأشجار كان محضر المحكمة – الذى كان شابًا – يترنح وقد أمسك بمعطفه فى يده، وفك حزامه وراح يدندن بأغنية:

لست أجوب الأسواق والحارات عبثـًا

أنا أبحث عن حبيب فعندى محبة مكنونة

عندما أدركته العربة لوح بيده.

- هييه.. على عوض... استنى، أنت مش شايفنى بالطوح!

جذب الحوذى اللجام، فوقف الحصان وقال:

- "على فين يا سيدى"

وإذا بالمحضر - الذى لم يكن قادرًا على الوقوف على قدميه ويحاول أن يسحب نفسه داخل العربة - يقول ساخرًا:

- "أيبه... ده انتى غبى صحيح... هو أنت ما بتشوفش تحت رجليك... راجل خايب... أنا لو كنت عارف أنا رايح فين ما كنتش ها احتاج حمار..."

وجر نفسه إلى داخل العربة بصعوبة، وتمدد على المقعد، وبدأ يقول:

- كويس... دلوقت بقى روح مكان ما أنت عايز... روح الغُرزة... تعال نتسطل مع بعض... وأنت ضيفى كمان على رُبع عرقى...

انفتحت عينا الحوذى وانتشى قلبه، وسرت فى بدنه رعشة لطيفة. هز اللجام فحرك الحصان قدمه المرتعدة إلى الأمام، والتفت الحوذى فرأى بصعوبة وجه المحضر الغارق فى العرق، وقد غاب فى الظلام.

- يا سيدى... دكان العرقى قريب من هنا، أروح هناك؟

لم يقل الرجل الثمل شيئًا، وتقلب على المقعد، ووضع يده اليمنى تحت رأسه، وتعالى شخيره.

أدار الحوذى سوطه فى الهواء؛ لكنه لم يضرب به مؤخرة الحصان، ثم عاد وقال:

- يا سيدى... أنا معاك... الحارة على الإيد اليمين يا سيدى، مش بعيد قوى.

زأر المحضر، وقال:

- قلت لك روح الغرزة.

وأخرج زجاجة صغيرة من جيب صديريته، واستمر فى الحديث:

- بُص... قزازة العرقى بتاعتك أهيه... وأنا ما با اعزمش حد من غير سبب... لكن... اسمع.. أنت مش هاتلمس القزازة دى لحد ما ادخن...

وأسند رأسه على مقعد العربة، وارتفع همسه مصاحبًا للشخير:

- كلام... سُطَلْ... خ خ... لكن أنا باافوق... خ خ... خ خ... با الف...

نظر الحوزى متحسراً إلى الزجاجة واتسعت حدقتاه، وراح يهز فكه، ومرة ثانية لف السوط فى الهواء ليضرب به مؤخرة الحصان فيصل إلى الغرزة، شق السوط الهواء وأصدر صفيراً، لكنه لم ينزل؛ حيث رأى الحوزى أضلاع الحصان البارزة، والجرح الكبير الذى كان نصفه ظاهراً من أسفل السرج فبقيت يده معلقة فى الهواء.

كان الحصان متلاحق الأنفاس ترتعد فرائصه وقد دمعت أطراف عينيه، بينما راحت ركبتاه العظميتان تنحنيان وتعتدلان بصعوبة.

كان المحضر الثمل يغط فى النوم داخل العربة بينما الحوزى ينظر إلى صديريته بين الفينة والفينة بنفاذ صبر وإعياء... كانت العربة قد وصلت إلى أطراف المدينة.

وصلت أرضية الطريق الحجرية إلى نهايتها، وراح صوت عجلات العربة الخشبية ذات الإطار الحديدى يتلاشى فى التراب الناعم الرطب فى شوارع أطراف المدينة.

بعد لحظات وقف الحصان، فحرك الحوزى الذى رأى مجرى عريضًا مليئًا بالطين من فوق أذنى الحصان المتدليتين - اللجام، وانحنى وضرب مؤخرة الحصان بكف يده.

- "واقف ليه؟ شى يا حصان، دى مش غويطة قوى".

نظر الحصان يمنة ويسرة بتردد، وحرك رجليه و... بعد عدة لحظات أخرج نفسه من الطين بصعوبة، ولكن عجلات العربة غاصت فى الطين والتصقت بالأرض.

.. ضاعت جهود الحصان من أجل إخراج العربة سُدى. تقلب المحضر وسأل:

- فيه أيه!

لكن الحوزى لم ينطق، ونزل وأمسك بالحصان من رباط رأسه:

- اتحرك. الغرزة قريبة. كل الفلوس اللى هايديها لى عشانك، ها، اشترى بيها شعير، وربع العرقى بتاعى موجود.

جلس المحضر الثمل، وقال:

- وجع بطنك، ربع العرقى بتاعك! روح فى داهية... الحكاية مش كده.

ونزل من العربة فغاص حتى ركبته فى الوحل، واستشاط غضبًا، وراح يطلق السباب، وأمسك بقفا الشيخ، وهزه بقوة، وصرخ بصوت أجش:

– شايب غبى، وحصانك أخيب منك... يللا طلع جزمتى من الطين.

ودفعه ناحية الوحل فسقط الحوزى على ركبته.

ذهب المحضر مترنحًا ناحية العربة، ورفع السوط ولف به دورة فى الهواء، ثم هوى به بقوة على مؤخرة الحصان.

استجمع الحوزى قواه كلها، وهجم بعداء على الرجل الثمل، وصاح على نحو لم يكن متوقعًا أبدًا "يا حيوان"، وأمسك بشعر المحضر الأشعث وجره.

ألقى المحضر الذى تسمر فى مكانه بالسوط بسرعة شديدة، وخلص نفسه من قبضة الشيخ.

كان الحصان ينحنى على نفسه، وقد زاد ضعفه وعجزه، ربت الشيخ على مكان ضربة السوط الذى كان على شكل خط على جسد الحصان وهو يسب ويلعن بينما تملأ حلقه غصة والغضب والصداع يعذبانه، لو كان به قوة لمزق الرجل إربًا إربًا.

فك الشيخ الحصان، وأمسك عمودى العربة وحاول جاهدًا فتقلصت عضلات فخذه، وقصم الألم ظهره دون أن يجدى ذلك، وبدا على تجاعيد وجهه آثار ألم قاتل.

وضع يديه فى خاصرته ونظر إلى السماء؛ كانت السحب المتناثرة تتجمع، وراح السواد يخنقه. هبت ريح باردة وملأت رائحة الأمطار أنفه. لم يعد لديه أمل فى أن يستطيع أن يخرج العربة من هذا الوحل بحصان عجوز جائع. ربط الحصان مرة أخرى فى العربة بينما الصداع واليأس والإنهاك يقتلعونه من جذوره.

رفع الشيخ وهو يرتعد سرواله الصوفى الأصفر ونزل فى الوحل، وأمسك بعمودى العربة الخلفيين، واستجمع كل قواه فى الساعدين الضعيفين وصاح فى الحصان.

– شى يا حصان، أديك شايف، أنا با اساعدك أهه، يللا شد حيلك...

حاول الحصان ورفع أذنيه المتدليتين فتحركت عجلات العربة، وخرجت من الوحل محدثة صوت الانسلاخ من الطين.

كان العرق على جبهة الحوزى وأنفاسه تتلاحق عالية، مسح بطرف ثوبه أولى قطرات المطر الضخمة التى اختلطت بالعرق والوحل من على جبهته، ونظر حواليه وقال:

- يا سيدى، يلا اطلع، مش فاضل كتير على الغرزة.

لكن السيد كان قد ذهب، ولم تكن عينا الرجل الضعيفتان تستطيعان أن تريا فى الظلام إلى أين ذهب المحضر.

* * *

الغــربة

كان صمت العجوز ثقيلاً. وراح زوجها الشيخ يتعلل بكل شيء للحديث. كان الكيل قد فاض بقلبه فأراد أن يفرغه بأى شكل كان. كانت آلام الغربة والتشرد والوحدة والحيرة كأنها أثقال من الرصاص تضغط على قلبه.

كان صوت الشيخ مكدوداً ضعيفاً.

– يا وليه! ربنا كبير. يعين اللى مالوش حد... نرجع... أيوه، نرجع...

كان يحاول أن يخرج أحزانه من داخله بالكلمات.

– الحمد لله يا وليه إنها جت على أد كده. لو كانت فلوسنا خلصت هنا كنا هانمد أيدنا لمين؟ مين اللى كان ها يقبلنا وإحنا مطرودين ومحتاجين؟".

كان الشيخ يلهث تحت جسد العجوز المشلول العاجز، ويجر خطواته على الأرض بصعوبة، والعرق يسيل من بين ثنايا تجاعيد جبهته وينزلق على وجنتيه.

عندما كان الشيخ يصمت كانت شفتاه اليابستان المضمومتان تضغطان على بعضهما بعضاً، وعندما كانت تجاعيد وجهه تزداد، وعيناه الحزينتان تنسدلان. كانت العجوز المشلولة ملتصقة بظهر الرجل كالقوس، وقد شبكت يديها على صدره البارز العظام، ووضعت وجنتها الشاحبة اللون على كتفه، وتعلقت نظرتها العاجزة بالأرض وقد بدا شعرها الرمادى من تحت غطاء رأسها الأسود كانوا قد قالوا للرجل:

– مفيش فايدة، الست دى لازم تروح تقعد فى مكان تستريح فيه اللى فاضل من عمرها. المستشفى مش هاينفعها بحاجة. وغير كده مفيش مكان لها. لو لفيت المستشفى كلها مش ها تلاقى ولا سرير فاضى... حطها هناك...

نظر الشيخ إلى حيث أشاروا له فرأى المرضى وقد تمددوا على الأرض بجوار الحائط، وقد جفف الأنين حلوقهم.

– شوف مفيش مكان لأى حد فيهم، بييجى كل يوم مية واحد وأكثر. يفضلوا يومين تلاتة محتارين وبعدين يمشوا، بيمشوا على الأقل يخلوا بالهم من نفسهم... تفتكر أن فيه حد يقدر يعمل حاجة؟...

كانت ركبتا العجوز تبدوان كأنهما حبلاً معقودًا، وعروق ساقيها كأنها بندول ساعة.

– ما تزعليش يا وليه. أنا ها أخلى بالى منك! طول ما فى نفس... زى روحى...

وشرد يفكر فى أيام شباب زوجته حين كانت تكدح معه كتفًا بكتف، وحين شاركته أحزانه، ورقصت فى أفراحه.

واحتبس الصوت فى حلق الشيخ.

– إنتى ضيعتى شبابك عليَّه، وحافظتى على بيتى... آخ، ما تفكريش فى حاجة خالص.

تحركت مشاعر المودة، فترقرقت الدموع فى عينى العجوز.

كان قلب الشيخ مفعمًا بالأسى، وكان يعرف أنه يخدع نفسه بهذا الكلام، ويخدع زوجته أيضًا. وحدث نفسه قائلاً:

– يا رب أوديها فين؟ هناك رَجَعونى، ارحمنا يا رب...

كانت المدينة بكل مبانيها التى تدير الرأس تثقل على قلب الرجل، وكان صخب سياراتها يسحق أعصابه، وكان هو يحاول أن يستمد العون من تفكيره الضعيف.

– ليه مش عاوزين يفهموا مشكلتى؟ ليه ما ادوهاش سرير عشان ارتاح؟

كانت صورة عينى المرضة ببريقها الأخاذ قد ارتسمت فى مخيلته، رن فى أذنه من جديد الكلام الذى قالته له:

– أديك شايف إن أحنا ما نقدرش نعمل حاجة، المرضى كتير، وبييجوا من غير عدد... يا ريت كنت اقدر اعمل لك حاجة!.

... يوم السبت عندما وصل إلى المدينة كان الوقت ساعة الشفق، فى الماضى البعيد – حين كان شابًا – كان يأتى إلى المدينة أحيانًا، غير أن المدينة هذه المرة اتخذت لنفسها شكلاً آخر؛ فالمبانى العالية تجذب بصره لأعلى، والمصابيح الملونة التى تنطفئ وتضاء من بعيد ومن قريب تثيره، وأكوام المشردين – الذين كانوا ممددين بجوار بعضهم البعض فى ذلك الوقت المبكر من الصباح وقد راحوا يغطون فى النوم – تبعث الأسى فى قلبه.

حين وصل الشيخ، وضع المرأة - التى كانت شبه ميتة على الأرض واستراح لحظة. وحين خبت المصابيح وشقت الشمس الضباب حمل المرأة على كتفه من جديد، وأخذ عنوان المستوصف.

كان الناس المسرعون ذوى الوجوه العابسة يلتفون حول بعضهم بعضاً، وكانت إجاباتهم القصيرة غير المفهومة تدير رأسه.

- المستوصف؟... روح بالأتوبيس...

- نمرة كام؟... ما اعرفش، اسأل العسكرى.

- روح بتاكسى أحسن...!.

وعندما وصل إلى المستوصف دخل فى جدال مع الحارس استغرق أكثر من ساعة وظل فى المستشفى حائراً إلى قبيل الظهر، وفى النهاية قالوا له ما يدفع إلى اليأس و....

كانت ركبتا الرجل تحملانه بصعوبة، والأرض تنزلق تحت قدميه، وعرقه يسيل وهو يحمل المرأة إلى هنا وهناك على ظهره الضعيف.

كان قد سمع أن الفقر والمرض أختان متلازمتان! مثلما تحط الذبابة على عين الأعمى، وترتطم الأحجار بالأبواب المغلقة، كان هذا هو ما سمعه، وها هو قد نال منه بشدة الآن؛ فذات ليلة، فى منتصف الليل نادت المرأة زوجها الشيخ وقالت له:

- مش عارفة يا أخويا ليه ظهرى بيوجعنى كده.

وفى اليوم التالى ألمت بها حمى شديدة، وأصيب جسدها من الخصر حتى قدميها بالخدر، وكان ما حدث؛ فمن يومها وهى لا تستطيع أن تتحرك.

راح الشيخ يفكر "أقول لمين؟" ثم أخذ يحدث نفسه:

- الولية الغلبانة دى عملت أيه فى دنيتها؟... وليه الأمراض دى بتجرى ورانا احنا الغلابة؟...

ترامى إلى سمعه أنين زوجته وهى تقول:

- أنا با اموت... يا اخويا، سامحنى...

فراح يواسيها قائلاً:

- ما تضعفيش كده، يا وليه اجمدى... إنتى بقيتى كده عشان ما أكلتيش. أنا ما با اقولش كده من عندى. الدكتور اللى فى المستشفى هو اللى قال كده... ها تبقى كويسة...

وهمس قائلاً:

- سامحنى يا رب، لو ما كدبتش عليها ها اعمل أيه؟.

ورفع صوته مرة أخرى:

- إنتى لازم تاكلى، لازم تاكلى فاكهة. إنتى مش لوحدك. أنا لسه عايش...

تأوهت المرأة. كانت قطرات العرق الكبيرة تجرى فى تجاعيد عنق الشيخ. لقد جاء إلى المدينة يوم السبت، وها هو يوم الثلاثاء، لقد أتعبته الأيام الأربعة من التشرد والحيرة.

رن صوت المؤذن فى الفضاء يقول "الله أكبر" فهمس الشيخ:

- "ربنا كبير، رب إبراهيم!" كانت قدماه تؤلمانه، وكأن فى حدقتيه وخز إبر، كان يتوق شوقًا إلى لحظة راحة.

كان كل شيء مختلطًا فى رأسه، ظل أشجار الصفصاف، مجرى الماء البارد، وجبة طعام، كوب من الشاى، ومرض زوجته الذى لا دواء له، وفكرة "يا ريتنى ما جيت".

كانت الشمس قد بعثت الدفء فى كل شيء تحتها، وصوت المؤذن يعلو من القبة الزرقاء اللون: "حى على خير العمل". والشيخ غارق فى عرقه، وأنفاسه تتلاحق بصعوبة.

انثنى فى داخل زقاق ووضع المرأة على الأرض بجوار الحائط فى ظل شتوى شبه دافئ، وجلس واستند على الجدار ومد قدميه، وعظام ظهره ورقبته تصرخ من الألم، ثم فك منديل الطعام وقال:

- الصبح كمان ما أكلتيش حاجة، لو مش هاتاكلى حاجة هاتموتى بكره، يا وليه أنا من غيرك ما أقدرش أعيش، واديكى شايفة محدش بيحس بحد، كل الناس مكشرة، وما بتسمعش غيرها. أنا مش عارف ليه الناس بقوا كده. الناس زمان كانوا بيحبوا بعض، لكن دلوقت زى ما يكون ما بقاش فى وشوشهم دم.

وضع الخبز البائت فى فمه، ولم تكن أسنانه العجوز قادرة على مضغه.

كانت المرأة ممددة على الأرض منهكة مكدودة، وقد أطبقت جفنيها، وشفتاها متشققتان، وعظام وجنتيها بارزة ولونها أصفر كالتبن.

انطبقت شفتا المرأة وهى تقول:

- خرجنى من جهنـــم دى، ودينى بيتى، نفسى لو ها امــوت؛ أموت هنـــاك... هنا.. لأ.. آه يا اخويا...

وانحشر الكلام فى حلقها، وبعد لحظة فتحت شفتيها من جديد، والصوت يتدحرج من أعماق حلقها ثم يُطعن فى ثنايا أسنانها وهى تقول:

- آه يا اخويا. أنا زودت هَمَك...

راح الراجل يواسيها بينما هو يائس عاجز - بكلمات لم تكن مقنعة بالنسبة له هو نفسه:

- يا وليه لازم تستحملى. ها تبقى كويسة، أنا عارف أنك ها تبقى كويسة! بالدوا بتاعنا.

حين حل الغروب؛ كان التعب قد زال قليـلاً، والغم يزيد أثقـــاله على قلبه أكثر مما كان فى النهار.

وكان نور المصابيح الكثيرة قد ابتلع المدينة بألوانه المختلفة والأصوات اختلطت ببعضها، وبدت السماء ملوثة بالدخان مغبرة.

ربط الرجل منديل الطعام على خصره، وركع أمام المرأة وحملها على كتفه بصعوبة، ووضع كف يده على ركبته الواهنة، وقام بمشقة وبدأ المسير.

حين انقضى من الليل جزء كان الرجل قد تخلص من المدينة وأهلها، وخرج النفس الذى كان محبوساً فى صدره مصحوبًا بصوت عال.

كان القمر قد لف الأرض بنوره الحنون، والأتوبيس المتهالك يتقدم على الطريق الترابى محدثًا جلبة وضجة، وقد تعلقت عين الشيخ بالسماء الصافية المليئة بالنجوم من خلف زجاج الأتوبيس، بينما راحت العجوز فى النوم واضعة رأسها على كتف زوجها.

تحـــت المطـــر

كان الجو مختنقًا منذ لحظات، وقد اتخذ لنفسه لونًا بين النور والعتمة، والشمس أطلت برأسها من بين السحاب شاحبة اللون. فبعثرت تكاثف السحب. وكان هناك منذ الليلة السابقة سيل من المطر الخريفي الشديد يوشك أن يهطل. وكانت صفحة السماء تبدو أحيانًا بلون القار، وأحيانًا بلون الرصاص وها هي الشمس قد خرجت من بين السحب، وبدأت نسائم عليلة في الهبوب راحت تدفع الأوراق الصفراء الجافة على الأرض.

عبر مراد الشارع بصعوبة واستند على الجدار المغطى بالجص، وغامت عينه وترامت إلى سمعه الأصوات وكأنها طنين النحل الذي يرفرف تحت الشرفة.

كان مقطوع الأنفاس، أسند ظهره على الجدار وجلس على الأرض بهدوء وبدا كل شيء له ذاهلاً و مختلطًا.

... في الصباح كان قد خرج من المقهى ببطن خاوية، وفي الليلة السابقة على ذلك كان قد حصل على رُبع العرق المجاني احتساه وحده دون أن يأكل شيئًا معه وانتشى بتأثيره لفترة وجيزة.

قسم نقل الدم، جدران من القرميد الأحمر اللون، بحليات من اللون الأسود، وأبواب بيضاء ذات ضلفة واحدة.

ربطوا حول ساعد أنبوب مطاطي.. شيش بيش... سرنجة.. دو ودو... سه وجوهار... و....

اختفت الشمس من جديد، وبللت الأرض زخات من المطر، بدأ الغروب يحل. كان الجور باردًا مؤذيًا.

كانت وجنتا مراد العظميتين تبدوان بارزتين، ويداه الواهنتان بجواره وشفتاه الجافتان تمتصان حبات المطر الصغيرة.

فى الصباح قام مراد من على أريكة المقهى وفى فمه مرارة، قام خامداً يائساً، وطوى البطانية الميرى وأودعها فى المخزن. ولف المنشفة البالية القذرة حول عنقه وخرج من المقهى و... بمجرد أن ظهرت الشمس للحظة عابرة حتى جلس القرفصاء بجوار الجدار القصير لقسم نقل الدم، جنباً إلى جنب مع الآخرين على كعبين قذرين، وانتظر كما ينتظر الآخرون. وسمع أحاديثهم.

– الكفرة! ودن الواحد بتْزن.

– بيسحبوا عصارة روح الواحد كويس... مش هِزار... كأنهم بيطلعوا كل السخونة اللى فى جسم الواحد.

– بداله بيدوا للواحد حاجة يمشى بيها نفسه يوم ولا اتنين، سبعين تومان، مبلغ مش قُلَيل! ينفع الواحد يشترى بيه أربعين رغيف "سنگك"(*) يشبعوا بطن كبيرة.

وترتعد الذقون المسحوبة، ويصطك الفك وتنساب الكلمات من بين الشفاه.

– مراتى قَرَّبت تولد... ليلة امبارح ما سابتنيش انعس خالص، قعدت تزن على ودانى أنى أروح... روح بكره... أبيع دمى مرة ثانية علشان أمورنا تمشى كام يوم، يمكن ربنا يفرجها... ربنا كبير... لكن تعرف إنى خايف أحسن ما يوافقوش، أنا أصلى من كام يوم كنت بعته مرة...

– وهما مالهم؟ أنت عاوز تبيع دمك...

كانت نظرة مراد تتابع الزهر الذى كان يتدحرج على الأرض بين الأشخاص الثلاثة إلى الناحية الأخرى قليلاً.

– شش بيش.

– سيبك منه! دلوقت ها اجيب لك سبعة مقفولة.

– جهار دو.

– حطه فى الكوز.

(*) سنگك: نوع من الخبز الإيرانى يخبز على الحجر.

والأيدى تضرب على الأفخاذ، والزهر يدور على الأرض.

- أخ، الكافر... هو ده النحس... ما عنديش ولا ذرة حظ.

- لو كان عندك حظ كان اسمك بقى سعد الله، ده احنا يا دوب بنحط راسنا ونموت.

كان مراد مكدودًا، مكدر المزاج، منهكًا من تأثير المشروب الذى تناوله فى الليلة السابقة.

غامت الشمس وتكاثفت السحب، ومالت السماء إلى السواد.

قام مراد، وسحب حذاءه من على الأرض وتقدم. لف البرد جسده وملأ السعال حلقه، وترقرقت عيناه بالدموع.

- انتوا مستنيين إيه يا جماعة؟

- الفلوس.

- الفلوس.

- أيوه طبعًا الفلوس. لما ينفتح هناك هانتحاسب...

وأشار بأصبع طويل إلى باب قسم نقل الدم.

- ... ها ينفتح بعد نص ساعة... إنت ها تبيع بكام؟

- زى ما هما عايزين.

- ما بيشتروش بأكثر من سبعين تومان... لو سحبوا أكثر الواحد يتعب.

- كويس... أنا كمان ها ابيع.

وجلس بجوارهم، وأدار الزَهر فى يده الباردة، ثم ألقاه على الأرض، وضرب على فخذه.

- لو خدت الفلوس كلها ها تبقى فلوس كثير... الأول ها اشترى جاكيت... والليلة آكل عشا ملوكى، واشرب قزازة عرقى، وآخر الليل اتسطل.

ودحرج الزهر على الأرض، وعبس وجه مراد، وقال "أى زهر ملعون!".

والتقط الزهر من على الأرض مرة ثانية.

- ده مش دورك.

- عارف... لكن انا عاوز أجرب دور تاني.

- لما الدور يوصل لك.

- عاوز أجربها تاني.

- لو عاوز تلعب، انا با اقول لك إن مفيش مغالطة فى لعبنا. إحنا زى ما أنت شايف، احنا بنرضى بأى حاجة. بنلعب وبعدين نتحاسب.. لو هاتغير رأيك قوم دلوقت.

ألقى مراد الزهر على الأرض بهدوء، وأحكم المنشفة حول عنقه وضغط قبضته بلدانة فخذه.

- جوهار، دو.

- الزهر الملعون.

- بقوا تلت تومانات.

- تومان.

ترامى إلى مسامعهم صوت الشاب الذى كان يجلس عابساً، وشعره مُصْفَّر اللون وعيناه غائرتين.

- أخ دى كمان بقت حكاية؟... الواحد بيلعب قمار على روحه؟.. يبيع دمه وبعدين يرمى فلوسه على الزهر؟... آه ما عندكوش دم!

كان مراد يفكر.

- لحد دلوقت ما خدتش حاجة... لكن لو خدتهم كلهم... آخ...

سرى البرد فى جسده، ولسع أذنيه. ثم أشرقت الشمس من جديد، ونثرت دفئها على المدينة.

عندما حل الغروب كان مراد راقداً على الأرض بجوار الجدار المطلى بالجص وقد ألصق وجنتيه بأرضية الرصيف الحجرية، وقد جمع ساقيه مضمومتين إلى بطنه، وراح يحاول أن يربط المسائل ببعضها فى ذهنه.

- النصيب؟... مش كده؟ كل واحدة قسمته مكتوبة على جبينه... هيه!... القسمة...! هو بس عاوز... عاوز... يمكن شكلي ما عجبوش. جبان... وقف قدامي وتَخّن صوته وقال لي يا فضولي يا رخم، إنت هنا في معسكر تشتغل وما تتدخلش في أي حاجة. إنت لازم تعرف جردل اللون والفرشاة...

تزاحمت أفكاره، كانت الذكريات البعيدة قد ضاعت إلى حد ما في ظلام الزمان، وقف التفكير، وحين فتح عينه وعرف نفسه، فهم أنه عاطل، لا دراسة ولا علم ولا مهنة.

- آخ! ياه على دي أيام، لما كان بييجي الربيع كنت با اروح الجنينة مع الأولاد، كان دايمًا بيعجبني لون زهرة الفول، الوادي كان كله من أوله لآخره مليان بالخضرة والورد. زهرة الفول، زهرة البابونج، زهرة البلوط، زهرة البنفسج... الباذنجان، الخس، الكرنب...

هزته زرقة جسد أبيه وحشرجة أنفاسه التي كانت تخرج من أعماق حلقه يصاحبها نزيف اللثة الذي كان يخرج من فمه. ضم ساقيه إلى بطنه أكثر من ذي قبل، وفتح عينه لحظة، وأغمضها مرة ثانية.

كان أبوه بستانيًا، وحان أجله وهو نائم في خيمة وسط حقل بطيخ ذات ليلة؛ فقبيل الصبح في الوقت الذي ينهض فيه ليبحث عن فأسه لدغه ثعبان في قدمه، إلى أن يجدوا بغلاً ويلقوا عليه بالبردعة ويحملوه عليه ليوصلوه إلى المدينة يكون السم قد فعل فعلته و...

كانت الريح شديدة وقطرات المطر أكبر، وكان الشارع خاليًا، مر بجانب مراد كلب ضخم لوثه الوحل. أضيئت المصابيح خلف النوافذ المواجهة واحدًا واحدًا ومال الزجاج المغبر إلى الصفرة كعيون المرضى التي فارقتها الدماء.

أخرج مراد يده من بين فخذيه بصعوبة، وسحب على رأسه المنشفة التي كان قد لفها على عنقه وشرد:

- كان وباء؟... طاعون؟... لأ، تيفود....

وأحس للحظة عابرة بثقل نعش أمه على كتفه، وتجسد رأس أمه المحلوق الشعر، ووجهها الشاحب وأنفها المسحوب ويديها النحيلتين الضعيفتين أمامه. دفن رأسه في المنشفة أكثر وقال:

- آخ... التيفود الملعون ده.. قتل أكثر أهل بلدنا... عم يوسف، وعباس البنا، وزرى بياع الفول، ونينه رحيم، وجدي منصور اللي كانوا بيقولوا أنه وقف أمام فرقة هندية من الجيش الإنجليزي برشاش واحد.. وزاير الفلاح وقاطع ابنه...

بللت الأمطار ملابسه، وتسلل الماء إلى جسده قطرات، وجرى البرد فى ظهره، وآلمه كتفه.

- القولون الملعون ده ما بيسيبنيش أبدًا... آخ، عساكر الأمريكان، آه، الظلمة...

وشرد فكره فى تلك الأوقات التى كان يعمل فيها عند الأمريكيين؛ كانوا يبنون مدينة سكنية، بيوتها كبيرة تمامًا كبيوت العسكر.

كان فى البداية فلاحًا، ثم صار نقاشًا، ثم أعجب أحد الأمريكيين بذكائه ومهارته فأخذه لينظف حجرته ويعمل له القهوة ويقوم بشئونه الأخرى.

- ما كانش بطال... كنت باشرب لبن علب، وآكل لبان، لكن لحم الخنزير، لأ! بيخلى الواحد ما عندوش غيره.. وأكتر حُرمانية من العرق...

آلمه خصره بشدة وارتعد:

- الملاعين... كانوا بيمرمطونى علشان علبة سجاير، كانوا بياخدوها بالميات وبيبيعوها فى البلد، ويشتروا بدالها فودكا، وبعدين يشربوا زى الحمير، وينسعروا زى الكلاب.. لكن أنا علشان علبة سجاير خايبة كانوا بيقلعونى هدومى ويرمونى فى الحوض، وأول ما أطلع راسى يضربونى بخشبة على دماغى. كانوا كلهم سكرانين وبيضحكوا زى المجانين، ولما ابقى شبه ميت كانوا بيخرجونى من الحوض و... من يومها... آخ... من يوميها وكتفى...

وآلمه كتفه من جديد، وما استريحتش منهم... وتجسد شكل الحوض أمامه.

- الدنيا كانت ربيع، وفيه يوم كانت شمسه حلوة من الأيام اللى الواحد فيها بيبقى نفسه يروح البرارى ويتمشى فى حتة كلها ورد وخضرة ويغنى... لكن أنا، كنت باموت فى الحوض، وما كانش فيه مخلوق يعرف ربنا علشان ينجدنى... اتفوا...

وفى غروب ذلك اليوم خرج من عند الأمريكيين، وفى اليوم التالى باع عين الجمل للبولنديين الذين كانوا يعيشون فى المعسكرات وخلف الأسلاك الشائكة فى مجتمعات جماعية، ثم تعرف بإحدى فتياتهم وأعطاها عين الجمل بلا مقابل، واستمتع برؤيتها لبعض الوقت، وتحدثا معًا بالإشارة والإيماء.

- أد أيه كانت عينيها جميلة، خضراء صافية، وشعرها الأصفر وصدرها الهزاز وبشرتها اللى بياضها مخلوط بحمرة الدم... كانت أيام حلوة...

ارتعد جسده بشدة، كانت السحب الحبلى بالأمطار فى حالة ولادة جاءت من الجنوب كتلة سوداء مرقت مندفعة وراحت تبتلع صفحة السماء لحظة بعد لحظة.

- اليوم ده اللى العربية الكبيرة داست فيه الراجل العجوز فى ميدان التمثال قدام كوبرى نهر كارون سفيد، واحمرت الأرض، والعربية هربت... والاتنين الأمريكان قعدوا يتخانقوا مع بعض ويشتموا بعض بسببها...

"الحكاية دى من كام سنة؟... من ١٨ سنة؟؟ عشرين؟... كانت هى دى الأيام اللى خرجت فيها من مدينة لمدينة لحد طهران المخروبة!... والجبان ده اللى كان فى الأسبوع اللى قبلها بيتخانق معايا وتخن صوته وقال لى: أنت فضولى رِخم، هنا معسكر لازم تطيع أوامر رئيس العمال.. ونسى أنه هو نفسه كان بيسرق الحديد الخردة بتاع الأمريكان... وكاوتشات العربيات... ودلوقت بقى رئيس عمال... فضولى رخم جاك عَمَى فى عينك!... ساعة واحدة بس استراحة. كده! هو كده هنا... تبقى مموجة وسمار. ولو كنت عامل كويس برضه فيه كلام. كل فرشة تدهنها لازم يبقى فيها موجة وسمار إنك علشان تعرفنى يبقى أنا لازم أوافق على كل حاجة؟... أنت عمرك ما عرفت تعمل أى حاجة... وأنت مالك إذا كان فيه ساعة أقل، الشغل عشر ساعات، ١١ ساعة... هو ده اللى حصل... وده مش اسمه قسمة... طردنى ما حيلتيش حاجة... كان نفسه... نفسه... الجبان!...."

فى الصباح كان قد خرج من المقهى خاوى البطن، وكان حلقه مرًا من أثر العرقى الذى شربه أمس، والجوع وألم السرنجة التى انغرست فى وريده، والزهر الذى تدحرج على الأرض، والسبعين تومانًا التى ضاعت من يده:

- الظالم، ملا القزازة مرتين، مرتين... ودانى زنت، ٥٢ و٥... إتفو... وأخينا، ورا بعض، ٧، ٧ ... وأنا... ما جبتوش مرة واحدة... كله سه ويك، ودو وجوهار، الله يلعن البخت....

كان الماء قد تقطر من المنشفة واستقر على وجنتيه، والريح هبت فجأة وبجنون، ولسعت الأمطار القوية الأرض بسوطها.

- البرد وجع قلبى.. دو، مع يك، وجوهار... مع دو.

كان زجاج النوافذ المواجهة يرتعد، والنهر الواقع على جانب الطريق يجرى بأقصى سرعة.

خمد المصباح خلف النوافذ، وسار اللون الأصفر الذى كان منعكسًا على أرضية الطريق، وجرت الريح والظلام، والوحدة فى عروق المدينة.

وراح قلب المدينة يخفق فى جنون، وضربات قلب مراد تنحو نحو البطء شيئًا شيئًا.

* * *

فـى الظـــلام

كانت حبات القمح توشك أن تنضج، ولون السنابل الأخضر بدأ يميل إلى الاصفرار.

كانت الريح تهب هادئة فتتلاعب بغيط القمح، فتنحنى السيقان الضعيفة، بينما السنابل تخفض رؤوسها لتتناجى معاً.

كان الصبح آخذاً فى الشروق، والشمس راحت تلون الأفق وتمزق ضباب الصباح برقة ونعومة وتأخذ ملامح البيوت الطينية فى التشكل.

كانت شريفة قد استيقظت متأخرة عن عادتها فقد أمضت الليل كله فى ألم وضيق. وها هى قد أشعلت النار فى التنور من جديد بمجرد شروق الشمس، وإن هى إلا لحظات وتعبئ المكان رائحة الخبز البيتى الطازج.

كانت شريفة تبدو منهكة، ولون وجنتيها أصابته البقع فصار كقشر الموز، وتحت عينيها هالتين من السواد. كانت تخبز الخبز وبطنها مرتفعة، لكى تذهب بعدها لتحلب البقر ثم تنظف تحت أقدامه، ثم تذهب لتحضر له العلف من غيط البرسيم.

... حين أشرقت الشمس على وجه جاسم فتح عينيه وجلس، وأيقظ صوته الأجش الأولاد الذين كانوا نائمين إلى جواره.

- شريفة!

انحرفت شريفة برأسها عن التنور، ونظرت إلى جاسم.

- ولعتى الفرن؟

- أيوه.

- يبقى لسه ما حلبتيش البقر؟

- أنا تعبانه يا جاسم.

نهض جاسم من الفراش وراح يرغى ويزبد.

– إنتى خلاص مش نافعة، لازم افكر فى ست ثانية.

كان جاسم يبدو فى الخامسة والأربعين، ذو هيكل عريض، وقامة ممدودة وشارب مرفوع، وبشرة وجهه لفحتها الشمس، وفى عينيه وريد أحمر.

مضى جاسم وجلس بجوار مجرى الماء وراح ينظر إلى غيط القمح الذى سوف يبدأ فى حصاده بعد أسبوعين.

كانت الشمس قد انتشرت واحتضنت الوادى تحت أشعتها، والسماء صافية كصفحة ناصعة.

تناول جاسم فطوره، ومسح شاربه، ثم لف سيجارة ودخنها، وبعد لحظة حين وجد أنه لا يجد ما يفعل؛ ذهب وجلس بجوار رجال القرية فى ظل جدار، وراح يصغى إلى أحاديثهم.

– الشيخ حمودى كان لما بيركب الحصان ويشد الركاب ويميل على رقبة الحصان ما بيبقى لوش نظير.

كان الرجال الجالسين القرفصاء يدخنون السجائر ويتحدثون معًا.

– ... ولما كان يمسك البندقية كان يقف قدام قبيلة... الله يرحمه!

– أما النساء فكن يعملن؛ نقلت شريفة الأبقار، وحملت الفأس، وبدأت فى تنظيف حظيرة الأبقار.

كانت تلبس شالاً أسود يصل إلى كعبها، وتثقل أرنبة أنفها بحلقة كبيرة.

كانت شريفة تشعر أن الطفل يتحرك فى بطنها، ويهتز... "من امبارح لحد دلوقت" أسندت الفأس على جدار الحظيرة وجلست تلتقط أنفاسها. كان حلقها جافًا، وتبددت رطوبة شفتيها.

كانت القرية ببيوتها الطينية المتنوعة، وحظائرها الكبيرة والصغيرة وأزقتها الضيقة الملتوية ممتدة تحت الشمس، وقد غطى سعف النخيل الكثيف الأرض الواسعة الواقعة جهة غرب القرية، ورسم صورته فى كبد السماء.

واصل الرجال حديثهم.

- لما وصلنا للمزار كان كل التعب راح من بدننا، وكأننا مش احنا اللى التعب كسرنا وعجننا، رؤية أثر قدم الإمام على الرخام بتريح روح الواحد... الجو جميل... والفاكهة كثيرة، لما وصلنا كانت الشمس طلعت والقبة ظهرت...

كان الرجال، شيوخًا و شبابًا بشيلانهم الملونة بلون زهور البقل وملابسهم المختلفة يصغون وقد بدا على وجوههم الشوق الذى كان يسكن قلوبهم.

كانت القبة الذهبية بتلمع تحت الشمس، والمنارات بتبرق...

وسالت الدموع من عيونهم جميعًا بلا إرادة.

- السلام عليك يا...

أمسكت شريفة بوهن طرف جوال واسع وسحبته على الأرض لكى تخرجه من المنزل وتنشره تحت أشعة الشمس حتى إذا ما جف استخدمته فى إشعال التنور ثم ربتت على الأبقار بكف يدها، وسقتهم الماء ثم ذهبت إلى التنور لكى تخرج ما به من رماد، ثم تذهب لتقوم بأمر طيورها.

رائحة البرسيم، والأعشاب الخضراء، ورائحة القمح شبه الناضج تملأ الهواء. والأولاد يلعبون تحت ظل النخيل، ويجرون وراء بعضهم بعضًا و... جاسم يحدث الرجال.

- مسكت رقبته، وخبطتها فى الحيطة، لو كانوا سابونى عليه كنت قتلته وقلت له إنى لو سمعت تانى أنه اتكلم عن ستات أو بنات حتتنا، ها اروح عليه بالليل وها اقطع رقبته من الوريد للوريد بالخنجر، راح لونه مخطوف وبقى زى لون التبن، وقعد يحلف ستين يمين ورا بعض أنه ما اتكلم.

وبرق الإعجاب فى عيون الرجال.

راحت الشمس تبتلع ظل الجدار رويدًا رويدًا، وتتقدم إلى الأمام، والرجال يجرجرون أنفسهم ناحية الجدار أكثر فأكثر.

قامت شريفة التى كانت قد انتهت لتوها من تنقية الأرز، وأشعلت النار تحت الإناء، لتقوم بعد ذلك وترتب الحجرة، وتعيد لها النظام، وتكنس الكليم.

أما الأطفال الذين كانوا قد تعبوا من اللعب فقد ذهبوا وجلسوا بجانب الرجال وتسمرت أعينهم على الرجال الذين كانوا يتحدثون مع بعضهم البعض ويدخنون السجائر و... كان الظل قد انحسر إلى الجدار واقترب الوقت من الظهيرة ونهض الرجال وذهبوا لتناول الغداء.

بعد أن غسلت شريفة الصحون بدأت تفكر فى الحطب، ورغم أن برارى الأشجار الجافة لم تكن بعيدة بدالها هذا الأمر صعبًا - ببطنها المملوءة -، ففكرت أن تسعى بكل وسيلة لكى يذهب جاسم إلى الغابة، ولكن صلابة جاسم واستدارة عينيه فى حدقتيها كانا يوقفان هذا الطلب فى حلقها، وكان "طالب" صغيرًا لا يصلح لهذا العمل، و "نعيمة"، و"نعيم" كانا أصغر من "طالب".

عندما حل العصر، حملت شريفة المنجل والفأس والحبل، وقالت لجاسم:

- الحطب خلص... أنا رايحة البرارى... بس...

قال جاسم الذى كان يمسك بالمبرد المثلث يسن به أسنان المنشار:

- بس أيه؟

- مفيش. أنا... متهيألى أن العيل بيتحرك فى بطنى.

توقف جاسم عن العمل، ونظر فى عين زوجته وقال:

- بيتحرك؟... هو انتى مش قلتى من خمس أيام أنه فاضل كمان عشرين يوم!

- قلت، بس... ساعات...

- ساعات أيه؟... إنتى مش شايفة أني باسن المنشار، أنا عاوز اعمل اتنين تلاتة...

سكتت المرأة، وسارت باتجاه البرارى.

كانت الشمس تميل ناحية الغرب، وظل النخل قد امتد على الطريق، ووقع أقدام شريفة يغوص فى التراب الناعم، وآثار قدميها باقية خلفها على مسافات غير عادية.

عندما اصفرت الشمس، التف الرجال من جديد وانشغلوا معًا، كان صوت الأبقار والعجول يُسْمَع متداخلاً، بينما يُسْمع من بعيد صوت الثعالب التى خرجت من جحورها مبكرًا.

- ... بعد الحصاد، لما اسدد دينى، لو فضل حاجة ها اروح الزيارة(*)، بس انتوا عارفين؛ لو كنا كذا واحد مع بعض ده يبقى أحسن...

- لازم "الإمام" يدعينا(**)... الحكاية مش بايدى ولا بايدك.

- لو كان فيه نصيب أنا كمان ها اروح.

- لما الواحد بيخرج من بيته قاصد الزيارة كأنه بيطلع له ريش... روحه بتبقى خفيفة... وقلبه يبقى متشوق دايمًا، لحد ما يحضن الضريح..

وعادوا يحكون عن الماضى من جديد قالوا إن: "الحاج كبريت" كان يصيب البيضة بالطلق النارى وهى على رأسى الرجل، وأن "الشيخ موسى" كان في الجرى فى سرعته، وأن "زاير على" كان يأكل ما يأكله أربعة أشخاص ويحصد ما يحصده ثمانية و...

عندما أظلمت الدنيا توقف صوت الأبقار، وابتعد عواء الثعالب، وجاء "طالب" بيدين ملوثتين بالتراب وعينين بهما رَمَس وشعر أشعث وقال:

- أبويا!

لم يرد جاسم الذى كان منفعلاً فى الحديث...

-... شفت خنزير برى بيقرب، وأنا كنت راقد فى حفرة وبادوس على الخشبة اللى فى إيدى. ولحسن الحظ أن القمر كان طالع وكان الواحد قادر يشوف...

قال "طالب" مرة ثانية:

- أبويا!

قال جاسم بعصبية:

- أيه؟... فيه أيه؟.

- أمى لسه ما جاتش.

صمت جاسم لحظة، ثم سأل:

- ما جاتش؟

(*) المقصود زيارة الأعتاب المقدسة فى مشهد أو كربلاء أو غيرها من أماكن الشيعة المقدسة.

(**) الإمام الرضا مثلما نقول "الحسين دعانى....".

وقام واتجه ناحية البيت.

- أيوه... صحيح... اتأخرت.

وأضاء "الكلوب"، وقال للأولاد:

- لو هاتخافوا تقعدوا لوحدكم روحوا بيت "زاير حامد"، وانا هاروح البرارى اشوف امكم ما جاتش ليه.

ذهب الأولاد إلى بيت "زاير حامد"، وأمسك جاسم الكلوب، وأخذ العصا من جوار حظيرة الأبقار التى كانت تخور، وسار ناحية البرارى حين وصل خلف النخيل، علا صوته:

- شه... ر... يفة!

بقى صوته معلقًا فى الهواء للحظات، ثم تردد صداه، وبعدها سكت.

- شه... ر... يفة!

ولم يسمع جوابًا.

عندما وصل إلى البرارى وقف لحظة، وشقت نظرته ظلام الغروب الباهت.

هبت ريح لطيفة.

كان صوت الصراصير يملأ المكان، وصوت كلاب القرية يترامى إلى سمعه متداخلاً مع بعضه. فكر:

- يمكن يكون فيه تعلب جعان قَرَب من القرية، ويمكن كمان...

وشق صياحه المكان من جديد.

- هييه... هييه... شه... ر... يفة...

ووسع أطراف الغابة سيرًا هنا وهناك.

كانت فروع الأشجار الجافة ملتفة ببعضها فلم تترك طريقًا يفضى إلى داخل البرارى. كان جاسم يعرف من أين تحضر شريفة الحطب، وكان يعرف أن أشجار الناحية الجنوبية قليلة الكثافة وقصيرة و... لمعت النجوم فى السماء وسيطر الظلام على المكان.

كان جاسم يقطع طرقات البرارى الضيقة الملتوية والمتداخلة معًا - وهو يصيح بشكل متتالى:

- شر... يفة.. شه... ر... يفة...

ويزيح أغصان الأشجار بالعصا، ويُدير المصباح فى كل مكان و.. هاجمت الهواجس المختلفة عقل جاسم:

- ... هنا مفيش حيوانات مفترسة... التعلب بيخاف من البنى آدم... طب أيه المصيبة اللى جرت لها؟... كانت بتقول أن العيل بيتحرك فى بطنها...

اصطدمت قدمه بفرع شجرة مخلوع، فاندفع للأمام، فاهتز المصباح، ثم هدأ مرة ثانية.

كان ظل قدمى جاسم منعكساً خلفه، وهو يفكر:

- ... يعنى ممكن؟ ده فاضل عشرين يوم. أنا ما اعرفش... من امبارح وهى كانت حالتها كده.

وصل إلى حيث توجد الأشجار القليلة الكثافة والأرض الواسعة وقال:

- هنا كمان ملهاش أثر.. يعنى أيه...

ووضع يده خلف أذنه، ونادى:

- شريفة... هييه... شر... ر... ى... فة.

وفجأة وقعت عينه على حزمة الحطب..، فتقدم مسرعًا. فرأى خيالاً أسود متكئًا على حزمة الحطب. رفع المصباح فبدا وجه شريفة فى النور الخافت، كانت تبدو ميتة ووجهها بلون الجص الأبيض.

مرت نظرة جاسم على ثوب شريفة فرأى بطنها وقد هبطت، وتحت قدميها على الأرض مولود عريان ملوث بالدماء ووجهه أزرق...

* * *

المواجهـــة

وصلت سيارة چيب رمادية ذات مظلة سوداء كبيرة ومستديرة تاركة خلفها الأرض المملوءة بقطع الأحجار الضخمة، محدثة ضوضاء شديدة واهتزازات عنيفة، بعد أن دارت حول التل المغطى بورود البنفسج.

تنفس السائق نفسًا عميقًا، وأخرج السيارة من الطريق الحجرى المتعرج، وحك ذقنه الخشنة غير المحلوقة، التى كان يغلب عليها البياض من أثر الغبار.

كان المهندس قد سحب قبعته ذات الحافة العريضة على جبهته، واستند على ظهر المقعد فى السيارة الچيب، وراح ينظر إلى الطريق.

كان المهندس ذا بشرة سمراء، وقامة قصيرة ونحيفة، وكان السائق يدخن السيجار ويهمهم هامسًا:

– علشان مرتب تلاتة مليم ما فيش فيهم بركة الواحد روحه تطلع، هضبة من أولها لآخرها مفيش فيها حتة أرض عِدْلة، كلها أنهار، وترع، وأرض محروثة، وأرض حجر... ده أنا هاتخنق.

راحت السيارة الچيب تزحف على الأرض وهى تثير خلفها التراب الناعم، فتدفن تحت الغبار بقايا الزراعات الصيفية الواقعة على جانبى الطريق.

كان الخريف قد بدأ، وقد هطلت الأمطار الغزيرة على الجبال العالية منذ يومين، واستمر هطولها يومًا وليلة، وراح نهر هليل. الذى كان ملوثًا بالأوحال – يهدر ثائر مسرعًا فى مجراه. والأبقار ترعى فى الأرض التى تم حصادها ولا زالت بها سيقان القطن الجافة والأعواد العارية، وكان الشيوخ والعجائز يجلسون القرفصاء فى الشمس بجوار البيوت المبنية بالطوب اللبن والحصير، وكان الشيوخ يدخنون النرجيلة والعجائز يغزلن الخيط.

عبرت السيارة الچيب الطريق الترابى بسرعة، ثم توقفت بعد قليل بجوار الأرض الواسعة التى تغطيها الأشجار القصيرة الضخمة والأعشاب الشوكية الكبيرة.

نزل المهندس من السيارة بهدوء، ورفع القبعة من على جبهته ووضع يديه فى خصره، ونظر بضيق إلى عمل الناس الذين يتزاحمون بين الأشجار القصيرة فى صمت، وبدا العبوس على وجه المهندس، وحدث نفسه قائلاً:

- لسه ما عملوش أى حاجة.. مش عارف، ويمكن كمان معاهم حق.

تكلم السائق - الذى كان متكئًا على عجلة القيادة يتثاءب - من أعماق حلقه.

- ده ما عندهمش أكل خالص... ده فى قرية "محمد آباد" ٣٢ عيلة متشردة... أول امبارح. فى وش الفجر عشرة فلاحين من شبانهم مشيوا مع بعض علشان يروحوا "بندر عباس"، يمكن يقدروا يروحوا قطر أو دبى أو الكويت... مش عارف، أهو أى مكان يقدروا يلاقوا فيه لقمة العيش.

جلس المهندس على كبوت الچيب ببرود، ووضع ساقًا فوق ساق، وأشعل سيجارة وراح يتلاعب بدخانها. نزل السائق من خلف عجلة القيادة، وسار وهو يتمطى، ودق بقبضته على صدره، وحدث نفسه قائلاً:

- شمس الخريف بعد برد الليل بتكيف الواحد، جسمى بيقشعر...

أخرج المهندس دخان السيجارة من بين شفتيه الرقيقتين الزرقاوين، ونظر إلى السائق بلا اهتمام وقال:

- هُما كده، كثير منهم بيقعدوا عاطلين، امبارح لما رحت "عنبر آباد" الخدام بتاعى كان بيقول لى كلامك ده. لكن أيه اللى ممكن يتعمل؟... لازم نمشى لقُدام. قدام! مش كده؟...

ترامى إلى السمع صوت حافر الحصان الذى كان يتلاشى فوق التراب. قام المهندس من على كبوت الچيب، ووضع قدميه اللذين كانا مفتوحين على الأرض ونظر حواليه، كان مقاول الأنفار على ظهر حصان فَتّى يتقدم ساحبًا الركاب، وارتعد الفلاحون - الذين كانوا يضيعون الوقت بين التلال - لسماع صوت حافر جواد مقاول الأنفار وأنصال البلطات الحادة التى كانت تشق الفضاء تبرق، والفروع التى كانت تسقط على الأرض متتالية كانت تحدث صوتًا.

ألقى المهندس بعقب السيجارة على الأرض وركله. سحب مقاول الأنفار لجام الحصان، وقفز من فوق ظهره.

كانت وجنتا مباشر العظميتين تبدوان بارزتين، وشاربه الأشيب الكث متهدلاً من الجانبين. افترت شفتا مقاول الأنفار الغليظتين الغامقتين عن ابتسامة، وسأل المهندس عن أحواله.

وضع المهندس يديه فى جيب سرواله الرمادى الضيق، وألصق ساعديه بكتفيه وتحدث بلطف وبكلمات محسوبة:

– مش بطال، بس... الشغل ماشى وحش، المفروض إن الجرار هاييجى أرضكم بكره، لكن بالطريقة دى مش ممكن. أنا شفت الجسر اللى انتوا بنيتوه النهاردة، ما يقدرش يتحمل، أنا واثق أنه مش ها يتحمل الجرار.

وارتفع حاجبا مقاول الأنفار، وتداخلت تقطيبات جبينه:

– ما يقدرش يتحمل؟... يعنى أيه؟... ده اتبنى بعشر نخلات.

هز المهندس رأسه بيأس.

– من الأصل مفيش أى أثر للنخل، كل الحكاية أنهم رموا أربع أو خمس أشجار صفصاف قديمة هلكانة على وش النهر، وملوا الفتحات اللى بينهم بشوية تراب وخشب مِكَسَّر – أنا ما جت ليش الجرأة أعدى بالچيب فوقه...

جرى الدم فى وجه مقاول الأنفار وسرت القشعريرة فى شفتيه، وقال:

– الجُبَنا ولاد المحروق ده أنا قعدت ساعتين افهمهم أنهم لازم يبنوه علشان الجرار لازم يعدى من على الجسر ده.. لأ والحيوانات... وضع المهندس قدمه على كبوت السيارة الچيب، وفك رباط الحذاء ذى الرقبة الطويلة، وأحكمه.

وبعد لحظة وقف معتدلاً واستمر يواصل حديثه:

– ... فيه حاجة كمان. لسه مفيش أى حاجة حصلت بخصوص طريق العربيات اللى كان مفروض يعملوه وسط المزارع. ممكن يحصل إن الجرار يعدى من هنا، لكن أنا كل يوم لازم أمُر، ولازم أجى بالعربية.

اتجهت نظرة مقاول الأنفار إلى الفلاحين الذين كانوا يضربون جذوع الأشجار بالبلطة ويقطعون الفروع بالفؤوس.

بدأ مقاول الأنفار فى الحديث وهو يحاول أن يخفى غضبه:

- إطمن يا باشمهندس، الطريق جاهز، ها يكون جاهز النهاردة المغرب، والجسر كمان ها يتبنى. وحضرتك بكره الصبح إدى الأمر على طول للجرار علشان ييجى وانت مِطَمن خالص.

- لكن أنا ما اظنش إن لحد النهاردة المغرب...

قاطع مقاول الأنفار كلام المهندس بأدب وقال:

- يا جناب الباشمهندس، أنا أوعدك!... كل حاجة ها تبقى تمام النهارده المغرب، ولو ما حصلش، أنا ها اتحمل كل الخسارة.

تململ المهندس، ثم سحب القبعة على جبهته، ودخل إلى السيارة. كانت الشمس قد ارتفعت فى السماء، فراح دفء المصباح المنعش يداعب صباح الخريف. وصوت الأبقار والعجول يُسْمَع فى كل مكان، بينما راح طائر لقلق كبير يرفرف بهدوء فوق عشه الذى بناه أعلى شجرة قديمة بدت جذورها بجوار النهر.

تابع المقاول للحظة ابتعاد الجيب، ثم ترك لجام الحصان، وعض بأسنانه على طرف شاربه، وهمس قائلاً:

- الحيوانات اللى ما عندهمش دم!

وتقدم ناحية الحقل بخطى ثابتة.

كان الفلاحون يسوون الأرض بمشقة، ويقتلعون الجذور، ويقطعون الأوراق والأغصان.

كانت عينا المقاول حمراوين، وكان فكاه يضغطان على بعضهما بشدة. حين وصل المقاول إلى الحقل، وقف، بينما راحت تفاحة آدم تعلو وتهبط فى حلقه. شاهد محاولة الفلاحين لبرهة قصيرة، ثم رن صوته الثابت بلهجة آمرة قائلاً:

- اسمعوا.

صمت صوت البلطات، وانسحبت الأنفاس فى الصدور، واستقرت النظرات على شفتى المقاول.

– ... طبعًا أنتم كنتوا بتلعبوا من امبارح لحد دلوقت، وإلا ماكانتش تسوية حتة أرض علشان تعدى عليها عربية چيب أخدت منكم كل الوقت ده. متهيأ لى إنكم محتاجين تنضربوا بالكرباج... ها؟... ولو كانت الحكاية كده فانتوا عارفين أن ما عنديش مانع...

وصمت، ثم أضاف بعد لحظة.

– ... طيب.. إنتوا ما بتتكلموش ليه؟... إنتوا بتبحلقوا فيه كده ليه؟... كلكم عارفين أن الطريق ده لازم يجهز، وعارفين عاوزين إيه ومش عاوزين إيه... الطريق ها يتعمل والجرار ها يدخل البلد وانتوا ها تشوفوا النتيجة... يبقى بتتلكعوا ليه... أنا متأكد أن التعامل معاكم بالكلام الحلو ما ينفعش... وحياة راس الغاليين لو ما خلصتوش لحد بالليل لأربطكم كلكم فى الشجر وأنزل فيكم ضرب بكل حتة حطب فى الغابة دى... وها افضل أضرب فيكم على رووسكم ووشكم لحد ما تورموا و تبقوا زى الخنزير الميت.

كانت الأنفاس قد انقطعت، والألوان قد مالت إلى الصفرة، وراحت الأيدى تضغط على البلطة.

تقدم مقاول الأنفار:

– مين فيكم اللى عمله؟

تقدم شيخ مُجعَدَ البشرة. بدت هيئته كأنها من الطوب اللبن المتهالك. رابطًا على رأسه خرقة سوداء، والدموع تقطر من عينيه وقال:

– أنا... و داد خدا و... على داد... و....

وبمجرد أن نطق بهذا التف سوط المقــاول الجلدى المجدول حــول عنقه، فاختنق الكلام فى حلقه.

قال له مقاول الأنفار:

– راجل خرفان... أنا مش قلت أن الجسر لازم يكون متين؟.... فين داد خدا؟

كان حاجب مقاول الأنفار الأيمن يتحرك بسرعة وبلا إرادة، وذقنه يرتعد من الغيظ.

تقدم داد خدا. شاحب اللون مرتعداً. وقد اصطكت أسنانه ببعضها، وأنفاسه تخرج بالكاد.

أمسك مقاول الأنفار بأذن داد خدا وجذبه، ثم صفعه على قفاه صفعة قوية وقال:

– يا ديوث يا عديم النخوة، نسيت لما جيت تبوس إيدى ورجلى علشان أسيبك تعيش هنا؟ نسيت أيه المصايب اللى نزلت على راسك وعلى راس مراتك وابنك فى "نصرت آباد" ونسيت إزاى هربت بالليل وأنت بتترعش زى الكلب المضروب، وكنت بتعيط زى اللى مات جوزها؟ ودلوقت عصيت وبقيت بارد، ها؟

أنا مش قلت أن الجسر لازم يبقى متين؟ فاكر أنك بالعمايل دى ها تمنع الجرار أنه ييجى؟... أنا با احلف أنك لو ما عملتش الجسر ده لحد المغرب؛ ها اقطع من لحمك اللى يخلى الناس يكتبوا عنك حكايات.. يللا... امشى... وخد معاك "كل مراد" و "امامقلى"... يللا، غور..

ثم ترك أذنه، وقذفه إلى الأمام بركلة قدم.

– لو كنتم بتشتغلوا بقلب كان زمانكم قلبتم الغابة كلها من امبارح لحد دلوقت... يللا اتحركوا! بدأت الفؤوس فى الحركة وتتابع العمل.

ضرب المقاول ضربة قوية وموجعة بين الفلاحين وهم يتحركون بالسوط الذى كان يلفه فى يده باستمرار كان جذر الشجرة العتيقة يشق الأرض، وقطرات العرق الكبيرة تجرى على وجنات الفلاحين المجعدة كالشلال، وكان طائر اللقلق لا يزال يحلق بهدوء فوق عشه.

راحت قمم الجبال العالية تزداد وضوحاً لحظة بعد لحظة، وراحت الشمس تمد رأسها من خلف الجبل بنعومة، فتثير الهضبة الرمادية اللون، وراح الظلام ينمحى وراحت الأشجار الملتفة التى كانت تبدو كخط مظلم تنفصل عن بعضها بعضاً وتتجسد. وريح لطيفة تهب فتصيب بالارتعاش سطح الأنهار الكثيرة – التى كانت تجرى فى جسد الهضبة الواسع كالشرايين. بين الفينة والفينة. كان السكون الهادئ فى وقت السحر يتبدد بصوت بقرة أو صهيل جواد ملأت رائحة الإناث أنفه و...

عندما ملأت الشمس المكان ظهر الجرار بصوته الهادر كأنه حيوان ضخم الجثة، كان صوت شفرات أدوات الحرث التى كانت تلمع تحت ضوء الشمس يصدر متداخلاً ببعضه.

أما سائق الجرار فكان يضع على عينيه نظارة سوداء ذراعيها من أربطة الجلد، ويغطى رأسه بقماشة زرقاء كاروهات.

كان الفلاحون عند سماعهم صوت الجرار يطلون برؤوسهم من الأكواخ، وبعد لحظة راحوا يضعون اللباد الصوفى فى أكتافهم ويسيرون وراء الجرار...

كان السائق الذى كان الغبار الناعم قد غطى رأسه وجسده - ينظر إلى الأمام مدققًا دون أن يلقى بالاً إلى الجموع التى كانت تسير حول الجرار وتزيد لحظة بعد لحظة؛ وهو يضغط بيديه على عجلة القيادة.

دار الجرار حول الحقل وتوقف على مقربة من الجسر، وأخرج السائق سيجارة من جيب ثوبه الأزرق، وأشعلها، ثم نزل من فوق الجرار حتى يفحص الجسر. كانت جذوع النخل الضخمة القوية ملقاه على سطح النهر الواسع، وثناياها مغطاة بقطع الأحجار الكبيرة والصغيرة. قاس السائق عرض الجسر بقدمه، ثم سأل الرجل الذى كان واقفًا بجواره:

- هو فاضل كتير على "شاپور آباد"؟

قال الفلاح ذو القامة النحيلة والذقن الجرداء:

- ليه هو انت عاوز تروح هناك؟

- أيوه يا أخ، المفروض أنى اروح هناك.

- هناك كلها أرض بور، الحرث ما يفيدش فيها.

- عارف يا أخ، علشان كده ربطت المحاريث الحامية، لازم الأرض اللى هناك تثمر.

- الله يبارك "أيش تعمل الماشطة فى الوش العكر". وبعدين هناك مفيش مُلاك أراضى، وبعدين الشركة بتاعتكم عاوزة تصلح الأرض اللى ملهاش لزمة. ربنا يخلى اللى عنده فى راسه عقل... أيوه يا أخ، أيوه... قريبة، شايف المبنى ده؟...

وأشار بطرف عصاه إلى المبنى الذى كان ظاهراً بوضوح، وواصل يقول:

- ... هناك قسم الشرطة.... شاپور آباد ورا القسم.

حَرَكَ السائق الجرار، وعبر الجسر بهدوء. تحركت الجموع وسارت خلف الجرار، وراح كلامهم المتداخل ببعضه يختفى مع ارتفاع صوت الجرار.

- النهاردة شاپور آباد، وبكره على آباد... وفى يوم تانى ييجى الدور على بلدنا.

- النصيبة دى ها تدور على الكل.

- يا ريتنا نقدر نروح المدينة... على الأقل.

- المدينة؟... أنا رحت... رُحت لما كنت مجند... دول بياكلوا البنى آدمين.

- ده احنا هناك لازم نموت. إحنا فلاحين، المدينة ما تنفعناش.

راح الأولاد يجرون أمام الجرار بشعور شعثاء وأقدام حافية وعصى قصيرة فى أيديهم وهم يتعجبون من هيبته.

- ده فيه قوة عشر ثيران.

- هررررر.

- أيه؟

- ده فيه كمان قوة أكتر من ثلاثين ثور.

- بتقول أيه.. ثور بابا دهقان، بجسمه التخين ده ورقبته الكبيرة.

- ثور بابا دهقان اللى خد انفلونزا... مش النهاردة ده بكره هايموت.

- لأ يا ابنى، دكتور الشركة جه وادى له حقنة.

- هى الحقنة دى ها تنفع؟

- طبعًا ها تنفع.

- تنفع؟... حصان العُمدة كان عيان، ودكتور الشركة جه وادى له حقنة، وتانى يوم الحصان مات.

كان الأولاد يتحدثون.

- با اقول لك أيه انت نفسك تبقى سواق جرار؟

- أنا نفسى ابقى زى ابن المقاول، واروح المدينة وادرس، آخ، فى اليوم اللى جه فيه البلد وكان راكب حصان أبوه الأشهب، ما شفتش الهدوم اللى كان لابسها كانت جميلة أد أيه.

- هييه... أيه الأحلام دى... إنت أبوك أجَرى.

- وهو المقاول أصله كان أيه؟

كان الجرار يزأر ويسحب جسده الحديدى الأصفر الضخم على الأرض.

مرت سيارة المهندس الچيب بجوار الجرار وهى تثير الغبار خلفها فى الجو وغبرت مقدمة الجرار. وما أن وصل المهندس إلى شاپور آباد حتى نزل من الچيب وجلس على الكبوت بهدوء ووضع ساقًا على ساق، وأشعل سيجارة وراح ينظر إلى الجرار الذى كان يدق الأرض وسط الجموع ويقترب من شاپور آباد.

تجمع فلاحو شاپور آباد حول سيارة المهندس الچيب، وطأطأوا رؤوسهم وهم يرسمون بالعصى التى كانت فى أيديهم. خطوطًا على الأرض بلا هدف. وكانت الشمس تتقلب فى صفحة السماء. كانت السماء صافية وبلا حركة وريح لطيفة تهب تصاحبها لسعة.

راح الفلاحون ينظرون إلى الجرار باليأس الذى سكن أرواحهم، ويفكرون فى الأبقار التى تبعثرت فى الصحراء بلا فائدة.

حين وصل الجرار إلى شاپور آباد توقف، ونزل السائق وتكلم مع المهندس ثم ذهب وحَرَّكَ الجرار مرة ثانية، ودار فى نهاية الأرض وولى مقدمته ناحية الشركة، وجذب مقود المحراث فاستقرت شفرات أسنانه الحادة على الأرض.

تقدم أحد الفلاحين وكان يضع على كتفه عباءة سوداء قديمة، وشعره أشعث أشيب قصير، واستند على العصا المنحوتة من خشب الشجر التى كان يمسكها فى يده، وتعلقت نظرته بنظرة المهندس.

ابتسم المهندس وقال:

- أيه يا محمد خان، عاجبك شغل الجرار؟

راح صوت محمد خان الأجش الذى يخرج من أعماق حلقه يتبدد فى ثنايا صدى الجرار القوى وهو يقول:

- الجرار ده بالنسبة لنا احنا الفلاحين وراه ميت مصيبة.

- يعنى أيه يا محمد خان، إنت ليه بتقول كده؟

- لما الجرار ده يحرث الأرض كلها فى بحر أسبوع، ولما الماكينة الملعونة اللى بترمى البذور اللى فى عنبر آباد دلوقت هى كمان ترمى البذور فى الأرض كلها فى يومين، يبقى أحنا شغلتنا أيه؟

- شغلتكم؟... انتوا ترتاحوا، خلاص ما بقاش فيه لزمة أنكم تحرثوا الأرض بالمحراث وبطلوع الروح... تعرف انتوا كده حالتكم ها تتحسن علشان المحصول ها يكتر.

- حالتنا ها تتحسن؟

كان الفلاحون قد التفوا حول المهندس. فكر المهندس لحظة حيث كان يريد أن يوضح لهم أحوالهم، أن يقول لهم ما هى مزايا الجرار وكيف أنه يؤثر فى مسألة الزراعة.

- خلاص واضح.

كان صوت الجرار يعلو حينًا ويخفت حينًا.

- واضح ازى يا با شمهندس.

كانت شفرات المحراث الحادة تشق الأرض كأنها قطعة جبن.

- ... الأرض دى لازم احنا نحرثها... ولازم احنا اللى نرمى البذرة، احنا اللى نحصد واحنا اللى ندرس.

- دلوقت شغلتكم الجرار بيعملها أحسن بكتير.

- طب وساعتها نصيبنا فى المحصول ها يبقى أيه؟

- هايدوه لكم.

- هُما مين؟

- المُلاك.

- يعنى أنت بتقول أن الملاك هايدونا نصيب واحنا ما اشتغلناش. ليه هُما الملاك مجانين علشان من ناحية يدفعوا فلوس لشركتكم علشان تحرث الأرض، ومن ناحية تانية كمان يدونا ساعة الحصاد نصيب من محصولهم؟ لينا احنا اللى طول الشتاء لازم نقعد مربعين أيدينا فى العشش، وما نشتغلش ونتقهر من الحزن.

نظر المهندس مندهشًا إلى وجه محمد خان الملفوف بالألم وقد تقاربت التجاعيد على جبينه من الحزن، وبرزت وجنتاه العريضتان، وعيناه الواسعتان تبدوان منطفئتين. وكان المزارعون قد ضيقوا الحلقة فى انتظار الرد الذى سيخرج من فم المهندس وقد تعلقت عيونهم به، تحدث المهندس فقال:

- طبعًا لما الجرار ها يدخل...

خبا صوت الجرار فقام المهندس من على كبوت السيارة الچيب ونظر إلى الجرار عبر رؤوس الفلاحين. بعد لحظة خرج من فتحة الشكمان دخان أسود كثيف، وانفجر صوت فى الفضاء، ثم انتظم. وضع المهندس يديه فى خصره وقال:

- طبعًا لما الجرار يدخل البلد فيه بعض الفلاحين ها يقعدوا عاطلين، لكن بعضهم ها يشتغل كمان. فى الرى مثلاً، فى تخزين المحصول وحاجات زى كده.

- ده صحيح يا باشمهندس... لكن الباقيين ها يعملوا أيه؟

- الباقيين؟... فى تربية البهايم، الطيور و... مش عارف.. فيه حاجات كتير زى دى ممكن تتعمل فى القرى... مثلاً ممكن واحد يربى حصان!... وشوية ممكن يروحوا المدينة... ممكن يلاقوا شغل هناك.

استقرت على شفاه الفلاحين ابتسامة ساخرة ممزوجة بعدم الاقتناع.

وكان الجرار يتحرك فى الأرض محدثًا صوتًا قويًا، وراح يقلب التربة الندية فى عمق الأرض ويترك خلفه خطوطًا متساوية.

قام المهندس لكى يتخلص من أسئلة الفلاحين، واتجه ناحية الأرض، وقاس عمق الخطوط التى صنعها الجرار فوجدها تقل قليلاً من أربعين سنتيمترًا، وكان يعرف أن ثلاثين سنتيمترًا كافية لزراعة القمح. عَدّلَ المهندس شوكة الجرار وجلس مكان السائق ودار فى الأرض عدة دورات. جلس الفلاحون القرفصاء وهم ينظرون إلى الأرض والجرار ويتحدثون معًا.

- لازم نفكر، ولاد محمد آباد تفرقوا. من كام يوم مشيوا مع بعض علشان يروحوا بندر عباس. فى أول الخريف سابوا ستاتهم وعيالهم جعانين وعريانين وما عندهمش جاز يولعوا بيه النار ومشيوا. وربنا اللى يعلم أيه المصيبة اللى حصلت لهم. هى الغربة فيها هزار؟

- لما الجرار ها يدخل البلد يبقى لازم نقرا الفاتحة على الفلاحين.

- ولازم نقرا الفاتحة كمان على العيال وأولاد الفلاحين.

- الحال ده مش ها ينفع... لازم نعمل حاجة.

- أيه اللى ممكن نعمله؟

- لازم صوتنا يعلا، العساكر زى...

- طب وها نمشى حياتنا إزاى؟ ها نعمل أيه فى النسوان والعيال؟

- ... وبعدين هما نفسهم عندهم نسوان وعيال.

- الله يرحم أبوك!

خرج المهندس من الأرض المحروثة، وفحص خزان البنزين وكان لا يزال مملوءًا حتى المنتصف، ثم قال للسائق:

- ابقى افتكر بكره نجيب معانا برميل جازولين، تقريبًا فيه جازولين يكفى نصرت آباد وعزبة المُلا الليلة دى بس وبعد الظهر أنا عندى شغل فى الإدارة. انت لازم تجيب بنزين.

جلس المهندس خلف عجلة القيادة، ولف السائق من أمام السيارة وجلس بجانب المهندس وأشعل سيجارة.

دار موتور الجيب فانشق الزحام، وبعد لحظة غطى الغبار الأبيض فضاء المكان على امتداد الطريق الترابى.

أمضى الفلاحون فى شاپور آباد شتاء قاسيًا؛ فقد امتنع "پيله ور" الذى كان يعرف أن الجرار سوف يحرث الأرض، وأن ماكينة الحصاد هى التى سوف تجمع المحصول - عن بيع السكر والشاى والدخان " شُكُكْ " للفلاحين.

وانقضى الشتاء بطيئًا وقاسيًا، ودخل الربيع، وغطت النباتات البرية سطح الهضبة، وزينت المكان زهور "كاوزبان"(*) البنفسجية، وزهور "تاتوره هاى شيپورى"(**) البيضاء.

(*) كاوزبان: نوع من النباتات البرية له زهور حمراء تميل إلى اللون البنفسجى، تعرف بـ لسان الثور، ويستخدم فى علاج بعض الأمراض كالسعال.

(**) تاتوره هاى شيپورى: نبات برى ارتفاعه بين ٨٠ و ١٠٠ سنتيمتر، وله رائحة قوية وغير مستحبة وأوراقه عريضة ومدببة ويعرف بنبات الداتوره.

و"پامچالها"(*) الصفراء البرية، والأعشاب الخضراء، وأطلت زهور "قاصد"(**) ذات اللون الذهبى برؤوسها على جانبى الطرق الضيقة التى يمر عليها الناس.

كان الوقت فى أوائل شهر مايو، والطقس يميل إلى الحرارة، وحبات القمح قد نضجت وكانت حقول "شاپور آباد" تبدو كثيفة أكثر من أى عام سبق، وسنابل القمح الذهبية تتناجى مع همس الريح وتتراقص.

كان صاحب الأرض قد أعطى مقاول الأنفار وعداً قاطعاً بأن يعطيه جواداً عربياً أصيلاً، وطاقماً من حلة وسروال، وشالاً وعمامة، ومحصول عام لخمسة أشجار برتقال عمرها ثمانية أعوام إذا أثمرت آخر العام المقبل قطعة الأرض البور التى تقع خلف حديقة البرتقال.

وحل بسرعة شهر يونيو وبدأ موسم الحصاد.

- بكرة ماكينة الحصاد جايه، وبيقولوا إنها هى اللى بتدرِّى، وبتنظف، وتعبى فى الأشولة.

كانت الشمس تسحب ثوبها الباهت وتغوص فى الغرب بنعومة ورقة. وكان المفروض أن تأتى ماكينة الحصاد فى اليوم التالى إلى شاپور آباد لجنى المحصول. وكان الفلاحون جالسين ملتفين حول بعضهم بعضاً بجوار نهر ماء عذب يجرى بأمواجه الهادئة فى مجراه وقد أضناهم برد الشتاء القاسى والجوع، وراحوا يتحدثون:

- ... معقول ده ممكن؟ ينفع ينفصل القمح عن التبن من غير ما تدريه بالشوكة.

- يا أخويا كل شىء ممكن فى الدنيا دى. والأغنياء يقدروا يعملوا كل حاجة. أما احنا الفقراء الغلابة فعاملين زى خرفان الضحية يدبحونا فى المياتم وفى الأفراح.

قال محمد خان الذى كان متكئاً على فرع شجرة.

- زمان كان جنى المحصول ودراية القمح وتعبيـة الأشولة ياخـد على الأقل شهرين. وكنا فى المدة دى بنلاقى العيش لنفسنا والتبن لبهايمنا، لكن دلوقت ماكينة الجنى ها تعمل الحكاية دى فى ٣ أيام.

(*) پامچال: نبات برى صغير وأوراقه عريضة ينتشر على سطح المكان، ويخرج من وسط أوراقه سيقان خضراء تنتهى بزهور.

(**) قاصد: نبات برى يعرف باسم " أسنان الأسد " وروده صفراء جميلة.

- يمكن ما نقدرش نعمل حاجة، لكن أنا متهيأ لى أن احنا لازم نحرق ماكينة الجنى.

- وأيه الفايدة يا اخويا، ما اهم ها يجيبوا غيرها، وصاحب الأرض مش ها يتأذى فى حاجة.

- طب ولو حرقنا الغيط؟

- ها يولع فى عيشتنا كلها. حتى لو كانت بيوتنا بالطين برضه ها يعمل حاجة.

كان الشاب القوى الذى كان جيب ثوبه مفتوحًا حتى صرته يبث شكواه بصوت ملأه الحزن فقال:

- أنا خلاص بعد بنتى ما بقيتش با احب الدنيا، كنت زمان باحب سيدى واحترمه، لكن من بعد اليوم اللى كانت الدنيا بتمطر فيه واللى جريت فيه لحد المدينة واترجيته علشان يعمل حاجة علشان بنتى وما عملش بقيت اكرهه... هو اللى قتل بنتى... ايوه... سيدنا هو اللى قتلها!... بعت الجيب الملعونة علشان خاطر تجيب الدكتور لمرات العمدة من الوحدة الصحية بتاعت عنبر آباد، لكن بنتى أنا ملهاش لزمة... الليلة دى ها احرق الأرض، وخلى العشش كلها تتحرق كمان. أيه فايدة العشش دى؟ لما نجوع يبقى أيه فايدتها، بيت الواحد هو المكان اللى له فيه شغل وعيشة ومن غير كده يبقى شاپور آباد ولا حتى غارة فى جبال بارز ما يفرقوش عن بعض أبدًا.

- الحريقة دى جريمة، البنى آدم اللى يعرف ربنا ما يولعش النار، لازم نفكر فى حاجة تانية.

وتكلم محمد خان مرة ثانية فقال:

- ما أنا بقى لى كام شهر با قول أن احنا لازم نشوف لنا حل فى عيشتنا. الواحد لازم يا إما يبقى كبش وينطح يا إما يبقى نعجة ويهز ذيله... لكن احنا لا كبش ولا نعجة. وحتى لو كنا نعجة ملناش ديل.. بقنا مفتوح زى البلاعة علشان الرزق. لكن صاحب الأرض ما بيفكرش فى الحاجات دى، واحنا مش مراته متعلقين فى رقبته. احنا شوية فلاحين غلابة حتى الفلاحة خدها مننا. ومفيش حد يسمعنا كمان.

كان الظلام يسود المكان والنجوم تلمع فى السماء، وراح محمد خان يواصل حديثه:

- أنا عقلى مش قادر يفكر فى حاجة غير أننا بعد الماكينة ما تخلص الجنى، ولما الغيط يتْدَرَى والتبن يتفصل نفتح مية الترعة تحت القمح ونفك كل أشولة القمح ونرميه فى الترعة.

... وانعقد الكلام على الألسن وراح اليأس ينشب مخالبه وأسنانه فى النفوس والعصيان ينمو فى القلوب ويثمر.

كانت الحرارة والرطوبة قد جعلت الجو خانقًا، وراحت النجوم المتباطئة الأخيرة تموت فى ظل الصبح الذى يشرق. والفلق يتنفس فى الشرق ولون النور يغطى الهضبة شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى المدينة بعد منتصف الليل بقليل أسرع المقاول بفرسه الشابة وهو يضربها بالسوط، وحين بدأ الليل فى الرحيل كانت سيارتا جيب خضراوين تسحقان قطع الأحجار وهما تمران خلف بعضهما، وتعبران القنوات وتتجهان مسرعتين إلى شابور آباد.

وقفت سيارتا الجيب عندما وصلتا إلى بيوت الطوب اللبن، وخرج صاحب الأرض والمقاول والخفراء التابعون لصاحب الأرض من السيارتين مسرعين. التف الخفراء حول صاحب الأرض والبنادق على أكتافهم وأحزمة الطلقات معلقة فى خصورهم، وهم ينتظرون صدور الأوامر.

كان صاحب الأرض غاضبًا بشدة؛ شعره أشعث وحالته مرتبكة، وأزرار سرواله الرمادى مفتوحة.

أما مقاول الأنفار فكان يرتجف من شدة الغضب، وعيناه الواسعتان تطرفان باستمرار، وحاجبه الأيمن يتحرك بلا إرادة وشفتاه زرقاوان.

كان صاحب الأرض يجر جسده الثمين الكثير اللحم على ساقيه القصيرين ويتحرك فى المكان والكلمات تنهمر من فمه متناثرة متقطعة.

– النسوان... التافهين... فاكرين أن مفيش حكومة، مفيش قانون، فاكرين الدنيا سايبة، فاكرين أن كل واحد لازم يعمل اللى على كيفه،... اتفو على الأغبياء! الخنازير... الكلاب!... انا ها انزل البلا على روسهم ها اخليهم يتمنوا الموت.

كان لُغْده يعلو ويهبط مع أنفاسه، ومقاول الأنفار والخفراء يسيرون وراءه غاضبين حانقين.

رفع المالك أكمام ثوبه الأبيض حتى ساعده فظهرت يداه المليئتان بالشعر المبللتان بالعرق.

- إيجار الجرار، والماكينة اللى بترمى البذور، وماكينة الجنى... هه... هه... كله راح هدر! سنة بحالها وكل المصاريف دى محصول سنة بحالها راح هدر! واتجه ناحية العشش، وطرقع السوط فى الهواء، ونادى مقاول الأنفار.

- ما تتلكعوش، اخرجوا كلكم من العشش واترصوا وروحوا جنب جدار الجنينة. لازم أعرف مين اللى حرض على الحكاية دى. لازم الاقيه. وصلت بيه الجرأة لحد أنه يرمى المحصول بتاعى فى الميه.. منين جت له الجرأة دى؟

وهجم الخفراء بعدوان ووحشية على البيوت، وبعد لحظة خرج الفلاحون حفاة برؤوس عارية وخرج أحدهم عار، خرجوا هم خائفين من داخل البيوت. كان الأطفال يرتعدون كالكتاكيت، والنساء يصرخن، والرجال يشتمون بصوت خفيض. وكان الخفراء يدفعون الجميع إلى الأمام ركلاً وضرباً بكعوب بنادقهم. تقدم مير محمد - رئيس مجموعة الخفراء صاحب القامة القصيرة والبنيان القوى، والذى كان به تحت عينه اليمنى أثر جرح قديم، ناحية صاحب الأرض بخطى صغيرة وثابتة، وقال بصوت أجش:

- با احلفك يا سيدى براس جنابك المباركة أنك تسمح لى انى..

قاطع صاحب الأرض حديثه قائلاً:

- أنا اعرف اعمل ده أحسن منك، أنت بس وديهم قدام جدار الجنينة.

كان النساء قد اختلطن بالرجال والأطفال، بينما راح محمد خان يزأر هامسًا بوجه غاضب حانق وهو يقول:

- الملاعين ما بيعاملوش الخرفان كده.

كان اعتراض الناس يتبدد مع ضربات كعوب البنادق.

- يللا قوام... جنب جدار الجنينة... اتحركوا وإلا ها نخرمكم بالبنادق.

- انت يا حيوان، رايح فين؟... من هنا... هنا... جنب جدار الجنينة.

كان صاحب الأرض يتقدم نحو جدار الحديقة بخطى ثقيلة، وهو يلعب بسوط مصنوع من ذيل بقرة ويتحدث مع مقاول الأنفار.

– لازم تخليهم يقرُوا. احرقهم. حط فى حلقهم نفط مولع، اضربهم بالكرباج. ولع فيه بجاز... أحرقهم بالشمع مثلاً، بالنار... مش عارف... اعمل كل اللى تقدر عليه... لازم اعرف مين اللى ورا الحكاية دى... لازم اللى عملها يتمسك وإلا... مش ها اخلى ولا واحد فيهم على وش الدنيا من هنا لبكره.

كان مقاول الأنفار يمضغ شاربه الأشيب وحاجبه الأيمن يهتز لأعلى ولأسفل:

– أمرك يا سيدنا أمرك. فى مسافة نص ساعة ها نلاقى الفاعل الأصلى، مقدار ما ها اعد صوابع ايديا ها اكون لقيت اللى ورا الحكاية مين... أنا شاكك فى خمس، ست انفار... متهيأ لى...

عاد المالك مسرعًا، ونظر محملقًا فى عينىَّ مقاول الأنفار.

– شاكك؟!... فى مين؟

– فى على ناز يا سيدنا، وداد خدا، وميرشكار، وخان بابا كمان، وقلبى مش مطمن من ناحية محمد خان.

زأر المالك من بين أسنانه:

– هاه... على ناز... داد خداد... مير شكار... رووسهم ملهاش لزمة فوق جتتهم... بابا خان... محمد خان... جنسهم أيه دول؟ لو حطيت أيدك اللى مدهونة بالعسل لحد كوعك فى بُق الناس ييجى عليك يوم يقطعوا راسك.

كانت الشمس قد أشرقت وشقت الضباب وجففت حرارة الصبح الممزوجة بالرطوبة وأغرقت الهضبة بنورها.

وأفسحت الحركة مكانها للسكون والرعب وخرست الأصوات، كان الرجال متكئون على جدار الحديقة فى انتظار العذاب والألوان شاحبة والعيون غائرة فى مآقيها من الخوف، والأطفال ينظرون إلى صاحب الأرض بأفواه فاغرة وأجساد ترتجف، وصاحب الأرض ينظر إليهم جميعًا بفم مطبق ويداه فى خصره، وهدوء مرعب مهلك.

أما النساء فكن خائفات فزعات وقد ألصقن الرُضع على صدورهن وحبسن أنفاسهن فى حلوقهن، وكان الخفراء ملتفين فى شكل نصف دائرة خلف صاحب الأرض فى حالة استعداد، وكان مقاول الأنفار يتحرك فى مكانه فى حالة غضب لا يجدى معه أى مسكن.

مرت لحظات بطيئة قاسية، وفجأة انفجرت شفتا صاحب الأرض المطبقتان، ودوى صوته الأجش الذى كان يخرج من حلقه فقال:

– لو عقلتم، مش ها اعمل لكم حاجة، ولو عاوزين تتجننوا يبقى ها ارمل نسوانكم. اسمعوا كلامى كويس. أنا ما عنديش صبر ولا مزاج علشان اتكلم كتير، انتوا عارفين أنى مش راجل رغاى، أنا عاوز اعرف بس مين فيكم اللى حرض على الحكاية دى، بس!... كلمة واحدة تقولوها وتريحوا نفسكم.

كانت الأنفاس مقطوعة والشفاه متشققة والصدور تعلو وتهبط بالكاد. ألقى الصمت بظله الثقيل على المكان لفترة وجيزة، ثم تقدم صاحب الأرض وواصل كلامه قائلاً:

– ما بتتكلموش؟... خايفين؟... اللى ها يتكلم اوعده انى هاحميه، وها اوفر له كل اللى هو محتاج له... ادى له كلمة شرف.

مرت لحظات بطيئة، ولم تتحرك الشفاه وكأنها قد أقفلت بأقفال، وراحت الأسنان تصطك غيظًا تحت جلد الوجنات الجاف.

ومرة ثانية تكلم صاحب الأرض بنعومة مصطنعة:

– قلت أنى با ادى له كلمة شرف. مش واثقين فى كلمتى ولا فى شرفى؟... خايفين طبعًا؟...

واتجه ناحية الرجال الذين كانوا قد اصطفوا فى صفين متقاربين وقال:

– انتوا بقى اللى جت لكم الجرأة دى علشان ترموا محصولى بتاع السنة كلها فى المية، امال ازاى بقيتوا جبنا بالشكل ده دلوقت؟

وحملق فى عينى واحد من الفلاحين كان ذو ذقن رفيعة وجسد هزيل وقال:

– اتكلم يا صفر على. خليك شجاع. أهل الصحرا شجعان... مش هاتقول حاجة؟... وانت يا امامقلى؟... انت كنت راجل عاقل... إيه اللى سكتك دلوقت؟

نظرت العيون للأرض. كان الصمت يعذب صاحب الأرض، وفجأة قفز الدم إلى وجهه وصرخ فيهم:

– أيه اتخرستوا؟... مقاول الأنفار!

واتجه ناحية مقاول الأنفار قاسيًا ثقيلاً وصوته يرتعد من شدة الغضب، ولعابه يخرج متطايرًا من فمه مع خروج الكلمات:

– روح الزريبة وهات الحصان العربى الجامد وتعال. وما تنساش الحبل... أنا ما عنديش كيف للدلع. دول لازم يتكلموا بالكرباج ولاد المحروق فاكرين انهم يقدروا يتحملوا أى حاجة... يللا اتحرك.

واشعل سيجارة بيد ترتعش، وازدرد دخانها وراح يكلم نفسه:

الراجل العاقل المحترم ما ينفعش معاهم. لازم الواحد يكون سافل زيهم وابن محروق ولئيم.

راح يأخذ نفسًا من السيجارة ويخرج دخانها الرمادى اللون ويقول:

– با افكركم أن الحكاية أفظع من كده بكتير... أولاد المحروق.. أولاد القحبة فاكرين أنى ها اخاف من الفرقعة... ده انا ها امرغ مناخيركم فى التراب لحد ما تشوفوا الويل.

راح يبتلع دخان السجائر واحدة وراء واحدة ويزأر.

وصل مقاول الأنفار بالحصان فدوى صوت صاحب الأرض.

– على ناز.

خفقت القلوب وشحبت الوجوه.

تقدم على ناز بصدره العريض وساعديه القويين وشاربه المتهدل فزعًا مرعوبًا بينما ينظر تحت قدميه. كان حافى القدمين تتابعه نظرات الفلاحين الحزينة أمسك صاحب الأرض بذقن على ناز، ورفع رأسه ونظر فى عينيه مباشرة وعلى شفتيه ابتسامة مسمومة.

– على ناز، ركز معايا، عاوزك تفهم أنا باقول أيه.

كان صوت صاحب الأرض محمومًا.

– أنا عارف انك على علم بالموضوع، عارف أنك أنت تعرف مين هما اللى عملوا الحكاية دى. فكر كويس، فكر كبنى آدم بيفهم، لو عاوز أولادك ما يتيتموش. جاوب صح، وإلا فانا ها اقوم معاك بالواجب الأول وبعدين ها ابعتك النُقطة، وها اسود عيشتك.

وضع على ناز يديه خلف رأسه وراح ينظر إلى وجه صاحب الأرض السمين ببرود وغضب.

استمر المالك يقول:

- قول مين رئيسكم. مين اللى علمكم تعملوا الحاجات دى؟

لم يفتح على ناز فمه، وراح يلعب بأصابعه الغليظة ويطرقعها وهو ينظر مباشرة فى عينى صاحب الأرض.

- اتكلم يا "على ناز"، شايف الحصان والحبل، ليه عاوز ترمى نفسك فى العذاب، ليه عاوز تبهدل مراتك وعيالك؟

كان صمت على ناز مؤلمًا ومضنيًا بالنسبة لصاحب الأرض.

- مش عاوز تقول حاجة؟... انت أكيد حلفت ما تقولش؟... لكن انا بقى ها اطلع الكلام من حلقك.

ونادى مقاول الأنفار.

- مقاول الأنفار... قول لواحد ولا اتنين من الغفر ييجوا يساعدوا واربطوا ايدين البغل ده.

خرج صوت مير محمد وقال:

- ساعدونى يا اولاد.

وأسرع هو قبل الجميع وربطوا يدى على ناز بإحكام وعقدوا بداية الحبل فى سرج الحصان. وقفز مقاول الأنفار إلى ظهر الحصان ووكزه وتحرك الحصان العنيد، وسحب خلفه على ناز.

وضع صاحب الأرض يده اليمنى فى خصره وضرب بيده اليسرى على رجل سرواله الرمادى ضربات متتالية بالسوط المصنوع من ذيل البقرة.

كان الحصان يجرى مسرعًا أمام العشش، وعلى ناز يجرى خلفه بخطوات واسعة.

علا صوت صاحب الأرض.

- إبسطه بالكرباج.

وقف مقاول الأنفار الذى كان جالساً مستقراً على السرج - مستنداً على الركاب وأدار الكرباج عاليًا ثم هوى به على عنق على ناز.

اهتز الفلاحون الذين كانوا ملتفين حول بعضهم أمام جدار الحديقة، وتقدمت زوجة على ناز مولولة، والقت ابنها الصغير تحت قدمى المالك وقالت باكية نائحة:

- ارحم العيل ده يا سيدى. والله جوزى ما يعرف حاجة.

ابتسم صاحب الأرض وقال:

- أرحم العيل ده؟ جوزك هو اللى لازم يرحم. أنا عارف كويس أنه يعرف كل حاجة، لكنه مش عاوز يقول. بس هو ها يتكلم بعد كام دقيقة.

كان مقاول الأنفار يضرب على ناز ضربات متتالية بالسوط على وجهه ورقبته، وعلى ناز يُجَرُّ وراء الحصان وقد ازرقت رقبته ووجنتاه.

كان الغضب يمضغ كيان الفلاحين، وقد انقبضت كفوفهم واصطكت أسنانهم بقوة وراحوا يتابعون بعيونهم حركة الحصان وعلى ناز. أما زوجة على ناز فكانت عيناها تهدران كنبعى ماء ونواحها ينخفض لحظة بعد لحظة ويختنق فى حلقها.

تبددت القوة من ركبتى على ناز وانقطعت أنفاسه وتورمت ركبتاه ووجنتاه بينما الحصان القوى يجرى للأمام والسوط يلف فى الهواء مصفراً ثم... ركع على ناز على ركبتيه، وبعد لحظة سقط على الأرض ممدداً على صدره، وراح يُسحَبَ على الأشواك والأحجار وراء الحصان.

رفع صاحب الأرض السوط، فجذب مقاول الأنفار لجام الحصان، وعلا صوت صاحب الأرض وقال:

- فكه... وارميه قدام العشش.

ووقف فى مواجهة الفلاحين.

- طيب! برضه مش ها تتكلموا! مش عاوزين تعقلوا. اللى عاوز يتكلم يطلع قدام.

لم يتحرك أحد، كان الجميع يتململون فى أماكنهم والغضب يشتعل فى كيانهم والغيظ يجعل الدم يغلى فى عروقهم.

- كويس قوى! نكمل الحكاية.. مير شكار.

لم يتقدم أحد.. صاح صاحب الأرض بجنون:

- قلت مير شكار.

تقدم مير شكار وهو يضغط على عصاه الخشبية الغليظة.

- تعال هنا... قَدم كمان... بتترعش ليه... إنت اللى بتفرق بعصايتك الخشب عشر خنازير برية... ها... قَرَب...

تقدم مير شكار ووقف فى مواجهة صاحب الأرض. رفع صاحب الأرض يده ورفع طرف السوط على كتف مير شكار وتحدث بهدوء:

- يمكن تكون أخذت عبرة. أنا ما افتكرش أن على ناز ها يفوق لمدة عشر أيام. وأنت عارف أنك ما تفرقش عن على ناز أى حاجة بالنسبة لى، وأنت عارف أن عندى مقدرة اعمل فيكم اللى أنا عاوزه. فلو قلت زى أى بنى آدم عاقل. مين اللى ورا الحكاية دى؛ ها تريح نفسك وها تريح الباقيين كمان. انفرجت شفتا مير شكار عن بعضهما. كان صوته مختنقًا.

- أنا... ما اعرفش حاجة.

- لكن أنا عارف أنك تعرف.

- لا... الحكاية مش كده.

- بَطَل استهبال.

- لو كنت عارف كنت قلت.

- يبقى مش عاوز تقول حاجة؟

- أنا ما اعرفش.

حملق صاحب الأرض فى عينىّ مير شكار، وبعد لحظة قال بنغمة تدل على الانكسار والأسف.

- ماشى... ما تقولش.

وعاد ونظر إلى مقاول الأنفار وقال بسخرية.

- مباشر.. مير شكار له شنب رجولى كده، كثيف وخشن.

- أيوه يا سيدنا.

- كويس قوى، طيب ليه بتتلكع؟

وفى غمضة عين ركع مير شكار والتف الحبل، أشعل صاحب الأرض سيجارة، وابتلع دخانها وأشار إلى مير محمد، وتكلم والدخان يخرج من فمه.

- ابتدى يا مير محمد... بمزاج قوى.

لعق مير محمد أطراف أنامله، وبلل إصبع السبابة بطرف لسانه وأمسك عدة شعرات من شارب مير شكار وضمها إلى بعضها، ثم فصلها عن شارب مير شكار بحركة سريعة.

انتفض مير شكار، وانخلعت قلوب المزارعين الذين كانوا ملتصقين بالجدار وقد انعكست الشمس على عيونهم. وغاص الأطفال فى بعضهم بعضًا وكأنهم قطيع من الخراف اشتم رائحة الذئب.

راحت النساء يشتمن ويعلن:

- الهى يشوف ولاده بيفرفروا قدام عينيه.

- الهى تترمل مراته.

- ييجى له داء من غير دوا.

وراحت القبضات المضمومة تدق على الصدور، والرؤوس ترتفع إلى أعلى.

- يا ابن أم البنين!

كانت وجوه الرجال ممتقعة، وشفاههم ترتجف من الغيظ.

ضرب صاحب الأرض ذقن مير شكار بطرفى سوطه وقال:

- مش ها تتكلم؟... لو كنت عاوز تقدر ما تتعذبش.

صاح مير شكار:

- قلت أنى ما اعرفش أى حاجة.

انتحى صاحب الأرض جانبًا، وتقدم مير محمد وضم بعض شعرات أُخرى من شارب مير شكار لبعضها، وفصلها عن شاربه بضربة واحدة، فسال الدم الحار من شفتي مير شكار المتورمتين.

... كان الظهر يقترب، وكانت السماء صافية، والشمس تلمع لمعانًا محيرًا.

استقر العرق على جبهة صاحب الأرض ووجنتيه وعنقه وخصره. وكان مقاول الأنفار يقف فاتحًا ساقيه عن بعضهما وهو يتلاعب بالسوط بهدوء. وكان الخفراء يضعون كعوب بنادقهم على أسنة أحذيتهم ذات الرقبة الطويلة وهم ينظرون إلى مير محمد.

وكان الفلاحون يهتزون بعنف مع حركات مير محمد المتوالية، وكان الدم قد سال عن شفتى مير شكار وانتشر على ذقنه العريضة، وقد أصبح جسده يُسحَبُ إلى الأمام بشكل لا إرادى مع كل شعرة تنفصل عن شاربه وعيناه تزداد احمراراً لحظة بعد لحظة، وأنفه يحدث صوتًا كصوت الجواد الذى انقطعت أنفاسه.

كان صاحب الأرض منطويًا على نفسه، وكان مقاول الأنفار يمضغ شفته السفلى و...

فقد مير شكار اتزانه وراح يتدحرج على الأرض وهو مكتوف اليدين.

جَزَّ صاحب الأرض على أسنانه وحدث نفسه قائلاً:

- يا اولاد الخاطية!... مستعدين يموتوا ولا يفتحوش بقهم... أنا ها اطلع روح أبوهم واحد واحد... لازم يتكلموا... لازم.

والتفت إلى المقاول وقال:

- فكه... وارميه جنب على نار.

ثم اتجه ناحية الجيب، وأخذ الزمزمية وشرب منها جرعة ماء وبلل وجهه، وبعد لحظة اقترب من الفلاحين وقال بغيظ مكتوم.

- اللى ها يقول مين اللى ورا الحكاية دى ها ادى له دلوقت حالاً ٥٠٠ تومان نقداً. ربنا شاهد علىَّ إنى ما با اكذبش... دلوقت حالاً.

كانت الرؤوس مطأطئة للأرض والأنفاس محبوسة فى الصدور.

- يا مقاول أدخل الجيب وهات من شنطتى رزمة فيها ٥٠٠ تومان.

اتجه المقاول إلى الجيب بسرعة، وعاد وفي يده رزمة أوراق مالية - أمسك صاحب الأرض النقود وهزها فى الهواء.

- اللى ها يتكلم ها ياخد الفلوس دى.

وألقى رزمة النقود على الأرض.

كانت شفاه الفلاحين المتشققة فى متانة الصلب.

- طيب، ما حدش بيتكلم؟

وقف صاحب الأرض ينتظر لحظة، لكنه لم يسمع جوابًا، فقال بلهجة ساخرة.

- طيب.. داد خدا ... تعال... قَرَّب.

انفصل داد خدا. الذى كان يغطى رأسه وأذنيه بقطعة قماش بنية اللون. عن المجموعة، وقدماه ترتعدان بشدة وركبتاه لا تساعدانه.

ضرب صاحب الأرض داد خدا على رقبته ببطء بالأشرطة الجلدية التى فى سوطه وقال له:

- لو قلت الحقيقة ها تاخد الـ٥٠٠ تومان دى، والا فيه كرباج المقاول... ياللا عندك مهلة خمس دقايق تفكر فيهم.

ونظر إلى الساعة؛

- دلوقت فاضل على الظهر بالضبط ٢٥ دقيقة. فكر زى راجل عاقل.

وقرر وتراجع إلى الخلف وأشعل سيجارة، وترك دخانها يطير فى الهواء، بينما كان العرق يجرى على وجوه الفلاحين.

توقفت نظرة داد خدا على رزمة الأوراق المالية، ثم انسحبت بهدوء إلى السوط الذى كان يتلوى كالثعبان فى يد المقاول.

ارتعدت شفتا داد خدا، ثم عاد ونظر إلى وجوه الفلاحين، كان الغضب والغيظ يهدران فى خطوط الوجوه الغائرة، واللعنات تطل من العيون، وكانت الشمس تسطع بشدة، وحلق داد خدا جافًا كالكبريت.

نظر صاحب الأرض إلى الساعة.

- داد خدا، اختار، انت بتضيع وقت، فاضل دقيقة واحدة بس.

تنفس داد خدا بصوت عال، ورفع رأسه.

- تلاتين ثانية بس.

وتعلقت عين داد خدا بسوط المقاول.

تقدم صاحب الأرض وقال:

- هاه... مين فيهم؟... الفلوس ولا الكرباج.

تحركت شفتا داد خدا وقال:

- أنا... ما اعرفش حاجة.

وخرجت الأنفاس التى كانت محشورة فى حلوق الفلاحين مصحوبة بصوت عال، وهب صاحب الأرض من مكانه كالقنبلة، وصفع داد خدا على وجهه صفعة قوية بيده السمينة الثقيلة.

- يا ابن الكلب، يا بجح يا وسخ، يا سافل و... اربطه فى الشجرة، وقلعوه هدومه.

... كان صدر داد خدا النحيل العارى الكثير الشعر مربوطًا بإحكام فى جذع الشجرة الخشن، ووجنته أصابتها الخدوش من أثر خشب الشجرة الجاف.

وضع المقاول قدمى داد خدا معكوستين إحداهما للخلف والأخرى للأمام، وثبته، وأخرج السوط ورماه فى الهواء فانفتح وشق الفضاء بصفيره ودويه فى الهواء، ثم هوى على ظهر داد خدا العارى.

انكسرت الصرخة فى حلق داد خدا وتحولت إلى حشرجة، وطار السوط مرة ثانية، وهوى فرسم علامته على عظام كتف داد خدا فعلا صراخه وقال:

- استنى يا مقاول....

جرى صاحب الأرض إلى الأمام، واهتز الفلاحون، وأصغت الآذان، فآذاها صوت داد خدا المرتعش وهو يقول:

- استنى يا مقاول... استنى... ها اتكلم.

وسرت الهمهمات بين الفلاحين.

- ها... ها...

- المَرَة... الجـ...

- عِرَة.

- إن شاء الله القرآن ها يقطع وسطه.

- استنى يا مقاول... ها اقول... أنا ما عملتش أى حاجة... كل حاجة كانت بإس من محمد خان... امبارح بالليل... خد المصحف ولف على كل البيوت وحلفنا كلنا واحد واحد... محمد خان من شهرين بيفكر فى الحكاية دى... مطبخها كلها حبة حبة لحد امبارح لما حلف الكل... لكن انا... أنا ما عملتش أى حاجة.

كان الفلاحون قد تقدموا بهدوء والتفوا حول صاحب الأرض والمقاول وداد خداد. تنفس صاحب الأرض، وابتسم، وأشعل سيجارة وسحب منها نفساً بلذة تفوق الوصف. وقال بلهجة المنتصر:

- يا مقاول... فك داد خدا. وارمى محمد خان فى الزريبة، وقول لواحد من الغفر يخلى باله منه لحد ما اسلمه للنُقطة. راس الخايب ده ملهاش لزمه على جسمه. بس انا ها أ أدبه.

وبعد لحظة جلس فى الچيب متعباً منهكًا، وتحرك.

وعندما حل الغروب جاء صاحب الأرض إلى القرية مرة ثانية وكان قد حلق ذقنه ومشط شعره - الذى كان غبار الطريق يعلوه - جيداً، ونزل من السيارة الچيب، ونفض الغبار عن ملابس الصيد التى يلبسها وقال للمقاول أن يحضر محمد خان من الزريبة.

وقف محمد خان أمام صاحب الأرض متعبًا جائعًا بشفتين جافتين متشققتين ورفع رأسه.

خرج الفلاحون من العشش وتداخلوا فى بعضهم بعضاً خلف صاحب الأرض. تأمل صاحب الأرض قامة محمد خان الممدودة للحظة، ثم قال ممزقًا الصمت الذى كان معذبًا للفلاحين:

- محمد خان.

كان صاحب الأرض يحاول أن يكون حديثه ممزوجًا بالكرم والإحسان وهو يقول:

- محمد خان... أنا، بشهادة الجميع، أنا كبير جدًا... أكبر كمان من أى حاجة تفكر فيها. الظهر فكرت أنى اسلمك للبوليس. اسلمك ليهم وأوضب لك ملف يوديك فى مكان الدبان الأزرق ما يعرف لكش طريق، لكن بعد الظهر غيرت رأيى، وصُعُب عليه حال مراتك وأولادك، وقررت أخرجك من هنا فا اتصرف بعقل وخد مراتك وعيالك وامشى من هنا، وخليك عارف أن أنت ملكش مكان فى أى بلد هنا، روح كرمان، زاهدان، ما اعرفش... روح مكان ما أنت عاوز... محمد خان أنت دلوقت حُر... حُر تمامًا.

فك المقاول الحبل عن كتفىّ محمد خان.

- لازم تتحرك دلوقت حالاً... وما تتكلمش أبدًا، خُد حالك ومحتالك وجاموستك وحمارتك ومراتك وعيالك وامشى، من هنا لحد الصبح لازم تكون بعدت على الأقل عشرين كيلو عن هنا. عشرين كيلو على الأقل.

اتجه خان محمد. الذى كان صامتًا. بهامة مرفوعة ناحية البيت، والقى الحمل الصوفى والكليم على ظهر الحماره، وأركب الأولاد، وأمسك بيد زوجته وتباطأ لحظة. نظر إلى صاحب الأرض. ذى القامة القصيرة العريضة أولاً ثم ألقى نظرة على الفلاحين وملأ الحزن روحه.

كان القمر قد سطع ونثر نوره الباهت على الهضبة كلها، والمصباح المعلق على باب المخفر ينير نورًا خافتًا. وصوت النهر الذى يجرى فوق قطع الأحجار يترامى إلى الأسماع. كان محمد خان يعرف هذا الصوت من أيام الطفولة، كان يعرف المكان كله شبرًا شبرًا، وكان يعرف رائحة التراب فى المكان كله، لقد شقى فيه عمرًا كاملاً و... فاض قلبه بالحزن.

ضغط على يد زوجته وسالت قطرتا دمع حارتين على وجنتيه، وتداخلت همهمات الفلاحين.

- ربنا معاك... ربنا معاك... مع السلامة.

أمسك محمد خان بعصاه الخشبية الشجرية تحت أبطه وسار والأولاد ينعسون على ظهر الحمارة، وامرأته تسكب الدموع فى صمت، وتسير إلى جوار زوجها خطوة بخطوة.

كان صوت عواء الثعالب وصرير الصراصير وآلاف الأصوات الخرساء الغامضة يترامى إلى الأسماع متداخلاً مختلطًا، بينما محمد خان شارد يفكر "ده أنا ضيعت عمرى كله نقطة نقطة فى أرض الندل ده، هى دى آخرتها... دلوقت لازم ابتدى كل حاجة من الأول... طيب...".

وفجأة ابتلع صوت رصاصة مخيف صمت الهضبة، فزعت الجاموسة ودار محمد خان حول نفسه، وصرخت امرأته بكل قوتها.

ركع محمد خان وأمسك بكلتا يديه الجانب الأيسر من صدره، و... بعد لحظة راحت الأرض اليابسة تبتلع فى حلقها دماء محمد خان الحارة رويداً رويداً.

* * *

مصيبة الحَمَام البَرى

قال الرجل:

– الطيور دى جه معاها الغم والشقا.

قالت المرأة:

– أيوه، احنا الطيور مش ماشية معانا خالص.

كان الرجل طويلاً، ذو هيكل عريض وقامة محنية، وبشرة لفحتها الشمس، ونظرة كنظرة الجواد تنم عن النجابة والصبر.

قال الرجل:

– طردنا القطة وأولادها من غير سبب.

فقالت المرأة:

– لأ... مش من غير سبب... علشان الحمام؛ طردنا القطة وعيالها علشانهم.

كان الغبار الخفيف معلقًا فى الهواء، والشمس قد طارت لتوها من على حافة السطح وأشعة الشمس الصفراء بدأت تميل نحو اللون الرمادى.

كانت المرأة منكفئة على نفسها كأنها طائر يرقد على البيض، وقد خنق الحر أنفاسها. كانت جالسة فى الشرفة، ونظرتها الحادة التى تشبه نظرة الصقر تجرى فى الفناء مع الحمام البرى.

قال الرجل:

– ما جاش.

قالت المرأة:

– راح يعرف الأخبار.

علا مواء القطة. كانت هى بعينها القطة ذات الجلد الذى يشبه لونه لون زهور الفول - وبطنها الغائرة وثدييها المتدليين - تهبط بهدوء سلم السطح.

وقفت القطة على بسطة السلم، وتعلقت نظرتها الماكرة - التى كانت تخلو من العاطفة وتنبض بالنكران - بالرجل الذى كان جالسًا على حافة الحوض وقد رفع أكمامه حتى مرفقه.

فى اليوم الأول الذى كانوا قد أحضروا فيه الحمام البرى (منذ سبعة عشر يومًا) زحفت القطة - التى كانت قد ولدت لتوها - على مخالبها، ثم قفزت لتصطاد إحداها، لكن الرجل صفعها بركلة قوية عنيفة وطردها.

وفى اليوم الثانى (منذ سبعة عشر يومًا)، وكان الغروب قد حل، رأيا أن واحدة من الطيور غير موجودة. وكان أن بحث الثلاثة (الرجل والمرأة والابن) فى كل مكان: فى الكراكيب الموجودة فى البدروم، وخلف الثلاجة الخشبية المتهالكة. والصناديق المكدسة فى المخزن، وفى القمامة الموجودة على السطح؛ وفى النهاية عندما وجدوا ريش الحمامة على سطح الجيران وقالت المرأة "العملة دى عملة القطة" ذهب الرجل دون إبطاء وحمل أولاد القطة الذين كانوا فى المخزن وألقاهم فى الزقاق، وقبل أن تأتى القطة نفسها وتتحرك لتمسك أولادها واحدًا واحدًا بفمها، وتأخذهم إلى مكان آمن؛ ربط أولاد الحى الحبل فى عنق ثلاثة منهم، وشنقوهم. والاثنان الباقيان منهم موجودان الآن على سطح بيت الجيران تحت مائدة قديمة متفسخة يموتون من شدة الحر.

قال الرجل:

- القطة جت.

قالت المرأة:

- ملكش دعوة بيها. احنا نحط الطيور تحت القفص.

كانت صفرة السماء قد تبددت وحل ظلام الغروب.

قامت المرأة من مكانها وأدارت مفتاح المصباح، وهبطت سلالم الشرفة حافية متثاقلة، وجرت وراء الطيور، وانقطعت أنفاسها حتى أمسكت بهم ووضعتهم تحت القفص.

كان الجو رطبًا، وكانت رائحة ملح البحر قد ملأت جو البيت، وكان ظل النخلة الباسقة - التى كانت هى الزينة الوحيدة للبيت الجاف الخالى - ساقطًا على الأرض، ثم انكسر على الجدار،

وكان لون سعف النخيل المدبب الغامق الذى يعلوه الغبار مختلطًا بصفحة السماء الزرقاء. وكان الحمام البرى قد اتخذ من ثنايا سعف النخل عشًا له، كان هديل الحمام يعلو فى المكان، ومن ورائه صوت رفرفة أجنحته، ثم طيران واحدة منه من على غصن لتدور حول النحلة وتحط على غصن آخر.

ذهبت المرأة مرة ثانية وجلست فى الشرفة، وأخذت المروحة، وروحت وهوّت عن نفسها.

كانت المرأة قصيرة وسمينة ولها قدمان ضخمتان ورقبة لحيمة، وقد قطع الحر أنفاسها، وبلل العرق ثوبها الأبيض الخفيف وجعله قذرًا.

دخل الرجل إلى الحجرة، وخرج وفى يده مروحة، راح يضغط أزرار المروحة، قالت الزوجة:

- خلى بالك. السلك اللى جنب الفيشة عريان.

طرقعت المروحة ودارت، فحركت الهواء إلى حد ما. كان صوت المروحة معدنيًا جافًا.

وضعت المرأة كفيها على الأرض ورفعت جسدها الثقيل وقامت وذهبت فأحضرت السجادة الصوفية وألقتها على الأحجار المبللة على حافة الحوض، وجلست أمام الرجل.

سأل الرجل:

- هُما أولاد القطة فين دلوقت؟

فقالت المرأة:

- متهيألى أنهم على سطح الجيران.

عندها كانت القطة قد زحفت بجوار الحائط ودخلت إلى المطبخ وهى فَزِعَة، وأخرجت منديل الطعام من السلة، وراحت تعبث ببقايا الطعام الموجودة فى المنديل.

علا صوت باب الفناء يفتح، وانفتح، فالتفت الرجل، ورأت المرأة من فوق كتف الرجل - ابنها آتيًا.

كانت شفتا الولد ثقيلتين فوق بعضهما، وكُماه مرفوعين لأعلى، وياقة قميصه الأزرق مفتوحة، والعرق يجرى من تقطيبة جبينه كالشلال ويتدحرج فوق أرنبة أنفه.

قال الرجل:

- حصل أيه؟

هز الابن رأسه وقال:

- ما وصلتش لأى حاجة.

- كان حديثه مشوبًا بعدم الرضا.

- كلها إشاعات... إشاعات... إشاعات...

ودخل إلى الحجرة مسرعًا وخلع بنطلونه، وبعد قليل خرج من الحجرة وهو يرتدى سروالاً داخليًا مخططًا، وفانلة مبتلة وقذرة. وكان المذياع فى يده. جلس أمام أبيه وهو يلعب فى المذياع. خشخش المذياع، وتحدث الابن هامسًا وكأنه يحدث نفسه.

- بطارياته ضعفت.

صار صوت المذياع واضحًا، وترامى عبره صوت امرأة تقرأ شعرًا موزونًا:

"طية طُرَتك المموجة قرينة للقمر"

"وما دام القمر فى برج العقرب فهذا هو حالنا"

"من، من ذا الذى يطرق الباب..."

قال الرجل:

- إطفيه، أنا مليش مزاج.

قال الابن:

- يمكن نفهم حاجة من الأخبار.

همست المرأة بضيق.

- لسه بدرى على الأخبار.

أوقف الابن المذياع.

استدار الرجل، وهو جالس كما هو - على المقعد الذى يجلس عليه، وشمر ساقى سرواله، ووضع قدميه فى الماء حتى المرفقين وقال:

- طيب... والناس بيقولوا أيه؟

– قلت لك إن... ما بيقولوش حاجة الواحد يفهمها.

كانت نظرة الرجل مركزة على الماء، وبدأ يحدث نفسه:

– "زى ما اشترينا الحمام البرى..." وخفت صوته، وبعد قليل صاح قائلاً:

– المرة اللى فاتت لما اشترينا البغبغان أمك عيت.. والبطتين كمان...

وشاب الحزن حديثه وهو يقول "... وبعدين، لما جبنا الحمام البيت أخذوا أخوك الجيش ودلوقت كمان..."

أدار الابن مؤشر المذياع، صمت الرجل وأخرج رجليه من الحوض.

كانت المروحة تدور على وتيرة واحدة دون أن تفعل ما يخفف قسوة الحر.

كانت المرأة تلهث، وكان العرق مستقراً على جبين الرجل.

ملأ صوت المذياع الرنان فضاء الفناء، وكانت حواس الرجل والمرأة وابنهما مشدودة إلى المذياع.

كان الفناء خانقًا، فمصباحه كان مغبراً بالتراب، وجدرانه غير المستوية تعكس بعض النور وتحجب بعضه. وكان ظل رأس الرجل وكتفه منعكساً على الجدار وإلى جواره ظل ابنه المنحنى.

– ... طبعًا كل ده تبذير وعدم مراعاة للميزانية اللى كان لازم تبقى دلوقت ماشية فى طريق تحسين الوضع الاقتصادى. مش ممكن تاخد تأييد. ده انا شخصيًا اتخذت قرار أنى اتابع المسألة دى...

ونظر الثلاثة لبعضهم بعضاً صامتين. أغلق الابن المذياع فسادت عدة لحظات من الصمت؛ صمت بارد ومؤلم. زفر الابن قائلاً:

– البطالة ابتدت.

ظهر العبوس على جبهة الأب:

– وابتدى الجوع كمان.

وقالت الأم هامسة معترضة:

– وده معناه أيه؟... تغيير المدير التنفيذى والكلام ده... وبعدين تغييره ماله بينا احنا اللى ساكنين جنب البحر؟

كان صوت الأب أجشًا:

- المدير التنفيذى الجديد مش عاجباه شركة (بى آند آر) BAR

قالت المرأة:

- طيب وهايجرى أيه لما ما تعجبوش...

قاطع الابن حديثها:

- ها يحجمها.... ويمكن يحلها.

قال الرجل - الذى كان الحزن مرسومًا على وجهه - بصوت خفيض:

- وبعدها الكل يقعد عاطل... على الأقل ١٠٠ أو ٧٥ واحد.

وانحشرت الكلمات فى حلق الابن وهو يقول:

- البطالة ابتدت.

طأطأت المرأة رأسها وقالت:

- فى نفس اليوم... نفس اليوم اللى الطيور دى ...

اهتزت قامة الرجل الطويلة، كان واقفًا وظله الطويل المنعكس على الجدار يشبه النخل.

وضع الرجل يديه فى خصره، وثنى ظهره، ثم مشى ودخل إلى المطبخ، قفزت القطة - التى كانت كأنها فوجئت - إلى الفناء، فنظر إليها بهدوء.

- المسكينة!... يا ريت كانت اتشلت أيدينا ولا كُنا رمينا أولادها.

خرج الرجل من المطبخ وفى يده السكين، ووقف أمام المرأة وتكلم كأنه يبوح بما فى نفسه:

- قومى يا ولية، قومى بدل ما الحكاية تسوء عن كده، دورى على أولاد القطة وهاتيهم، وأعملى لهم فتة فى طبق وحطى الشوربة على وشها وحطيها قدامهم.

قامت المرأة متثاقلة بصعوبة، وذهب الرجل ووقف بجوارها ناحية القفص ثم ثنى ركبتيه مثل مطواة الجيب وجلس القرفصاء.

جرت يدا الرجل النحيلة تحت القفص، واختلط صوت رفيف أجنحة الحمام البرى بهديلها.

خرجت يد الرجل من تحت القفص، وفيها واحدة من الحمام البرى وهى أسيرة بين أصابعه الطويلة النحيلة.

جاء صوت المرأة وهى تصعد الدرج؛ يقول:

- إسقيهم.

تمدد الابن ووضع يديه تحت رأسه ونظر إلى سعف النخيل. كان الحمام هادئًا، والسماء زرقاء صافية، والنجوم معلقة فى السماء كالقناديل.

حل محل الصمت صوت رفيف الحمامة التى خرجت رقبتها المقطوعة من بين شعرها الرمادى الناعم. وحين ذُبحت رأس الحمامة الثانية كانت الأولى ملقاة على ظهرها وقدماها مرفوعتين لأعلى ومخالبها فى حالة تشنج صامت.

حين هبطت المرأة الدرج ووضعت أولاد القطة على الأرض كان الرجل قد أخرج الحمامة الرابعة من تحت القفص، وقذف القفص إلى ركن بركلة قدم.

* * *

مدينتنا الصغيرة

جاءوا فجر يوم حار من أيام الصيف، وانهالوا على النخل الباسق بالفؤوس. حين أشرقت الشمس خرجنا من البيوت، وجلسنا فى ظل الجدران المبنية بالطوب اللبن ورحنا ننظر إليها.

فى كل مرة كان ينفصل فيها فرع طويل من فروع نخلة بأوراقها المدببة التى علاها الغبار عن جذعها ويشق الفضاء ويسقط على الأرض تصحبه خشخشة عالية؛ كنا نصيح "هووو" ونجرى، وكُنا إلى أن يهدأ الغبار الذى تحدثه الفروع والسعف نهجم على البِسْر وأفراخ العصافير المرتجفة التى تلاشت أعشاشها. وبعد أن نكون قد فعلنا هذا عدة مرات كان رئيس العمال يرفع القبعة القش عن رأسه ويجرى وراءنا بالعصا.

هذا هو ما كان يحدث إلى أن نذهب ونجلس بجوار الكبار فى ظل الجدران الطينية وفى أيدينا أفراخ العصافير المرتجفة ننظر إليها بحسرة، بينما تخلو ظهور بيوتنا من ظل النخيل، وجذوع النخل تقبع مكدسة فوق بعضها.

وحين يحل الغروب كان المكان – الذى يبدأ من خلف جدران البيوت الطينية إلى حدود الرمل الأسود الرطب الذى يجاور النهر – يغدو ميدانًا للعب.

كنت أريد من أعماقى أن أذهب وأفك حصان الشيخ شعيب، الذى كان مربوطًا فى الحظيرة من الليلة الماضية، وأمتطيه وأذهب به حتى شاطئ النهر.

كان الصبح يوشك على الطلوع حين جاءوا، كانوا مائة أو مائة وخمسين وكانت معهم فؤوس ثقيلة، وعندما حل الغروب كأنه لم يكن هناك أبدًا حديقة نخل خلف بيوتنا.

حين حل الليل جاءت "آفاق"، وكانت مبتلة بالعرق، فكت المقنعة عن رأسها وتركت شعرها – الذى كان لونه بلون الشفق – منسدلاً على كتفيها.

كان " خواجه توفيق " جالسًا بجانب بسطة الأفيون. وحين حل الغروب رش أرضية الفناء بالماء كالعادة، ثم فرش الحصير والبساط العربى، وجلس بجوار المنقل، وراح يقلب الفحم شبه المشتعل ويحرك فوقه الهواء، وكانت "بانو" ابنته الهزيلة المجدورة الوجه التى صارت مدخنة جالسة بجوار أبيها.

وكان حصان الشيخ شعيب المربوط فى الحظيرة من الليلة الماضية قد نعس. حين جاءت "آفاق" كانت أمى قد أشعلت المصباح لتوها؛ ألقت آفاق المقنعة والعباءة على الكوفرتة ودخلت إلى الحجرة، وأخرجت من تحت ثوبها الفضفاض قطعتى قماش من الستان المنقوش، حيث كانت زوجة النقيب أرسلت فى طلبهما. وحين أشرقت الشمس كانت آفاق قد خرجت، وها هى قد عادت ومعها القماش، وكان خواجه توفيق فى انتظارها.

خرجت آفاق من الحجرة شبه المظلمة، ومعها اللمبة فأشعلتها ووضعتها بجوار الفراش، وأخذت الكوب، وتنفست، كانت أنفاسها لا تعينها حين قالت:

"ربنا يذلهم"، وجلست، وجففت العرق عن جبهتها بطرف كمها القذر وسألت:

– الاولاد ما جوش؟

كان "خواجه توفيق" فى انتظار الأولاد، وعندما جاءوا كانت أصابع "يد الله" ملوثة بالأسمنت، ويدا فتح الله معفرتين بذرات الجبس الأبيض حتى المرفق وكنت أنا جالسًا بجوار أمى آكل الحلوى الملونة، عندها نادانى "خواجه توفيق" وطلب منى أن أذهب وأشترى له الأفيون.

عندما خرجت من البيت، كانت الناحية الأخرى من النهر واضحة يميل لونها إلى الأسود من كثافة النخل، وكان نور القمر منعكسًا على صفحة ماء النهر، وكانت جذوع النخل مكدسة فى الميدان بجوار بيوتنا.

وفى اليوم التالى جاء العمال ومعهم مقطورة طويلة وحَمَلوها، استغرق الأمر أسبوعًا حتى أهالوا الرمال والحصى فى الميدان، كان المازوت يلمع تحت الشمس الحامية لتوه وما زال البخار يتصاعد منه.

كان المكان ينضح برائحة المازوت، وكانت زوجة النقيب قد أرسلت خادمتها فأخذت قطعتى القماش الستان المنقوش.

حين كان الصباح يشرق كانت آفاق تخرج من البيت، وكانت تعود الظهر أحيانًا، وأحيانًا لا تعود.

وفى الغروب كان "خواجه توفيق" ينتظر يد الله وفتح الله لكى يأتيا من العمل ويرسلنى لأشترى الأفيون.

كان الرمل قد امتص المازوت فجفت الأرض، وصارت الريح حين تهب تحمل معها رمل الميدان الأصفر وتوزعه حتى اجتمع تحت الجدران وتحت الحوائط الطينية تراب بُنى، وحين كان المد يأتى فيصل الماء إلى سعف النخيل كان سطح الماء يصبح كأنه قوس ملون بالألوان البنفسجية والصفراء والحمراء و...

كنت جالسًا القرفصاء أمام برج الحمام حين دخل الشيخ شعيب من بين ضلفتى باب البيت غير المتناسقتين، وكان كلما اقترب أكثر كلما اختلط نور اللمبة الأصفر ببشرة وجهه المحترقة، وظهر أنفه وجبهته وخديه.

دق الحصان حافره فى الأرض، وارتعش أنفه وانتثر ذيله، كان خواجه توفيق قد غَلَّفَ الطرد الأخير، وقال لزوجته: "خمس علب واحدة فيها ٣ خطوط جابها ناصر الدين شاهى من البصرة..."

كانت آفاق جالسة القرفصاء تصغى لزوجها، وكان أبى منكبًا على كتاب "الأنوار"، وصوت الشيخ شعيب يقول إن الماس بدد ظلام الليل.

- كنت عارف ان آخرتها ها تكون كده.

ها قد أصبح الحال هكذا الآن فلم تعد رائحة حديقة النخل تختلط برائحة الرطوبة، وصار ظل العمود الحديدى الطويل الذى يصل إلى صفحة السماء الزرقاء ينكسر على جدران بيوتنا الطينية، ويسقط فى الفناء متدليًا، ويهبط حتى حافة حفرة الصرف التى لوثتها قطيفة الأعشاب البرية.

وفى الميدان الواقع خلف بيوتنا كانت هناك حالة من الضوضاء والأصوات المتداخلة ببعضها بعضًا، وكانت ألوان ملابس العمال الزرقاء تختلط كذلك باللون الأبيض الناعم للصناديق الخشبية الكبيرة التى كانت تتلاشى تحت دقات المسامير والمثقاب.

وكنت إذا ما نظرت لأعلى تجد جدائل سلك مفتولة تجذب الانتباه، وتُبكى عينيك وكأن مكحلة باردة مرت بها.

حين كان الليل يَجِنْ، كان أبى يقرأ "الأنوار"، وأحيانًا "أسرار قاسمى" وكان هو والخواجه توفيق يتحدثان معًا أحيانًا، عن "خزعل" و"عبد الحميد" وغلمانهما والسود الذين يمسكون بعصُى الخيزران.

وكنا نحن نلعب فى حارة "ترنا"، ونجرى بين النخل، ونقفز فوق الأنهار الضيقة، ونصل إلى شاطئ النهر فنجلس بجانبه على الحشائش، ونصغى إلى صوت الماء، ووقع أقدام الأولاد الذين يتصايحون ويأتون حتى يعثروا علينا.

فى تلك الليلة كنت جالسًا فى مرسى القارب، وقد ألصقت أذنى بالأرض، وفجأة سمعت وقع أقدام، وهمسًا، والصوت؛ لم يكن صوت الأولاد، ولا الهمس كان همسهم؛ كان كلامًا بهدوء وروية، كان الكلام ينزلق فى الظلام نديًا حتى يصل إلى الأذن. ومن بين كل الكلام عرفت صوت آفاق.

كان الليل حالكًا، بينما يسيطر على المكان صوت سريان أمواج النهر، وصوت الريح وهى تصطدم بسعف النخيل.

خرجت من مرسى القارب وصعدت لأعلى، ورقدت على الرمال الندية ورفعت ساعدى لأعلى وأسندت ذقنى على كفى يدىَّ.

اخترقت نظرتى ظلام الليل فرأيت حركة أشباح على مدى الفرع العريض الذى يتفرع عن النهر. كان النهر فى حالة المد فكان مرتفعًا والمركب تستطيع أن تجرى على سطح ماء النهر الفرعى وتصل حتى عمق منطقة النخيل.

قمت ورحت أجرى وأصوات قدمى تتلاشى فى الرمال حتى ألصقت صدرى بقشر النخلة الجاف وصارت أغصانها تخفى وجهى ونظرتى تنتقل من مكان إلى مكان. كنت أسمع جيدًا، بل وأرى آفاق أيضًا والثوب الحريرى الأسود يلف جسدها، وسمعت صوت الشيخ شعيب يقول "١٢٢ حته..."

كانت أنفاسى محبوسة، وشفتى حارة جدًا، وظللت على هذا الحال حتى ذهبت آفاق، وكذلك الشيخ شعيب، وبقى الرجل الطويل – الذى كانت قامته كالنخل العالى – ثم قفز فى المركب واتجه بها ناحية النهر.

كان الوقت ليلاً؛ وعندها أدركت لماذا تتأخر آفاق فى بعض الليالى، ولماذا لا تأتى فى بعضها الآخر، وفهمت لماذا يظل المفتش نور محمد يفتش بعينيه المنمنمتين وفمه الطويل الذى يشبه فم الثعلب حول بيوتنا، ويتشمم المكان كالكلب الجائع.

غداة ذلك اليوم جاء المفتشون إلى بيتنا وفتشوا كل مكان مستخدمين أسياخًا حديدية ذات أسنة مدببة حادة فثقبوا المكان كله، ولم يجدوا شيئًا.

وفى الليل أخلت آفاق البيت ونقلت البضائع، وحدث أن أخذوها، وفى الظهر عندما أطلقوا سراحها كانت شفتاها يابستين متشققتين، وكان جسدها غارقًا فى العرق، وكانت تئن وتشتم.

وها هم جاءوا بالفؤوس الثقيلة وانهالوا على حديقة النخل، فصار المكان - الذى يبدأ من خلف بيوتنا الطينية وحتى الرمال السوداء الرطبة الواقعة على شاطئ النهر. ميدانًا للكر والفر.

ردموا فروع النهر التى كانت تجرى مثل قبضة النهر الطويلة داخل حديقة النخيل.

وعندما حان الظهر كان ظل العامود الضخم ينكسر فوق بيوتنا ويسقط فى الفناء، ويصل حتى حافة الحفرة التى فى بيتنا والتى وطئت قدم المفتش فى ذلك اليوم قطيفة أعشابها المخملية.

كان الخواجه توفيق قد ألصق الطرد الأخير وقال لزوجته "خمس علب بـ٣ خطوط من البصرة..."

كانت آفاق منطوية على نفسها ونظرة عينها تشبه أوراق الورد الأحمر، وهى تصغى لخواجه توفيق، بينما كانت بانو تنعس، ويد الله يكسر فحل بصل بقبضة يده.

قالت آفاق:

- ربنا يذلهم... ما بقاش لنا ملجأ تانى.

كانوا قد قطعوا النخيل وردموا فروع النهر وراح الظلام يثقل، وراحت ذرات الرماد تخنق الورود المخملية الحمراء.

وانفتح خلف بيوتنا شق أصفر اللون وأخذ يتلوى داخل الأزقة، وزحفت أنبوبتان بلون القار كأنهما ثعبان وأنثاه، وأخذت تنحرف عن أطراف النخل المتكدس البعيد حتى وصلت صوب الميدان.

كنت أهب من فراشى على زئير الأوناش واحتكاك العجلات، وكنا بمجرد أن تشرق الشمس نذهب فنجلس فى ظل الجدار وننظر إلى العمال بملابسهم الزرقاء وخوذاتهم المعدنية البيضاء التى تعكس نور الشمس وهم يتحركون وسط تلال الصناديق المعدنية.

راحت الشمس تنتشر فتبتلع رطوبة الصباح، وقد أصبح يفصلنا الآن عن النهر جدار من القرميد الأحمر وانفتحت خلف بيوتنا فتحة صفراء اللون.

وجرت فى الأزقة وزحفت أنبوبتان سوداوان كأنهما ثعبان ذكر وانثاه. بجوار تجمع النخل البعيد، ووصلتا حتى الميدان، وانتقلت الأعمدة الخشبية المدهونة بالمازوت - كأخشاب المشنقة - واستقرت فى الشارع الكبير بمدينتنا الصغيرة، كانت طيور السنونو ترتجف فوق الأسلاك، فتنفض التراب الأصفر فيتلوى حين يهب الغبار، ثم يطير فى الهواء ويسقط على رؤوسنا ووجوهنا.

لم يكونوا قد صبوا أساسات المخزن الخامس بعد، حين جاءوا قبل يوم خريفى وأعلنوا للجميع رسالة أن عليهم أن يتجمعوا فى عصر نفس اليوم فى المقهى الواقع بجانب الشاطئ.

وفى المساء عندما عاد أبى من المقهى منهكًا عابسًا، وحين سأله خواجه توفيق عما حدث قال له:

- عاوزين يهدوا البيوت، بيقولوا انهم عاوزين أراضى الإدارة...

وتخيلت أنا أن ساحة الميدان جائعة، وأنها قد فتحت فمها المازوتى لتبتلع المدينة قطعة قطعة.

تلك الليلة لم يقرأ أبى "الأنوار"، ولا " أسرار قاسمى " أما أمى فكانت جالسة أمام المصباح تغزل صديريتى الصوف التى كانت قد أخرجتها من الصندوق حيث كان الخريف قد حل والرياح كانت تشتد، وحفيف أغصان النخيل المجاورة كان يُسمع بشكل متواصل، وهدير النهر الذى ملأته سيول الخريف بالوحل إلا أن الجدران ذات اللون الأبيض والمخازن ذات اللون الرمادى والأعمدة والأسلاك الشائكة والأسقف البنية والرمادية كانت قد فصلت بيننا وبينهم.

كانوا قد جاءوا، وأخذوا "نوروز" إلى الشرطة، حيث كان "نوروز" قد رفع ذراع المحراث وانهال به عليهم وهو يسألهم لماذا جاءوا، ولماذا يقيسون مساحات بيوتنا. وحين أخذوا نوروز ذُهل الجميع، وزحزح موسى الفتوة السكين من خاصرته وألقاه فى الصندرة.

كنت فى المرات التى ذهبت فيها مع أبى إلى المقهى الواقع على الشاطئ قد سمعت من موسى قوله: "أى حد هايبص لبيوتنا بعين الشر؛ ها اموته بالسكينة دى" وكانت عيناه تلمعان فى كل مرة وهو يضغط على السكين ويبرم شاربه، ثم يتكئ على ظهر المقعد ويشرب عصير الليمون من فم الزجاجة، ثم ها هو الآن وقد وقعت السكين من يده إلى الصندرة، وها هى رأس الفتوة مطأطأة إلى الأرض، ولا يظهر له فى المقهى أى أثر.

وها هى شوارع مدينتنا الصغيرة كلها وقد اصطبغت بصبغة المازوت فأينما نظرت تجد على التراب الممتزج بالنفط فى الشوارع آثار إطارات السيارات.

وحين يشرق الصباح نستيقظ من النوم فزعين على صوت صفارات المصانع المدوى، وحين تشق الصفارة الثانية الفضاء ينهال على شارعنا العمال ذوو الملابس الزرقاء وعلى رؤوسهم الخوذات المعدنية وفى أيديهم أعمدة الطعام وهم يتجهون نحو الإدارة.

وأمام مقهى الشط تحت النخلات الوحيدة أقيم سوق كبير امتلأ برائحة زفارة السمك الحى، ورائحة السمك المشوى النفاذة المختلطة بالبهارات، ورائحة الخبز البيتى اللطيفة، ورائحة الزبادى اللاذعة، والطبيخ البائت ورائحة قلوب الأبقار وكلاها، والخضرة الطازجة.

جرت أسلاك الكهرباء فى المدينة كلها، ودخلت الكهرباء كل البيوت، لكن "خواجه توفيق" كان لا يزال يجلس القرفصاء وينتظر أن يأتى يد الله وفتح الله من العمل ويرسلنى إلى الغرزة.

كان القرار الخاص ببيوتنا لا يزال مجهولاً فقد جاءوا ورفعوا المقاسات وقالوا لنا "حين يحل الشتاء، يجب أن تخلوا البيوت".

ولم تكن عند أبى الرغبة، وكان " خواجه توفيق " بعد تدخين الأفيون ينعس بدلاً من حكاية خواطره وذكرياته البعيدة، وكانت آفاق التى فقدت المخبأ فى حديقة النخل - جالسة فى البيت، حتى تلك الليلة التى راحت فيها رائحة الشتاء تهب عندما انكسرت ضلفتا الباب وأَنَّتْ جدران بيتنا المتآكلة وتفسخت ضلفتاه عن بعضهما، ودخل الشيخ شعيب إلى البيت بالجواد و..

... وبعد ذلك أحكمت آفاق الملاءة حول خصرها، وجمعت شعرها الأحمر الناعم فى منديل، وخرجت من البيت مع الشيخ شعيب.

حين ذهبت آفاق جاء "يد الله رومزى" بحثًا عن أبى و "خواجه توفيق" أمسكت بالفانوس وسرت أمامهما.

على باب المقهى الواقع على حافة الشاطئ كان هناك مصباح شديد النور يتدلى، ونوره ينعكس على الأسلاك المعدنية المتماوجة المحيطة بسور مخزن الإدارة.

كان يد الله رومزى، بينما يسير خلفى يسحب أصبعه الطويل فوق تماوج الأسلاك وصوته يستقر فى قلب الليل كصوت مدفع مكتوم الصوت ويختلط بصوت النهر الأخرس.

حين خرجنا من المقهى كانت الدنيا ظلامًا والكلاب تعوى وقد بقيت نخلات وحيدة راح نور الفانوس ينزلق على جذوعها فيسقط ظلها الحائر على الأرض.

وكنا حين نسير تنعكس الظلال على الجذوع، والريح اللطيفة كانت منشغلة باللعب على الفروع، ورائحة النخل النفاذة كانت مختلطة برائحة المازوت. قفزنا من فوق قناة الماء كان بيت "ناصر دوانى" وكان الجميع موجودين هناك، وكان "الفتوة" موجودًا كذلك بذلك الشرر الذى يتطاير من عينيه، وجلست أنا بجوار الأحذية والمراكيب، وبين الفينة والفينة كانت الريح تدخل من الشقوق الموجودة بين أخشاب الباب حاملة معها برد الشتاء، البرد القاسى القادم من الهضاب الفسيحة الذى كان يفلق الحجر.

كان أبى جالسًا فى أعلى وممددًا فى الفراش الذى كان ملفوفًا فى عباءة الليل، وكان "خواجه توفيق" بجواره، وأحضر الشاى باللبن فجعل دسم اللبن شفتى زلقة، وأضفى دفئه الطبيعى على حلقى دفئًا.

كان أبى يلف سيجارة، وكان "الفتـــوة" يدخن سيجارة عراقية، وكـــان الصمت سائدًا، فيه صوت نارجيلة باباخان، ورائحة طباق خوانسار، وبعـــد ذلك تكلم "سرميدانى" الفتوة فقال:

- أنا عارف أن الكل بيتكلم عليه ورا ظهرى، لكن انا عايز اعرف لما خدوا نوروز على القسم، مين فيكم اللى اتنفس؟

عندما قبضوا على "نوروز" كان الجميع صامتين ذاهلين لم ينبس أى واحد منهم بكلمة واحدة، وكان هذا هو الذى أعطى موسى الفرصة.

– ... لو كنتم نطقتم، لو حتى كنتم عملتوا دوشة على الأقل كان قلبى استقوى أو زى انتوا ما بتقولوا ما كنتش حطيت سكينتى فى جرابها، وكنتوا هاتشوفوا ان مش كل الناس فَشَارين، وكنتوا هاتشوفوا ازاى انا ها اقطع الخواجة الطويل الاهبل ده حتَت زى خروف العيد.

خَدَش صوت أبى العالى الغليظ فضاء الحجرة حين قال:

– موسى عنده حق... موسى...

قاطع يد الله رومزى كلام أبى فقال:

– وقتها ما كُناش نتصور إن الحكاية ها تبقى جَد كده.

وتكلم ناصر دوانى فقال:

– ما هو المرض بييجى حبة حبة.. وما حدش بياخده جد.

وبعدها اختلطت الأحاديث ببعضها، وصارت نظرتى تتنقل من فم هذا إلى فم ذاك، ولم أدرْ بعدها ماذا حدث حتى قام موسى الفتوة من مكانه وصرخ وأخرج من جيب الصديرى مصحفًا صغيرًا، وراح صوته الأجش يتلوى تحت سقف الحجرة كثعبان جريح وهو يقول:

– لو انتوا رجالة احلفوا على المصحف ده بحياة محمد... يللا احلفوا... ودق بيده على المصحف.

– وانا ها امشى قبلكم كلكم... بالسكينة دى...

وأزاح قميصه وأخرج سكينه من خصره.

– أنا قبل أى حد ها اقطع راس الخواجه ده من الوريد للوريد ... أنا ها اروح اعيش فين؟؟؟ ... ده انا طلعت روحى سنين علشان ابنى الاربع حيطان دول... يللا... احلفوا... يللا احلفوا.

عندها خرج صوت عبدى نازك كار هامسًا وكأنه ماء مثلج صبوه فى إناء ماء مغلى.

– لأ حلفان لأ!

وقال عبدى شير برنجى:

– القسم له كفارة.

على موسى الذى كان جالسًا على ركبتيه كقطة تجلس على مخالبها، واندفع فخرج صوته وتدحرجت الكلمات فى حلقه ثم انصبت كقطع الرصاص.

– شفتوا ان موسى مش جبان... شفتو ان انا مش جبان... شفتو دلوقت؟

وتراجع واتكأ على مسند وشتم.

كانت قد سرت فى وجهه من عذاره حتى شقائقه صفرة باهتة، وكانت شفتاه الغليظتان ترتعدان تحت شاربه الكث. كان يبدو وكأنه يسب نفسه، أو كأنه يقرأ وردًا، أو كأن تشنجًا قد اعترى ذقنه. وكان الصمت فى الحجرة يشبه صمت الموتى. وكانت الريح تزوم فى الخارج ورائحة الليل تفوح.

لف أبى سيجارة أخرى وعض مؤخرتها بطرف أسنانه، وبصق وكأنه أطلق سراح صوته الغليظ.

– إنتو متجمعين هنا تلاتين اربعين راجل لهم شنبات ودقون علشان أيه؟... باعتين لنا ليه؟... هه...

– موسى عنده حق.

وقال خواجه توفيق نفس الكلام.

وقال يد الله رومزى مثله.

– لازم يكون الكل على كلمة واحدة.

ثم قال ناصر دوانى:

– لازم نحلف.

فتكلم موسى الفتوة وكان صوته خافتًا هذه المرة:

– طيب ليه لما طلعت المصحف كلكم كنتم كأنكم واكلين سَد الحَنَك، كنتم قافلين بقكم؟

وقام أبى من مكانه.

– أنا اهه مستعد، مستعد طول ما فيَّه روح.

– نحلف.

– كلنا نحلف.

حتى فاضت كل ذرة من كياني بالقسم. ماذا لو خربوا بيوتنا، ماذا لو خربوا عش حمامي؟ ... لا!...

كان الحمام ذى الذيل الأبيض قد وضع البيض، وكان الزوج "الحبشى" يجمع القش، والذكر " خانى " يرقد على البيض، كنت أفكر فى الحمام، وفى عشـــه، بينما تصل الأحاديث إلى أذنى "لما يتحدد إنهم ييجوا علشان يهدوا البيوت، محدش فينا يروح الشغل... كلنا نفضل فى البيت..." و...

– وننزل عليهم بالفأس.

– وأى حد ها يبص لنا بعينه ها اقلع عينيه بالسكينة دى.

كانت الأصوات متداخلة، وكانت شفتى رطبة من دسم اللبن، وكانت رائحة الليل مختلطة برائحة البخور المحترق والبرد القارس الذى كان يزحف من ثنايا شقوق الباب. وفجأة انطلق صوت طلقة رصاص، والثانية، والثالثة التى أخافتنا فهجمنا على باب الحجرة، وانهلنا على الفناء، وجرينا ناحية باب البيت.

هرب عِجْلُ ناصر دوانى الذى كان مربوطًا تحت المظلة، ثم نَعَرَ...

كان القمر ساطعًا فى أعلى السماء، وقد ملأ الفضاء، وصوت الديك الذى يبدو أنه كان قد انخدع فراح يؤذن للفجر ولم يمض من الليل أكثر من نصفه.

وفى الصباح عندما أشرقت الشمس وكسرت برد الصباح جاء الديك والتقط الحبوب حبة حبة.

لم يكن معروفًا من الذى لم يستطع كتمان السر فأفشاه.

حين أخذوا أبى، وأخذوا خواجه توفيق جرت أمى إلى منزل يد الله رومزى.

كانت آفاق قد ذهبت فى الليل ولم تكن قد عادت بعد.

كانوا قد أخذوا يد الله رومزى إلى الشرطة، تمامًا كما أخذوا خواجه توفيق، وأخذوا أبى، وناصر دوانى وبابا خان... ولم يكن قد مضى وقت طويل حين جاء نور محمد بذقنه الرفيعة وعينيه الضيقتين، كانت دموع أمى على وجنتيها حين سمعت كلام نور محمد.

- يا أختى قولى لـ خواجه توفيق، أو لو ماكانش موجود قولى للأولاد انهم لازم يستلموا جثة آفاق.

- جثة آفاق؟

- أيوه يا أختى، ليلة امبارح، انضربت بالرصاص ورا النخل.

صرخت بانو التى كانت فى نعاسها، وصرخت أمى وهرب نور محمد كالثعلب.

لم يكن خواجه توفيق قد وجد الفرصة فى الصباح لكى يحصل على "تعميرته" وهو يعانى الآن بالتأكيد من الصداع فى الشرطة.

ذهبت إلى حمائمى، كانت رائحة فضلات الحمام مختلطة برائحة الرطوبة، وكان الجو داخل العش دافئًا وأنثى "الحبشى" كانت راقدة، وقد وضعت البيض بالتأكيد، ضربتها بطرف خشبة قصير، حتى تنزاح لأرى إن كانت قد وضعت بيضًا أم لا فهزت الحمامة جناحها ومدت عنقها وانتفشت وهاجمت الخشبة بمنقارها الصغير، هاجمتها بعداء وخصومة.

ارتفع صوت حذاء زوجة ناصر دوانى الخشبى، ورأيت ساقيها السمراوين المرتبكتين من باب عش الحمام القصير. كانت الملاءة مربوطة على خصرها بالتأكيد. كانت الحفرة الواقعة خلف ركبتها تمتلئ وتفرغ وحذاؤها الخشبى يصدر صوتًا. ومن باب العش القصير رأيت ساقيها المرتبكتين تنفتحان وتنغلقان مثل المقص. ودارتا حول وسط الفناء وذهبتا إلى الشرفة المواجهة، ثم علا صوتها وهى تقول:

- اعمل أيه يا اختى؟... جُم وكلبشوا ايديه وخدوه.

كانت أمى تبكى. كانت تريق الدمع فى هدوء. كانوا قد أخذوا خواجه توفيق، وأخذوا أبى، ولم يكن معروفًا أين سقط جسد آفاق. وكان فتح الله ويد الله قد ذهبا إلى العمل إلى أن عاد عندما حل الليل. ولو كان خواجه توفيق قد جاء لأرسلنى إلى الغرزة.

عدت مرة ثانية إلى أنثى "الحبشى" كانت جالسة فى مكانها كالرصاص لم تكن تتحرك، أظن أنها كانت قد وضعت البيض.

عاد صوت الأقدام مرة ثانية، وهذه المرة كانت رجلا سروال "بلور" زوجة موسى الفتوة اللذين كانا يجُران على أرضية الفناء.

ركعت على الأرض واستندت على يدىَّ وأخرجت رأسى من عُش الحمام لأرى أين جلست.

كنُ فى الشرفة، لم تكن بانو هناك، أظن أن أمى كانت قد أرسلتها لتخبر يد الله وفتح الله. ويبدو أن أمى كانت تتحدث؛ كانت شفتاها تتحركان، كانت الضوضاء التى يحُدثها جهاز الخلاط تخفف صوتها، زحفت داخل العُش، وهذه المرة تفقدت أنثى الحمام ذى الذيل الأبيض، كنت لا أزال منشغلاً بالحمام حين شق صراخ أمى الفضاء فجأة، وبعدها اختلط صراخ النسوة ببعض. قفزت خارج عش الحمام فأصطدم ظهرى بحلق العش، وكنت أفكر فى ألم خصرى حين ركعت ورأيت أيدى فتح الله ويد الله قد وضعا جثة على نقالة حمل موتى وتحلق الجميع باكين حول الحفرة الواقعة فى وسط الفناء. جريت ورأيت شعرة من الشعر الأحمر قد خرجت من تحت العباءة التى تغطى الجثة، وكانت ترتعد، كانت عباءة آفاق السوداء، وكان الشعر شعرها الذى كان يلمع، كان ناعمًا متموجًا.

وضعوا النقالة فى الشرفة ودقت أمى على صدرها، ثم دخلت النساء والأولاد الذين كانوا قد هجموا على باب بيتنا، وإلى أن تحركت لأغلق باب عُش الحمام خوفًا من الأولاد كان بيتنا قد امتلأ بالرجال والنساء الذين جلسوا حول جسد آفاق يدقون على رؤوسهم وصدورهم.

كانت الشمس قد سطعت، وكان ظل عامود النور الواقع فى الميدان منعكسًا على حائط بيتنا الطينى، وبعدها انعكس فوق رؤوس الناس، وكانت نهايته منعكسة على الأعشاب البرية التى فى الحفرة التى تتوسط المنزل، وكان صوت آلة الخلاط يعلو جدًا حينًا، وحينًا ينخفض.

كانوا يصبون المسلح لأساس المخزن الحادى عشر.

حين حل الظهر جاء أبى، وكانوا قد أخذوا منه تعهدًا بأن يخلى البيت حتى آخر الأسبوع، وكان على هذا الموعد يومان.

كنت قد أخذت حمائمى وربطت أجنحتها ووضعتها تحت القفص حتى أبنى لها عشًا.

منذ أن أشرقت الشمس حتى حل الظهر كنا قد رُحنا وجئنا عشرة مرات أو أكثر، وجمعنا أثاثنا، وكان آخر شىء بقى أمامنا أن راح أبى يجمع الأشياء المتناثرة فى جوالين ليحمل هو واحد وأحمل أنا الآخر.

وفجأة علا صوت البلدوزر ورأيت جدار بيتنا الطينى دفع إلى الأمام فارتجف، وتفكك وانهار.

وهمس أبى غاضبًا:

– الكفرة، مش سايبينا لحد ما نخليه.

دُفعت مقدمة البلدوزر - التى كان أعلاها عبارة عن شفرة عريضة قاطعة - إلى الأمام وسحُبت إلى داخل البيت فوق أنقاض الجدار.

حمل أبى الجوال على كتفه وقال:

- يللا يا ابنى... ياللا امشى.

كان جوالاً ثقيلاً وحملته بمشقة وأحنيت ظهرى تحته، لم أكن قد خرجت من باب البيت بعد حين تناثر عُش حمائمى مثل فقاقيع الصابون فوق شفرة البلدوزر الصافية البراقة.

كنت فى الزقاق حين ارتفع بصرى إلى السماء. لا أدرى كيف فك الذكر الأبيض جناحه وخرج من تحت القفص وطار فوق بيتنا الذى كانت سلاسل البلدوزر العريضة تسحقه.

وضعت الجوال على الأرض ونظرت إلى الحمامة التى كانت قد لمت جناحيها وجاءت بسرعة شديدة فوق أنقاض بيتنا، ثم علت ودارت، ثم دارت وكأنها لم تكن تعرف البيت، كانت كأنها حائرة، صَفَرتُ؛ فسمعت صفيرى وهبطت ومدت عنقها، ثم رفرفت، وبعدها ارتفعت فجأة وراحت تعلو وتعلو إلى أن اختلطت بزرقة السماء.

نظرت إلى قلب الزقاق فلم أر أبى، كان قد ذهب بينما بقيت أنا مع الحمل الثقيل الذى كان على أن أحمله على كتفى.

* * *

فى الطريق

كانت "دولت آباد" ترتعد فى انعكاس السراب، وكأن الجدران والبيوت مبنية على الهواء، اشتدت طاحونة هواء المركز الصحى وراحت تلف.

كانت الرياح تمر من أعلى، وأغصان الأشجار تطول ولا تصل كفوفها الرقيقة إلى الريح.

كان الطريق بلون الرصاص، ثم تحول إلى الخشب الأبيض اللطيف. كانت الكثبان قد تناثرت متفرقة فى البرية بينما راحت الأكواخ على جانبى الطريق تهرب، راح الغبار يتلوى خلف الموتور ويرتفع لأعلى.

كان صوت الموتور المعدنى غريبًا فى الصحراء.

ما أن وصلت إلى التل حتى انزلق التراب الناعم من السطح المنخفض قليلاً للروابى تحت مقدمة الموتور. وشَرِقَ الموتور، وسرت الريح من فوق الأشجار فى الهضبة وحملت التراب الناعم إلى الهواء. كبحت الدراجة ووضعت على عينى نظارة سوداء لها حزام جلدى، فاسودت الربوة.

هبطت من التل العالى فرأيت عن بعد ظل رجل انفصل عن ظل الشجرة الموجودة بجانب الطريق ورفع يده. حين وصلت إلى الرجل كبحت السيارة.

سألنى الرجل:

- رايح دولت آباد؟

- رايح دولت آباد.

- تاخدنى معاك؟

- اركب.

رفع رجلى السروال وجلس فوق صندوق الدراجة البخارية، فارتفعت الدراجة من مكانها كانت صورة الرجل فى ذهنى، كانت عيناه مثل شقوق أرجل الفلاحين كانت ضيقة ومسحوبة وعميقة وجبهته عريضة، وشعره كأنه صوف قديم.

كان الجزء الواقع من منبت شعره حتى حاجبيه يهرب من الذهن، كان محترقًا وضيقًا و... كان فمه قد هرب من ذهني حيث كنت قد رأيته لعدة لحظات واقفًا على جانب الطريق بقامته القصيرة العريضة مرتديًا سروالاً أسود واسع من الكتان، وعليه قميص أبيض قذر خرج منه شعر صدره ببياضه المختلط بالسواد... أما فمه؟

سألته:

- اسمك أيه؟

خطفت الريح الكلام من فمي، وحملته إلى أعلى، وفصلت الكلام عن بعضه، ومررته من فوق رأس الرجل فلم يفهم ماذا قلت.

عدت وسألته:

- اسمك أيه؟

فقرب فمه من أذني وقال:

- بتقول أيه؟

- با اسألك عن اسمك.

- اسمي؟

- أيوه.

- مستان.

كان شكل فمه قد هرب من ذهني.

شردت أفكر أنه يجب أن يكون كبيرًا جداً وواسعًا، وأن تكون له شفتان محترقتان متشققتان يابستان. وانتهى الطريق والتف وهبط في مجرى مائي كبير وعميق وطويل. وسقط الظل على رأسينا ونحن نسير بجوار جدار المجرى القصير.

سقطنا في مطب فاهتزت الدراجة، واهتززنا نحن، وسمعت تأوه مستان.

سألته:

- فيه أيه؟

فلم يسمع، كان صوت الدراجة يعلو عن صوتينا على امتداد المجرى، وكانت الشمس ساطعة فوق رأسينا، والجدار الأيمن كان مشمساً، وأرضية المجرى غير المستوية كانت عبارة عن لونين على امتدادهما، أصفر بلون الليمون، وأصفر بلون الرمل.

عدت فسألت مستان:

- فيه أيه؟

ملأت الريح فمي.

- بطني.

كبحت الدراجة ونزلت ونظرت إلى فمه، فوجدته عبارة عن ثلاثة أجزاء؛ فشفته السفلى كان لها شق، والرمس قد استقر فى طرف عينه.

قلت له:

- بطنك مالها؟

فأجاب:

- فوق سُرتى بيوجعنى.

- علشان كده رايح دولت آباد؟

- رايح للدكتور يشوف تعبى أيه.

- من إمتى وأنت تعبان؟

قال:

- من زمان، من ساعة ما كنت عَيل... ده عَيا قديم.

هبط طائر هزاز الذيل صغير لونه رمادى حاد، ورأيت أنه وقف فى الميدان، وهز ذيله، ثم طار. خلت أذنى من صوت هدير الدراجة، سمعت صوت احتكاك اغصان.

وحلقت من فوق رأسى الرجل نقاط رمادية أسفل بطن طائرى الحبار، واستقرا أمام عينى، وكانا قد مدا عنقيهما وراحا يحلقان ولون أجنحتهما الأصفر تحت الشمس يشبه لون الحرير الأصفر الشفاف.

سأل مستان.

– هو الموتوسيكل طق طق وعِطِل؟

قلت:

– لا.

قال:

– طب ليه ما بتمشيش؟... أنا لازم ارجع بسرعة الغيط.

قلت له:

– اركب.

حين خرجنا من المجرى، كانت أرضًا بور، كانت الأرض تميل إلى البياض، ومن بعيد كانت دوامة التراب تلف وتعلو وتحمل التراب إلى الهواء، وخلف دوامة التراب كانت دولت آباد التى صارت جدارنها الآن على الأرض، وما زالت طاحونة هواء المركز الصحى تتوسط كبد السماء.

سألت مستان:

– انت من أى قرية؟.

قال:

– قرية الملا.

– الصيف كان عامل أيه السنة دى؟

– الحمد لله.

ثم تكلم وخطفت الريح أحاديثه، فوصل حديثه إلى أذنى طائرًا... العربية كانت واقفة جنب الغيط بتحمل بطيخ، فوق سُرتى وجعنى... ما استحملتش... قلت اروح المستوصف عند الدكتور... مهندسى، زرعنا... محصول السنة دى...

راح يتحدث والرياح تزوم فى أذنى، والأرض البور تجرى تحت مقدمة الموتوسيكل وتهرب، وكانت السماء باللون الرصاص، ملوثة بخطوط حمراء وصفراء من الغبار، ونور الشمس يجرى فى البرارى ولم تكن هناك ظلال كان كلام الرجل يستقر فى أذنى، وقد صرت أعرف أن لديه ولدين وبنتًا. وأنه الظهر كان بياكل لقمة فى الكوخ، ومرة واحدة بطنه وجعته، وان وجع بطنه قديم،

بس المرة دى ما اتحملش، ومشى، علشان يروح المركز الصحى"... وعلى كده حطيت منديل الأكل على الأرض، والبراد على النار... ومشيت، كانت العربية فى غيط البطيخ... خدت الدوا... ولما رجعت... كانت مراتى على وش ولادة" وكانت زوجته التى توشك أن تلد محبوبته، كنت أربط الكلمات المتقطعة التى كانت الريح تقطعها، وكنت أعرف أنه يريد أن يرسل ابنه إلى مدرسة " عنبر آباد " وأن مكسب المحصول لهذا العام لن يعوض خسارة العام السابق "السنة اللى فاتت كانت سنة قحط، كانت سنة سودة، سنة جفاف..." وأنهم هذا العام حفروا بئراً، وأنه كان جيداً والحمد لله، وأن الأنابيب المعدنية ذات اللسان العطش كانت قد امتصت المياه الجوفية عن أخرها ثم لفظت أنفاسها وفجأة رمت الريح الصفراء - التى كانت تجر على الأرض كل شيء - التراب الساخن على وجهى ورأسى، فأوقفت الدراجة.

سأل مستان:

- فيه أيه؟

قلت:

- ولا حاجة.

قال:

تعبت؟

نزلت عن الدراجة، ونزل مستان، نظفت المقعد والنظارة.

سألنى مستان مرة ثانية:

تعبت؟

قلت:

- لا

قال:

- ما تريح الموتوسيكل.

قلت:

- ماشى.

قال:

- انا رايح اقضى حاجة.

وذهب، وابتعد عن الطريق، ورفع رجلى السروال وانثنت ركبتاه، وجلس القرفصاء بجوار صخرة.

ابتعدت عن الدراجة لأجلس تحت ظل شجرة سدر عجوز واقفة بجوار الطريق، حتى يقضى مستان حاجة ويأتى فأوصله إلى المركز الصحى.

لم يكن ظلى قد اختلط بظل الشجرة بعد حتى سمعت آهة مستان.

انزلقت نظرتى على ظله العريض فرأيته انتفض مثل الكرة المطاطية وارتطم بالأرض جريت.

- فيه أيه؟

وذهبت إليه:

- قرصة ثعبان.

كان الثعبان قد لدغه فى قدمه من خلف.

- انا با اتحرق.

كان ساخنًا جدًا، وحتى وصلت إليه كان لونه قد صار أزرق، ولسانه خرج من بين شفتيه التى إحداهما مشقوقة مثل لسان الكلب الظمآن، وحتى جلست بجواره كانت الدم قد نزف من لثته وخفت أن أمسك يده أو كتفيه وأجلسه وشفة مستان قد صارت لدغة ثعبان.

قال:

- انا با اتحرق.

لم يكن يتكلم، كان يغمغم.

- انا با اتحرق. اعمل حاجة. كبدى بيتحرق.

- أعمل أيه يا مستان؟

كان صوته يرتعد.

- المركز الصحى.

أمسكت كتفيه لأرفعه، كان ثقيلاً، كان كالرصاص، جرجته على الأرض، فانجرت وراءه الأعشاب.

أسندته على جذع الشجرة.

- ازيك يا مستان.

لم يتكلم، تحشرج.

صحت فيه:

- مستان.

وهززته.

كان الدم ينزف من لثته، وأثر دم يتجمد على شفته المشقوقة، وكانت الفقاقيع تخرج من حلقه من الشخير. وكنت أنا قد فقدت الإحساس بيدى وقدمى ونظرتى الحائرة تجول فى البرارى الخالية حيث الشمس الساطعة والأرض البور المالحة وجدران دولت أباد راسخة على الأرض و... كانت الريح تلف فى دوامات وتشن هجومها...

* * *

تَرَقُّب

كان كل من حان دوره يتمدد ويموت. ثم تلوى زوجته شفتها وتندبه، ويبدأ أولاده فى النواح، ويكررون ذلك. أما من لم تكن له زوجة فأن أباه وأمه يكونان هما صاحبى المأتم.

ثم تأتى مراسم تشييع الجثة، ثم الصلاة على الميت. وعندما كانت اللعبة تنتهى كان الميت يخرج من اللحد مبتسماً، ويتحرك بحركات مفتعلة، ثم يغادر منطقة المقابر مع المشيعين متجهاً صوب المدينة.

عندما اخترعنا لعبة الموتى، لم يكن الأساس أن تموت النساء، أما الآن فلقد حددنا أدواراً للنساء كذلك. وبعض المواطنين من نفس المدينة الأخرى خالفوا ذلك، لكنهم لم يقدموا شيئًا جديداً.

فى الأيام الأولى لم نكن قد فكرنا فى الموت بعد. وكانت أحوالنا أيسر، فلا كان لدينا دخان ولا قدر تشتعل تحته النار، ولا سفرة ولا جنازة ولا حركة.

حين كان الصبح يشرق، كنا نخرج جميعًا من البيوت ونجلس فى الشمس، ونختلط معًا فى ركن. كنا نضحك أحيانًا، وتعبس وجوهنا أحيانًا. كانت عيوننا تخرج من أحداقها أحيانًا لكنه لم يحدث أبداً أن ارتخت أجفاننا أو ارتبك نظام تنفسنا وتورمت حلوقنا.

وذات يوم بدت لمشاور – الذى كان دائمًا يفكر حتى نجد لأنفسنا حيلة لكى تسير بها أمورنا من ناحية، ومن ناحية لكى نتحرر من الكسل ومن الثرثرة فى ركن – بدت له حيلة جديدة فقال:

– يا أخى الوضع كده وحش جداً، يعنى اننا نتمدد فى الشمس ونقزقز لب، ولا يبقى عندنا حركة ولا محاولة ولا مجهود... والأسوأ من كل ده اننا حتى ما بنموتش... حقيقى كده وحش جداً...

حين بدأ مشاور فى الحديث صمت الشيوخ، وحملق الشباب فى عينيه بنظرة يشوبها عدم التصديق، والشبان الأصغر - الذين لم يكونوا داخلين فى حسابنا - كانوا كلهم آذان صاغية.

وفجأة صمت مشاور، ثم ملأ صدره بالهواء وقال:

- طيب، اقتلونى!

قلنا جميعًا:

- نقتلك!

لم يكن كلامنا سؤالاً ولا موافقة.

قال:

- أيوه... اقتلونى على الأقل يكون عندكم جنازة تشيعوها... تلات أيام ختم قرآن، ومراسم اليوم السابع، واربعين، وسنوية... كل ده شغل... ها يشغلكم كلكم.

واختلطت أحاديثنا، وراحت نظرة مشاور تنتقل من فم هذا إلى فم ذاك.

- نقتلك؟... انت مش ها تموت!

- أيوه مش ها تموت... انت ها تعفن وتتنفخ وبس.

- أيوه ها تعفن بس... ها تفضى!

- ها تفضى.. ها تفضى من جوه!

وبعد أن قلنا جميعًا كل ما لدينا، قال مشاور:

- جربوا.

- وجربنا.

وذات يوم قبيل الغروب نصبنا النصبة فى واحد من ميادين المدينة الكبيرة، وتجمعنا حول بعضنا بعضًا، وصعدنا فوق ظهور بعضنا وألقينا الحبل فى عنق مشاور، وعقدنا طرفى الحبل فى سيارتين قويتين، وهللنا، ودارت السيارتان، وجذبنا الحبل، ولكنه كان حيًا، وبقى حيًا.

لكن مشاور كان وقحًا وسمجًا، فقال:

- مفيش عندكم أى حيلة، لازم تقتلونى علشان يبقى عندكم عزا كبير ومضبوط.

قعدنا نقول له:

- إنت مش ها تموت.

لكنه أصر أن نجرب مرة ثانية، وجربنا فلم يمت، فكان أن جلسنا وأعملنا الفكر معًا "... لو كان فى يوم يبقى عندنا ميت، لو فى يوم عملنا جنازة، ها نبقى مشغولين على طول، على طول هايبقى عندنا شغل، وها نبقى مشغولين و... دائمًا ها يبقى عندنا يومين للقهوة والفاتحة ويومين لفطير الرحمة فى الأسبوع، ويومين للفتة فى الأربعين". وكان هذا كله عملاً.

جلسنا معًا وأعملنا عقولنا لكى تحل مشكلاتنا، كان موتنا فى البداية بسيطًا ولم تكن عندنا الرايات التى تسير فى أول الجنازات، فكان كل من يحين دوره يتمدد ويردد الشهادة، ويغمض عينيه، وكنا نحن نضعه بكل بساطة وسرعة فى التابوت ونحمله إلى المقابر. وكنا نضعه فى مكانه فى اللحد، ونرقده على جانبه الأيمن، ونقرأ له الأدعية، وبعد أن ينتهى عملنا كان يخرج من القبر ويرجع معنا إلى المدينة.

فى البداية كان عملنا دائمًا، كنا فقط نريد أن ننشغل، ولكننا فيما بعد صرنا خبراء. والآن لدينا جماعات من " الذين يدقون الصدور"، ونزين التابوت أيضًا، وأمام كل مجموعة مقرئ حسن الصوت يطن بصوته وفى يده مكبر صوت يدوى من فوق منصة بيضاء.

كنت جالسًا فى النافذة أنظر إلى الخارج، كان المكان بالخارج من خلال مربعات، فأسياخ الشباك جعلته هكذا.

كان الجو آخذًا فى البرودة، كان استقرار الطقس قد انكسر حيث كانت قطع السحاب تلقى بظلالها على المدينة فى بعض الأماكن حينًا، وحينًا كانت الريح تهب وتحمل السحاب فتصفو السماء تمامًا كقطعة بلون الرصاص الداكن الثقيل.

رأيت فى الميدان سربًا من الغربان، كان على جانب الرصيف وفى حفرة ضحلة كان هناك جُعل ضخم داكن اللون يحاول أن يخرج كرة الروث التى انزلقت إلى الحفرة. رفرفت الغربان. وكان الجُعل غاضبًا لأن كرة الروث قد وقعت من قبضته عدة مرات وانزلقت إلى داخل الحفرة.

كانت الأرض رطبة، ففى الليلة الماضية انفجرت السماء الداكنة، والريح كانت قد اشتدت. وبعد ذلك سقطت أمطار قليلة. كان الجُعل يفتح جناحيه ويدور حول نفسه ويحدث صوت صرصرة، ثم يهجم على كرة الروث بيدين وقدمين مثنيتين مرتجفتين.

كان شريكى نائمًا فى آخر الحجرة تحت غطاء من الصوف الأسود اللون، كان يشبه فى فضاء الحجرة نصف المظلم خفاشًا كبيرًا يفترش الأرض.

كان الخفاش ساكنًا لا يتحرك، فقد ذهب أمس من المدينة إلى المقابر ضاربًا صدره، وكان يؤدى دور حامل الراية، ولم يكن لديه قدرة على الحركة.

صرخت السماء. رأيت قطة قفزت من الميدان، ناديت شريكى، فقال بصوت غير مفهوم:

- النهارده لأ. النهارده الجو مش صافى.

كان موتنا كحياتنا. بالأمس كانت هناك فوضى. اليوم كان دور عمى بندر الذى كنا نحمله إلى المقابر فى هدوء ودون جلبة، ثم صرخت السماء مرة ثانية... ناديت الخفاش فقال:

- مش ها تمطر.

قلت:

- ده الرعد عمال يضرب السماء بكرابيجه.

قال:

- ما تبقاش حنين على السماء. مش ها تمطر. مش ها تمطر أبدًا.

كانت الريح قد أُطلق سراحها فى الحارة، وراحت تدق الجدران وبطنها المنتفخة تشبه حيوانًا بطنه تؤلمه.

كنت جالسًا فى النافذة كصورة باهتة محبوسة فى إطار قديم، ولم يكن هناك أحد فى الحارة قط. اليوم كان الدور على عمى بندر لم تكن لدينا مجموعة دق الصدر، ولم نكن ننشر أعلامًا ورايات. كان عدة أشخاص من جيران عمى بندر يسيرون، ويضعونه - كان ممددًا يتلو الشهادة على نقالة خشبية وينشرون فوق جسده عباءة قديمة، ويسيرون به نحو المقابر.

دوى صوت الطرق على باب بيتنا تحت سقف الدهليز المنخفض، انتفضت فى النافذة، وانتفض الخفاش، وارتفع صوت الطرق أكثر. قفزت من على بسطة النافذة إلى الأرض.

قال الخفاش:

- أيه الحكاية؟

وقفت وسألت بدهشة:

- حكاية؟!

وكأن الخفاش ندم. ما الذى يمكن أن يحدث؟... اليوم، كان يوم عمى بندر. هذا هو ما نعرفه جميعاً، ولابد أن أولئك الذين يتحتم عليهم أن يَشيعوا جثمانه قد استعدوا، ومن المؤكد أن زوجته العجوز قد ملأت الدنيا نواحاً.

ومن جديد عاد صوت الطرق على باب المنزل، وصوت السماء التى لم أكن متعاطفاً معها، وصدرت الريح التى كانت تزوم.

خرجت من الحجرة فتعثرت قدمى فى الظلام الذى كان ملفوفاً بالغطاء ووقعت. مر شريكى من فوق رأسى وذهب باتجاه الدهليز. وإلى أن أجلس وأدلك مفصل قدمى ثم أقوم فأذهب لأرى من الذى يطرق باب المنزل بهذه العجلة، كان شريكى قد ذهب، وحديثهما قد بدأ.

كان رجلاً غريباً لم أكن أعرفه، وكأننى لم أكن قد رأيته من قبل.

كان يقول:

- مش ممكن ازاى؟

كان شريكى متعجباً. كانت نظرته، وخطوط وجهه، وارتعاشة شفتيه، وحدقتاه اللتان كانتا مائلتين لأسفل كلها كانت تعبر عن خوفه من الأمر الذى أدهشه ومن الحادثة غير الممكنة التى كانت قد حدثت فى آن واحد.

سألته:

- أيه اللى حصل.

قال الرجل الغريب:

- عمى بندر مات.

قلت:

طيب ما هو ده معروف... دى حاجة مش مُدهشه. النهارده يومه.

قال شريكى:

- ده مات بجد.

كان سقف الدهليز قصيراً وكانت الريح تهز ضلفتى باب المنزل. كانت مفصلات الباب الصدئة تحدث صوتًا . قال الغريب:

- مفيش حد راضى يشيل جثته.

قال شريكى:

- مفيش حد مصدق إنه مات.

وقلت أنا:

- لكنه مات... مات بجد.

صمتنا عدة لحظات. كان الجُعل قد دفع بكرة الروث إلى جوار عتبة باب بيتنا وها هو الآن قد ألصق قدميه بالحافة العليا للعتبة وضغط على كرة الروث بيديه على صدره ونشر جناحيه وراح يحاول أن يجرها إلى داخل الدهليز.

قال الرجل الغريب:

- وبعدين؟

قال شريكى:

- وبعدين أيه؟

قال الرجل الغريب:

- مين اللى ها يشيل جثته؟

قال شريكى:

- جيرانه.

قال الرجل الغريب:

- لكن هما ما عندهمش الجرأة... هُما قالوا لى أجى لك.

تعجب شريكى:

- تيجى لى؟... وليه أنا؟

قال الرجل الغريب:

- علشان انت تعرف كويس ترتيبات الدفن.

قلت:

- كل الناس فى المدينة يعرفوا الحكاية دى كويس، كلهم.

وقال شريكى:

- إحنا دفننا واحد كل يوم... كل الناس يعرفوا الحكاية دى.

تململ الرجل الغريب:

- دى كانت مسرحيات... عمى بندر مات بجد.

سحب الجعل كرة الروث إلى داخل الدهليز. وها هو قد فتح جناحيه وراح يلف حول كرة الروث وجناحاه يحدثان صوت خشخشة.

قال الرجل الغريب:

- على كده بقى الجثة ها تفضل لحد ما تعفن. لحد ما تدوب.

كرر شريكى كلام الرجل الغريب:

- لحد ما تعفن... لحد ما تدوب.

وكأنه قد أصابه الذهول. وكأنه قد صار مسلوب الإرادة.

اشتدت الريح، ودارت دوامتها وهجمت على الدهليز، وارتطمت ضلفتا باب البيت ببعضهما، وأضاء برق خاطف دهليز البيت شبه المظلم لحظة.

ذهب الرجل الغريب. وذهب شريكه وتمدد تحت الغطاء الصوفى، وذهبت أنا أيضًا وجلست على حافة النافذة ورحت أتفرج على الخارج.

كانت متداخلة مع بعضها؛ صوت الناس فى المدينة، وصوت السيارات، وصوت المصانع. كان المنظر بالخارج فى شكل مربعات متراصة فقد جعلته أسياخ النافذة على هذا النحو. كان على يمين النافذة مقهى. لست أستطيع أن أحدده، كانت أبوابه خشبية بلون قشر الليمون الجاف ولها شُرابات من الأحجار ذات اللون اللازوردى معلقة أمام باب الدخول.

حين كانت الشمس تنتشر كان زبائن المقهى يمرون من أمام النافذة ويذهبون ناحية المقهى ويجلسون خلف الموائد الخشبية المطلية سوداء اللون، يقرأون الصحف حتى الظهر.

لم يكن قد بقى حتى الظهر إلا قليلاً، فإذا بحركة غير عادية تحدث، كان زبائن المقهى يمرون من تحت النافذة ويتهامسون. كان كلامهم مقطعًا غير متصل، وغامض، وكانه أحيانًا غير مترابط. كان اليوم هو يوم الاثنين.

ألصقت وجنتى بالأسياخ، وركزت اتجاه نظرتى على بساط بائع الصحف الذى كان موجودًا أمام المقهى. كان نصف مائدة بائع الصحف واضحًا، وكانت يد بائع الصحف الطويلة الخشنة الكثيفة الشعر واضحة، كنت قد رأيت فيما مضى قامة بائع الصحف الطويلة مرتين أو ثلاثَ. وكان ذلك عندما كان يقف على ناحية المائدة اليمنى وهو يرتب مائدته. وها هى الآن يده الطويلة فقط وهى تُجَر على المائدة، وهو يُمسك الصحف بأصبعيه الضخمين ويسحبها و.... كانت اليد تروح وتجئ مرة ثانية وترجع بالصحيفة، وتعود من جديد... وأنا الآن أفكر ترى كيف تكون هيئة بائع الصحف؟...

لو كان سعيدًا لبيع كل هذه الصحف فسوف تكون شفتيه الغليظتان المتشققتان المقفولتان. سوف تكونان منفرجتين، وسوف يكون على وجنتيه خط الآن و... لم أكن قد رأيت أبدًا ابتسامة بائع الصحف، وها هو تصورها قد أصبح مشكلة بالنسبة لى.

لم يدم الأمر طويلاً حتى وصل خبر موت عمى بندر إلى مسامع الجميع، فهمت هذا من حوارات الناس الذين كانوا يمرون من تحت النافذة.

كانوا يقولون:

– ده لونه ازرّق... وعينيه مفتوحة.

وكانوا يقولون:

– الكل واقفين متكتفين... مفيش حد أبدًا عارف ازاى يندفن واحد ميت.

حين حل الظهر كنت قد سمعت كلامًا كثيرًا وسمعت أنهم شكلوا وفدًا لكى يدرس سبب وفاة عمى بندر، فقد دق ناقوس الخطر بوفاة حقيقية و... سمعت أحاديث متقطعة أخرى لم استطع أن أربطها ببعضها.

ارتفع صوت المؤذن فتحــرك الخفــاش، ناديته وكـأنه لم يسمع سمعت صوت أنفاسه؛ لم يكن عادياً؛ كان شيئاً يشبه حشرجة قطة فى حــالة احتضار. ناديته مرة ثانية فأزاح الغطاء وجلس.

سألنى:

– إنت فين؟

قلت:

– أنا قاعد فى الشباك.

فأدار رأسه وامتدت نظرته صوب النافذة، كانت مقلتاه مائلتين لأسفل، وصوته مختنقاً محشرجاً كصوت المراهقين.

– إنت فى الشباك؟

– أيوه... زى العادة... فى الشباك... ورا الأسياخ...

واتسعت حدقتاه، ورفع ذقنه، واتجهت كل يد من يديه إلى اتجاه حتى ينفتح.

– إنت كنت قاعد فى الشباك؟

قلت:

– شباك واحد بس.

قال:

– الشبابيك اتنين!

وقام، كان يتحدث بصعوبة، ويتنفس بمشقة. وكان المخاط قد نزل من أنفه، وعيناه قد اتسعتا، وراح صوته يختنق لحظة بعد لحظة، وكان نَفَسه يخرخر وكأنك تنشر جذع شجرة بلوط قوى. تقدم للأمام. قفزت إلى أسفل وكأن حلقه كان قد تورم أيضاً.

قلت له:

– إنت حالتك مش كويسة.

قال الخفاش:

– أنا كويس... عمرى ما كنت أحسن من دلوقت.

قلت:

- إنت لازم عندك حمى.

قال:

- أنا عمرى ما كنت هادى كده.

وجاء ناحيتى وكأنه لم يكن يرى، أو كأنه كان يرى كل شىء اثنين. كان يترنح، وقد مد يديه للأمام، كانت قبضتاه مخيفتين. ابتعدت عن طريقه، فعاد وجاء فى اتجاهى و... جريت، وخرجت من الحجرة، وتركت الغلام فى الدهليز كان الجعل قد هدأ وقد ألصق كرة الروث بصدره وفرد جناحيه، كانت قرونه تهتز بهدوء يعبر عن السكينة والاستقرار.

خرجت من باب البيت. كان المكان أمام المقهى غير عادى، وكان أهل المدينة قد تجمعوا حول بعضهم بعضًا فى جماعات، وراحوا يتهامسون معًا. وكان زبائن المقهى قد انحنوا على الموائد المطلية باللون الأسود وراحوا يقرأون الجرائد.

سمعت أن عم بندر كان قد أعطى خبر وفاته للصحف قبل أن يموت ذهبت ناحية نافذة الحجرة. كانت صورة الحجرة فى شكل مربعات متراصة، كانت أسياخ النافذة قد جعلتها على هذا النحو وكان الخفاش واقفًا على عتبة باب البيت، وكان فمه مفتوحًا مثل السمكة التى تم اصطيادها فوقعت على الرمال الجافة، وكانت شفتاه ترتجفان.

ربما كان هو الآخر قد أعطى للصحف خبر وفاته.

عندما حل الغروب وهبت الرياح صار البرد أشد قسوة، كان الخفاش واقعًا عند عتبة البيت، كان ميتًا. ذهبت إلى المقهى وجلست. كانت الصحف تدور على الموائد من يد هذا إلى يد ذاك، كانت الجرائد كلها قد امتلأت بإعلانات الوفيات. لم يكن فى عيون الزبائن أسف ولا تساؤل، كان الفضول هو الذى يحركهم، كانوا يتحدثون معًا، ويسألون بعضهم بعضًا عن أشياء معينة.

- سمعت؟

- بيقولوا إن مشاور هو اللى انصاب فى الأول قبل أى حد.

- قبل عم بندر؟

- وقبل الخفاش.

- بيقولوا إن الدنيا اتملت جثث.

- الجثث منفوخة زى القِرَبْ، ومتمددين جنب بعضهم.

- كل واحد بيفكر فى نفسه.

- مفيش حد أبداً بيفكر فى الجثث.

- خايفين يتصابوا.

- وبالحالة دى هايتصابوا.

- من غير ما يعرفوا.

كانت الأحاديث متداخلة ببعضها، وكان الجو فى المقهى خانقًا، كنت جالسًا خلف مائدة مطلية باللون الأسود، وعينى مرتكزة على الشرابات اللازوردية اللون المعلقة أمام باب المقهى. كان الليل مقبلاً يلقى بلونه الأسود.

بدأت ريح لطيفة فى الهبوب فاهتزت الشرابات جرت الريح فملأت رائحة الجثث المقهى.

انتقلت من مكانى، وسألت الرجل الذى كان جالسًا فى مواجهتى:

- إنت كمان حاسس؟

نظر الرجل إلى، كانت عينه حمراء كعين الخروف الذى يذبح.

قلت له:

- باسألك عن الريحة دى... وريحة الجثث.

لم يكن ينطق.

عدت وسألت الرجل الذى كان جالسًا خلفى:

- طب وانت؟

قال:

- أيه؟

قلت:

- الريحة دى... أنا ها استفرغ... باتكلم عن الريحة دى.

ظهرت حول شفتيه حركة بدت وكأنه يضحك، ثم وكأنه تحدث.

- الريحة؟... أى ريحة؟...

قمت. وخرجت من المقهى. ذهبت إلى خلف النافذة ونظرت إلى الحجرة التى كانت أسياخ النافذة قد جعلتها على صورة مربعات متراصة كان شريكى ملقى على عتبة باب البيت وقد انتفخ قليلاً. كانت رائحة الخفاش تبدو وكأنها تتلاشى وتخرج من الحجرة.

كان جو الحجرة خانقًا. ابتعدت عن النافذة. كنت ارتجف؛ كنت ارتجف من البرد رفعت ياقة معطفى وجريت. كان ظلى ينعكس على الجثث ويجرى معى كان يبدو وكأن أحداً يطاردنى.

كان وقع أقدام يترامى إلى مسامعى، كان صوتًا مختنقًا يشبه صوت اصطدام خف جمل سمين فوق كومة من التبن.

وانتبهت فجأة إلى أننى أساق مع حشد من البشر ناحية الميدان الكبير فى المدينة، والأنفاس كانت مختلطة مع الكلمات متقطعة غير مفهومة.

سمعت أنهم زينوا ميدان المدينة الكبير وسمعت أن "..: مشاور قاوم... قعد يقاوم ثلاث أيام، وبعدين مات، ودلوقت جثته مرمية فى ميدان المدينة المركزى و... " كان الميدان غارقًا فى النور.

كان جسد مشاور ملقى فوق مصطبة كبيرة من الأسمنت، طُردت إلى الخلف مع ضغط جموع الناس الذين كانوا قد انهالوا على الميدان كالسيل، ولم أفهم ما الذى حدث حتى وجدتنى فجأة فوق مئذنة المسجد الكبير فى الميدان.

كان جسد مشاور يكبر ويطرد الناس إلى الوراء، ويملأ الميدان. كانت الهمهمات متداخلة، والصرخات تنحبس فى الحلوق. كنت جالساً تحت نافذة المئذنة الصغيرة وقد امسكت بركبتىَّ. كنت أرى قدمى الجثة يطولان ويملآن الشوارع ويداها تطولان وأصابعها تملأ البيوت. كانت بطن مشاور قد علت، كانت أعلى من نوافذ البيوت العالية الواقعة فى الميدان الكبير. كانت رائحة الجثة عالقة بأعلى المدينة كالسحاب العقيم.

لم يعد هناك الآن صوت ولا همس ولا همهمة، لم يعد هناك إلا الجسد الذى كان يفترش المكان كله، ورائحته التى كانت تملأ الفضاء. وأنا حيث كنت جالساً القرفصاء محتضنًا ركبتىَّ، كنت انتظر أن تنفجر الجثة فى أى لحظة.

* * *

ليس عندما أكون وحيدة

ضَيقَت عينيها وسألت:

– اللى انت بتدخنه ده أيه؟

قلت:

– هو أيه؟

– اللى انت بتدخنه.

قلت:

– أنا لو ما دخنتش "اشنو"(*) ما احسش بطعم السجاير.

ضحكت من كلامى. لا لم تكن ضحكة، كانت نوعًا من الابتسام دفعنى لأن أعود للتفكير فيما قاله القهوجى، كان قد قال : "عندنا أجنبى كمان" وكنت أنا من قال " لأ... أنا فى عرضك... عاوز اشنو... على الأقل الواحد بيعرف أنه بيدخن سجاير. أما الآن فقد ندمت أشد الندم لأن "... خايب، إذا كنت عارف ان ده هايحصل... او كنت عارف أن الحظ ها يكون معاهم كده... يا ريتنى كنت اخدت الأجنبى...".

... كنت شاردًا مع أفكارى، ومع ندمى حتى شتت صوتها الظريف حواسى.

– أنا آسفة جدًا، آ... ممكن اترجاك تنزل القزاز ده تحت؟... دخان السجاير مضايقنى.

كانت نفثات الدخان الوقحة الصادرة عنى قد ملأت فضاء السيارة، بدا الدخان وكأنه كومة... أنزلت الزجاج إلى أسفل، ولم يتحقق المراد، فقد رميت السيجارة التى لم تكن قد بلغت منتصفها وقلت:

– إنتى ما بتدخنيش خالص؟

– لما با اكون لوحدى؛ لأ.

(*) اشنو: نوع من السجائر يسمى باسم مدينة اشنو أو "اشنويه" فى أذربايجان.

ونظرت إلى.

كانت نظرتها كصبح ربيعى: صافية، ساطعة ومبهمة "لما با اكون لوحدى: لأ..." وكأننى لا شىء "لو كانت بتدخن أجنبى كان بقى لوجودى معنى..."

فى اللحظات القليلة منذ أن رأيتها وانسكب خمر نظرتها فى روحى حدث ما طرد الخمول عن جسدى وجعلنى أشعر أن تيبس ظهرى لان وصار فى نعومة المرتبة، وجعلنى ذلك أشعر بالمتعة. كنت قد أشعلت سيجارة وأغمضت عينىَّ لكى أفرغ ذهنى المزدحم، وأحفظ فى وجدانى ابتسامتها الدافئة ونظرتها الحنونة، وفجأة صبت ابتسامتها المفتعلة ونظرتها ورقة صوتها اليأس الثقيل كالرصاص فى قلبى، وانتزعت قلبى من مكانه و... هى وحدها الآن جالسة فى ركن وتقود بسهولة.

كنت أختلس النظر إليها، حين كانت الريح تدخل، كان شعرها يتطاير ثم يجتمع ويرتفع لأعلى، ثم ينسدل من جديد، ويتراقص على انحناءة عنقها.

كنت عندما يئست، ولم تتحرك سيارتى قد فكرت فى أنه يتحتم على أن أذهب إلى المدينة بأية طريقة. وكان هذا هو الذى قلته للقهوجى.

- تعرف يا أخى، أنا مش فاهم أبو طيارة دى مش ها تشتغل، دى لما بتعطل خلاص. أنا رايح المدينة، وها ابعت ميكانيكى أو حد علشان يصلحها.

فقال لى القهوجى:

- تقدر تربطها بسلك أو حبل، أو أى حاجة فى عربية نقل من دول.

كنت متعبًا و منهكًا وقد تعكر مزاجى فلم تعد لى طـــاقة لأفعل هذا، فقاطعت حديثه قائلاً:

- ياترى فيها تعب ليك لو قمت انت بالحكاية دى؟

- لأ، مفيهاش تعب، بس ...

- أنا ها ادى لك أجرتك، وبعدين دى عربية، لا هى خاجة تنشال ولا تنحط.

ثم مشيت دون أن أنتظر رد القهوجى، ودرت حول حوض عباد الشمس الموجود أمام المقهى، وذهبت إلى أول الطريق، وقبل أن اتململ وجدت " كارمن " فجأة وقد كبحت سيارتها الحمراء أمامى.

جعلت النظرة الحنونة وابتسامة المرأة السمراء الجالسة خلف عجلة القيادة قلبي يرتجف، وهزني صوتها اللطيف.

- رايح المدينة يا أستاذ؟

- لو تكرمتي.

وبما أنها قد تكرمت علي، وها انا جالس في سيارتها فإنني أريد من كل قلبي ألا أصل إلى المدينة أبداً.

كانت عيني على نصف وجه المرأة الذي لفحته الشمس فإذا بشاحنة تمرق بجوارنا وترجني رجاً.

نظرت إلى الأمام، كان الطريق يضيع بين الأشجار الفتية للغابات الصناعية بمنحنيات لطيفة على امتداد البصر.

كانت السلالم الحديدية والأسلاك الشائكة وأعمدة الكهرباء تمرق بسرعة، وهي تقود بسهولة، وصوت الإطارات على أذني وكأنه قطعة من القماش القطني تمزقها. والناس كانوا جالسين في استرخاء تحت مظلات محطات الاتوبيس وكنت أعرف أننا إذا تجاوزنا المنخفض الذي أمامنا، ثم إذا تجاوزنا المنحنى الثاني خلف المنخفض فلن يكون هناك على المدينة شيء.

جعلني لون بشرة ساعديها اللذين كانا وكأنهما نحاس منصهر وهما يهتزان مع اهتزاز عجلة القيادة أشعر بأنها كانت على البحر.

سألتها:

- إنتي كنتي على البحر؟

ضحكت وهزت رأسها، ثم عاد الصمت من جديد وصوت السيارة ورائحة البرسيم التي كانت تملأ المكان، وسيقان البرسيم العالية المتداخلة التي كانت تهتز بأوراقها الرقيقة وورودها البنفسجية مع اهتزاز الريح، وكان قلبي يهتز و... كان المنحنى الأول.

- كنتي لوحدك؟

نظرت إليَّ، فأسكرني صفاء نظرتها.

هبت رائحة أشجار الأقاقيا وزهر البابونج على السيارة، وسقط الظل على رؤوسنا. وجذوع أشجار الأقاقيا كأنها صف من الجنود الهاربين.

حين خرجنا من بين الأشجار كان الطريق الضيق يقطع المرعى، وصلنا إلى المنحنى الثانى الذى كان فى انحناءته صف من الجياد بغير سروج، كان سحبهم لسيقانهم ورقابهم وتشتت الشعر فى أعراف ذيولهم يعكس لمعان أجسادهم تحت نور الضحى.

ها هى رائحة البابونج ورائحة زهور الأقاقيا العنقودية البيضاء تتبدد لتحل محلها رائحة الدخان.

كانت مداخن المصانع تسكن صفحة السماء اللازوردية، والأفران العالية السوداء اللون خرجت من بطن الأرض على مسافات، وراح الدخان الأسود الذى يخرج من فتحاتها يلقى الظل هنا وهناك، ويلقى بظلاله على الأرض هنا وهناك، ويطير محتضنًا الطريق والحقول، وكارمن تتألق تحت الشمس وتحت الظل.

حين انتهى المرعى كان هناك جدار من القرميد البنى اللون الذى راح يرتفع وينخفض، وبعده كانت اللوحات، لوحات كبيرة وصغيرة بقوائم معدنية صدئة بألوان صفراء وحمراء ولازوردية و... وكنت أنا فى صراع مع نفسى لكى أتحدث معها.

فكرت أن أسألها "هى كانت مع مين؟... وهى ليه رايحة المدينة لوحدها... ويا ترى هى عايشة لوحدها؟..."

ثم عدت وفكرت أن أجازف وأتحدث معها دون سؤال ولا جواب فأقول لها أنا باحبك وأن "... من أول لحظة ومن أول نظرة، من ساعة ما اتفتحت شفايفك بابتسامتك الدافية، بقيت مجنون بيك و... لما شفتك..." وفجأة تراجعت ".. كلام ملوش معنى... لما الكلام يكون بيغلى جوه دماغ الواحد، ولما النار تولع فى قلبه، ويبقى كله سخن ومشدود، لكن لما يخرج من البُق وتنشال منه سخونة الدم ويتحط فى قالب الكلمات بيبرد ويتبلع..."

حين تجاوزنا المنحنى الثانى كان هيكل المدينة المنتفخ نائمًا تحت الدخان الرقيق. أغمضت عينىَّ وأسندت رأسى على المُتكأ، فداعب صوتها أذنى وكان كطنين ممزوج بالخيال كأنه جرس فى مقدمة القافلة بين النور والظلام فى خريف يوم ربيعى: قالت لى:

- عاوز تنام؟

لم أكن أغالب النوم، كنت قد أغضمت عينىَّ كى لا أرى المدينة، فأجبتها:

- لا.

ونظرت إليها. كانت الريح قد رفعت شعرها لأعلى فظهرت انحناءة عنقها الجميلة.

- أمال مالك؟

- تعبان.

ابتسمت، كان فى نظرتها سؤال، كنت أستطيع أن أواصل، ولم أفعل، انكفأت على نفسى أحدثها:

- قول لها إنك كنت سايق طول الليل، قول لها إنه كان فيه واحد فى خطر ولو ماكنتش لحقته كان مات.

- يا راجل!... ده كذب... انت امبارح كنت بتدور على الفرفشة والسهر.

- طيب وماله... وهى أيه عرفها... احكى لها حدوتة... قصة بطولة... حاجة إنسانية... اضحك عليها... اجذبها ليك...

- لا!... ما اقدرش... ما اقدرش اعمل كده.

- يا غبى ابتدى. ابتدى فى الكلام...

- طب وبعدين؟

- هو هاييجى لوحده... الكلام، ها يجيب كلام.

ولم أكن أستطيع.

كانت المدينة تُقبل، كانت تكبر لحظة بعد لحظة.

كان نفس الأشجار قد انقطع، ونفس الريح كذلك، وكانت عيناى مغمضتين، ورائحة المدينة تملأ أنفى، وكانت الأصوات قد بدأت.

- انت رايح فين؟

فتحت عينيَّ. كانت كارمن قد خرجت من ميدان معوج، وراحت تسير فى حلق ضيق لشارع طويل ينحنى عند منتصفه.

وفجأة شعرت بخفقان قلبى، كانت رطوبة الأحواض الطينية فى الحدائق وسكون الحقول قد تبددا، وراحت رائحة الأسفلت تنبعث، وانعكاس الشمس على الأسقف الخشبية والحوائط الأسمنتية يلقى حرارة وخشونة ويجعل الذهن جدياً.

- هنا كويس!

- طيب ولو ماكنتش سألت؟

- أى مكان كنت ها تسألى فيه كويس.

فابتسمت مرة ثانية وكبحت السيارة، فخرجت منها.

- فى أمان الله.

ولوحت بيدى.

- تشاو.

وحين تحركت، أشعلت سيجارة، ودخنتها بوقاحة، وأخرجت دخانها من أعماق حلقى وغاب دخان سيجارة "كارمن" فى الغلظة واسودّ. وبعد لحظة تبدد فى انحناءة حلق الشارع الأسمنتى الضيق.

* * *

السماء العمياء

ألقى يزدانداد الزهر فى النهر.

- طول ما انا عايش مفيش قمار.

قال چلاب:

- سيبنا نعيش.

- يا إما الجانايوته بالنص، يا إما ها اكسر لك اسنانك.

أما چلاب - الذى كان قد تملكه الخوف وما زال يربط يديه ويمسك أعطافه - فقد أخذ باليد السفلى.

- إنت نفسك عارف يا يزدان، مش كده؟

- هو أيه ده اللى انا عارفه؟

كان يزدانداد العسكرى واقفًا فى ثبات وضخامة مثل المنصة.

- هو أيه ده اللى انا عارفه؟

تسمرت نظرة چلاب الحارة مثله على الأرض، على الرمال الصفراء الساخنة بجوار النهر.

- إنت عارف كويس يا يزدان، عارف انهم اربعة ما حيلتهمش أى حاجة، سرقوا عجلة علشان يلعبوا قمار.

- زى ما قلت لك.

- من كلام فارغ، حاجة بسيطة قمار ما بيفيضش حاجة.

- النُص بالنص.

– ما تذلنيش قدام العيال، ما تبهدلنيش.

عَبَسَ يزدانـداد ببرود وبـلا اكتـراث، وجمـع الزهـر من الرجال، وألقى به فى النهر. وقال چلاب:

– خُد الخمسة دول، وخلينا نبقى اصحاب، أنا ها انفعك.

كـان الحـمـام الشـاهـى – الحـمـام الشـاهـى الأزرق اللون فـى كل المدينة – يتـجـمـع تحت طاقات الجسر الأسود.

كان چلاب ممدداً على قطعـة حـصـير والريـح – الريح اللطيـفة التى كـانت تهب من ثنايا صفصاف الجزيرة البرى – يبعث فى جسده الاحساس بالانتعاش.

– الجبان!...

كـان الظل ساقطاً على الصُفة الأسـمنتيـة، كانت نظرة چلاب – التى تثقب مـثل المثقاب – مرتكزة على سواد طاقة الجسر، وهديل الحمام يدعو للنعاس.

– الجبان!...

كـان المـاء الشـفـاف بعـمقه الفـيروزى حين يصل إلى تحت الجسـر الأسود، يهـدر، مـثلمـا تصهل الأفراس عندما تشم رائحة الربيع، وتدق الفراش الحجرى المنخفض تحت الجسر الأسود فتغطى أرضية الجسر عندما تهدأ حدة حركة هذه الأفراس الجامحة إلى عمق مياه النهر.

كان چلاب يمضغ شاربه، ونظرته تطوف حائرة.

– الجبان... لو ماكنتش تعبان... لو ما كنتش...

كان چلاب صـغير الحجم، ذا جلد لفحته الشمس، ونظرة حادة كنظرة العقاب، وكان ذكيًا جريئًا كجرأة شياطين البحر، كان أصلع جريئًا جسوراً.

كانت ألسنة نور الشمس تشق سطح النهر، فيضحى المـاء أحيانًا أصفر، وأحيانًا فيروزى اللون وأحيانًا رمادى.

حين حل الغروب وعبس الهواء، وخيم على المدينة ضـبـاب كثـيف، وحمل الهـواء الرطب الرمال الموجودة على شاطئ النهر ورمت به فوق المدينة، هبت الريح من كل مكان، انتشـر فوق المدينة تراب غزير.

قال چلاب:

- أنا خلاص زهقت. المرة اللى دخلت فيها السجن... والمرة اللى ضربت فيها العسكرى... خلاص بقى تعبت...

جلسَ عبدى بجواره.

هبت حرارة شديدة من دكان طوبى بائع العرقى، فحملت رائحة الكحول إلى بساط بائع الكبدة.

قال چلاب:

- تشرب عرقى؟

قال عبدى:

- لأ... عندى شغل.

قال چلاب:

- اشرب، اشرب علشان تنبسط علشان اتكلم معاك.

- عندى وش سلندر لازم الحمه.

كان مصباح بائع الكبدة يُصدر صوتًا، ونوره يشبه الزنابير الذهبية التى تحلق فى الظلام ورائحة اللحم الشهية تتطاير فى شكل لولبى مع الدخان وتتصاعد ثم تنتشر فى الجو الخانق الرطب.

قال چلاب:

- أنا أساعدك، انت عارف ان انا با افهم.

قال عبدى:

- انت شارب عرقى... قول اللى عاوز تقوله.

- سيخين مخاصى.

كانت نهاية الشارع مظلمة وخالية، وكنت إذا ما نظرت تجد المصابيح التى بدأت من منتصف الشارع، المصابيح التى علق بها الغبار، تحاول أن تنشر نورها الخافت لكى تفتح طريقًا فى الجو الخانق الرطب. وكان الناس قليلين.

قال چلاب:

- اشرب عرقى يا عبدى، المرة اللى دخلت انا فيها السجن، قضيت الشهر لوحدى... خلاص بقى زهقت...

كان عبدى نحيفًا وطويلاً جدًا، ووجهه يشبه وجه الثعلب، ونظرته خافته البريق، وفمه بارد، ووجهه ملئ بالثقوب من أثر الجدرى.

قال عبدى:

- قول كلامك.

قال چلاب:

- كلامى؟...

وصار للسانه لكنة خاصة حيث كان العرق قد فعل فعله.

- ... عندك حق، كلامى... انا خلاص زهقت يا عبدى، خلاص زهقت...

- من أيه؟

- ما تتكلمش انت يا عبدى. ما تقولش حاجة خالص... سيبنى أنا اتكلم.

انفتح باب دكان العرقى، وخرجت منه رطوبة ساخنة مختلطة برائحة الكحول.

- النهارده، بالضبط ٢٧ يوم من ساعة ما خرجت من السجن، صح يا عبدى.

قال عبدى:

- صح.

قال چلاب:

- إنت ما تتكلمش... سيبنى أنا اتكلم.

أشعل عبدى سيجارة.

- إنت ما بتشربش عرقى ليه؟ اشرب عرقى علشان تفهم انا با اقول أيه.

قال عبدى:

- يا چلاب أنا يا اخى كنت اديت وعد. اديت وعد انى ألحم وش السلندر ده الليلة.

وضع چلاب الكوب على حافة مائدة بائع الكبدة.

- أنا ها اساعدك، قوم، قوم نروح عشان اساعدك.

وقام وأمسك بيد عبدى.

- الأول اعمل شغلك... وبعدين اسمع حكايتى.

لم يتحرك عبدى من مكانه.

- اقعد دلوقت.

قال چلاب:

- انت مش قلت انك اديت وعد؟

قال عبدى:

- مش ها اتأخر... اقعد واحكى لى.

جلس چلاب، وأحدث كرسى بائع الكبدة صوتًا تحت قدميه.

جاء صبى عبدى:

- يا اسطى، ورق الصنفرة خِلص.

قال عبدى:

- روح هات من درويش.

قال چلاب:

- النهارده كنت نايم تحت الكوبرى من الصبح لحد بعد الظهر.

قال بائع الكبدة:

- المخاصى جاهزة.

قال چلاب:

- خسارة... خلينا نشرب العرقى مع المخاصى. نُص قزازة بس.

تنهد چلاب. فملأ رئتيه بالهواء، وتنفس من جديد بصوت عال.

- اتنين وتلاتين سنة عدت من عمرى، قضيت منها سبع سنين وخمس شهور فى السجن. يعنى كان هزار؟ مش سايبين الواحد يشوف حاله، مرة يلفقوا له تهمة، ومرة يعقدوا له حياته، ويلخبطوا له كل حاجة، سبع سنين طوال... سبع سنين وخمس شهور... مش هزار... مش كده.

قال عبدى:

- عمر بنى آدم.

قال چلاب:

- النهارده، يزدان رمى الزهر فى المية، هو الواحد يقدر يتحمل أد أيه؟ ها؟ أد أيه؟ دم، بيشرب... دمنا. أنا خلاص تعبت بقى يا عبدى.. المرة اللى انا كنت فيها فى السجن، أخدت حمى راجعة، مين اللى ممكن يلحق الواحد، أنا خلاص تعبت.

وجاء صبى عبدى.

- يا اسطى درويش ما بيديش شُكُك.

قال چلاب:

- أنا معايا فلوس.

قال عبدى:

- يلعن أبوه، خد من نجفى.

- سمعت انا قلت أيه يا عبدى؟

- أيوه انا سامعك.

- عاوز اشتغل يا عبدى عايز ابقى صبى عندك. لو كان عندى راسمال كنت فتحت دكان... هاتوافق؟... انت موافق؟... انا اوعدك انى ها اشتغل كويس...

كان عبدى لا يصدق، فراح يحك ذقنه.

- ... كده ها ارتاح، ومش ها ابقى مضطر اسمع كلام كل واحد ملوش لزمة.

قال عبدى:

- أنا ما عنديش اعتراض.

كان صوته منخفضًا وهامسًا.

- لكن با اقول لك من باب الصداقة.

- قول يا عبدى، انت صاحبى، مهما قلت انت صاحبى برضه.

صمت عبدى، ثم تحدث.

- إنت ما تنفعش صنايعى يا چلاب... يمكن، كام يوم...

- أنفع!

- ما افتكرشى.

- أنفع!

قال عبدى:

- وفيه حاجة كمان.

- أنا موافق على كل حاجة، إنت صاحبى، مش كده؟ مش انت صاحبى؟

قال عبدى:

- أيوه، لكن الحال واقف. مفيش حاجة تكفى القوت.

قال چلاب:

- ربنا كبير.

وتعلقت عيناه الحمراوان اللتان كانتا تلتهبان كقطعتين من الجمر بوجه عبدى النحيل.

- أنا أقدر ألاقى لك شغل فى الجراج... كويس.

قال چلاب:

- خلاص يبقى انت بتقول انك مش عاوز؟ قول أُنا مش عاوز.

قال عبدى:

- يا أخى الدكان دى ملعونة.

قال چلاب:

- أنا خلاص تعبت... مش عاوز اشتغل فى القمار تانى. والدنيا خلاص.

قال عبدى:

- مفيش منها أى مكسب خالص.

قال چلاب:

- وبعدين كمان الأيام دى صعبة ما بتساعدش الواحد على حاجة.

قال عبدى:

- ... ده كل مدة طويلة على ما بتيجى شغلتين.

قال چلاب:

- ... أيامها، لما كنت ازعق لى زعقة فى السوق كنت ألم إتاوة من أصحاب الدكاكين تكفى لحد ٦ شهور.

قال عبدى:

- ... وكمان انت عارف، انا كمان بأدّى للخراط اكتر من نص الأجرة.

- يعنى مش عاوز؟... قول مش عاوز.

- يا أخى الملعونة دي ما بتجيبش مكسب.

- إنت فاكر أن ظهرى ما يقدرش ينحنى للشغل!

- أجرة الخراط والصبى ما بتسيبش حاجة للواحد.

قال چلاب:

- يبقى انت مش عاوز؟... مرة واحدة قول مش عاوز.

- لا.

- طيب.

- الحكاية مش كده.

- المرة اللى رحت فيها السجن ربطوا أيديه ورجليه... أنا خلاص تعبت، وزهقت.

خلع چلاب قميصه. فظهر نصف جسده الأعلى الغزير الشعر. كانت قطرات العرق الكبيرة تتدحرج بين ثنايا شعر جسده الكث.

- كنت فاكر انك صاحبى، انت مش فاهم مشكلتى.

قال عبدى:

- من الصبح لحد بالليل مفيش حاجة بتيجى، حتى فلوس الأكل.

مشى چلاب.

- بس خليك فاكر.

- بس اصبر، أنا عندى فكرة. فى الجراج.

- كنت فاكر انك فاهم إنى تعبت.

ووقف ونظراته التى كانت تلتهب، كانت تُثقل أجفان عبدى.

- كلهم مش رجالة، حتى انت، أنا كنت فاكر ان عندك مروءة، لكنك ما عملت ليش اعتبار ولا خاطر.

كان الأولاد يتحدثون فى المقهى.

- يزدان قال: مش علشان الجانابوتة.

- أنا عاوز اكسر دماغ چلاب.

- فى يوم ها البس هدومى المَلَكى.

- علشان ما يفتكرش أنى با اتباهى بهدومى.

- ساعتها انت ها تعرف، أنا ها ابهدله.

- چلاب لازم يعرف، على وشك يبان يا مضاغ اللبان.

- بيبان على خدوده.

- أنا عاوز آخد السكينة من إيده، واحط له البزازة فى بقه.

قام المرشد فانقطعت الأحاديث وملأت الصلوات المقهى.

قال فرهاد:

- شوف كف إيدى. هل فيه شعر؟

هز چلاب رأسه.

- لأ، مفيهوش.

قال فرهاد:

- زى ما يزدادنداد ما عندوش نخوة، جبان... جبان جبان!

قال چلاب:

- أنا عاوز اشتغل بقى. إنت بتشرب عرقى؟

قال فرهاد:

- نعملها فى مكان تانى، اكيد لازم تكون تحت الكوبرى؟

قال چلاب:

- تحت الكوبرى طراوة، والعيال ها يتجمعوا.

كان الليل حاراً، كانت الرطوبة قد رحلت وخلفت مكانها هواءً ساخناً يهب من الجنوب ويلسع بألسنته، ويلهب الجلد.

قال چلاب مره ثانية:

- نشرب عرقى... الدنيا حر قوى.

قال فرهاد:

- نشرب... اتغيرت بسرعة، بسرعة قوى.

كان الميدان قد بدأ يخلو من رواده، كانوا ينزلون الأبواب ويغلقون النوافذ، ويطفئون المصابيح.

قال فرهاد:

- هاشم قفل. نروح قهوة أم الفساد.

وذهبا.

... مسحت العجوز عينيها الرمصاوين، وتثاءبت، ثم قالت:

- فيه لوبيا، لازم اسخنها، وفيه كمان لب مملح.

قال چلاب:

- إزيك يا أمي.

لملمت العجوز الفراش على السرير.

- مش بطالة يا ابني.

سأل فرهاد:

- انتي مصدقة؟

قالت أم الفساد:

- من الظهر لحد دلوقت ما شربتش عرقي.

جلس فرهاد القرفصاء بجوار الحائط. وجلس چلاب بجواره.

سأل چلاب:

- ليه؟ ... ليه من الظهر ما شربتيش عرقي؟

قالت العجوز:

- كلهم زيكم ما عندهمش رحمة. ساعدوني.

أعطى فرهاد نقوداً للعجوز.

- ممكن تشتري قزازة؟

- على عيني يا ابني.

قال چلاب:

- خمسة وخمسين.

قالت أم الفساد:

- وهو بقيته ينفع؟

كان الدكان مربعًا له سقف منخفض، ومصباح يتدلى من السقف، وعلى أرضيته بساط رخيص، وإلى جانب الجدار أريكة خشبية قصيرة القوائم، ومصباح من ثلاث فتيلات يدخن، وزجاجات عرقى خالية، ووعاء اللوبيا الأسود الذى يعلوه الدخان.

قال فرهاد:

- تقدر تعمل قعدة القمار هنا.

قال چلاب:

- علشان يعمل للست العجوزة دى مشاكل.

جاءت أم الفساد بالرعشة التى ترجها، وسمنة جسدها التى تكتم أنفاسها.

قال فرهاد:

- مش لازم تديه الفرصة.

تكلم چلاب بلا رغبة:

- أنا خلاص تعبت يا فرهاد. السجن مش هزار، سبع سنين وخمس شهور. المرة دى اللى...

قاطع فرهاد حديثه :

- ما تضربوش.

- أمال أيه؟

- خَوِفه، بس، خَوِفه.

- مفيش فايدة.

رفع فرهاد الكوب:

- فى صحتك.

قالت أم الفساد:

- فى صحتك.

قال چلاب:

- مفيش فايدة خالص. التخويف مفيش منه فايدة.

- طيب، اتكلم معاه.

- مش ها ينفع معاه الكلام.

قال فرهاد:

- وأيه النهاية؟

قال چلاب:

- لو ما كنتش تعبان... لو ما كنتش. فى صحتك.

قالت العجوز:

- الهى تنسعد... لكن انت بتتكلم عن مين؟

قال فرهاد:

- عن يزداندار العسكرى.

غمضت العجوز:

- إن شا الله ما يشوف خير ولا سعادة.

- بيقول لى انتى ما عندكيش رخصة. بيقول لى مش لازم تبيعى عرقى. أنا مش با ابيع عرقى. ده بيتى... بيتى... ودى مدينتى، ساعات بيجى جَدعَ ولا اتنين يساعدونى... بييجوا هنا، على عينى، بيدونى فلوس اشترى عرقى... هما يشربوا، وانا اشرب لى كوبايتين... ده بيتى... أنا ما باابيعش عرقى... هو انا با ابيع؟...

تنهد چلاب:

- فى صحتك.

قالت العجوز:

- الهى تنسعد.

كان شعر فرهاد المجعد يلمع، وفمه مفتوحًا، وخداه كبيران وجبهته عالية.

- طب وبعدين؟

- ولا حاجة... لازم اشتغل، لازم الاقى شغل... عبدى جبان...

قاطع فرهاد كلامه:

- خلاص، اضربه.

- عاوز اشتغل.

- صعب.

- المرة اللى انا دخلت فيها السجن، أمى عينها عميت، قعدت تعيط لحد ما عميت.

ابتسم فرهاد متهكمًا. كان فرهاد طويل القامة، ومعصما يديه عريضين، وكفاه ضخمين قويين.

قال چلاب:

- بتضحك على أيه؟

قالت أم الفساد:

- يا عينى على الأمهات.

قال فرهاد:

- أهه... ضحكت من غير سبب... فى صحتك.

- بتضحك عليه... أنا عارف، بتضحك عليه... لأ يا فرهاد، ما تضحكش، إنت لو كنت مكانى، لو كانت إيديك ورجليك اتكتفت زيى ألف مرة وكنت اتهرست تحت الكرباج... لأ يا فرهاد، ما تضحكش... أنا خلاص بقى تعبت.

ابتسم فرهاد من جديد، فامتد فمه الواسع وظهرت تحت خديه الكبيرين تجعيدة.

كان الليل قد مضى نصفه، وكانت أم الفساد غارقة فى النعاس، وچلاب مسترخيًا وفرهاد يتحدث.

- لو كان الواحد مش عـاوز يتكلم... لو كان الواحد يسـمع الكـلام من ده ومـن ده، ما يقولش لحاجة لأ، وما يقولش لحاجة دى ها تعمل مشاكل وعيب الواحد يتخانق مع أبو قُصَّة ده، اللى لابس هدوم الحكومة ده، يبقى لازم نحط راسنا على طوبة ونموت فى مكاننا.

كانت عينا چلاب النصف مغلقتين مرتكزتين على الزجاجة التى كانت تبدو وكأنها ترتعش أو ترقص، وبدا تجشؤ أم الفساد وكأنه قد ملأ الحجرة كلها، وراح صوت فرهاد المختنق الناعس يخدش فراغ الحجرة "... من اللى يسوى واللى ما يسواش... من كل واحد بقُصة. من كل فتوة... لأ... لازم خناقة..." وخرج صوت چلاب من أعماق حلقه متحشرجاً.

- ها اضربه، ها اضربه فى شارع بهلوى... قدام الكل.

قال رشيد:

- قوم يا چلاب، قوم نروح تحت الكوبرى، الاولاد متجمعين، والجو حار... قوم...

قال چلاب:

- مش ها اروح تحت الكوبرى، طول ما يزداناداد موجود، مش ها اروح.

قال رشيد:

- النهارده مش نوباتشيته.

قال چلاب:

- يبقى بكره.

قال رشيد:

- ولحد بكره.

قال چلاب:

- طول ما يزداناداد موجود، لأ..

كان المكان تحت سقف المقهى المنخفض شديد الحرارة، ومراوح السقف تلف ببطء فتحرك الهواء الخانق من مكان إلى مكان. والرطوبة عالقة بكل مكان، والأصوات متداخلة، وصوت قرع أوراق الدومينو العظمية على المنضدة.

- هب بياض.

- بياض بـ ستة.

- ستة بـ؟

وصوت الفناجين تقرع بأطباقها، وأبواق السيارات التى كانت تشق الهواء المضغوط، وصوت الدراجات البخارية العالى الذى كان يقترب بقوة فيصُم الأذن، ثم يبتعد... و... الأحاديث.

- على أربعة شاى.

- وسيخين كباب كمان.

- تقدر بكره تبيض لى الدكان؟

- نص يوم مش اكتر.

- أهى شغلة برضه.

أقبل فرهاد بابتسامة على شفتيه وحفرة واسعة تحت وجنتيه البارزتين وعينيه الضيقتين.

- إمتى خرجت من البيت يا چلاب؟.

- من ساعة ما سبتك ما روحتش البيت، جيت على هنا، ونمت بالليل فى القهوة.

- انا كنت فى قهوة المرشد، فكرت انى اشوف يزدان، كنت عاوز اتكلم معاه.

غمغم چلاب:

- خلاص ما بقاش فيها كلام.

ومضغ شاربه الطويل.

قال رشيد:

- النهارده يوم راحته.

قال چلاب:

- بيخرج فى الغروب، قدام الكل، فى أول الليل لما يكون الشارع زحمة.

نصحه رشيد:

- ما تعملش لنفسك مشاكل من غير داعى يا چلاب، ملعون أبوه.

ضحك فرهاد، وابتسم ابتسامة ماكرة، كان فيها خبث.

- الكل بقوا نسوان... الكل.

وطار الشرر من نظرة چلاب:

- لكن انا ها اضربه يا فرهاد. فى أول الليل ها تشوف انا ها اضربه ازاى.

ومضغ شاربه من جديد، واتكأ على مسند أريكة المقهى، وثبتت نظرته على لوحة يوسف وزليخا التى غبرتها الرطوبة.

كان الظل تحت الكوبرى جميلاً.

- عمره ما كان بيتنى الكلمة، ما دام قال ها اضربه يعنى ها يضربه.

كان الرجال يتحدثون، وكان الهواء اللطيف الذى يمر هادئًا على سطح نهر كارون يلقى بالنوم فى العيون.

- چلاب، ما بقاش هو چلاب بتاع زمان.

- هو نفسه قال انه خلاص تعب.

- قضى نص عمره فى السجن.

كان الجو المعتدل تحت الكوبرى يبعث على النوم، فيرغب الإنسان فى أن يتمدد على المصطبة الأسمنتية، فإذا ما تمدد وترك جسده العارى الذى ألهبه الحر - لرطوبة المصطبة الأسمنتية، شعر باللذة تسرى فى بدنه.

- عمره ما تنى كلمة، ما دام قال انه ها يضربه يبقى ها يضربه مفيش كلام.

- مش زى ما بيعمل دايمًا؛ يضرب ويجرى!

- ضربة راجل، ووقفة راجل.

- ها يقف فى مكانه زى سد الاسكندر.

كان الجو داخل مقهى المرشد معتدلاً، وقد غاصت الأشجار القصيرة الموجودة فى فناء المقهى الواسع فى بعضها، وسطح حوض المقهى فيروزى اللون - الذى اصطفت حول سوره زجاجات النرجيلة البللورية يتحرك مع حركة الأسماك الصفراء والحمراء حيناً بعد حين.

- ها يعملها بحرفنة، بحرفنة زى عوايده، ويغطس.

قال عبدى:

- يا ريت يضربه، يا ريت ويكسر عظمه، وارتاح من شره.

كان الهواء الساخن قد خنق الجو فى دكان عبدى، وراحت الشمس التى كانت تشرق بداخله مباشرة تمتص الرطوبة، وتترك مكانها حرارة مُحرقة.

قال صبى عبدى:

- أى حاجة بيقولها چلاب... مفيش فيها أى غلط.

- أنا كمان سمعت، لكن علشان أيه عاوز يضربه؟

- بيقولوا علشان القمار.

كانت الحرارة قد ملأت سوق عبد الحميد، وكان الناس فرادى ومنهكون، بينما راحت رائحة الفواكه والخضروات التى تذبل تحت سوط الحرارة تملأ الفضاء الذى ضربته الرطوبة فى السوق، وراح العرق يتصبب من أجساد أصحاب الدكاكين، والكلام يدور من لسان إلى لسان، ومن دكان إلى دكان.

- يا ريت كان ضربه. يا ريت كان ضربه وكسر عضمه... وكنا احنا خلصنا من شر الاثنين دول.

قال الرجل الأول:

- خمسة وخمسين لأ، دول تسع تومانات ونص.

قالت أم الفساد:

- هو انت مش معانا يا ابنى، ده غلى، امبارح اشتريت لـ چلاب، اسأله.

قال الرجل الأول:

- بالمناسبة، انت سمعت؟

قال الرجل الثانى:

- أيوه، بيقولوا انه فاكر انه ها يطلع مصارينه بره.

قالت أم الفساد:

- إنت بتتكلم عن مين؟

قال الرجل الأول:

- عن چلاب.

وقال الرجل الثانى:

- عاوز يضرب يزداندا د... فى صحتك.

قال الرجل الأول:

- فى صحتك.

وارتجفت شفتا أم الفساد.

- لا قدر الله... ان شاالله ينضرب فى إيده... ده جدع قوى، ده بيساعد الناس الغلابة المساكين.

كان العرق يجرى فى الخطوط المتداخلة المتقاربة على وجنتى العجوز وعنقها وكان لحمها أحمر اللون... ومروحة السقف تدور بصوت معدنى خشن، وتنقل الهواء الساخن من مكان إلى مكان.

قالت أم الفساد:

- ربنا معاه... يا ريت ما يضربوش.

قال الرجل الثانى:

- هو بيعمل اللى بيقول عليه.

تحرك شارب الوكيل باشى الأحمر اللون، الخشن الأشعث، وخرج الكلام من تحت شعره الخشن.

- إدى خبر لـ يزداندا د. ابن الحرام ده بيعمل اللى بتقول عليه.

قال الشرطى العريض القصير القامة:

- كلب مين ده يا وكَيل باشى، يزدان يقدر على عشرة زى چلاب.

قال الوكيل باشى:

- انت مش فاهم، وما تعرفوش، انا اعرف أد أيه هو ملعون.

كانت الشمس قد امتصت الظل وراحت تنزلق على جدار قسم الشرطة الحجرى. كان الوكيل متكئًا على جدار الدهليز وقد فتح الأزرار الأوربية فبدا شعر صدره الأبيض الغزير غارقًا فى العرق.

ضربت الحمامة التى كانت جالسة على حافة السطح جناحيها ببعضهما، وهبطت بسرعة، وجلست على حافة الحوض وراحت تلهث من العطش، وراح صوت الضابط يخرج من تحت ظل الحجرة المعتدل.

- ابعت اتنين عساكر يدوروا على چلاب ويجيبوه... يدوروا عليه فى أى مكان.

فى الغروب تبددت الرطوبة وهبت ريح الشمال وتنفست المدينة، وتنفس الناس، وخرجوا من البيوت.

قال چلاب لبائع الكبدة أن يرسل أربعة أسياخ من الكبدة إلى دكان طوبى لبيع العرقى، ثم يمر على دكان عبدى.

- خلى عنك، لحمته؟

ارتعد وجه عبدى:

- اتفضل يا ميسيو چلاب.

ابتسم چلاب ابتسامة ماكرة.

- المسيو ده عمتك يا حبيبى!

ودخل إلى دكان بيع العرقى.

أسرع عبدى:

- يللا بسرعة يا ابنى، بسرعة اقفل الدكان.

ابتسم صبحى عبدى:

- ده احنا لسه فى الغروب يا اسطى.

- ما تجادلنيش واحدة بواحدة يا ولد يا مشاغب، نزل باب الدكان بسرعة واخرج من الدكان.

اهتز التراب الناعم للسكة الحديدية الذى كان يقطع عرض الشارع الثلاثين مترًا تحت ثقل ناقلة البترول ومزقت المصابيح القوية النور الظلام للحظات، ثم غاص الطريق فى ظلامه المعهود، فكنت إذا ما نظرت ترى أن المصابيح تبدأ من منتصف الشارع.

تصاعدت رائحة اللحم الحلوة مع الدخان فى شكل لولبى، وخرجت من المنقل وخرجت من الدكان صلوات العمال فى محل الحلوانى المقابل فى نَفَس واحد، ثم صوت المؤذن الذى كان يعلو شجيًا من خلف مئذنة مسجد الأصفهانيين العالية.

وحين جن الليل هبت رياح الشمال، ومع كل الرياح الشمالية التى كانت تهب كان الجو حارًا والسماء منتفخة، وبخار البحر يطوف فوق المدينة مع الرياح البطيئة الثقيلة وتغلق الطريق أمام نور النجوم، كانت النجوم مختنقة ومكدرة.

طاف چلاب الميدان، ومر بمقهى نعمت الله، ثم وقف على أرضية الشارع الحجرية ووضع يديه فى خصره. كان العرق يجرى من عذاره ويتدحرج فوق عروق رقبته البارزة وينزلق إلى شعر صدره الغزير.

- ربنا يرحمنا.

- مش سايبين الواحد يعيش.

أدار چلاب رأسه ورأى الجميع قد خرجوا من المقهى وراحوا يتهامسون كخلية النحل المهددة التى نفذ إلى جمعها ما يبعث على الخوف.

دفعت صلابة صوت چلاب الجمع الملتف إلى الوراء.

- الأحسن انكم ما تعملوش دوشة، والأحسن كمان انكم ما تتجمعوش حواليه.

جاء فرهاد بنفس الوجه ونفس الحفر العريضة تحت ذقنه، ونفس الوجنتين الضخمتين البارزتين.

- يزداناداد فى محل خيام بتاع العرقى، قاعد على الكنبة.

جالت نظرة چلاب واستقرت على عين فرهاد، كأختام الرصاص الصلبة حين تسقط على العجين المختمر.

- إدوا له خبر إنى با ادور عليه الليلة.

مشى چلاب، وسار التجمع خلفه.

اختلطت الهمهمات، واختلطت الأحاديث، وفجأة دار چلاب نصف دورة، وضغط على زر المطواة، فخرجت شفرة المطواة بصوتها المعدنى الجاف، وصرخ چلاب.

- الجبان!!

وغاص صوته، وقال بصوت متحشرج وثقيل:

- إنتوا بتضايقونى، فى الآخر انتوا بتضايقونى. قلت لكم روحوا شوفوا شغلكم، وسيبونى اشوف شغلى.

انشق الجمع.

قال فرهاد:

- فيه هنا كمان فى النواحى دى كام عسكرى بيتجسسوا ... مش نوباتشيتهم بيتجسسوا لوحدهم.

تفرق الجمع اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، ومجموعة مجموعة، ومشوا على جانبى الشارع، وعلى جانب الرصيف، مشوا بعيداً وقريباً.

- بس أيه الداعى ان احنا نمشى وراه.

- بيقولوا ان يزدنداد فى الدكان عند خيام.

- نمشى من الشارع ده، من شارع شاپور.

- نمشى من كاوه.

- من الحوارى.

- من ورا الحوارى.

- نمشى على الشط، ونطلع على سلالم الكوبرى، ها نبقى بالضبط قدام خمارة الخيام.

كان وقع أقدام چلاب وفرهاد يتبدد فى الرمال الواقعة على شاطئ نهر كارون. والماء الزلال يعكس نور أعمدة الكوبرى، وكأنهم نثروا على سطح الماء قطع نقود معدنية، قطع صفراء، وخضراء، وزرقاء، وفيروزية.

كانت الأسماك الصغيرة تلعب على سطح الماء، وقد وضع العرب أسماك الشانك مع الأسماك الصغيرة فى أسياخ وأشعلوا النار، فراحت رائحة السمك المشوى تتصاعد مختلطة برائحة زفارة الأسماك الحية الموجودة فى نهر كارون فملأت الجو الرطب المحيط بالنهر.

قال فرهاد:

- اضربه بشكل ان...

صاح چلاب:

- الضرب، ضرب!

قال فرهاد:

- تفرق.

قال چلاب:

- خلاص الوقت فات على الكلام ده.

تحرك ظل الناس المتحرك من جوانب البيوت شبه المظلمة المجاورة للنهر متجهًا إلى سلالم الكوبرى الأسمنتية.

انتظر چلاب أمام الدرج وقال:

- فرهاد انت مش جاى معايا.

- جاى.

- ما تعملش لنفسك مشاكل من غير داعى، ما تجيش.

انتظر فرهاد، ثم قال بصوت منخفض:

- يعنى رأيك ما اجيش... طيب، زى ما انت عاوز.

- لأ، ما تجيش... هو نفر واحد بس.

شقت صيحة چلاب الفضاء كالسوط، وعلت، ثم هوت على وجه يزدان ورأسه كالثعبان حين يلتف على نفسه داخل الإبريق، ثم ينتفض.

- يا جبان!... انزل تحت.

اهتزت قامة يزداناداد الضخمة خلف المائدة، واصفرَّ عذاره.

- ما تنزلش تحت.

قال يزداناداد:

- انا كنت با ادور على الساعة دى.

قال الرجل الضئيل الحجم الذى كان جالسًا أمامه مرة ثانية:

- ما تروحش... ما تنزلش تحت، انت ما تعرفش ابن الحرام ده، إنت لسه جاى المدينة جديد... وما تعرفوش.

قام يزداناداد:

- لازم آخد المطواة من إيده.

وراح يبحث فى جيبه و...

- وها احط له البزازة دى فى بقه قدام الكل.

شقت صرخة چلاب الفضاء مرة ثانية:

- انزل تحت يا جبان!

وازداد ازدحام الناس، وسُدت فتحة الكوبرى، ووقفت السيارات صفًا خلف بعضها فَعَلَت الأبواق، وعلا صوت شفرة المطواة الخشن.

- مش ها تنزل تحت، ما تجيش!

وجرى چلاب حتى وصل إلى مصطبة الدرج، وكان الطريق عند استدارة الدرج يفضى إلى المستوى الأول للخمارة الذى يقطعه السور الحديدى للدرج. ومرة ثانية راح يصعد لأعلى حتى الطابق الثانى الذى كان محاطًا بالدرج الحديدى الأخضر اللون حيث المصابيح الكروية الملونة الموجودة على حافة الدرج على مسافات...

– مش ها تنزل، ما تجيش... انا طالع لك... ها.

وفجأة هوت على قفاه ضربة شديدة، فمات الكلام فى فمه، وطار البريق عن عينيه، وقبل أن يرجع شقت الضربة الثانية من مؤخرة البندقية جبهته وانهمر الدم، وهجم الجنود من الفتحة الموجودة فى السور الحديدى وضربات الهراوات، ومؤخرات البنادق، فراح چلاب يدور حول نفسه ثم تراجع إلى الخلف فوق درابزين الدرج، فانفلت السور الحديدى من قبضته، وخلا الدرج من تحت قدمه و...

... هوى چلاب إلى أسفل الدرج ليقع بوجهه على الأرضية الحجرية القاسية.

قال الرجل الضئيل الحجم الذى كان منحنياً فوق سور السطح الأعلى:

– إنت مش ها تقدر عليه يا يزدانداد... تعال نشرب العرقى بتاعنا.

قال الشرطى يزدانداد الذى كان فى وسط الدرج.

– إدوا له جزاءه.

وقال فرهاد الذى كان أسفل الدرج:

– فيها على الأقل خمس سنين حبس!

وقال رشيد رطيل الذى كان راكعًا عند رأس چلاب:

– ده مش قادر يتنفس... مش قادر.

* * *

من ضيق القلب

كان حسن مقطب الجبين.

قال:

- خلاص أمره انفضح

سخر عطا:

- هايبقى كويس، أيه العيب فى كده؟

قلت:

- حسن عنده حق.

كانت يدى تحت رأسى، وعينى تنظر إلى السقف. كان السقف قد تقوس وكان خط أبيض من الأرضة قد قطع لون أخشاب الصندل البنى الداكن. والهواء الساخن يتلولب ويدخل من مسقط الهواء ثم يجرى فى الحجرة كالخيوط، وينتشر ويصفع الجدران.

وفى الخارج كان صوت البحر، وصوت القوارب.

جاء كاظم، كان كاظم كالدبور الأحمر، وكان حاداً ذو شعر أحمر.

قال:

- زعلانين ليه يا أولاد؟

ابتسمنا... كانت ابتساماتنا ميتة.

قال مرة ثانية:

- لأ، بجد زعلانين ليه؟

وقلنا له لماذا نحن مهمومين.

كان "آهن" قد جاء، وملأ الدنيا صياحًا وضجيجًا، وتسبب فى فضيحة فى الليلة السابقة، بعد منتصف الليل كنا قد ذهبنا ونحن ثمالى إلى الصندرة، ذهبنا وحملنا أرائكه على رؤوسنا وأحضرناها وألقيناها فوق بعضها فى البيت وضحكنا كثيرًا جدًا وها هو الآن كاظم كان قد ذهب ليشترى سمكًا للظهر، فجاء آهن وملأ الدنيا صياحًا وصراخًا وسبًا ولعنًا، ثم ذهب ليحضر حمالاً ويحمل أرائكه.

قهقه كاظم، وضحكت أنا فجن جنون حسن:

- والله دى قباحة.

قمت ودخلت الممر وأشعلت وابور الجاز، ووضعت عليه البراد، وعدت إلى الحجرة، أخذ كاظم المطواة وخرج من الحجرة.

قال وهو على عتبة البيت:

- ما كانش فيه سنگسر، ولا گباب. اشتريت سرخو.

عبس وجه عطا وقال:

- طعمه مش حلو.

وقلت أنا:

- ده بيدى طعم الطين، طعم الوحل.

جلس كاظم القرفصاء فى الممر، وأمسك بذيل السمكة. وراح يزيل القشر بالمطواة، كان بالقشور طبقات بنية، وسقطت رأس سمكة على الأرض.

كان رأس سمكة الـ"سرخو"(*) يشبه رأس سمكة القرش بفمها المفتوح، كان وابور الجاز يصدر وشيشا، والهواء يدور بشكل لولبى ويدخل، قمت ونظرت إلى البحر من النافذة، كانت نهاية البحر قائمة فوق غبار أصفر، والشمس عبارة عن طشت ذهبى، وزرقة البحر مفروشة تحته.

كانت رائحة ملح البحر تعبئ الجو، والأمواج الصارمة تضرب أساس بيتنا المبنى بالقرميد المتآكل.

(*) سرخو، سنگسر، گباب: أسماء أنواع من الأسماك.

أغلقت النافذة. فانكتم صوت البحر.

جاء آهن مع عبدين أسودين وكان يرغى ويزبد والعرق يتصبب منه:

– انتوا كويسين! بتذاكروا. قاعدين فى مكانكم، ده المجنون ما يعملش كده.

ودخل عطا قائلاً:

– أيوه طبعًا... احنا عاقلين.

وضحك مقهقهًا.

فجن جنون آهن:

– حقيقى.

ضحكت، ونظر آهن إلى ركن الحجرة. أى أنه نظر إلى، كان الشرر يتطاير من عينه، وكان العرق قد سال على حاجبيه، وكانت رائحة الجير تفوح من جسده، رائحة جير حى أصابته الرطوبة فراح يتبخر.

نظر إلى زاوية الحجرة وقال:

– إزاى جبتوا كنب بالضخامة دى من الصندرة؟... ماتعبتوش؟

قلت:

– سكرانين.

وقال عطا:

– مبسوطين.

قال كاظم:

– مفتريين

وقال حسن:

– مجانين.

وقال آهن:

– يسلم بُقك.

وأزال بأنامله العرق الذى كان قد بدأ يسيل إلى عينيه.

أحكم العبدان الأسودان الأحزمة حول خصريهما، ووضعا أكتافهما العارية تحت الأرائك، واستدارا، ومشيا.

حين ذهب أهن قال حسن:

- ادينى ده.

وقال كاظم:

- فين الملح؟

وقلت أنا:

- هو أيه اللى اديه لك؟

قام عطا وأعطى علبة الملح لكاظم.

قال حسن:

- أهه كده. بالليل تسكروا، وتتجننوا، وتمشوا فى المدينة، وتعملوا ألف مصيبة. وبعدين لازم تتكسفوا فى اليوم اللى بعدها... آه لو كان فيه راجل بجد.

قال عطا:

- ما احنا كمان بنتعب كثير.

رش كاظم الملح على السمك، ووضعه فى السيخ، وغسل يديه وجاء وجلس.

- أمال فين الشاى؟

- دلوقت ها يغلى.

قال حسن:

- إذا كنتم انتم مش مكسوفين. أنا مكسوف.

كنا نحن أيضاً نعانى، فحين كان الصبح يشرق كانت ذكرى الليلة السابقة تؤذينا.

قال كاظم:

- حسن عنده حق، وحقيقى ريحته طلعت.

وضحك.

قال حسن:

- اتكسف على دمك.

قال كاظم:

- أنا يا اتكلم جد.

ثم تحدثنا، تحدث حسن، وتحدثنا نحن، ثم تقرر: "مرة واحدة فى الأسبوع... مرة واحدة فقط فى الأسبوع".

حين حل العصر، لم يكن هناك هواء، ولا صوت البحر، خرجت من البيت كان كاظم يذاكر الإنجليزية. كان قد ثنى بطانية ووضعها تحت صدره، ونام على بطنه، وراح يتقلب وفى يده معجم الكلمات، وهو يتهجى ويكتب الإنجليزية فى شكل معوج. وكان عطا يقرأ كتابًا، بينما كان حسن قد بدأ فى كتابة خواطره، أو أنه على حد قوله كان يكتب "تخاريف"، كانت قد صارت اثنين وأربعين فصلاً فى ثلاث كراسات من صنف المائة صفحة: الثكنة، الزنزانة، من مدينة إلى مدينة، زنزانة داخل زنزانة، المنفى، الحرية فى المدينة و ... خرجت من البيت وذهبت لألف فى المدينة "فى الأسبوع مرة واحدة ... مرة واحدة بس ... لازم يكون فيه طريقة نقضى بيها الأيام، والليالى".

كان الهواء، وكان صوت البحر، وكان بازار مساح دافئًا، وكان الهواء رطبًا والرطوبة تثقل على النفس. وكان الجو يبدو كأنهم نثروا على الأرض ترابًا منخولاً. كان مدخل بازار مساح والبيوت المجاورة متساويًا، داخله مجوف وجدرانه متساقطة كالأسنان التى نخرها السوس، وأبوابه مُطعمه. وقد أكلتها الأرضة، وأقفالها صدئة تشبه الأنوف الكبيرة المعلقة فى حلقات. كان كلام عدنانى الشيخ ذو البشرة البيضاء والقامة النحيلة يصل إلى أذنى مبتهجاً:

"بالليل كلهم مشيوا ... راحوا قطر، دبى، والشارقة... " كان الشيخ يتحدث وكأنه يضحك.

كانت أسنانه سليمة، وبيضاء ومتساوية "لما البرقع اتشال، والمقنعة اتشالت، بقت بور، بقت أرض بور...."

من حارة مغطاة تتلوى كماسورة الصرف الصحى فى العمائر الخربة خرج طفل يغنى.

"شـــريفـــة عنـدها أسنان ذهب" "شـــريفـــة دنـدون طلاشـــه"
"فـــســتـــانهـــا واسع واســـود" "جـــومـــهء ويل ســـيـــاشـــه"
"وقـــالـت لصـــاحـــبـــتـــهـــا" "خـــــبــــــــرآده ادوسـش"
"انهـــا تعـــرف غـــفـــورى" "كـــه غـــفـــورى آشناشـــه"

وكان صوته جاداً ومتعباً، ويحمل رائحة الغربة.

مررت من بين أجولة نوى البلح التى كانت منشورة على الأرض أمام دكان العلاف. وذهبت إلى مقهى "محمد المشهدى"، وجلست وأخذت أدخن النرجيلة جاء محمد نور وجلس إلى جوارى.

أخرج المَضْغَة من جيب الصديرى ومضغها، وبصق البلغم، وطلب من محمد المشهدى الـ "اردك"(*)، ومضغه مع المضغة، وقال:

– فاضل أد ايه؟

قلتُ:

– ١١ شهر و٣ أيام.

قال:

– إنت حاسبها باليوم؟

وصب ماء التنباك الأصفر على أرضية المقهى الطينية، وحدثت أنا نفسى.

– وحاسبها بالساعة كمان، ١١ شهر و٣ أيام وساعتين.

كانت الساعة هى الخامسة بعد الظهر. كانت الأيام طويلة، والشمس ساطعة فوق خرائب المدينة. كانت نهاية شارع مساح الواسع أمام عينى، فرأيت أعلى النخل وقد لوثه الغبار واختلط بالخرائب.

تحدثت مع نفسى.

(*) اردْك: نوع من الدخان، يُدخنه أهل الموانى والجزر الجنوبية بدلاً من السيجار والغليون، بعد خلطه بالتنباك.

قلت:

- مرة واحدة فى الأسبوع.

قلت:

- ازاى ده ينفع؟ إزاى اسهر بالليل؟ ... ولو ماشربتش عرقى، ازاى أنام!

وقلت:

- مش لازم تشرب... إنت وعدت الأولاد.

كان حسن قد قال هذا. وقلناه نحن أيضاً، وقد تقرر بعد ذلك:

"فى الأسبوع مرة واحدة. مرة واحدة بس".

- يمكن ما اشربش الليلة دى، لكن بكره بالليل؟

- ده مش ممكن.

- كمان مش كل ليلة فيه مذاكرة، وخلاص الحكاية اتعرفت ومفيش حد ما يعرفكش، انفضحت قدام الجميع.

قلت:

- طيب، ما يعرفوا، يلعن أبوهم كلهم، ملعون أبو الناس.

- دلوقت ملعون أبو الناس؟... مش هما دول الناس اللى أنت خاطرت بروحك علشانهم، وجبت لنفسك المشاكل علشانهم.

- لأ، الناس لأ، دى كانت أنانية، أنانيتى، أنا مش عاوز احطم نفسى، وحسن كمان، وكاظم، وعطا، ماكُناش عاوزين نحطم نفسنا، كنا عاوزين نتباهى اننا جامدين.

خرجت الأبقار من الحارة، وراحت تعبث بأفواهها فى أجولة نوى البلح، وكانت ظلالها ممدودة أمامها.

قال محمد مشهدى:

- أجيب لك بوظة؟

قال نور محمد:

- الشيشة شطبت.

نفخت فى الشيشة، ونظرت إلى الشمس التى كان لونها فى الدخان أزرق، والتى كانت تهبط على خرابات آخر المدينة، والناس الذين كانوا يجيئون وظلالهم أمامهم، وكانت على رأس كل واحد منهم غُطرة، وعلى خصره شال، وعلى فمه كذلك وكأنك مررت بسكين على جلد البقرة اليابس، فأحدثت حُمرة شديدة، وبياض العيون مال إلى صفرة، والوجوه كحجر أسود مكسور.

دخنت الشيشة وقمت.

فكرت أن أذهب إلى السوق المغطى لأتحدث مع جيلان بعض الوقت أو أن أتحدث مع على دادى حتى الغروب.

وفكرت أن أذهب إلى شاطئ البحر عندما يحل الغروب، وأن أظل مع البحر حتى وقت متأخر من الليل، حتى أتعب، حتى ينهكنى صوت البحر، فأتعب وأروح فى النوم.

قال محمد نور:

– على فين؟

فقلت له إلى أين أذهب.

فقال محمد مشهدى:

– ده أنا شغلتها، واستنى واشرب، ده ريحتها حلوة قوى.

قلت:

– مليش مزاج.

قال:

– دلوقت "قدم" ييجى ونضحك.

كانت قفشات قدم قد صارت بالنسبة لى بلا طعم. فدائماً هى نفس النكات ونفس الحكايات على قامته الضخمة السوداء. فى الأيام الأولى كان حديثه لذيذاً.

– يمكن على ما ييجى أكون رجعت.

دخلت إلى السوق المغطى، كان حاراً خانقاً، جلست بجوار دكان جيلان وتصفحت المجلات القديمة، ونظرت إلى صور النساء العارية.

قال:

- حسن، خد صورة من الصور.

قلت:

- آخد أى واحدة؟

قال:

- اللى راكعة على الأرض، ورافعة مؤخرتها لفوق.

استبد بى الهوس بأن أرى نفس الصورة، لكن هذا لم يحدث. كانت أرضية الصورة زرقاء بلون السماء، ولباس البحر أحمر، ومشدات الصدر حمراء، وشعرها ذهبى، وبشرتها وردية.

قال:

- أعمل شاى.

قلت:

- أنا كنت عند محمد مشهدى حالاً.

ونظرت إلى الصور.

كانت أشعة النور تدخل من فتحات سقف القبة، وتقطع الظل كانت هناك روائح عطور متنوعة، ورائحة توابل نفاذة، ورائحة تنباك ولم يكن الظل معتدل الطقس. وكان الهواء الساخن يجرى من مدخل السوق، حاملاً معه رائحة الروث الجاف المحترق والسقف المحترق حيث كان على دادى قد أشعل النار.

تصفحت المجلات القديمة، ونظرت إلى النساء نصف العاريات وقمت.

قال جيلان:

- رايح فين؟

قلت:

- أنا ها آخد واحدة من الصور.

قال:

– اقعد.

– مليش مزاج.

فقال:

– إنت جاى الصندرة، قهوة أهن؟

– متهيألى أنى مش هااشرب عرقى الليلة.

طويت الصورة ووضعتها فى جيب القميص وذهبت.

فى الدكاكين شبه المظلمة كان هناك العطر، والأحذية الكاوتشوك، والنعال البلاستيكية، والنبيذ الأبيض الإنجليزى، والشاى الخشن والناعم، والشاى الأخضر، والسكر الأقماع، وزيت السمك، وزيت الشعر الهندى، وفاكهة العنبة الخضراء، والمربى، والخضرة الذابلة، والفاكهة المفعصة.

خرجت من السوق.

كان على دادى قد أشعل النار فى التنور لتوه، جلست خلف درج النقود، كان يرص السعف فوق بعضه بملقاط طويل، فترفع النار ألسنة اللهب، وتخرج من فوهة التنور.

– خلى عنك.

قلت:

– خلى عنك انت.

أخرج رأسه من أمام ألسنة اللهب المندفعة من فوهة التنور للحظة خاطفة وقال:

– إنت ما بتزهقش؟... طول النهار قاعد عاطل.

قلت له إننى مستعد لأن أساعده فى أوقات النهار. أعجن. أقرص العجين، أخبز...

– ... كل يوم الصبح، لما اصحى واجهز الفطور هاآجى اساعدك فى أى حاجة تقول عليها..

ابتسم.

– ليه، هو انت بتفهم؟

– لأ، انت تعلمنى.

مسح التنور، وألقى الرغيف الأول فيه، فراحت رائحة الدقيق الأبيض تفوح منه، قمت.

– اقعد دلوقت نرغى مع بعض، انا ها اعمل الشاى حالاً.

قلت:

– مليش مزاج.

قال:

– انت رايح فين؟

كان لون الشمس قد اصفَّر، فلم أذهب إلى شاطئ البحر، كان فكرى قد صار لزجًا، كان يلتصق بكل شئ، وبكل مكان. بالجدران المتهالكة المبنية بالساروج، بالتراب الناعم على أرضية الأزقة المهجورة، وبسعف النخيل المدببة...

ذهبت إلى نبع الماء الذى تجتمع عنده الجداول، وتحدثت مع المرأة السوداء التى كانت تسحب الماء من النبع، وصبت ماء النبع البارد فى كفى، فشربته. انثنيت إلى زقاق من الأزقة الطويلة الكثيرة المنحنيات كالأمعاء.

حين خرجت من نهايته كنت قد وصلت إلى آخر المدينة.

كانت ظلال الخرابات الشاحبة منتشرة على التراب الأصفر، وكان التراب رطبًا بندى البحر، والنباتات البرية قد أطلت من الأرض بلونها الأبيض اللطيف على مسافات متباعدة، وقد فرشت على الأرض أغصانها الرقيقة مليئة بالعقد والحبوب على التراب.

كان حذائى طويل الرقبة يغوص فى التراب حتى مفصل قدمى، وحين كنت أسير كانت ترافقنى أغصان النخل القصيرة "فات اتناشر شهر وسبعة وعشرين يوم، أنا خلاص طهقت... سوق مساح، المجلات القديمة وسمك السرخو...".

كان ظلى بجوارى، كان منعكسًا على الأغصان، ويتدحرج معى، علا صوت الصراصير وصوت رفيف الحمام الذى طار فى شكل سرب من على الأرض، ثم هبط على أغصان النخيل التى علاها الغبار...

نظرت إلى الحمام، ثم انسحبت نظرتى من بين النباتات إلى البرية إلى حديقة النخيل. ولم يكن هناك أثر للمرأة السمراء النحيلة التى كانت تجلس فى أوقات العصر بجانب الحوض الأسمنتى لحديقة النخيل وتصب الماء بكوز نحاسى على جسدها الرقيق. أشعلت سيجارة،

وانتابتنى رغبة مجنونة فى أن أضرم النار فى الأغصان اليابسة، فربما خرجت المرأة السمراء من حجرة طينية فى ركن ما من حديقة النخيل، انطفأ الكبريت حيث كان الهواء رطبًا. تعلقت عينى بباب حجرة قديمة، كان الغروب يحل، والشمس تهبط على الخرابات، كان ظلى يتلون، والجو بداخل حديقة النخيل يميل إلى السواد. جاءت المرأة واضطرب قلبى. جلست المرأة بجوار الحوض، ورفعت ثوبها حتى ركبتها. ولم تتعر تمامًا. استحكم الظلام فذهبت.

- يا راجل، ها تقضى الليلة ازاى؟

قلت:

- ها اقضيها بطريقة كده.

وقلت:

- بطريقة ما حصلتش.

- خلاص كفاية بقى، فكر فيها أقل من كده شوية.

- رذالة تانى، وغباوة تانى.

- دى مش رذالة يا حبيبى.

- أيوه رذالة... انتوا أصلاً أربعة أغبيا، ازاى انتم من بين ٥٣٠ واحد، انتوا بس اللى تفهموا؟ ازاى كل الناس تقول أيوه، وانتوا الأربع هايفين بس اللى تقولوا لأ؟ دى مش رذالة؟ دى مش غباوة؟... انتوا بقى اللى فهمتم؟...

كان الظلام قد حل، ولم تعد أغصان النخيل ترافقنى، وها أنا قد وصلت إلى الأرض الواسعة التى كانت أبنيتها الساروجية وأعمدتها الحجرية قد انهارت فوق بعضها. كانت كلمات عدنان لا زالت تتردد فى أذنى... بالليل مشيوا كلهم، لما البرقع اتشال، الكل مشيوا، والسكة الجديدة وصلت لحد المحمرة، ولنگه ما بقتش لنگه.

كان صوت البحر صلبًا، وهدير الأمواج عاليًا، والرطوبة لزجة، ورائحتها زفارة السمك الحى فى البحر تملأ الهواء.

جلست على صخرة كبيرة، كانت قاعدتها مغروسة فى الرمال الرطبة، وسطحها غير المتساوى تغطية القطيفة الخضراء وقد زحف عليها البلل، والأصداف الصغيرة والكبيرة متناثرة على الرمال.

لمعت النجوم واحدة واحدة، والقمر خرج من قلب البحر المظلم من بعيد. بدأ الليل.

كانت المراكب عائمة على شاطئ البحر، ومصابيحها كالنجوم البعيدة. وكنت شارداً أفكر في الاثنى عشر شهراً وسبعة وعشرين يوماً التى مضت، أيام حارة وطويلة ولياليها مظلمة ومؤرقة.

كنا قد قلنا لبعضنا كل شيء، ولم يعد لدينا شيء آخر نقوله، انتهت الكلمات، صرنا خاوين، لجأت فى البداية إلى العرقى، ثم جاء كاظم، ومن بعده عطا، وكان حسن كذلك... والآن تقرر أن تكون مرة واحدة فقط أسبوعياً. ارتفع القمر لأعلى فأصبح سطح البحر تحته بلونه الرمادى، بلون الحرير الأسود الهفهاف. كان البحر كالشبكة، فرسم النجوم المتكسرة عليه جعله هكذا. ونور القمر راح يشقه، كان البحر كأنه يصهل، كان صوته شبيها بنعيق الغراب. وكان الوادى الذى ينتشر خلف الأسياخ، وكأنه كان اليوم الأول الذى التقونا فيه، ثم ضغطوا على أسنانهم غيظاً، ثم قالوا لنا أن ندخل، وحين حان الغروب اتكأنا على الجدر ونظرنا إلى الخارج من خلف أسياخ النافذة.

كان الجبل يقبع تحت طبقة خفيفة من الثلج الذى نزل فى الليلة السابقة، كانت أسراب الغربان متناثرة فى الوادى، ونعيقها عالق بالهواء، وكانت النباتات تميل إلى الاصفرار، وأوراق الصفصاف كالذهب المنصهر، والوادى خلف الأسياخ متسخ بالغبار.

كنت قد ألصقت وجنتى بالأسياخ، شقت صرخة قوية الفضاء، كانت صرخة جندى. وتبعه صوت طبل، ثم صوت صفارة، ثم خمسمائة وعشرين صوتاً كانت تصدر من الحلق.

"الشكر الذى لا حدود له لإلهنا الواحد الذى.....".

وتلون النهار، وقبع الجبل فى صدر السماء كأنه مارد أسود، كانت برودة الأسياخ على وجنتى تصب ظلام الليل فى عينى، وتدخل الخوف إلى نفسى رويداً رويداً.

أفقت من شرودى، وعدت ونظرت إلى الأولاد.

كان كاظم جالساً فى الحجرة يدخن السيجار.

قلت:

- أنا با ادخن آخر سيجارة، ما تعرفش أد أيه ممتعة، نفسى أدخنها سنة سنة لحد آخرها...

قلت:

- أنا لسه عندى علبة ما اتلمستش فيها عشر سجاير.

وأخرجت علبة سجائر من جيب الصديرى العسكرى الذى ألبسه.

قال:

- لو ما كنتش قلت كان أحسن، دائمًا مزاج تدخين آخر سيجارة بيبسط قوى، وأنت ضيعت طعمه.

كان عطا جالسًا فى ركن الحجرة، وقد لملم الغطاء تحت قدميه.

وكان حسن يتمشى.

وضعت السيجار فى جيب صديريتى، ووضعت يدى على حافة النافذة ورفعت جسدى وجلست فى الشباك.

كانت نظرات الشباب باردة، وقد أصاب هذا البرود نفسى بالحمى.

كان إناء طعام الظهر معلقًا أمام الباب.

كان حسن أسود اللون، ذو شارب أسود. وكان عطا أبيض البشرة ذا عينين خضراوين، ووجنات عريضة، وكان كاظم حادًا أو سريعًا وأحمر كالدبور.

تحدثنا معًا فيما الذى نفعله؛ فكرنا أن نهرب، كان الوادى خلف الأسياخ وكان هناك مكان دافئ للنوم، وجسد دافئ يصلح للأحضان، وهناك على بعد يقبع برج المراقبة الخشبى، وهناك أيضًا صهيل الجياد التى تخرج من الحظائر. قلنا اننا يجب أن نبقى أحياء، وكان هذا أهم من كل شيء ... والحياة فى السجن؟ وها نحن أحياء، وكنت أنا جالسًا على شاطئ البحر، والبحر كالشبكة، فقد جعلته النجوم على هذا الحال.

علا صوت الملاحين، كان الصيادون قد رفعوا الأشرعة، وقد خرجوا من الميناء بقوة، وراحوا يبحرون فى البحر فى ظلام الليل. وحين يشرق الصبح يعودون بالصياح والتهليل، وبعدها سمك السرخو، والگباب، والـ سنگسر.

علا صوت كاظم، كان صوت كاظم الناعس يغنى:

"بالليل، لما النجوم تغمز فى السماء"

"به وقت سحر، كه چشمك زنده ساره به آسمانها"

"ولما السماء تبقى زرقه وتبعث النور للبساتين"

"شود آبى آسمان، روشنى دهد سوى بوستانها"

كان صوته يمزق الفضاء الندى، ويختلط بهدير البحر.

"أد أيه كانت ليلة جميلة" "چه زيبا، شبى بود"

"ليلة ما اتعرفنا ببعض" "كه او با من آشنا شد"

كانت صورة كاظم وعطا المظلمة تظهر وتختفى بين أعمدة الساروج المتهدمة، وكان حسن خلفهما يترنح، والثلاثة كانوا يغنون معًا:

"بيقولوا إنك يا حبيبى" "بگويد كه يار من"

"يا ربيعى" "نو بهار من"

"انت مشيت وانا كمان" "رفتى وبرفتم"

حين خرجوا من الخرائب ناديت عليهم، واتجهت ناحيتهم.

صاح عطا:

– هيه... انت هنا؟

وجروا والأصداف وأعشاب البحر الجافة تخشخش تحت أقدامهم.

حين وصلنا إلى بعضنا بعضا تعلق حسن فى رقبتى، وتحدث عطا بفرحة:

– إنت فين يا راجل؟

وقال كاظم:

– ده احنا دَوَّرْنا عليك فى كل مكان... فى كل مكان.

ثم علا صوت فتح فوهة زجاجة، رَجَها عطا، وضَرَب قاعها بيده:

- اشرب... الليلة بس.

وقال كاظم:

- وطول الليل.

أمسكت بالزجاجة وشربت، فاحترق حلقى، واحترقت أمعائى وبرقت الدموع فى عينى.

حين لمست دموع عينى ومسحتها، رأيت حسن ممدداً فوق الأصداف، وكاظم جالساً فوق صخرة نمت عليها الأعشاب، وقد ضم ركبتيه، واحتضنها بيديه وراح يحملق فى البحر.

كانت المراكب تبتعد، صوت الملاحين يبتعد، وهدير البحر يزداد، والنجوم المتكسرة تنثر الماس على سطح البحر، ونور القمر يشق صفحته، فلجأت أنا إلى الزجاجة مرة ثانية.

* * *

الميناء

كانت ألواح سقف مخازن الجمرك الحديدية البيضاء تعكس نور الشمس وقد أنارت الشمس الدافئة الميناء كله من أوله لآخره. كان الناس يبدون كسالى خاملين، وقلما كان يُسمع صوت، فكان كل شىء هادئًا وبلا حراك.

وكان مراقبو الجمرك متكئين على أجولة القماش وهم يدخنون السجائر.

كانت أمطار قليلة قد سقطت فى الليلة السابقة، فبللت الأرض. والآن كان البخار الدافئ ينبعث من أجولة القماش، وعربات القطار المهجورة، وجدران المخازن المبنية بالآجر، والأسقف الخشبية، وكذلك من أكواخ العمال.

كان الكلاب منتشرين تحت الشمس بالحفر الغائرة التى صنعتها فى الغالب أيديهم وأقدامهم تحت عجلات القطار، وراحوا يتشممون الأرض.

كان مبنى الجمرك الكبير يلمع بتكسياته الخزفية الفيروزية اللون، وتبدو للعين أمواج البحر الزرقاء الخفيفة تحت نور الشمس.

كان عمال المرسى وعمال السكك الحديدية متناثرين هنا وهناك بالأسياخ الحديدية فى أيديهم والمطارق الضخمة على أكتافهم.

كان صوت القطار القادم من المرسى إلى فناء الجمرك ينبعث خشنًا متصلاً على وتيرة واحدة، كان هذا الصوت أوضح شىء فى صمت الميناء الذى كان منشورًا تحت الشمس.

كانت المراكب القريبة والبعيدة قد ألقت رواسيها، وأعلامها رسمت على صفحة السماء الزرقاء الصافية رقع متعددة الألوان.

وناقلة البترول الكبيرة التى ترسو، تطلق صفارتها بعظمة، وبعد لحظة تهز الميناء.

كانت أنغام موسيقى الجاز التى تخرج من نادى البحارة تُسْمَع فى كل مكان، ونادى السكك الحديدية بأسواره الحديدية الصدئة حول أطرافه التى تلتقى عندها الخطوط الحديدية المتعددة؛ خشن باهت قبيح، يسخر من الجدران البنية اللون والنوافذ والستائر الصفراء والبنفسجية لنادى البحارة. وأكواخ العمال تبدأ من خلف المحطة.

كان هناك حوالى خمسين شخصًا عراة حفاة يجلسون القرفصاء فى انتظار قطار المسافرين أمام نادى السكة الحديد.

كان الشباب يتثاءبون وقد غاصت أيديهم فى جيوب سراويلهم الخرقاء، وراحوا يضمون أفخاذهم على بعضها بعضًا.

وقد غطى الشيوخ آذانهم بخرق ملونة، وجلسوا يضمون ركبهم إليهم ويختلطون ببعض.

- امبارح وديت ٣ صناديق من مخزن الخزين لدكان على سبيل... ياريتها ما تكونش وحشة... أخذت ٩ ريال.

- تعرف يا أخى، أنا معايا ١٢ ريال، وإذا اشتغلت النهارده بـ ١٨ ريال مزاجى هايتعكر... ها اخلى تومان على جنب علشان الغدا والعشاء، و٢ تومان ها اشترى بيهم تذكرة.

- يا عم؛ الله يصلح حالك! روح كُل لك حاجة تسد جوعك باتنين تومان. ده انت روحك ها تطلع من الضعف والجوع...

- وبعدين؟

- ولا حاجة.. أنا جربت لحد دلوقت ١٠٠ مرة... ١٠٠ مرة قطعتها من بُقى ودفعت ثمن التذكرة... لكن، ولا كان فيه حاجة!... شوف من ١٠ أيام حرقت ظهر إيدى بنار السيجارة...

- إنت حظك وحش.

- الله يرحم أمواتك... مفيش حد فينا حظه حلو، يا أخى، الفلوس بتجيب فلوس، والمية الراكدة مكانها البركة.

يخالطون بعضهم بعضًا، ويفتشون فى طيات ملابسهم، ويحكون شعورهم الخشنة القذرة التى تشبه أغطية الصوف القديمة، ويتحدثون معًا.

قطار يقبل من المرسى، وعلى عرباته المسطحة سيارات متنوعة تلمع تحت ضوء الشمس.

- ربنا يبارك.

- ربنا كارم الأجانب.

ويعدون السيارات.

- ١٤٩، ١٥٠، ١٥١ ...

- طب وشفته فين؟.

والعمال الأقوياء بملابسهم الداكنة اللون واقفون بجانب خط السكة الحديد، واضعين أيديهم في خصورهم، وقد ضيقوا أعينهم، وراحوا يزمجرون.

- الكافر! بلدنا فيها عربيات حلوة.

الكلاب بأيديها وأرجلها الضعيفة تخاف من القطار، والشيوخ يغوصون داخل أنفسهم، ويلفون أنفسهم في معاطفهم العسكرية القديمة التي يلبسونها، ويقضمون أظافر السبابة، ويتثاءبون، ويدقون على صدورهم.

- إتفو! امبارح ما شربتش عرقي... والليلة دى كمان... الواحد منا ها يعرف أيه؟... خليها على الله!

- اتعشيت؟

- الله يرحم والدتك... اقول له ماشربتش عرقي، يقول لى اتعشيت؟ البطن ممكن تتملى بأى وساخة، لكن العرقي؟... ده أنا رحت القهوة بتاعة الباشا وجيت ارفع قزازة العرقي "عنكبوت" صبي القهوة شافني، ومسك إيدى وقال للباشا، والباشا الكلب الكافر ماتأخرش وراح رازعني قلم على ودني خلى النار طارت من عيني، وما انكسفش الواطي، ولا حتى من شعرى الأبيض.

ويأتي قطار آخر، يجر جسده الثقيل على خط السكة الحديد بصوت خشن قاسي على الأذن، ويتقدم بثبات وبشكل مرعب كالتنين الغاضب الأسود، وحمولته سيارة زيتونية اللون، بها مصابيح لامعة وإطارات جديدة، وكشافات نور كبيرة.

والشباب يتحدثون:

- نسا... يا سلام على نَسَا!

- هو انت رحت عندها؟

- امبارح بالليل.

- يا بختك... بس... دى خلاص عجزت.

- على الأقل تعرف قيمتك.

- إديتها كام؟

- ٨ سجاير اشنو، وتسعة ريال.

- ما تبالغش يا عم... دى من أولها لآخرها ٨ تومان.

وعيونهم الجائعة يتطاير منها البرق، ثم تذبل من جديد، والرؤوس تطأطأ إلى أسفل، وتغوص فى الأجساد.

وخلف المحطة، أمام أكواخ العمال النساء يغسلن الأمتعة فى الشمس، وقد جعل الماء والصابون المتناثر تحت أقدامهن، الأرض موحلة. والكلاب الهزيلة منتشرة فى الشمس بجوار الأكواخ، وقد وضعت أفواهها فى الشراب الدافئ وراحت تغط. والأولاد يلعبون فى الوحل.

والأطفال يلعبون الاستغماية. ويجرون وراء بعضهم بعضًا، ويغنون:

"الخـان عـارف، والشـحـات عـارف"

"ووزيـر الـــــوزرا عـــــارف...."

والدجاج والديوك والكتاكيت ينقبون فى الأرض فلا يجدون ولا حبة واحدة. الأرض، سوداء.

الخرق الحمراء القديمة، وأربطة الرأس الصفراء، والثياب اللازوردية القذرة، والثياب الداخلية السوداء المرقعة منشورة على الأحبال يتصاعد منها البخار الدافئ.

... ومن جديد القطارات تحضر السيارات إلى فناء الجمرك، ومبنى الجمرك ممدود على شاطئ البحر ثابت جميل البنيان، ونادى البحارة ثابت فى مكانه فى حمى جدار مبنى الجمرك العالى.

وصوت موسيقى الجاز الحاد قد ملأ الدنيا ضجيجًا.

الحمالون متمددون فى الشمس ينتظرون القطار، والشيوخ ينعسون والشباب يتثاءبون.

- القطر ما جاش.

والأيدى تظلل على العيون،

لم يبق على الظهر إلا قليل، والقطار يقترب ويقف أمام المحطة بضجة شديدة.

ينزل مفتش القطار ببطنه المنتفخة. وسائق القطار يرفع قبعة قماشية من على جبهته، ويسير منحنيًا يتثاءب.

العاطلون يلفون حول القطار، والأولاد يدورون حول خط السكة الحديد المهجور فى الأرض البور تحت العربات المهجورة، ويتجهون ناحية المحطة.

- طهران يعرفوها من حلوينها،

- والمينا يعرفوه من السُود،

- والأهواز يعرفوها من جُهالها،

والأصوات تتداخل، والسكون ينهار.

- على فين ياسيدنا؟... ادينى شنطتك.

- امشى ياعم... ده أنا شيال.

- يا عم، هيه، تعال هنا... خد ثلاثين شاهى وشيل الشنطة دى لحد مبنى الموظفين.

- ثلاثين شاهى؟... كل ده بثلاثين شاهى.

- أمال هو ده ورث ابوك؟

- بس يا سيدى ده ما ينفعش.

- روح فى داهية... أنا ها اشيلها.

وبعد لحظة، تسكت الأصوات، ومن جديد يستند العاطلون على أسوار نادى السكة الحديد، وينكفئون على ذواتهم.

ولحظة بعد لحظة، تأتى قطارات البضائع من المرسى، وحاويات النفط تصفر، وتبتعد.

الشيوخ يجلسون القرفصاء، والشبان يتسامرون و....

الكلاب الهزيلة تنقب فى الأرض تائهة مكدودة دون أن تجد شيئًا...

* * *

الخـــوف

حين دوى صوت أول طلقة رصاص فى الهواء ارتعد قلب خالد، وصرخ يحيى وسب ولعن، وزاد الضغط بقدمه على دواسة البنزين فاندفعت الشاحنة الصغيرة.

كانت خيوط الأمطار الساحلية الغزيرة تصل السماء بالأرض، وكانت تدق بعنف على الشاحنة والأسفلت وجانبى الطريق الذى امتلأ بالأوحال، وتدق كذلك على غابة النخيل التى تبتعد عن الطريق عدة أذرع وقد انكفأت على نفسها تحت خيوط المطر.

بعد انطلاق الرصاصة الثانية ارتعشت شفتا خالد، وقال:

- يحيى؛ خلى بالك... الهرب مش ممكن.

انقبضت الخطوط المرسومة على جبين يحيى العريض، وقفز حاجباه لأعلى وقال:

- إنت غبى.

- أيه...

- إنت ما تعرفش يعنى أيه السجن.

- السجن أحسن من الموت.

- لا.

تململ خالد فى مكانه، وقال بصوت متوسل:

- عربيتهم "دودج".

- طيب.

- تمانية سلندر.

- اسكت.

كانت مياه الأمطار تجرى على الأسفلت، والريح تزأر وتدفع الماء للرقص على الأسفلت. وقطرات المطر الكبيرة التى على الزجاج الأمامى للشاحنة كانت تنجذب إلى أعلى مرتعدة، بينما كان يحيى منحنيًا على عجلة القيادة، ودواسة البنزين مضغوطة تحت قدمه حتى أرضية الشاحنة.

سحب خالد الكبريت ليشعل سيجارة، كانت يده ترتجف فانطفأ الكبريت، فسحب عودًا آخر؛ كانت الريح تهب فأخفض رأسه وأشعل السيجارة وابتلع دخانها ثم نفخه بصوت عال.

كانت الشاحنة مليئة بأوراق السجائر حتى آخر زجاجها الخلفى، سجائر أجنبية وحبر.

انزلق خالد على كرسى السيارة، وسحب نفسه لأسفل، وأغمض عينيه، وفى أذنه صوت الإطارات المتواصل على وتيرة واحدة.

انتفض خالد على صوت الرصاصة الثالثة فجر نفسه لأعلى فرأى فى المرآة الـ"دودج" الـ ٨ سليندر. وبدا له أنها خرجت من تحت الأرض.

كانت مقدمة الـ "دودج" العريضة تشبه فم قرش غاضب يهاجم فريسته.

نظر خالد إلى يحيى، كانت عينا يحيى مزمومتين وشفتاه منطبقتين وكأنهما مصبوبتان بالرصاص.

- يحيى...

- هاه.

- لو ضربوا الكاوتش ها يحصل أيه؟

- كل كيلو متر فيه مطب.

- ١٤٠ مطب؟

- هانموت مع بعض.

- لكن.

قال يحيى ببرود وقسوة:

- قلت لك اسكت.

همس خالد وكأنه يحدث نفسه بصوت مرتعش:

- الواحد فى السجن ممكن يكون عنده أمل...

صاح يحيى بغضب:

- الأمل ده ينفع الكلاب.

دوى صوت خالد مع انطلاق الرصاصة الرابعة:

- حاسب يا يحيى... دول... يقدروا يضربوا الكاوتش...

اصطكت أسنان يحيى ببعضها وصاح:

- قلت لك اخرس.

- إزاى اقدر...

- كان لازم تحسب حساباتك دى من أول يوم.

- لسه الوقت ما اتأخرش.

- لأ، اتأخر.

ساد الصمت للحظات بينما صوت إطارات الـ "دودج" يرتفع وصورتها تكبر فى المرآة لحظة بعد لحظة.

قال يحيى:

- ولَع سيجارة واديها لى.

وضع يحيى السيجارة فى فمه بينما عيناه على الأسفلت الذى يغيب تحت الشاحنة.

كان خالد متوترًا، فعاد إلى الكلام.

- دول بيقربوا.

- لو كانوا يقدروا كانوا عملوها... ضربوا الكاوتش... دول مش هايرحمونا...

هز خالد يديه وقال:

- لأ يا يحيى... لأ... الحكاية مش كده...

بدأ العرق ينضح من فروة رأس خالد، ابتلع دخان السيجار فَسَعَل.

نظر يحيى إلى خالد بطرف عينه وقال له:

- إنت ماكنتش حسن الظن للدرجة دى.

كان صوت خالد قد صار واهنًا، قال:

- يا أخى همُا برضه بنى آدمين:

مالت نبرة يحيى إلى السخرية وقال:

- أنا عارف، بنى آدمين... بنى آدمين كل الحكاية انهم ضربوا ناس كثير بالرصاص... بنى آدمين...

عندما دوت الطلقة الخامسة، أزاح خالد العرق عن جبينه بطرف إصبعه، وأنزل زجاج السيارة.

- إنت نزلت القزاز ليه؟

كان صوت - خالد الذى يخرج من حلقه جافاً - منخفضاً، قال:

- حسيت بالحر.

- قول انا زعلت... قول...

- لا يا يحيى... أنا مازعلتش... غلط... لازم تخلى بالك.

صرخ يحيى:

- اسكت احسن.

قال خالد:

غلط

وارتفع صوتاهما؛

- قلت لك اسكت.

- خلى بالك يا يحيى.

صرخ يحيى:

- إخرس

عندها امتدت يد خالد بسرعة ناحية مفتاح التشغيل، وألقاه خارج السيارة مع دوى الطلقة السادسة.

- اتفو...

قال خالد بهدوء:

- دلوقت انت مضطر تخلى بالك.

رجت مشاعر الغضب صوت يحيى وقال:

- يا ابن القحبة!... عملت كده ليه؟

- يحيى...

- ... عمرى ما اتوقعت أبدًا ان بنى آدم هايف زيك هو اللى ها يقتلنى.

- لا يا يحيى، انا مش ها اقتلك.

وفجأة صفع ظهر يد يحيى فم خالد صفعه محكمة، فانشقت شفة خالد، وسال الدم على ذقنه.

- بُص قُدامك يا ابن الكلب، بمجرد ما كنت ها تغمض عينك كنا ها نوصل المدينة ونخلص من إيديهم.

مسح خالد الدم عن ذقنه بطرف كمه وقال:

- بس هُما ما كانوش ها يدونا الفرصة... كانوا ها يضطروا يضربوا الكاوتش ثُقَلتَ الشاحنة...

كان يحيى يضغط على دواسة البنزين دون فائدة، فرفع قدمه ووضعها على دواسة الفرامل، وفتح باب الشاحنة، وترك عجلة القيادة وقفز فى بركة ماء على جانب الطريق.

راحت الشاحنة تنحرف، فجلس خالد بسرعة خلف عجلة القيادة. رج صوت فرامل الـ"دودج" قلب خالد، مرق الـ"دودج" من جانب الشاحنة بسرعة، فضغط خالد على الفرامل، خرج يحيى من البركة إلى جانب الطريق وأسرع متجهًا ناحية غابة النخيل وفجأة صفر فـ الهواء صوت رصاصة شقت تحت كتفه الأيسر وخرجت من صدره بالدم.

ركع يحيى تحت نخلة من النخيل، ثم تدحرج على الأرض بهدوء، واختلط دمه بمياه الأمطار.

وصل خالد إلى يحيى خائفًا. وراح المطر يهطل ويهطل، والريح تعوى كالآف الكلاب الجائعة، وسعف النخيل المدبب غاص داخل بعضه بعضًا وملأت خشخشته فضاء المكان.

ركع خالد، وأخذ رأس يحيى فى حجره، واختلطت دموعه بالأمطار وهو يقول:

- يحيى... أنا اللى قتلتك... كنت فاكر انى باعمل لمصلحتك.

كانت نظرة يحيى تتحرك وشفتاه ترتجفان، ولكنه لم يقل شيئًا.

- أنا فاهم يا يحيى... فاهم... أنا ما انفعش فى الحكاية دى... لما خرجت من السجن... ما فكرتش فيها... أقسم لك يا يحيى... توقفت شفتا يحيى عن الحركة، وتجمدت نظرته الحائرة على وجه خالد.

* * *

طريق نحو الشمس

حين مضى من الليل نصفه استيقظ الصبى القاتل، وجلس القرفصاء على البطانية. كانت كشافات النور المثبتة فى الأركان الأربعة قد أضاءت الفناء.

كان الحارس النوبتجى ينعس متكئًا على جدار برج المراقبة الخشبى. نظر الصبى القاتل إلى السماء الصافية المليئة بالنجوم. كانت جدران الزنزانة الحجرية رطبة. والبحر يفوح برائحة الملح.

مر الصبى من فوق البطانية، مر على أطراف أصابعه من بين السجناء الذين كانوا ممددين بجوار بعضهم بعضًا، وذهب ووقف بجوار مجرى الماء.

وتمطى وتثاءب دون أن يحدث صوتًا. ثم قفز بخفة فوق مجرى الماء، ووضع يديه وراء أذنيه، وملأ رئته بالهواء، وفجأة دوى صوته فى الزنزانة "الله أكبر... حى على خير العمل.... أشهد أن لا إله إلا الله... على ولى الله...".

استيقظ السجناء على صوت الصبى وجلسوا على فراشهم. جلس الصبى مربعًا على مجرى الماء وبدأ فى الوعظ. كان صوت الصبى وسنانًا رخيمًا "... يا مساجين يا محظوظين. إهدوا الشيطان للصراط المستقيم. أنا شفت فى المنام ان الشيطان جانى وله دقن براسين وفى ايده خرزانه، وقال لى: يا ولد، يا ابنى!... قوم وأذن فى الناس واوعظهم..." خرج الحارس النوبتجى من برج المراقبة، وصفر. وبعد لحظة انفتح باب السجن الحديدى ودخل رقيب متوسط العمر، متوسط القامة، ياقته الأوروبية مفتوحة وشعره المصبوغ بلون الحناء يبدو تحت المصباح أصفر مائل للحمرة.

كانت عينا الغلام السعيدتان قد دارتا فى حدقتيهما، وراح صوته الذى كان يحمل نبرة سعيدة، يدوى فى الزنزانة "... وانتوا يا مساجين يا اللى نايمين على فرشتكم زى خرفان الضحية، آمنوا بيه. واقبلونى خدام عندكم، وإلا ها تبقوا كلكم مساجين فى سجن الابدية، وكلكم عارفين إن السجن الأبدى هو جهنم والعياذ بالله".

قاطع صوت الرقيب متوسط العمر المشوب بالنعاس، المختلط بالاعتراض كلام الصبى.

- أيه اللى حصل لك يا ولد؟

استمر الصبى يقول:

- اعبدوا الصبى، والعنوا الرقيب ابو شعر احمر، آمين.

وحل الصيف بسرعة. وكان الصبح إذا ما أشـــرق بدأت الرطوبة مع سطوع الشمس. فإذا مـا حل الظهر كانت الحرارة تثـقل على النفــوس؛ فإذا مـا جاء العـصر انكسـرت حدة الهـواء تدريجيًـا . وعند الغــروب حـين كانت تبدأ ريح ناعـمة فى الهـبــوب من الشـمال كـانت المدينة تتنفس.

وسرت الهمهمات

- الحر صابه فى دماغه.

- أوهام يا بابا .

- حاجة تجنن الواحد .

- اسمعنى أنا ده نصاب.

- روح يا ابنى... انت فاكر ان قتل النفس هزار.

أمسك الرقيب ساعد الصبى، وسحبه من فوق مجرى المـاء وقال له:

- انزل وروح نام وإلا ...

خلص الصبى بحركة عنيفة ساعده من قبضة الرقيب، وصوب إصبعه ناحية السجناء، وقال بصـوت جهورى "يا مساجين، يا أمتى، يا أمتى الجبانة... بعتوا نفسكم لحساب الرقيب الأجبن منكم ده..."

وفجأة استقرت صفعة الرقيب القوية على قفا الصبى العريض. أدار الصبى رقبته ناحية اليمين دون أن يهتز، وقدم صدره للأمام ووقف أمام الرقيب وجهًا لوجه، وقال ببرود وبابتسامة أظهرت أسنانه المصفوفة البيضاء:

- يا جبان!

ثم عبس وجهه، وانخفض صوته.

- كنت فاكرانى ها اختارك انت يا غبى ولى عهد ليَّه، بس...

وبمجرد أن حاول الرقيب أن يمسك بساعد الصبى مرة ثانية؛ صفع الصبى الرقيب على قفاه بيده، فقفز الرقيب كالكرة.

قام السجناء من على الفراش، فانفتح باب الزنزانة مرة ثانية، فدخل الشاويش فى البداية، ثم دخل حارسان شابان ينقلان العصا بين أيديهم.

قدم الصبى قدمًا للأمام وأخر الأخرى للوراء، وصاح " ها... دارت الحرب..." ودار حول نفسه دورة، ثم قفز فوق مجرى الماء، ورفع يده لأعلى وبدأ فى الإنشاد:

"وسوف أسحقك بالرمح فالفولاذ يذيبه الحدادون"

وقبل أن يكمل شعره انكتم صوته، وراح الشاويش والحارس يدوران حول مجرى الماء على مسافة تبعدهما عن ركلات الغلام.

كان السجناء يلتفون خلف الحارسين. وخلف الأسلاك الشائكة على حافة السقف كان بعض الجنود يضغطون على البنادق.

كان الرقيب الذى انسحقت رقبته تحت قبضته يسب الدنيا والزمان وكل شىء.

- تعال هنا، انزل يا ابن الزانية... انزل وسيبك من الاستهبال ده وإلا.

راح الغلام يقرأ الشعر:

"عندما تشرق الشمس غداً أنا والحربة والميدان وهذا الرقيب"

هجم الرقيب على الجنود.

- نزلوا الواد ده تحت. مالكم بتلفوا حواليه زى الكلاب المجروحة اللى بتلف حوالين الديب؟

وأمسك بخصر واحد من الحرس، وجذبه للأمام. استقرت ركلة الصبى فى كتف الجندى فتراجع إلى الوراء.

هذه المرة جاء الملازم. حين رأى الصبى الملازم وقف معتدلاً وأصدر أمرًا:

- قف... ان... تباه.... للخلف؛ دُر!

افسح السجناء الطريق للضابط، فوقف الضابط وجهًا لوجه أمام الصبى وقال:

– انزل تحت يا ولد، انزل وروح نام.

وصرخ فى السجناء.

– امشوا وروحوا اترزعوا فى أماكنكم.

كانت عينا الضابط منتفختين، وشعره أشعث. جلس الصبى القرفصاء على مجرى الماء، وحَدّق فى الضابط.

– إنت مش منضبط قوى يا ضابط! وما عندكش دين... أنا شيطان... أركع.

– طيب طيب يا حبيبى... طيب... انزل تحت.

وفجأة قفز الولد مثل القطة، واحتضن الضابط، وتدحرجا معًا على الأرض.

فى اليوم الثالث بعد أن ألقوا الصبى فى سجن انفرادى كانت رأسه ووجهه قد تورما، وقد التصق بهما الدم المتجلط، والقذى استقر فى عينيه، نظر الحارس النوبتجى إلى الزنزانة عبر الثقب المستدير فى الباب الحديدى، فرجاه الولد قائلاً:

– يا شاويش، إن شاء الله اعدم أمى إن كنت باكذب، أنا خلاص عقلت.

– قول للضابط ييجى، أنا عاوزه هنا.

حين جاء الضابط، أسند الصبى ظهره للجدار وانزلق مستندًا على الجدار حتى وقف وأوصل نفسه – واقفًا على قدميه الصغيرتين والسلاسل المربوط بها قدميه تحدث صوتًا – إلى باب الزنزانة.

– عارف يا حضرة الضابط... عارف انى عقلت؟

ابتسم الضابط.

– أنا... أنا خلاص ما بقيتش شيطان... إنت مش موافق كمان انى أكون ولى العهد؟ ماشى... مفيش مشكلة. خليك انت الشيطان وأنا النائب بتاعك... بشرط انك تديهم أوامر يفكوا أيديه ورجليه... يا اخى أنا مش ولد وحش... أنا خدام الشيطان. ولى عهدك.

أشعل الضابط سيجاره وذهب.

كان جو الزنزانة خانقًا وثقيلاً ومظلمًا. وكان جسد الصبى كله غارقًا فى العرق، وكان العرقِ ينضح من جسده فيحترق كله.

وحين حل الظهر كان السجناء يمرون من أمام الزنازين الإنفرادية فى صف واحد ورؤوسهم مغطاة ليذهبوا إلى المطبخ ويأخذوا وجبة الغداء. كان الغلام قد ألصق خده بالباب الحديدى وراح يتحدث مع السجناء الذين يسيرون وراء بعضهم بعضًا.

- هييه... هى... يا خالد يا مُهَرِب... قول لرستم أن بيچن اتخنق فى البير.

- هى... بويه... هيه... عربه... قول لرستم، ان بيچن بيقول لك لو ماجيتش تنقذنى ها اقول لرستم يقطعك.

- قاضى... يا قاضى أنا با اكلمك... قول للحارس ده إنه وسخ قوى... قول له يهرب قبل رستم ما ييجى.

كان الحارس المسئول عن الزنازين الانفرادية واقفًا فى آخر الممر ينظم طابور السجناء الذاهبين ليأخذوا الطعام.

- هيه! يا عباس تعال هنا.

نطق عباس القصاب بصوت متحشرج:

- عاوزنى؟

كانت عينا عباس القصاب تدمعان حيث كان قد مضى يومان لم يكن عنده فيهما أفيون ليدخنه، فصار منهكًا واهنًا.

- أيوه طبعًا... أيوه عاوزك... تعال، قرب علشان أشوف معاك أكل أيه؟..

كان حاجبا الصبى، وعيناه الحمراويان المتعبتان، وأرنبة أنفه ونصف جبهته ظاهرين من فتحة فى باب الزنزانة.

- معايا طبيخ... طبيخ بادنجان.

- طيب تعال هنا علشان اشمه... من ثلاث أيام ما ادونيش أكل.

فوق الحساء الدافئ الأصفر اللون - الذى كان راسخًا فى قاع الإناء - كانت تهتز نصف قطعة من الباذنجان الأسود.

- ما تخافش يا أخي... قرب... أنا مش ها آكله، عاوز اشمه بس.

قرب عباس القصاب الإناء من فتحة الباب، فشمه الصبى.

- هوم... هايل... هايل جداً...

- ماتخافش يا أخي... قَرَبْ... أنا مش ها آكله، عاوز اشمه بس، قَرَب عباس القصاب الإناء من فتحة الباب، فشمه الصبى.

وبعد ذلك وفى لحظة واحدة جمع الغلام لعابه وبصق فى الإناء فسب عباس الصبى قائلاً:

- يا ابن القحبة... تعال هنا وانا اوريك.

جاء الحارس من آخر الممر، ودفع عباس القصاب للأمام.

- يا حيوان، انت مش عارف انك مش لازم تتكلم مع مساجين الانفرادى.

وحين حل غروب اليوم الثالث أصدر الضابط الأمر بأن يفكوا يد الصبى وقدمه، ثم جاء بنفسه وقال له:

- كل ما ها تحب تتجنن ها يبقى هنا مكانك، وها تجوع.

نظر الصبى بعداء وأخرج لسانه وسخر منه، فقال الضابط:

- فكوا رجليه بس.

وفى اليوم الرابع حين أعطوا الصبى الطعام خلطه بالبراز ودهن به وجهه ورأسه.

قال طبيب السجن:

- ده خطر، خطر، ولو فضل هنا تانى ها يعمل مشاكل لكل الناس، لازم نبعته مستشفى المجانين. لازم نعمل كده.

وقررت اللجنة الطبية أنه "من الأفضل أن يحدث هذا بسرعة".

وفى غروب ذات يوم عندما جاءت الساعة السابعة مساءً جاء إلى السجن اثنان من الشرطة المسلحة وتسلما الصبى. وفى البداية قيدوا يديه ثم فتشوا جيوب سرواله. كان الصبى هادئًا أثناء التفتيش، وبينما نظراته تطوف بين الشرطيين ومنهما إلى رئيس المكتب. وحين انتهت الإجراءات قال واحد من الشرطيين:

- يللا، امشى.

تباهى الغلام بنفسه وسأل بسرعة:

– على فين؟

قال رئيس السجن بهدوء:

– انت بقيت حر يا ولد... انت ها تخرج من السجن.

فتح الصبى ساقيه وقال بنفس النغمة:

– مش ها امشى.

ضيق الشرطى قوى البنية عينيه السوداوين وقال:

– مش حاتيجى؟... هو انت فاكره بيت عمتك علشان ما تجيش؟

يللا امشى بدل ما ارجع لك عقلك فى مكانه بكعب البندقية.

قال الصبى ببرود:

– مش ها آجى... انتوا ها تاخذونى علشان تقتلونى. أنا امبارح حلمت حلم. شفت ربنا فى الحلم. وقال لى ان فيه اتنين عساكر ضخمين، واحد منهم تخين وعينيه سودة. التانى زى الدبور الأحمر. ربنا قال لى انهم ها ياخدونى لحد تبة لونها أصفر، وهناك... طاخ... طاخ.... طاخ... لأ... أنا مش ها اجى.

وذهب إلى رئيس السجن، وتوسل إليه.

– يا جناب الريس وحياة الهانم، وحياة رُتبك ما تخليهمش يا خدونى.

أمسك رئيس السجن ساعد الصبى وأخرجه من المكتب وتحدث معه بهدوء.

– هُما ملهمش دعوة بيك خالص... إنت رايح مستشفى المجانين...

إنت ها تخرج من السجن... سمعت؟ المحكمة كتبت كده.

وأخرجه من باب السجن الكبير بينما يتحدث معه على هذا النحو من الهدوء.

عندما تحرك القطار كان الصبى منطوياً على نفسه، وقد ألصق خده بزجاج النافذة وغابت نظرته فى ظلام الليل.

عندما عبر القطار المحطة السادسة تضرع الصبى:

- وحياة ولادك، وحياة عماتك... فك إيدى... أنا بشر.

نظر العساكر إليه دون اكتراث، وابتسموا، ودخنوا السجائر.

- الكفرة... النهاردة، عشر أيام، خمسين يوم، ولا سبع أيام با اهرش فى ظهرى...

- إنت بتخرف كتير.

- وحياة ربنا بقى لى نُص يومًا ما أكلت - انتوا عارفين أربعين يوم يعنى أيه... لو كنتوا رجالة اقعدوا سنة من غير أكل... سنة واحدة بس.

سأل الشرطى ذو الشعر الأحمر.

- معاك فلوس ولا أى حاجة؟

قال الصبى:

- إدينى السيجارة دى آخد منها نفس.

قال الشرطى:

- اتنيل.

فاستقرت بصقة الصبى الغليظة على جبهة الشرطى ذى الشعر الأحمر، فقام الشرطى واختبر قوة يده، ثم صفع الصبى على خده. فانفجر الصبى ضحكًا، وبعد عدة لحظات غنى غناءً بلا معنى.

حين مر القطار بمحطة "شوش"، انتفض الغلام وصرخ:

- عاوز اتبول... بول.

قال الشرطى:

- اترزع فى مكانك.

فارتفع صوت الغلام أكثر.

- عاوز اروح المرحاض... المرحاض.

قام الشرطى القوى ذو العينين السوداوين، وأمسك بكتفى الغلام، وأجلسه فى مكانه.

تحدث واحد من الركاب كانت على رأسه قبعة فقال:

- يا أخى ده مش أسير.

قال الشرطى ذو الشعر الأحمر:

- دى حاجة خاصة بينا.

وتدخل آخر كان أنيقًا فى مظهره:

- كل اللى بتقوله مضبوط، لكن ده مهما كان بنى آدم.

قال الشرطى القوى بغيظ:

- اصبر لما نعدى المحطة.

فقام الغلام من مكانه مرة ثانية وصرخ:

- دلوقت ها اتبول هنا... مرحاض... آى مرحاض.

وبدأ فى الرقص.

... حين وصلوا إلى باب المرحاض أدار الصبى رقبته وتوسل إليهما:

- ما ينفعش بالكلبشات يا جناب العقيد... على الأقل فك واحد.

زأر الشرطى ذو الشعر الأحمر، وفتح فردة من الكلبشات، وعلق القيد فى يد الصبى اليمنى.

دخل الصبى المرحاض وأغلق الباب.

أغلق الباب خلفه واستند على جدار المرحاض وأغمض عينيه وملأ صدره بالهواء، وهمس وهو يخرج نفسه بهدوء " ارتحت... اخيراً اتنفست وانا مرتاح... "

ونظر إلى وجهه فى المرآه " يخوف... يخوف!" وشق جيب سرواله وأخرج نصف السيجارة الذى كان محشوراً معه ورقة وعدة أعواد من الكبريت فى بطانة الجيب. وأشعل نصف السيجارة وازدرد الدخان بولع، فسرت سكينة منعشة فى كل كيانه. ثم اتكأ على جدار المرحاض مرة ثانية وأغمض عينيه وهمس "من غابة شوش لحد الحدود..." وفجأة انتفض وقال "دلوقت مش وقت الكلام ده يا غبى"

وألقى السيجارة وأمسك بفردة الكلبش التى كانت معلقة، وضرب زجاج نافذة المرحاض بقوة، فاندفعت إلى الداخل ريح ساخنة وحبات من الرمل فألهبت وجنتى الصبى كالنار "العاصفة ها تبتدى... أحسن... أحسن كتير..." وكسر باقى الزجاج بالكلبش "... لكن فى الجو ده الوصول لغاية شوش..." وأمسك بحافة النافذة وألقى بجسده بحرص و... أغمض عينيه وقفز ناحية الأرض بينما كان القطار آخذاً فى السرعة.

* * *

صبي ريفي

يمر شهرو بالمدق الواسع المغطى بالجاز الذى ينصهر تحت أشعة الشمس، فيحرق بطن قدميه.

تقافز وجلس تحت الظل الساخن لأشجار الكافور، ووضع قدميه حتى مفصليهما فى قناة الماء التى تتفرع عن شاطئ نهر بهمنشير، وتجرى فى الأرض البور بجوار صف أشجار الكافور الشابة، ويصل إلى السويقة القابعة وسط البيوت الخشبية غير المنتظمة التى تفترش المكان تحت الشمس.

جرت برودة الماء تحت جلده المحترق بفعل الطريق، وارتعدت فقرات ظهره، فاستند على جذع الشجرة، ونظر إلى آثار قدميه اللتين كانتا قد غاصتا فى التراب الملوث بالنفط. ثم ارتدت نظرته مع الطريق حتى نهايته الغائبة فى السراب، وإلى خط التلغراف المنتشر على طول الطريق، وأعمدته الخشبية التى ترتعد فى انكسار النور الذى ينبعث من الأرض الملحية، ثم يعود وينكسر. وإلى الأراضى الواسعة المحيطة التى يشع منها البياض، وإلى البيوت الخشبية التى تبدو وكأنه لا ظل لها.

أخرج شهرو قدميه من الماء، وقام، ومسح عرق جبينه بذيل ثوبه، ثم سار تحت ظل أشجار الكافور، وسار باتجاه صف بيوت الخواجات الخشبية المنظم. ومن الطرقعة التى تسير على وتيرة واحدة وتتقدم إلى أطراف أشجار النخيل الكثيفة، والتى اختلطت بأصوات الظهر المكتومة الأخرى، عرف أن مزرعة الدواجن التى يمتلكها الأوروبى السمين قصير القامة الذى يتصبب منه العرق دائمًا بلا انقطاع، ويلهث بشكل متصل ولا يضحك أبدًا، لم تنته بعد.

كان ذلك هو اليوم الثالث الذى يبنون فيه عُش دجاج فى الحديقة الذابلة الموجودة فى منزل الأوروبى السمين، ببطء ممل.

عندما كان الظهر يحل، وينطلق النفير كان موعد مجئ الخواجة يحين، ليقوم العمال من تحت ظلال الأشجار ويضعون البراد والأكواب فى الحقيبة، ويدورون حول العش شبه المكتمل.

كان بكل بيت من بيوت الخواجات عش للطيور - لكن البيت الخامس كانت به حجيرة خشبية خضراء اللون، يعيش بها كلب صاحب البيت. منذ شهرين عندما عاد صاحب البيت الخامس من إجازته برفقة زوجته الشابة وابنته "بتى" ذات الأعوام الاثنتى عشرة؛ كان معه أيضاً كلب متوسط الحجم يشبه الذئب فى شكله، وفى اليوم التالى جاء عاملان بملابس زرقاء، وصنعا الحجرة الصغيرة، وبعد أن ذهبا، طلت الزوجة الأوروبية الحجرة بلون الزرع.

عندما وصل شهرو إلى البيت الخامس؛ وقف أمامه، ومد رأسه من فوق الجدار القصير المكون من أشجار الصفصاف، ونظر إلى داخل البيت، ثم ذهب وجلس على حافة الكوبرى الأسمنتى المطلى باللونين الأبيض والأسود الذى يعبر فوق قناة الماء.

كان البستانى يُقلم أشجار الصفصاف، وحين رأى شهرو قال:

- إنت ما تعبتش يا شهرو؟

فسأله شهرو:

- من أيه؟

كانت رأس البستانى الشيخ الصلعاء بلون النحاس المصقول، وقطرات العرق الضخمة تسيل على جبينه العريض:

- من المجى لحد هنا، والقُعاد على حرف الكوبرى المولع ده.

- واتعب ليه؟

علا صوت مقص البستانى:

- بُص، إنت ما عندكش شغل خالص؟

لم ينطق شهرو، ومرة ثانية علا صوت البستانى. كان الكلب - الذى يشبه الذئب - جالساً أعلى أرجوحة خشبية، ولسانه مدلى، والأرجوحة الخشبية خضراء بلون الحديقة، لم يكن صاحب البيت النحيل الطويل القامة قد أتى بعد.

كانت رائحة الطعام تنبعث من داخل البيت، كانت الرائحة تبدو رائحة خضروات محمرة وزبد ساخن. وكانت أبواب الحجرات مفتوحة، وحين تهب الرياح الناعمة الرقيقة تُحرك الشرابات النارية اللون الشبيهة بورود بنت القنصل، فتتطاير الشرابات فى طرقة البيت.

سأل البستانى شهرو:

- إنت اتغديت؟

أجابه شهرو:

- أكلت... أكلت مع أبويا لما أخدت له الغدا فى الشُغل.

كانت هناك على الأرض بجوار سلة القمامة الخضراء اللون الموضوعة أمام البيت نصف سيجارة، قام شهرو وذهب والتقطها، وقال البستانى:

- معاك كبريت؟

- عاوزه تعمل بيه أيه؟

- لو معاك إديه لى.

أعطى البستانى الكبريت لشهرو، فأشعل نصف السيجارة، وملأ دخانها فمه، ثم سأل البستانى:

- هو الكبريت ده بيديه لك الخواجات؟

نظر البستانى له، وزمجر، ثم قال:

- با اقول لك أيه يا شهرو، هو تدخين السجاير كمان اتعلمته فى الحوزة.

- فى الحوزة؟... فى الحوزة ما بيعلموش الواحد الحاجات دى.

- طب امال اتعلمتها من مين؟

خرجت "بتى" من الحجرة، فألقى شهرو السيجارة فى قناة الماء، ونظر إلى "بتى" التى لوحت بيدها، ثم ذهبت، ووضعت طبق الطعام أمام الكلب.

كانت بتى تلبس بنطلونًا، وكانت بشرة وجهها حمراء من الحر.

لوح شهرو بيده لـ بتى، وابتسم، انطلق من عينيه السوداوين الواسعتين برق خاطف.

ربتت بتى على الكلب، ثم لوحت مرة ثانية لـ شهرو، ومضت، وظلت نظرات شهرو ثابتة على شعرها الأصفر الذى كان تطايره يصنع أمواجًا من الهواء حتى دخلت الحجرة.

حين دخلت "بتى" قال البستانى:

- شهرو، إنت خلاص بقيت صاحبها.

لم يتكلم شهرو، وذهب ليجلس على حافة الكوبرى الأسمنتى، وقبل أن يعتدل ملأ صوت النفير المدينة.

قال البستانى:

- دلوقت أبوها ها ييجى.

قال شهرو:

- ما ييجى.

- ها يتخانق معاك تانى.

- لأ خلاص مش ها يعملها.

- إنت على طول قاعد فى بيتهم زى الكلب الوفى، خلاص أكيد زهقوا منك، يبقى كفاية انهم يطردوك بالشكل ده.

- با اقول لك أيه انت اتعلمت فين تقول على الناس كلاب؟

أبقى البستانى المقص صامتًا، وحملق فى شهرو وقال:

- هُو... دى قلة أدب.

ثم حك ذقنه الصغيرة، وقال:

- الله يلعن الأيام. ..جابت لنا عيال بالشكل ده.

وقص فروع الصفصاف، ثم قال:

- انت فاهم يا ولد بتقول أيه؟... انت متصور أيه اللى بتقوله؟

ولم يتكلم ثانية، وعلا المقص، ثم انقطع وحل محله صوت سيارة والد بتى الرمادية اللون التى كانت قد بعدت عن المدق وأقبلت ناحية الكوبرى الأسمنتى.

توقفت السيارة أمام البيت، وخرج منها والد بتى، واتجه ناحية شهرو ثم وقف ونظر إليه. كانت نظرة شهرو ثابتة على سقف السيارة الأبيض الذى كان يعكس ضوء الشمس، ونظرة والد بتى ثابتة على عينى شهرو السوادوين الشفافتين اللتين بدتا وكأنهما مبللتين.

دخل والد بتى البيت بخطوات واسعة دون أن يتحدث. ترك البستانى تقليم أشجار الصفصاف دون أن يكمله، وسار حتى خرج ليغادر البيت.

سأله شهرو:

– أكيد انت ها تشتغل هنا بكره؟

هز البستانى المقص مهدداً وقال:

– لو كنت فاكر انك ها تيجى تقل أدبك تانى، أنا بقى باقول لك ان انا ها اكسر رقبتك بالمقص ده.

قال شهرو:

– أنا با اسأل بس.

قال البستانى:

– وكمان لازم اقول لابوك انك طول النهار قاعد قدام بيت الخواجة ده.

قال شهرو:

– أبويا ولا ها يسأل فى كلامك.

ضاقت عينا الشيخ:

– با اقول لك أيه، هو انت فاكر إن أى واحد عريان وحافى وشحات يقدر يحب بنت خواجاية.

ابتسم شهرو، فنهره البستانى:

– قوم وغور فى ستين داهية، قوم غور اشتغل شيال بثلاثة شاهى تساعد بيهم ابوك الغلبان.

ابتسم شهرو من جديد، وقال وهو يبتسم:

– كفاية انت بتشتغل، كفاية كده.

احمرّ لون البستانى:

– برضه بتقول كلام ما انتش فاهم معناه يا بُرص انت؟

– يا عم الشيخ ممكن تروح تتغدى بقى؟

ارتعدت شفتا البستانى، وخرج صوته خشنًا:

- الليلة ها اقول لابوك كل حاجة علشان يطلع...

قاطع شهرو الرجل:

- اعمل اللى انت عاوزه... بس ما تكذبش.

اصطكت أسنان البستانى ببعضها:

- والله انت صعبان عليَّه يا مسكين.

- تصعب عليك روحك، انت اللى لازم تعيش فى مواسير المجارى زى الحيوانات.

هذه المرة اصفَّر لون البستانى، وارتفع حاجباه، واتسعت عيناه.

- تانى يا متسلق... ده لو ما كانش الخواجة ده ادى لابوك الغلبان لقمة عيش ياكلها...

- كان ها يجوع ويموت.

مد شهرو رقبته دون أن يكمل كلامه حيث كانت "بتى" قد خرجت من الحجرة مرة ثانية لتأخذ الطبق من أمام الكلب، كلم البستانى نفسه، ثم ذهب.

" متعوس، غلبان، لو كنت تعرف ان الخواجة ده كان بيقول أنا لازم ابعت عبدول ده يشتغل فى دار خوين علشان ارتاح من ابنه الرذل؟... لو كنت تعرف ما كنتش تلزق فى الكوبرى كده زى اللزقة..."

وابتعد البستانى:

كان البستانى محنيًا وكأن رأسه وعنقه ثقيلان يميلان إلى الأمام، وكأنه قد خرج من الأرض، وتلون بلونها، وكان ظله مختلطًا بظلال أشجار الكافور.

حين دخلت بتى إلى الحجرة، جاء الخواجة لابسًا بنطلونًا قصيرًا، وعاريًا وبشرته حمراء كلحم الغزال. فى البداية جاء ووضع السيارة فى المرآب ثم ذهب والتقط خرطومًا بلاستيكيًا وروى الحديقة وأشجار الصفصاف ثم بلل جسده، وأبعد الكلب وجلس على الأرجوحة الخشبية.

كان الهواء الساخن يمر بجسده المبتل فيمتص قطرات الماء.

بعد عدة لحظات قام الخواجة من على الأرجوحة ودخل إلى الحجرة.

تمدد شهرو على حافة الكوبرى الأسمنتى العريضة ووضع قدميه فى الماء، بينما يترامى إلى مسامعه صوت احتكاك قطع الأوراق التى تدفعها الريح على الأرض وصوت احتكاك أغصان أشجار الكافور المصطفة.

كان العرق قد سال من ظهر شهرو، واختلطت رائحة الجاز وملح البحر برائحة الحديقة المبتلة ببعضها البعض وعلى المدق بدا الأمر كأن البخار يتصاعد منه وكأن نهر الماء الطويل قد اتصل بصفحة السماء.

رأى شهرو فى الميدان السماء ببقعها البيضاء، وقد فر طائر الحبارى ذو اللونين الأصفر والرمادى أجنحته وراح يطير صوب حديقة النخيل.

كان صوت العصافير المتعب يبعث على النوم، وكان النوم يداعب جفنى شهرو و... حين حل العصر انكسرت حدة الحر، وهبت ريح رطبة، وعندما هبت الريح القادمة من الشمال وضع الأوروبى وزوجته المائدة فى الحديقة، وجلسا على الكراسى المصنوعة من الخيزران، وشربا القهوة وتحدثا معًا.

أحضرت بتى دراجتها الخضراء وخرجت من البيت، ومرت من جانب شهرو، وابتسمت، ثم مضت، وسارت على المدق، ثم ركبت الدراجة. بعد ذلك خرج بعض الأولاد والبنات بملابسهم الملونة من البيوت الخشبية بدراجاتهم ذات العجلتين أو الثلاث عجلات وأحدثوا جلبة شديدة، وراحوا يلعبون.

أشعل والد "بتى" سيجارة، وخرج من البيت ووقف بجوار قناة الماء، ونظر إلى الأولاد. كانت قسوة الحر فى فترة ما بعد الظهر قد رحلت وحل محلها اعتدال الغروب، وهبت ريح رقيقة حاملة معها برودة البحر ".

جاء الأوروبى السمين – الذى لم يكن يضحك أبدًا – ووقف إلى جوار والد "بتى" وأشعل غليونه. ثم جاءت والدة "بتى" ونظرت إلى شهرو وتحدثت مع زوجها.

قام شهرو من على حافة الكوبرى، وذهب ووقف بجوار المدق، ونظر إلى "بتى" التى كانت تقود الدراجة والريح تبعثر شعرها.

عاد شهرو ونظر إلى والد "بتى" وأمها والخواجة السمين الذين كانوا ينظرون إليه ويتحدثون، ثم رأى الخواجة، وقد مضى عابسًا متجهًا ناحيته. تراجع شهرو إلى الوراء خلسة، ثم أسلم ساقيه للريح وذهب ليقف تحت صنبور المياه.

كان الخليج على مرمى بصره، والمصابيح الملونة فوق السفن، وخلفه مداخن المصافى العالية التى راح لونها يزداد لمعانًا مع حلول الليل.

كانت الأرض قد استرجعت حرارة الظهر، وامتصت برودة الغروب، فأحس شهرو أن الحرارة تخرج من جسده فألصق خده بعامود صنبور المياه المعدنى، ورأى المصابيح ذات النور القوى على جانبى البيوت الخشبية وهى تطرد سواد الليل شيئًا فشيئًا، ورأى الأرض تتلون تحت نور المصابيح، ورأى ظل بتى وهو يسير مع ظل الأولاد، ويُقبل، وكان صوت بتى اللطيف يصل إلى سمعه، لم يكن يفهم كلامها، لكنه كان يرى عينها الخضراء التى بدت وكأنها تضحك.

ارتدت نظرة شهرو عن ظل "بتى"، واتجهت إلى ظل والدها وأمها والخواجة السيء الخلق الذين كانوا يسيرون معًا على جانب الطريق، ويقبلون نحو صنبور المياه. تنفس شهرو نفسًا عالى الصوت، ثم أسلم ساقيه للريح، وجرى بشكل متصل حتى وصل إلى السويقة التى كانت كالنهار بسبب النور القوى الذى ينبعث من المصابيح. كان فى الميدان رائحة الكبد المشوى، ورائحة السمك المشوى والفاكهة المتبقية والبطيخ المتهرئ الذى أصابت شمس النهار قشره بالتشقق.

ملأت أنفه رائحة الخبز الطازج فسال لعابه، وحين مر من أمام المخبز، ارتفع صوت سورى.

– شهرو!

كان سورى واقفًا بجوار المخبز بعينيه اللتين يقطر منهما الدمع، وشعره الكث الأسود الأشعث وبشرته التى أحرقتها الشمس، وقد بَرَمَ نصف رغيف فى شكل أسطوانى وراح يقضمه.

– فيه أيه يا سورى؟

– انت كنت هنا النهارده كمان؟

– أيوه... أنا لسه جاى من هناك.

– وبعدين؟

– وبعدين أيه؟

- عملت أيه؟

- كنت عاوزنى اعمل أيه؟

- يا أخى ده انت مش فاهم لغتها حتى.

- أنا راضى بانى ابص لها.

ازدرد سورى لقمة، وقال:

- النظر بس ما يـ...

عندها أحس شهرو بأصابع أبيه الغليظة على رقبته وسمع صوته.

- يا اقول لك إيه يا شهرو، انت قلت ايه النهارده للراجل العجوز ده خلاه يزعق بالشكل ده؟

ثم مسح برقة على شعر شهرو وقال له:

- يا شهرو... انت لازم تحترم اللى اكبر منك

أمسك شهرو بمعصم والده وقال:

- يا بابا كل ده كان بسببه هو.

وسارا معًا. سمع شهرو صوت سورى المنخفض يئز:

- يا شهرو، أنا جاى لك بكره نصطاد سمك.

وخرجا من السوق.

قال عبدول:

- شوف يا ابنى، لو كنت رايح تصطاد، اوعى تتجنن وتفكر تعوم.

علا صوت خُفَّى البستانى قادمًا يُسَبِح.

- يا عبدول، ما تاخدش الواد ده معاك.

كان البستانى يسير بجوار عبدول كتفًا بكتف، وهو يتحدث:

- مهما كان، أنا أكبر منك بعشر سنين أو عشرين... وشفت من الدنيا بحلوها ومرها أكتر منك...

وعندما وصلوا إلى المسجد ضعفت خطى البستانى.

- تعال الليلة المسجد معايا.

كان المسجد محاطًا بالألواح المعدنية البيضاء، وعلى باب المسجد رايتان سوداوان، وسلك الكهرباء يمتد من المدق، ومن الأرض البور ثم يأتى إلى السوق، ثم المسجد، كان المصباح القوى النور مضاءً على باب المسجد.

وقفوا أمام باب المسجد وظلهم تحت أقدامهم، ونور الكلوبات الموجودة فى السوق ينير لمسافة عدة أذرع من المسجد، ثم يصل إلى أرضية الحارة. كان المكان خلف المسجد مظلمًا، وعلى مسافة أبعد قليلاً من البيوت الخشبية المتناثرة كانت الشعلات الباهتة اللون لمصابيح المركب تنير على مسافات، وإلى جوار تلك الشعلات كانت هناك أنابيب معدنية متراكمة فوق بعضها بعضًا، وأفواهها فى حجم البشر الذين كانوا يعيشون بداخلها.

قال والد شهرو:

- بص يا عم الشيخ، ايه رأيك تيجى انت معانا الليلة؟

- أنا؟

كان واضحًا فى نور الكلوب الواقع على باب المسجد أن خطوط جبهة الشيخ قد صعدت لأعلى، وأن عينيه اتسعتا، وشفتاه ارتعدتا.

- دى حاجة غريبة!

سار عبدول مع شهرو.

- شوف يا شهرو، انت لازم تخف رجلك عن بيت الخواجه ده.

قال شهرو:

- أنا أصلاً مليش حاجة هناك.

قال عبدول:

- أنا عارف... لكن الجناينى كان بيقول إنك بتحب "بتى"... "بتى". دى أيه كمان؟

- " بتى " دى بنت الخواجة ده.

- يبقى أنت صحيح بتحبها، مش كده؟

- بس يا بابا... أنا مش فاهم لغتها.

- طيب، بس خف رجلك بقى.

ضغط شهرو على يد أبيه، وكأن لسانه يخَرس:

– طيب... حاضر... بس... يا بابا... بابا...

– فيه أيه؟

قال شهرو:

– هو الجناينى قال لك كمان ان...

خطف عبدول الكلام من فم شهرو.

– ... إن الخواجة جاب لى لقمة عيش؟... طيب، ماشى، وبعدين، قال، لكن انا عارف انه بيكذب.

قال شهرو:

– وبعدين يا أخى الجناينى ما يعرفش لغتهم.

دخلا البيت، كانت أم شهرو قد رشت الماء على أرضية البيت، وفرشت الحصير بجوار النخيل العالى الموجود وسط الفناء، وأشعلت وابور الجاز ووضعت عليه البراد.

سأل شهرو:

– باين الليلة فيه حوزة هنا يا بابا.

قال عبدول:

– "آرزو" كمان ها يتكلم.

كان "آرزو" يتكلم فى الحوزة، وحين كان الليل يحل كان بهمنشير يبدو وكأنه أكثر صياحًا وضجيجًا، وكأن النخيل كان يتناجى، وكأن رائحة النخيل اللاذعة ورائحة الجاز تزدادان قوة.

كان صوت آرزو يبدو ناعمًا، وكانت به بحَة، كان جذابًا "... كل ده كلام بيقولوا انهم رموا المواسير هنا علشان المجارى... وإلا كانوا قدروا يغطوا المجارى، وكانوا استخدموا كل الأنابيب المكتومة فوق بعضها..."

كان البعوض يدور فى شكل لولبى حول الكلوب الذى كان نوره يلقى بظل منير على جدران البيت القذرة المتهدمة، ودخان السيجارة يتصاعد.

كان شهرو جالسًا بجوار أبيه محتضنًا ساقيه، واضعًا ذقنه على ركبتيه، وكأنه بين اليقظة والنوم "... تعرف أن كثير من الناس اتعودوا شوية شوية انهم يعيشوا فى المواسير وبعدين هما راضيين عن حالهم، الناس راضيين انهم ما بيدفعوش ايجار بيت، واهو فيه سقف مغطيهم..."

كانت الوجوه مألوفة لـ شهرو، وبينما كان النوم يتسرب إلى عينيه كان يسمع صوت آرزو قادمًا من قاع بئر، وراحت الصور تكبر، والشارب الكث يرتعد و... فجأة دق شخص بطرف إصبعه على جدار البيت فدوى صوت الجدار القذر المتهالك كصوت المدفع الرشاش فى صمت البيت، فانتفض شهرو الذى كان يوشك أن ينام.

أمسك عبدول بساعد شهرو، وقال:

– انت بتنام؟

قال شهرو ناعسًا:

– كنت بافكر فى الجناينى اللى عايش فى المواسير.

قال عبدول:

– بُص يا ابنى، لو عاوز تنام قوى رَوَّح، ما فاضلش حاجة على البيت.

قال شهرو:

– عاوز افضل علشان اسمع كلام آرزو.

صمت عبدول، وأصغى إلى كلام آرزو، ومرة ثانية وضع شهرو ذقنه على ركبتيه ونظر إلى آرزو الذى كان جاثيًا على ركبتيه يتحدث بحرارة "القضاة عاوزين يشاركوا فى الانتخابات، والديمقراطيين كمان... متهيأ لى ان الاتنين ها يتفقوا مع بعض... هُما فاكرين انهم ها يضحكوا علينا، عاوزين يعكروا الميه ويصطادوا فيها... احنا عندنا تَجَمُعْ يوم الجمعة، تَجَمُعْ عشان الانتخابات... لازم الكل يفهموا... انت عارف، بس الحكاية لازم تكون بالهداوة... "

كانت أهداب شهرو تثقل، والعرق ينسال على جبينه، وكانت كلمات آرزو متقطعة، كأنه كان بعيداً، كأنه كان فى سفح جبل، وكأن صوته هو الصدى الذى كان يتلاشى فى شقوق الجبل. وصوت هدير الماء فى نهر بهمنشير، وهمس النخيل، وصدى احتكاك أوراق مدببة و"الخواجات، احنا لازم... القضاة... المواسير..." كان الكلام غريبًا، وغير مفهوم، وكان ذهن

شهرو الناعس ثقيلاً، والكلمات ثقيلة الوطء كانت تنفذ إلى وجدانه، وتتكرر " الخواجات دول... الأوروبيين... الأوروبيين... " كانت الكلمات سمجة، كانت ملتصقة بوجدانه مثل الدودة؛ التى تتشكل أحيانًا، وأحيانًا تلتف حول نفسها، تختلط ببعضها، أو تنفصل عن بعضها و"الدود. الخواجات... المواسير... الماسورة... الأوروبى... الدودة... الخواجة"

ثم راح شهرو فى النوم.

كان الوقت متأخرًا ليلاً، وريح الشمال تتكسر على سطح نهر بهمنشير، ثم تهبط على أطراف سعف النخيل وتهمس.

تقلب شهرو وفتح عينيه، ومسح العرق عن جبينه بطرف كمه، وقال:

– خلاص؟

قال عبدول:

– إمشى... انت كنت نايم طول الليل.

– أنا ما كنتش عاوز انام، بس النوم غلبنى، باين كنت تعبان.

كان الهواء فى الزقاق لطيفًا، وكانت رائحة الليل مختلطة برائحة النخيل اللاذعة.

وصل البستانى:

– انتوا لازم جايين من الحوزة؟

قال شهرو:

– ولازم انت جاى من المسجد!

قال عبدول:

– ازاى بقى؟

وقبل أن يلتقط البستانى أنفاسه؛ قال شهرو:

– دايمًا يسأل نفس السؤال، كل كلامه كده دايمًا.

قال البستانى:

– أنا عارف حاجة واحدة.

وصمت لحظة، ثم واصل حديثه:

- بتوع الحوزة دول مش ها يعملوا أى حاجة!

سأل عبدول:

- وتعرف أيه كمان؟

قال البستانى:

- اعرف ان بتوع الحوزة موزة دول ما عندهمش أى حاجة غير الرغى.

قال عبدول:

- لازم تعرف حاجة كمان.

تكلم البستانى بهدوء:

- وبعدين كمان بتوع الحوزة دول مخالفين لدين الناس وإيمانهم، دول مفيش حاجة ها تيجى منهم أبداً.

قال شهرو وكأنه يزأر:

- بقى يا راجل يا عجوز، هو ده اللى اتعلمته الليلة.

قال عبدول بلهجة آمرة:

- شهرو! أنا قلت لك تحترم اللى اكبر منك.

قال البستانى بهمس:

- طيب ما هو ما دام أول طوبة اتبنت عوجة، يبقى الحيطة كلها لحد السما ها تبقى عوجة.

كانت البيوت الخشبية قد تمددت فى ظلمة الليل، وبدت كأنها تكبر، وعلى سطح الأرض كانت هناك بيوت خشبية أيضاً، ومصابيح كيروسين تلقى بضوئها الخافت هنا وهنا بين ثنايا المواسير المعدنية.

وقف عبدول أمام باب بيته القذر، ونظر فى عينىْ البستانى، وقال:

- فيها أيه لما يكون اعوج.

ثم قال:

- اتفضل جوه اشرب كوباية شاى.

تململ البستانى فى وقفته وقال:

- الوقت متأخر، وإلا كان نفسى أجى معاك ونتكلم و...

قال عبدول:

- علشان لازم تقنعنى.

وقال شهرو:

- ويمكن تقنعه انت.

طأطأ البستانى رأسه ومشى:

- تصبحوا على خير.

كانت المدينة تسبح فى ضباب كثيف، والشمس كانت كأنها تسبح فى بحـر من اللبن، وهى تشبه بحراً من الدخان.

كان سورى يلقى بكيس من القماش القذر على كتفيه، وقد لف حول معصمه خيط صنارة الصيد. كانت الأرض ندية، والتراب الناعم الرطب يغوص تحت قدميه، كان سورى يقضم نصف الرغيف الذى لفه على شكل أسطوانى.

كان الكلب الضخم الأسود اللون - الذى يرافق سورى - يتشمم الأرض، ثم يجرى، ويعود ليقف من جديد ويتشمم الأرض. كان سورى قد خرج لتوه من السويقة والبيوت كانت وكأنها خالية من البشر ليس فيها أحد، وكانت السويقة نائمة، وكانت رأس سورى الكبيرة بشعرها الأسود الكث تشبه كرة صوف كبيرة تسبح فى الضباب. وكان قميص سورى وسرواله بلون قدميه، وبلون الأرض.

خرجت من بين البيوت دراجة بخارية، واتجهت ناحية السويقة وجرى "پاپى" كلب سورى القذر حتى ابتعدت الدراجة، والأرض الرطبة تخشخش تحت إطاراتها. أعقب ذلك صوت عربية يد بائع الجاز الخشن، ثم صوت الباب الحديدى لمنزل عبدول الذى كان سورى يدق عليه بمطرقة ضخمة صدئة.

خرج شهرو من البيت، كان وسنانًا أشعث الشعر، كانت عيناه الواسعتين تلمعان بكل ما فيهما من نعاس فى صفحة وجهه، وقال:

– جيت بدرى.

– هو دلوقت بدرى؟ امشى ده احنا ها نبقى الظهر.

تثاءب شهرو:

– هوم...

– انت كنت نايم، مش كده؟

قال شهرو:

– لأ، أنا صاحى من نُص ساعة.

– طب ياللا هات صنارتك، وامشى.

– ادخل؛ أنا لسه ما شربتش الشاى.

ودخلا معًا إلى البيت، ثم خرجا معًا من البيت، أخذ شهرو أدوات الصيد وصنارة السمك، ترامى إليهما صوت أم شهرو من داخل البيت:

– يا اولاد اوعوا تتهفوا فى عقلكم وتعوموا.

قال سورى:

– اطمنى.

خرج رأس أم شهرو من بين ضلفتى الباب:

– شهرو، تعال الظهر علشان تاخد الغدا لابوك.

قال شهرو:

– جاى... جاى قبل كده يا أمى... ويمكن كمان أجيب لك سمك تشويه.

كانت الشمس قد ارتفعت واشتد أوارها وطردت الضباب، كان لون الشمس بلون البرتقال، وقد راح يحول لون الفجر الأصفر الشاحب الذى يعلوه ضباب كثيف إلى طبقة رقيقة، ويحول كثافته إلى ماء فتهبط على الأرض ندى رقيقًا.

خرج الاثنان من السوق.

سأل سورى:

- شهرو، تفتكر نروح فين أحسن؟

قال شهرو:

- فى أول النهر.

- طب وليه ما نروحش تحت الكوبرى، هناك بيرموا الزبالة، والسمك هناك كتير.

قال شهرو:

- كتير، بس كُله بَسَاريه.

- بساريه، بساريه، وأيه يعنى مش بطال.

- فى أول النهر سمك الـ"شانكا" الكبير.

حين خرجا من بين البيوت الخشبية انثنى شهرو ناحية المدق.

قال سورى:

- انت رايح فين من الناحية دى؟

قال شهرو:

- ها نعدى من قدام بيت "بتى".

قال سورى:

- بس كده طريقنا ها يبعد.

- مش كتير، ها نخرم من الأرض البور لحد النخل، وبعدين ها نفوت من وسطه ناحية النهر.

كانت الشمس قد ملأت السماء، وكان ظل صنبور المياه ممتداً إلى الطريق النفطى، ومنكسراً على قناة الماء الصغيرة المتفرعة من بهمنشير.

أشار شهرو إلى الكلب:

- پاپى، انت جايبه ليه؟

قال سورى:

- هو اللى جه ورايا.

- مَشيِه يا أخى.

وطرده سورى، فجرى الكلب وذهب ليتمدد تحت ظل صنبور المياه.

وسارا هما على المدق.

قال شهرو:

- خَرَّم انت من الأرض البور يا سورى، وأنا جاى وراك.

- يعنى مش عاوزنى آجى معاك.

- أيوه، علشان مش عاوز "بتى" تعرف إنك عارف.

- أيه الأفكار دى.

- يا أخى انت ما تعرفش الخواجات دول طبعهم ازاى... لو اتضايقت يبقى ها اموت بدل ما انا باتمنى اشوف ضحكتها.

انفصل عنه سورى واتجه ناحية الأرض المنخفضة المالحة التى كانت ممتدة بجانب النخيل.

وقف شهرو عندما وصل أمام بيت "بتى". كان البستانى جالساً بين الصفصاف يدخن.

صعد شهرو على حافة الكوبرى الأسمنتى ومد رقبته، فصاح البستانى:

- إنت يا واد جيت تانى؟

- وانت كمان سايب شغلك وقاعد فى الظل تشرب سجاير.

- ما تتعبش نفسك من غير داعى. لسه ما قامتش من النوم.

قال شهرو:

- بس ما حدش سألك.

خرجت "بتى" من الحجرة، ولوحت لـ شهرو، ولوح لها هو أيضًا، وتحرك فى مكانه. كان الظل ساقطًا على الحديقة مع اعتدال الجو فى الصباح. ذهبت "بتى" وجلست على الأرجوحة الخشبية، وأشارت إلى البستانى الذى كان قد قام وأمسك المقص وذهب إلى أشجار الصفصاف.

وضع البستانى المقص فى خاصرته وهز الأرجوحة، كانت عين البستانى على الأرض، وعين "بتى" على شهرو، وعين شهرو على الشيخ الذى كان كما هو مطأطئًا رأسه لأسفل وهو يهز الأرجوحة.

قامت "بتى"، ووقفت على الأرجوحة، وسحبت المقص من خاصرة البستانى وقفزت لأسفل، وجرت ناحية الجدار المقام بأشجار الصفصاف. قفز شهرو من فوق الجسر، واتجه ناحية "بتى". ووقفا أمام بعضهما بعضًا، وتبادلا النظر وضحكا.

جاء البستانى، وأمسك بأذن شهرو، وقرصه وقال له:

– يا برص، انت مش عايز تبعد عن البنت دى؟

خطف شهرو رأسه، وتراجع للوراء، ووقف أمام البستانى وجهًا لوجه وقال:

– وانت مالك؟

ارتفع صفير سورى، فعاد شهرو ورأى سورى واقفًا بجوار النخيل يلوح بيده. أخذ البستانى المقص من "بتى" واتجه إلى أشجار الصفصاف. أمسكت بتى بيد شهرو، وأشارت إلى صنارة السمك وتحدثت فلم يفهم شهرو ما تقول:

أخذ شهرو بتى معه إلى خارج البيت، وجلس أمام الكوبرى، ورسم على التراب الناعم صورة سمكة، فضحكا معًا.

جاء صوت والدة "بتى" من الحجرة، فطارت بتى كالفراشة، وذهبت إلى الشرفة. ووقفت ولوحت لـ شهرو. فارتسمت الابتسامة على شفته، وتسمرت عينه على باب الحجرة الذى انغلق خلف بتى.

ومن جديد عاد صفير سورى، ثم يد الشيخ الخشنة التى أمسكت بياقة شهرو من الخلف وراحت تهزه.

– ها تمشى دلوقت ولا ابعدك من هنا بالشلوت؟

تحرك شهرو، وخلص نفسه من قبضة البستانى وقال:

– يا شيخ، هو انت مش شايفها هى نفسها عاوزة ان احنا نبقى اصحاب.

ثم تراجع خلسة حتى الكوبرى الأسمنتى، وعاد، ورجع، وجرى، جرى إلى حدود الأرض البور فى نفس واحد، وحين وصل إلى سورى جلس، واتكأ على جذع النخلة الخشن ومد ساقيه.

قال سورى:

- هى دى بتى؟

قال شهرو وهو يلهث:

- هى بعينها.

- كانت بتقول أيه؟

- مسكت إيدى، وبعدين ضحكت، وبعدين شاورت على الصنارة.

- وبعدين؟

قعدنا على الأرض، ورسمت لها صورة سمكة، كنت عاوز اقول لها تيجى تصطاد سمك معانا.

ابتسم سورى:

- انت عندك أحلام وخيالات عجيبة... هى امها كانت ها تسيبها تيجى معانا.

قال شهرو:

- مش ها تسيبها؟

- أيوه طبعًا...

قاطع شهرو كلام سورى.

- إنت اكبر منى، بس انت ما تعرفش ان الحكاية ما تفرقش عند الخواجات.

- هى أيه اللى ما تفرقش؟

- ان البنات والاولاد يتصاحبوا مع بعض. بيقولوا ان ابوهم وامهم أصلاً بيعلموهم ازاى يتصاحبوا مع بعض.

- هى هى... خليك فى أوهامك.

قام شهرو، وألقى الكيس على كتفه، ومشى وهو يقول:

- عارف يا سورى... أنا لازم اتعلم لغتهم... لازم اذاكر لغتهم.

قفز سورى من على صخرة، وقال:

- إذا كنت تقدر يبقى تروح الأول المدرسة تتعلم لغتنا احنا، وبعدها تبقى تفكر...

- متهيأ لى أروح فصل الكبار..

- كبار؟... فين؟...

- بيقولوا انه عاوز يفتح فصل للكبار قريب من السويقة.

- لما يبقى يفتح.

مرا من بين النخيل، قفزت أمامهما سحلية ضخمة، ووقفت على مسافة أبعد، وقامت على يديها، ومدت عنقها، وأخرجت لسانها وحملقت بعينيها الجاحظتين فى عيونهما.

وقف سورى، وأصاخ السمع:

- شهرو، انت سامع صوت البلبل؟

كان صوت البلبل ضائعًا وسط زقزقة العصافير الكثيرة.

- أنا سامع، يا ريت اقدر امسكه صاحى.

- علشان بتى؟... صح يا شهرو؟

- أيوه... علشان بتى.

- جارنا عنده بلبل تخين، عاوزنى اسرقه لك؟

- قصدك على بلبل خان بابا؟

- شفته، شفته تخين أد أيه، وازاى بيزقزق فى وقت العصر؟

- الغلبان، ده بقى مدمن.

كانت صورة سعف النخيل المدبب المتداخل مع بعضه مرسومة على الأرض، والشمس قد طردت الضباب وراحت تشرق بقوة، وتلقى بنورها على أعشاب حديقة النخيل الخضراء، وجرت فروع نهر بهمنشير فى حديقة النخيل على مسافات، واختلطت رائحة العش برائحة سعف النخيل النابت حديثًا.

مرا من على جذع نخلة جاف كان ملقى على قنوات الماء المنتشرة، ودارا حول الكومة المختلطة ببعضها، وتقدما بسرعة صوب النخيل المتكاثف واتجها صوب النهر.

قال شهرو:

- قلبى مش مرتاح خالص.

قال سورى:

- ليه؟

- علشان بتى.

- أنا عارف انك بتحبها قوى، لكن أيه الفايدة يا شهرو... دول مش ها يسمحوا انها تبقى مراتك.

وقف شهرو وكان كفا قدميه يمتصان رطوبة الرمال اللطيفة، ونظر إلى سورى وقال:

- تبقى مراتى؟

- أيوه طبعًا.

- هو انت مش فاهم يا غبى؟

ومشى، وانجر سورى وراءه.

- هو أيه ده اللى انا مش فاهمه؟

- أنا باحبها بس... عاوز اتكلم معاها... عاوز ابص لها... عاوزها تبتسم لى وتشاور لى بايدها... مش عاوزها تبقى مراتى.

ابتسم سورى وقال:

- بس الحاجات دى مفيش منها فايدة.

- مفيش منها فايدة؟

- الواحد لما يكون بيحب حد يبقى لازم يحضنه، ويبوسه، وبعدين كمان... أيوه طبعًا... وبعدين...

قاطعه سورى. كان النهر فى مرمى بصرهما، وسطح الماء كأنه ورق شفاف أزرق اللون بين نوم ويقظة النور والظلمة وانعكاسات لألوان فضية ورمادية وزرقاء.

سأل شهرو:

– وبعدين؟

قال سورى:

– وانا أيه عرفني... بابا خان كان بيقول ان الواحد لما يكون بيحب حد يبقى لازم ينام معاه...

ارتفع حاجبا شهرو وظهرت الدهشة فى عينيه:

– ينام.

– أيوه طبعًا... مش بابا خان ونرجس...

– خلاص ما تقولش، انا عارف.

عند أعلى النهر ألقيا الأكياس على الأرض وفكا الخيوط، ومضى شهرو وقف على صخرة مستوية مستقرة فى الرمال وقد نمت الطحالب على وجهها، وقال:

– سورى، إدينى حتة من المصارين دى لما اشوف.

ثم جلس، وقطع المصران، ووضعه فى الصنارة، وأدارها فوق رأسه ثم أطلقها فى النهر.

قفز سورى وتشبث بيد شهرو، وقال:

– نبقى شركا، ماشى؟

– ماشى.

وصمتا.

كانت المراكب الشراعية التى فردت أشرعتها تتهادى على سطح النهر جنبًا إلى جنب مع بعضها.

كان صوت الماء يبعث على النعاس، والعرق ينهمر على جبين شهرو، وقد أحرق نور الشمس فقرات ظهره.

زفر سورى بضيق، وقال:

– لو كانت مسلمة...

سأل شهرو:

- تقصد بتى.

قال سورى:

- أيوه.

- وكان ها يحصل أيه ساعتها؟

- كنت ها تتجوزها... يعنى، أقول لك أيه؟... كان ينفع تتجوزها؟

كان همس النخيل خلفهما، وأمامهما رقرقات البحر اللامعة وكأن عملات فضية منثورة على وجهها، والريح تداعبها وتقلبها فوق بعضها، ثم تفصلها عن بعضها.

كان هيكل الكوبرى المعدنى يميل إلى البياض فى الحرارة الرطبة والبخار، فبدا وكأنه كان يلعب على سطح النهر، وحينًا كان صوت بوق سيارة يعلو مع الريح ويختلط بهمهمة النهر ونجوى النخيل.

- عارف يا سورى؟

- أيه؟

- أنا خايف من بعد بكره.

قال سورى:

- من...

قاطعه شهرو منبهًا:

- ها تغمز يا سورى.

انجذبت نظرة سورى إلى خيط الصنارة الذى كان يهتز ويشتد ويتحرر.

قال شهرو:

- ما تخافش... اصبر وطلعها بالراحة.

وانجذب خيط الصنارة ولعب بها الماء.

قال سورى:

– متهيأ لى انها أكلت الطُعم ومشيت.

وسحب الخيط.

– أيوه الرذلة... خلاص بقت ناصحة.

ووضع سورى قطعة من المصران فى الصنارة مرة ثانية وألقاها فى النهر، وانتقل من مكانه، وقال:

– قلت انت خايف من أيه؟

– من بعد بكره.

– ليه هو فيه أيه بعد بكره؟

– تَجَمُعْ... هو انت مش عارف؟

هز سورى رأسه، وحملق شهرو فى خيط الصنارة، وشرد. كان آرزو قد قال "لما هُما فى البلد يسيبوا العامل يقرا، ويدوا له مرتب كويس، ويدوا له بيت كويس وعيشة كويسة، يبقى كل الناس من كل مكان ها يسيبوا شغلهم وحياتهم وها ييجوا على المكان اللى فيه شغل كويس وأكل كويس، ولكن لما رجلهم بتيجى لحد هنا بيلاقوا ان الحكاية مش كده. ولما الناس بتكتر، يقدروا يعملوا كل اللى نفسهم فيه، ولما الإيدين تكتر الأجور ها تقل ولو فيه واحد ما اشتغلش ها يبقى فيه عشرة الجوع ها يخليهم يقبلوا انهم يموتوا ارواحهم كل يوم اتناشر ساعة علشان طقة أكل..."

كان شهرو شارداً يفكر فى "مندل"، الذى كان قد ترك زراعته واتجه تاركًا "انديكا"(*)، وجاء إلى هنا حيث عمل عدة أيام بستانيًا فى بيوت "بريم"، ثم أنه "سورى" كان قد سمع من أبيه أن "الخواجة" لما بييجى ويشوف ان مندل قاعد فى الجنينة بيدخن، بيجره من ودنه ويبعته على المكتب، ويدوا له حسابه ويطردوه من الشغل و..."

"ومندل استلف واتدين، وباع الكليم بتاعه علشان يشترى لابن الخواجه حصان جلد، علشان هو سمع من هنا ومن هنـــاك أن ابن الخواجة تعجبه العرايس الجـلد، وبعدين كمان ما يعرفش..."

(*) انديكا: قسم فى شمال اقليم خوزستان.

حرك صوت سورى وصراخه شهرو:

- يا شهرو، باين إن الخيط بتاعك بيتهز.

- أيوه... غمزت...

تجمد الكلام على شفتيه، وسحب الخيط بقوة، وأخرج الصنارة مع سمكة من سمك الشانك بيضاء اللون من النهر.

قام شهرو، وفصل السمكة عن الصنارة وألقاها على الرمل، ووضع الطعم فى الصنارة مرة ثانية، وأطلقها فى النهر و... و فكر فى كلام آرزو مرة أخرى، وفكر فى مندل الذى كان قد قال. "... لو كنت دلوقت فى انديكا، كنت لقيت مية لعبة لحد دلوقت، لكن هنا فى الخرابة دى مفيش أى حاجة..."

وفكر فى أبيه الذى كان قد قال مازحًا:

- يا عينى؟... بالصدفة هنا الحاجة اللى بتتلقى بتتلقى بالصدفة..." كان شهرو شاردًا يفكر " يا ريتنى كنت اقدر اشيل بندقية واضرب الجناينى زى الخنزير... أشيل بندقية واضرب بيها الخواجة الكِشر زى... الخواجات الملاعين، بييجوا من آخر الدنيا على هنا... لو كان ابويا يمشى تانى ويروح الجبل ويرعى الغنم زى أيام زمان، وكنت انا كمان اربط حمالات واربط على إيدى أربطة والبس جزمة برقبة والف فى الصحرا كلها... لكن بتى؟... يا ريت كنت اقدر اجيب حصان حلو عشان بتى، وفى يوم قبل الغروب اقف فى سكة بتى وامسك إيدها وارفعها فوق سرج الحصان وامشى فى الصحرا زى... مين؟... آه زى مستان، بابا حكى لى حكاية جميلة جداً، بيهاجم اللى لابسين الشادور الاسود ببندقية متعمرة و... لكن... على رأى بابا، الدنيا بقت وحشة دلوقت...

كان ذهن شهرو مزدحمًا، وكانت أفكاره مرتبكة. كان يفكر فى حكايات أبيه، وابتسامات بتى، وفى الأيام والليالى، وفى آرزو والبستانى: "العجوز الكِشر اللى عامل زى السلطانية اللى بتسخن اكتر من الشوربة"(*)... أمال دى لو كانت بنته هو كان ها يعمل أيه... أنا فى يوم من الأيام لازم اطلع عينيه واخلص حسابى معاه... راجل عجوز فاهم الدنيا زى ما هو بيقول، مش لازم يتدخل فى حياة الناس. راجل عجوز زيه مش لازم يكذب. كفاية عليه يمسك فى إيده سبحة،

(*) هذا التعبير للكناية عن تدخل شخص ما فى أمر لا يعنيه، بشكل أكثر من صاحب الشأن نفسه.

ويحط صباعه فى مناخيره، ويحشر نفسه فى شئون غيره... طيب يا راجل وانت مالك إذا كان نسيم سرق لوح خشب من الورشة وباعه واشترى وابور جاز... يعنى بعينك اللى تتعمى دى مش قادر تشوف وابور جاز فى بيت نسيم الغلبان اللى عنده ست – سبع عيال عريانين غلابة؟... مفيش حد يقول له ليه دايماً بيصاحب الخواجات، وهو لو كان يقدر... صحيح، فستان بتى؟... اللى كانت لابساه بنت الجناينى العدمان. كانت بتَقَوقْ، بتعيط... ازاى بتى ادت الفستان الحلو ده للجناينى؟... مش عارف. يمكن... لكن لما كانت بتى بتلبسه... آخ... يعنى هى أحلى من بتى؟... هو ممكن يكون فى الدنيا حد أحلى من بتى؟... يا رب يوم الجمعة ييجى بسرعة ويعدى... لو عملوا دوشة... لو بتى.. لو... " وزفر شهرو بصوت عال وقال:

– تعرف يا سورى... ده كتير جداً.

قال سورى:

– إنت بتتكلم عن أيه؟

– عن إنى خايف يعملوا دوشة، ويأذوا بعض الخواجات.

قال سورى:

– هُما مين اللى ها يعملوا دوشة؟

– العُمال التانيين. قلت لك ان عندهم تَجَمُعْ بعد بكره.

– طيب والتَجَمُعْ ماله بالخواجات؟

– ده انت غبى جداً يا ابنى.

– طب قول لى عشان اتعلم.

– يا اخى أرزو على طول بيقول إن الخواجات دول هما السبب فى ان احنا جعانين، وما عندناش لا بيت ولا عيشة كويسة.

– الخواجات هما السبب؟

– أيوه طبعاً.

– وهُما مالهم؟

علا صوت المراكبى الأسمر الذى كان قد ألقى جسده العارى على حافة المركب مع صوت الريح.

- هييه... يا أولاد...

وذهب باقى كلامه مع الريح، واستقر فى أعماق حديقة النخيل، رفع سورى عينه عن القارب، وقال:

- هما الحقيقة بيتعبوا علشاننا.

دُهش شهرو:

- بيتعبوا؟

- أيوه طبعًا.

- مين اللى قال لك كده؟

- الجناينى.

- الجناينى؟

- بيقول إنه لما ما كانش فيه عربية، كانوا بيحملوا الأنابيب على البغل بطلوع الروح وبالتعب، ويطلعوا على الجبل علشان يحفروا البير ويجيبوا البترول، ويبقى ليهم حق فى رقبتنا.

قال شهرو:

- الجناينى ده عقله...

وابتلع كلامه، وقال مسرعًا:

- خلى بالك يا سورى.

أخرج سورى بمهارة الخيط ومعه سمكة "زبيدى" فضية من النهر وفصل السمكة عن طرف الصنارة، وألقاها على الرمال. دقت السمكة رأسها وذيلها فى الأرض و... قام سورى ودق رأس السمكة بالقطعة الحديدية الصدئة التى كانت فى كيسه. فتحت السمكة فمها وأقفلته عدة مرات، وهدأت.

قال شهرو:

- مادام قمت بقى بل الكيس، وحُط السمك فيه علشان الشمس ما تخلى هوش ينشف.

وضع سورى الكيس فى الماء، وسأل:

- كنت بتقول الجناينى عقله ماله؟

قال شهرو:

- عقله ضاع.

ألقى سورى سمكتى الشانك والزبيدى فى الكيس، ورمى الصنارة فى النهر، وجلس، وقال:

- ليه عقله ضاع؟

قال شهرو:

- بقى عامل دلوقت زى الخدامين، بيمرجح بتى... وكان مكسوف يبص فى عينيه.

قال سورى:

- أمال فى رأيك يشتغل أيه؟... لو ما عملش كده كان ها يبقى زى موسى، ها يروح بالليل يقطع أسلاك التلغراف على الشط ويسرقها وياخدوه فى الكلبشات، ويرموه فى السجن.

قال شهرو:

- أنا رأيى انه ما يشتغلش خدام.

قال سورى:

- ما يشتغلش، ويعمل أيه؟

- يقدر ما يشتغلش.

- أبوك بيشتغل عندهم، واخويا انا كمان بيخدمهم.

- أبويا بيشتغل، بس ما بيخدمش.

أخرج سورى الصنارة، كانت السمكة قد أكلت الطعم وذهبت.

- ده بقوا ناصحين جداً... كل عشر مرات الواحد يحط طعم على ما واحدة تتمسك.

- هما بقوا ناصحين، بس انت كمان ما بتحطش الطعم كويس فى طرف الصنارة.

- احطها ازاى؟

قال شهرو:

- تعال وانا اعلمك.

ذهب سورى، وجلس بجوار شهرو، كان الخدر قد سرى فى قدمه، وكان الوخز يسرى فيها. عقد شهرو خيط صنارة فى إبهام قدمه، وتمطى، ثم وضع المصران فى صنارة سورى، وسحبها إلى السن الأعلى، وثناها، وأطلق طرفها حراً.

- تعال، امسك... دلوقت ما يقدروش بسهولة ياكلوا الطُعم ويمشوا.

قام سورى، وحملق شهرو فى سطح النهر، كانت الأمواج تلعب برمال الشاطئ بهدوء. وكان تجمع النخيل على الشاطئ المواجه يميل إلى السواد. كانت الريح تهز خيط صنارة شهرو، وكان خيط صنارة سورى ينجذب، ويتحرر، ثم يعود فينجذب مرة أخرى.

ساد الصمت للحظات، وكان صوت الريح هادئًا، وصوت النهر أبكمًا يبعث على النوم، وكان النوم يداعب عينى سورى، ويبعث اللين فى جسده، وكان صوت شهرو يخرج كأنه ينبعث من قاع بئر.

- قلبى ما بيهداش خالص... مش عارف، أنا كنت كده دايمًا، كل ما يبقى فيه حاجة ها تحصل باكون كده. المرة اللى فاتت لما جابوا الخبر ان بير البترول الابيض مسكت فيه النار والحديد اتحرق وبقى زى الفحم، كان قلبى من قبلها بيومين بيقول لى، قلبى كان مقبوض... بص يا سورى، دلوقت قلبى ما بيهداش علشان خاطر بتى، كل تفكيرى فيها، حاسس كأنى مش ها اشوف بتى تانى خالص. قلبى بيقول لى ان ابوها اتخانق معاها، الجناينى فتن عليها، قلبى بيقول لى ان الخواجة التخين ده قال لابو بتى انها مش لازم تضحك للولد ده... وأرزو كان بيقول ان الخواجات بيقولوا عننا اننا أغراب، واننا متوحشين... مش عارف، يمكن الخواجة الكشِر ده قال لـ بتى انك لو صاحبتى الولد المتشرد ده ها يخنقك فى يوم من الأيام... عارف يا سورى، أنا باحبها بس، نفسى ابص لها، ابص فى عينيها، اللى زى ما يكونوا بيضحكوا ... آه... يمكن...

- اهتز خيط صنارة شهرو، وارتعد، وانجذب، ثم تراخى.

- أكلت الطُعم، ومشيت.

سحب شهرو الصنارة، وحلق صوت النفير فى سماء المدينة، وطار حتى مدى بعيد.

قال سورى:

- الساعة جت عشرة بسرعة قوى.

قال شهرو:

- قوم بينا نمشى.

قال سورى:

- خلينا قاعدين نُص ساعة كمان.

قال شهرو:

- ها نتأخر، أنا لازم آخد الغدا لابويا.

- يا أخى ما اصطدناش حاجة.

- ماشى، انت خد الزبيدى، وانا ها آخد الشانك.

قال سورى:

- لأ يا شهرو، خد انت الاثنين. انت عاوز تشوى سمك وتودى لابوك.

جمع شهرو خيط الصنارة.

جذب سورى الصنارة بسرعة، فوقعت مع الصنارة "سمكة سبور" بيضاء اللون ضخمة على الرمال.

صباح الجمعة، كان الجو شاحبًا كاللبن المتخثر، كانت شعلات النفط التى تخرج من فوهة المداخن العالية تسبح فى الضباب فتبدو كأنها أوردة دماء.

كان الجو رطبًا، لم يكن هناك هواء. كانت المصابيح الواقعة خلف بيوت الخواجات مضاءة. خرجت بتى من الغرفة، كان الضباب قد ملأ فضاء البيت، وكان كلب بتى واقفًا على قدميه على الأرجوحة الخشبية، وقد مد عنقه ووجهه الطويل إلى السماء. كان نباحه يشبه عواء الذئب، كان حائرًا فى الضباب، ثم علا صوت نباح كلب سورى الضخم، الذى كان يخرج من البيت.

كان كلب سورى قد مد جسده الأسود الأجرد على حافة الكوبرى الأسمنتى العريضة، ومد وجهه على يديه، وتعلقت عيناه نصف المفتوحتين اللتين لوثهما الرمس ببيت بتى.

خرجت بتى من الحجرة، ثم جاء ووقف خلف جدار أشجار الصفصاف، ثم نظر إلى بعيد، حيث الأرض البور، والسويقة، ثم بيوت العمال الخشبية المتناثرة.

كان الكلوب على باب المسجد يميل إلى الحمرة فى وسط الضباب. أشعل والد بتى سيجارة، وذهب وأخرج السيارة من المرآب.

داعبت بتى الكلب، وألصقت رأسه بصدرها، ومسحت عنقه بيدها.

خرج والد بتى من السيارة وذهب وأمسك بطوق الكلب وسحبه، فانزلق الكلب من على الأرجوحة الخشبية وسقط على الأرض، وغاصت أظافره فى العشب، فناح وهز ذيله.

خرجت والدة بتى من الحجرة ووقفت فى الشرفة، وثوبها الأبيض الكتان يغطى ركبتيها، وقد شد نطاقها ذو اللون الليمونى خصرها. أشارت والدة بتى الكلب وتكلمت فأطلق والد بتى طوق الكلب واعتدل وتحدث. جرت بتى واحتضنت الكلب وقبلته. اختلط أنين پاپى كلب سورى بصوت كلب بتى.

نظر والد بتى حواليه، ثم خرج من البيت بخطى واسعة، وركل الكلب فى مؤخرته، فقفز پاپى وتحرك وذهب وتمدد على المدق، ووضع وجهه على يديه، وراح يزوم من جديد.

كانت وجنتا والد بتى حتى أذنيه حمراء، وكان لون صوانى أذنيه شاحبًا. ضحكت والدة بتى، وقبلت بتى الكلب، ثم جرته ناحية السيارة. رسمت قبضات كلب بتى خطًا على العشب، ثم وضع الكلب يديه على رفرف السيارة، ورسم خطًا على السهم الأبيض الذى كان مرسومًا على بدن السيارة، وانتحب.

خرج والد بتى عن شعوره. وتحدث وأرغى وأزبد، ثم أمسك بيدى الكلب وقدميه ورفعه، وألقى به داخل السيارة، وجلست بتى بجواره فى السيارة، وأغلقت الباب.

أخرج كلب بتى رأسه من زجاج السيارة، وتعلقت عيناه الزرقاوان بعينى أم بتى الخضراوين، ونبح، ثم انتحب.

رفع پاپى كلب سورى – الذى كان ممددًا على المدق – وجهه من على يديه، ووجه وجهه إلى السماء ونبح.

كان ميدان الباعة الكبير مفتوحًا كفم التمساح الجائع أمام شارع أحمد آباد الأول، وراح يبتلع الناس جماعات جماعات.

كانت الأوتوبيسات ذات اللون الأخضر القادمة من المدن وحافلات العمال تقف على المدق بجوار الميدان على مسافات، يخرج من بطنها العمال ذوى الملابس الزرقاء.

كانت فوهة شارع أحمد آباد الضيقة كالنهر الذى يصب فى البحر، وكانت أمواج البشر تنهال على سطح الميدان الواسع. وكانت لافتات القماش والأعلام الملونة ترفرف بهدوء فوق رؤوس العمال.

وفى الحافلة السوداء اللون الموجودة فى نهاية الضلع الغربى للميدان كانت هناك منصة عالية دُقت بالمسامير فى جسد الشاحنة، وفوق المنصة ميكروفون، وفوهتان لمكبر صوت منصوب على طاقة الشاحنة. كانت لافتات القماش الحمراء اللون تهتز فوق الشاحنة، ومكتوب عليها " سوف نحول الساحة المقدسة للمجلس النيابى الرابع عشر إلى خندق محكم من أجل انتصارات أكبر " و... كانت الشمس قد بدأت تشق الضباب، وتظهر فى الأفق الذى كان بلون الرصاص الداكن، كان الجو خانقًا، والأحاديث متداخلة.

– آرزو ها يتكلم النهارده.

– جايب معاه الثورة.

– المفروض انه يتكلم عن الانتخابات الاربعتاشر.

– عن أجور العمال.

– وعن الاستثمارات.

– لو الجو ما اتحسنش؟

– لو هوا الشمال ما جاش؟

– كلنا ها نتخنق.

– ها يتكلم عن بيوت العمال.

– اللى عامله زى جحور الثعالب.

– المفروض ان الديمقراطيين ها يتحالفوا.

– أيه؟

– يا اقول الديمقراطيين.

– مع مين؟

– معروف طبعًا، مع حزب العدالة.

– عمال الاداره المركزية جُم.

– دول عمال المخازن.

– انت فاكر انهم لو اتحالفوا ها يغيروا حاجة.

– انت كأنك ما تعرفهمش خالص.

علا صوت نحنحة شخص من مكبر الصوت، وسيطر على الميدان كله "لا تعطوا الفرصة للمخربين بصفوفكم القوية..." واقتيدت أمواج البشر إلى الأمام، وتعالت الهمسات. كانت الشاحنات والأتوبيسات والحافلات تقف على المدق، وكان العمال ذوى الملابس الزرقاء يخرجون بسرعة وحماسة، وينضمون إلى حشد البشر الذى كان يتكدس فى الميدان.

كانت المنطقة المحيطة بالميدان قد صارت قلعة من أصحاب الملابس الزرقاء الذين ضموا سواعدهم وضغطوا أكتافهم ببعضها بعضًا، وكانت أمواج البشر الجديدة التى تصل كل لحظة إلى بلعوم الشارع الأول فى أحمد آباد تنهمر على الميدان. كان السور ينفتح عن بعضه ليبتلع البشر ثم ينغلق من جديد. وقد ارتفعت الشمس فى السماء وطردت الضباب، وراحت تصب النار مع بخار الماء فوق رؤوس البشر، وكانت الأمواج القوية من همهمة حشود العمال خشنة، وكانت الأحاديث متداخلة، والأصوات عميقة.

– قول للنحاتين يروحوا على الناحية اليمين من العربية النقل.

– لا، لأ... هنا مكان عمال الكهربا.

– سورى:

– أيه؟

– فين شهرو؟

– راح ناحية العربية النقل.

– خلى بالك.

كان عبدول يشق صفوف البشر بكتفيه العريضين، وسورى يجُر وراء عبدول من الطريق الضيق الذى ينفتح خلفه. وكانت اللافتات والرايات تتحرك وتتداخل ببعضها، وتعود فتنفصل عن بعضها. على حافة مجرى مياه الصرف الأسمنتى جندى يغلق الضلع الغربى للميدان، وكان الجنود من أول الطريق الدائرى بشكل الميدان حتى آخره عند جسر أحمد آباد المسقوف، فاغرين أفواههم، والعرق يغرقهم، كانوا منهكين، يسيرون ويقفون، ويخرجون البنادق من جرابها، ويضعون كعوبها فوق أحذيتهم ذات الرقبة الطويلة ويتكئون على مواسيرها، ومرة ثانية لا يقر لهم قرار. كانت الهمهمات خافتة، والشعارات التى كانت تخرج من فوهة مكبر الصوت الواسعة تملأ المكان فوق التجمعات يعقبها التصفيق المتواصل، وكان الحر يشتد كل لحظة، وأمواج البشر تُدفع إلى الأمام، ثم تتراجع إلى الوراء. كان صوت آرزو يخرج من مكبر الصوت رزينًا مهيبًا، وكانت كلمة "أيها الرفاق" يصحبها التهليل والصياح والتصفيق "أيها الأصدقاء إن أهميتنا وانتصارنا كامن فى تضامننا الذى لا يقبل الخلل. طبقاتنا المتلاحمة هى بمثابة ضمان لا شك فيه، نجاحنا يكمن فى تحقيق الأهداف السياسية والاجتماعية..."

صارت السماء صافية، يعلوها بريق، وقد طُرد ضباب الصبح، وراحت الشمس تشرق، واللون البرتقالى للشعلات المتصاعدة من فوهة المصافى على مسافات تختلط بلون السماء الأزرق "أيها الرفاق إننا لا يجب أن نسمح لأعدائنا أن يجلسوا على كرسى المجلس..."

كان الزبد قد علا فم آرزو، وقامته القصيرة محنية إلى الأمام، وكانت رأسه تتحرك بانسجام مع كل كلمة كانت تخرج من فمه، وكانت قبضته أحيانًا تلف فى الهواء، ثم تهوى إلى أسفل مسرعة، ثم تنفتح وتنغلق وتنعقد و "... أيها الرفاق، نحن نستطيع، بل وإنه يجب علينا أن نحصل على أغلبية المجلس لصالح الجائعين والجهلاء... " وفجأة علا من بعيد صوت رصاصة، ثم صوت رصاصة أخرى، صوت مخنوق وكأن الرصاصة استقرت فى اللحم، أعقبها عدة لحظات من الصمت والخوف الذى ألقى بظله وتساؤلاته التى ظهرت على الجباه، ثم الهمس والصراخ، وتداخلت الأصوات معًا.

- ده ضرب رصاص.
- الصوت جاى منين؟
- من بعيد.
- ضربوا نار على آرزو؟
- لا، الصوت كان من بعيد.

وحدث هرج ومرج بين حشود الناس.

- بيقولوا انهم هجموا على الحزب.

- بيقولوا انهم ضربوا رصاص على واحد من الأولاد فى الحزب.

- بيقولوا انهم كانوا بتوع حزب العدالة.

- أصلاً محدش عارف أيه اللى حصل؟

- يمكن...

وارتفع صياح أرزو فى مكبر الصوت، فارتفع فوق كل الأصوات "أيها الرفاق، حافظوا على هدوئكم..." فتحركت حشود البشر وتحركت معها الشعارات.

- هُما كانوا الديمقراطيين؟

- بيقولوا انهم كانوا الاثنين مع بعض.

- ضربوا نار على مين.

- لسه محدش عارف.

- يمكن على المحافظين بتوع الحزب.

وتحرك سيل البشر، وأثار فى الجو التراب الأصفر على المدق وسبقت الجماعة إلى الغرب، وتحركت الشاحنة وجُرَت بهدوء إلى جانب الميدان. وتحدث آرزو مرة ثانية "علينا أن نقوم بمظاهرات هادئة فى الشوارع للتعبير عن قوتنا... أيها الرفاق، ابتعدوا عن أى شكل من أشكال الصدام..."

اِنتُزِعَ الجنود - بالهدوء الذى كان قد أنهكهم - من أماكنهم، كان أصحاب الثياب الزرقاء قد استولوا على المدق كله بأجسادهم التى بللها العرق، دون أن يكون لهم هدف، كانت مجرد حركة، أوصل شهرو نفسه إلى الشاحنة وكان عبدول قد احتضن المنضدة، وآرزو واقفًا عليها وقد أمسك بالميكروفون فى يده، وكان الزبد على فمه، وثوبه الأزرق اللون مبلل بالعرق وملتصق فى ظهره. وكان سورى معلقًا بجسد الشاحنة و... تشبث شهرو فى أخشاب جسد الشاحنة بكلتى يديه، ورفع نفسه لأعلى.

كانت الجماعة تفسح الطريق للشاحنة، وهى تسير ببطء، وكان شهرو الذى سحب نفسه لأعلى يرى فوق فتحة الناقلة موجة من الرايات واللافتات الملونة تختلط فوق رؤوس حشود العمال الذين يلبسون الثياب الزرقاء اللون، وينفصلون عن بعضهم. وكان يرى أن الجموع

كأنها تُقَاد إلى الأمام وتتراجع ثم تعود لتنجذب للأمام، وكانت رائحة العرق الناضح من أجساد البشر تختلط برائحة البحر المالحة ورائحة النفط.

وكان التراب الاصفر ينتشر فى الهواء على طول المدق الذى كان يسُحَقُ تحت الأقدام. ويلف الناس. كانت الموجة الخرساء من الهمهمات والكلمات قد ملأت فضاء الميدان، وسمع شهرو شخصًا قال بصوت مخنوق به حشرجة:

- هجموا على الحزب.

عاد شهرو ورأى أن رجلاً قصير القامة قد جَر نفسه إلى أعلى الشاحنة بسرعة، كانت شفتاه ترتعدان، ووجهه أسود وقد علا الزبد فمه، وراح يصيح "دول كسروا كل الأبواب والشبابيك ودغدغوها، وهرسوا حرس الحزب بالخشب والشلاليت... ويمكن كمان يكون فيه واحد ولا اثنين ماتوا..."

رأى شهرو أن آرزو أسكت الميكروفون ونزل من على الكرسى وصاح :

- مش لازم حد يعرف.

صاح الرجل القصير القامة:

- الكل لازم يفهموا.

- لأ... مش لازم حاجة تمنعهم.

صرخ الرجل القصير:

- ده تَرَاجُع الكل لازم يعرف.

أعطى آرزو مكبر الصوت لعبدول، وأمسك بجيب ثوب الرجل القصير المبتل بالعرق، وحملق فى عينيه مباشرة، وصاح:

- لأ، لأ... قلت لأ!

فهجم الرجل القصير، وأخرج مكبر الصوت من قبضة عبدول، وقبل أن يتحرك آرزو ويمنعه ضغط على زر الميكرفون وانفجر صوته فوق رؤوس الناس قبل المدفع " أيها الرفاق، حزب العدالة والديمقراطيين قتلوا بعض الحرس من الحزب..."

واشتبك آرزو مع الرجل القصير، وارتفع صوت الجماعة وصارت حركتهم سريعة، وارتفع صوت آرزو فى مكبر الصوت، وضاع وسط زفير آلاف الصائحين.

أمسك عبدول بساعد شهرو المبلل بالعرق، وقال:

- شهرو، ابعد عن هنا بسرعة.

تعلقت عين شهرو بعين أبيه:

- ليه.

- نُط مع سورى على تحت.

- طب ليه؟

كان حلق عبدول جافًا كالكبريت، وكانت الكلمات تخدش حلقه:

- الحكاية ها تكبر، فوت من ورا الناس وروح على البيت.

- بس ليه يا بابا؟

- ابعدوا، ابعدوا عن العمال.

أمسك شهرو بكف عبدول العريض، وقال:

- لازم تقول ليه... انت دايمًا كنت بتقول لى ليه.

- الوضع ها يبقى خطير.

ارتفع صوت آرزو فى مكبر الصوت "أيها الرفاق... لا تعطوا الفرصة لأحد لكى يربك نظامكم..."

ترك شهرو يد عبدول، فقال عبدول بلهجة آمرة:

- بسرعة يا شهرو، بسرعة.

ودفعه بهدوء.

أمسك سورى بيد شهرو وقال:

- شهرو أبوك عنده حق.

واحتضن شهرو سورى.

– أنا خايف يا سورى... خايف...

– خايف من أيه يا شهرو... يللا نمشى... أبوك ما بيقولش كلام فاضى.

– أنا خايف من النهارده يا سورى... من النهارده.

– لو مشينا مش ها يبقى فيه حاجة تخوف.

– قلبى مش مطمن.

وترك سورى.

– خايف... من الخواجات.

والتصق بجسد الشاحنة الخشبى، وجذب سورى نفسه لأعلى وكان صوت آرزو ثقيلاً فى الحرارة القاسية وبخار الماء. وكانت صفوف الجماعة الأمامية تتجه ناحية حزب الديمقراطيين، وكأن النار كانت تسيل من السماء، والأرض تلتهب، والأفواه كان الزبد يعلوها والأصوات متداخلة، ورأى شهرو – الذى كان قد سحب نفسه إلى حافة جسد الشاحنة الخشبى – أن فوهة شارع مظلم آباد الواسعة أخرجت حشداً غير منظم من الديمقراطيين مع راياتهم ولافتاتهم وقبل أن يتحرك آرزو ويطلق صراخه عبر مكبر الصوت كان الاشتباك قد وقع وكان عبدول يضغط بأصابعه الغليطة الملتهبة على عنق شهرو ويصرخ:

– قلت لك امشى يا ولد... بسرعة.

والتفت إلى سورى.

– خُده يا سورى.

وكان شهرو كأنه يتوسل:

– لأ يا بابا... خلينى أفضل هنا... عاوز اشوف أيه اللى ها يحصل.

وكان عبدول يصيح بأسنان مصطكة:

– امشى... امشى بسرعة.

– أرجوك يا بابا... أنا خايف.

– طيب، إذا كنت خايف يبقى امشى.

– لأ يا بابا... أنا خايف أحسن يهجموا... يهجموا على الخواجات.

فصرخ عبدول من أعماقه:

- الخواجات... الأوروبيين الملاعين.

خطف الميكرفون صوت عبدول وأطلقه فوق رؤوس الجماعة، واستقرت همسات الخواجات الملاعين - في كل الأفواه.

- كل ده من تحت راس الخواجات الملاعين.

- لو كان عندنا عيش كنا اكلنا.

- لو كان عندنا بيوت كنا نعيش.

- لو كنا جعانين وعاطلين.

- يبقى كله من تحت راس الخواجات.

- الخواجات الملاعين.

- الخواجات الملاعين.

- الخواجات الملاعين.

قاومت جدران حي "ظلم أباد" في مواجهة الحشود ذات الملابس الزرقاء، وانفصلت الموجة الضاغطة الهادرة عن مجموع الناس، وتراجعت بجانب قناة النهر الفرعية، واتجهت ناحية منطقة بوارده و...

- الخواجات...

- كل التعاسة.

- كل التشرد.

ودوت الصيحة المكتومة الغامضة للرجل الواقف في الصف الأمامي من صفوف العمال:

- العربية دي.

وعم الغضب الجماعة، وعلا التهليل، وفجأة أضاءت شعلة في حلقة البشر المحتشدين، وارتفع لسان اللهب، وأمسكت النيران بسيارة، وأوصل الرجل المبلل بالعرق نفسه إلى الشاحنة مخترقًا صفوف العمال، ورفع جسده لأعلى، وصرخ بصوت كان خارجًا من حلقه.

- القيامة قامت، الديمقراطيين وبتوع حزب العدالة... قتلوا حسين جزى، ودغدغوا دماغه زى دماغ الثعبان.

وحرك المائدة بشدة، وقال:

- اعمل حاجة يا آرزو... بيقولوا انهم ولعوا النار فى عربية من عربيات الخواجات...

قفز شهرو على نافذة السيارة ومد رقبته، ورأى من بين الصفوف الحاشدة أن ألسنة اللهب مختلطة بفروع أشجار الكافور، وأن الدخان يملأ المكان عند مدخل أول شارع فى منطقة بوارده و...

هجم آرزو على الميكرفون "أيها الرفاق، فقفز شهرو على رؤوس الناس، وجرته جموع البشر إلى ناحية بوارده، وحاول أن يفصل نفسه ووصل إلى الناس الواقفين عند مجرى ماء الصرف، وقفز بداخله، وارتفع الماء حتى بطنه والتصقت الفضلات بوجهه ورأسه واختلط عرق وجهه بماء الصرف الأسود، وعينه معلقة بالدخان الذى كان يرتفع، ثم ينطلق وينتشر. وحين وصل إلى الكوبرى رفع نفسه، وجرى فرأى أن الجموع قد تركت السيارة واتجهت ناحية بيوت بوارده. كانت أنفاسه قد انقطعت، فجلس القرفصاء، وضم ركبتيه إلى حضنه، ونظر إلى ألسنة اللهب التى كانت تخبو، وإلى الدخان الذى كان يزداد كثافة.

سأل سورى:

شهرو.

كانت نظرات شهرو شاردة خائفة، وكان صوته محشرجًا.

- أنا خايف يا سورى... خايف.

- هى دى عربيتهم؟

- لأ يا سورى... بس انا خايف.

وفجأة قام وجرى، وجرى سورى وراءه، كانت الأصوات متداخلة وكان الطريق قد أُغلق. وراح صوت آرزو يرفرف فى الفضاء ثم يهوى كطائر أُصيب بسهم "أيها الرفاق، تفرقوا، لا تلوثوا أيديكم بدماء إخوانكم..."

وفجأة علت همهمات أخرى.

- العربية دى.

- بتاعة الخواجات.

- بنزين.

- كبريت.

ومن بين جموع الناس استقرت عين شهرو على السيارة التى كانت تخرج ببطء من خلف متجر خشبى.

وصرخ شهرو من أعماق قلبه:

- لا.

فلم يسمعه أحد، وجرى الجمع وداروا حول المتجر وانهمروا كالسيل أمام السيارة، فانفصلت عن ظل أشجار الكافور، وسقفها الأبيض يعكس نور الشمس، وقبل أن تستدير من جديد إلى خلف المتجر، واجهتها حشود الناس فوقفت.

وصرخ شهرو من جديد:

- لا، لا، لا.

فرأى باب السيارة يتحرك، والسهم الأبيض العريض ينكسر، وينفصل عن بعضها، وانفتح الباب فقفز الكلب الذى يشبه الذئب إلى خارج السيارة، وهجم على الجماعة، ودار جركن البنزين فى الهواء وقبل أن تخرج بتى قدميها من السيارة، أمسكت النيران بالسيارة فجأة، وارتفعت ألسنة اللهب، وصرخ شهرو مذعوراً:

- لا.

وألقى بنفسه فى النار، واحتضن خصلات شعر بتى المشتعلة، وقبل أن يهرب دار جركن البنزين مرة أخرى فى الهواء وانتشر البنزين، وأخذ فى أحضانه بتى وشهرو، وارتفعت ألسنة اللهب، واختلطت رائحة اللحم المحترق برائحة ميـاه البحر المالحة، ورائحة النفط الذى كان قد ملأ المكان.

* * *

المستأجرون

كنت فى الطابق السادس حين أُضىء مصباح المدخل، ضغطت على الزر، فتحرك المصعد إلى أسفل، كان عرفات واقفًا وبين شفتيه نصف سيجارة منطفئة.

كان الوقت منتصف الليل، والذى جعلنى أتذكر جيدًا أنه كان منتصف الليل أن عرفات كان ينظر إلى ساعة المصعد، وأن عينه ظلت ثابتة على الساعة لا تحيد عنها.

حين خرج عرفات؛ ضبطت المصعد أوتوماتيكيًا وخرجت خلفه، وسرت فى ممرات الطابق الثانى عشر.

ظننت أن الجو بارد بالخارج حيث كان عرفات قد رفع ياقة معطفه، وكان البخار يتكثف على زجاج الممر، نظفت عرق الزجاج بكف يدى.

كانت ليلة منيرة، وطبقة رقيقة من الجليد تغطى الجبل، ومصابيح المدينة الملونة كانت تلمع وتخبو، ثم تعود وتلمع من جديد فوق أبنية المدينة العالى منها والمنخفض وكأنها اليراعات المضيئة التى تلمع فى ظلام الليل.

كان الصمت يسيطر على ممرات الطابق الثانى عشر، والنور الخافت الذى يصدر عن مكان، كان يتقاطع مع النور الساطع الذى يخرج من باب المرحاض شبه المفتوح ومرة واحدة يختلط لونه الأبيض الكدر ببعضه.

كان الصمت يلف الطابق الثانى عشر فى سُبات، انقفل باب المصعد وانزلق إلى أسفل. كانت أرضية الممرات تلمع. كان لون الجدران اللطيف، والصمت التام فى الممرات، وأبواب حجرات المستأجرين المغلقة فى الطابق الثانى عشر تبعث على النوم. وكان صوت جهاز التدفئة المركزى الذى يخرج متصلاً من النوافذ السلكية ذات اللون الرمادى كأنه أغنية من أغانى المهد.

ضغطت على زر المصعد وسرت، وذهبت ناحية المرحاض، ثم انثنيت فى الممر إلى الناحية اليسرى، وفى انتهاء الممر نظفت العرق الموجود على الزجاج بكف يدى. كانت المدينة نائمة متعبة على أغنية المصابيح الملونة. كانت منارات المسجد الواقع خلف المبنى بخطوطها البيضاء الطويلة التى دُقت على امتدادها مُضاءة.

وعلى مسافة أبعد قليلاً كان صليب الكنيسة الداكن اللون قائمًا بين مئذنتين وكانت الليلة منيرة.

عُدت؛ كان المصعد قد صعد لأعلى والباب انفتح. لم تكن عقارب الساعة تتحرك وكأن الساعة قد خربت.

مررت من أمام حجرة عرفات، وكان صوت خشخشة يصدر منها، أصغيت إلى الصوت، كأن شيئًا كان يُنْقَل فى الحجرة، وضعت عينى على ثقب المفتاح... وضعت عينى على ثقب المفتاح، كانت الحجرة مضاءة، وكان عرفات عاريًا وممددًا على السرير، أما عرصات فكان جالسًا على مقعد وثير وقد مدد قدميه وأسند رأسه وعنقه وخصره على مسند الكرسى. وقد راح المقعد يهتز كالمهر على ساقين مستديرتين من الخيزران. وفى منفضة السجائر النحاسية ذات القوائم العالية - التى كانت بجوار سرير عرفات - نصف سيجارة مشتعلة ودخانها يتصاعد فى شكل حلقات.

فكرت أنه لا بأس من أن أطرق الباب وأدخل وأتحدث معه طالما أنه لم ينم فما زال هناك وقت طويل حتى السادسة صباحًا، والوحدة مسألة متعبة. كل ليلة - حين كان الحارس موجودًا - كنت أضبط المصعد أتوماتيكيًا وأذهب لأجلس مع الحارس للتسامر وتدخين السجائر وشرب الشاى، بعد ذلك عندما كانت الساعة تبلغ الثانية بعد منتصف الليل وينام الشيخ كان الوقت الباقى على الصباح أربع ساعات و...

طرقت الباب فلم يتحرك منهما أحد، فعدت وطرقت الباب، فتحركت يد عرفات ناحية منفضة السجائر، وبحثت أصابعه عن السيجارة.

ذهبت وأخذت كرسى المصعد وأحضرته ووضعته أمام باب حجرة عرفات وجلست، ونظرت من ثقب المفتاح إلى داخل الحجرة.

كان ظهر عرفات العريض بظهر الكرسى الخيزرانى أمام عينى، كان علىّ أن أكون واقفًا تقريبًا لكى أستطيع أن أرى رأس عرفات من فوق كتف عرصات الأيمن. كان عرفات على المخدة عاريًا متعبًا وقد انسدل شعره الناعم على جبهته.

كانت عينى مرتكزة على يد عرصات الذى كان ممدداً، وقد ترك الكتاب على المائدة وراح يتقلب فى مكانه بحثًا عن علبة السجائر والكبريت و...

قام عرفات وجلس على حافة السرير، وحملق فى عرصات الذى كان ينظر إلى السقف. كانت الميدالية الفضية الكبيرة معلقة فى رقبته، وكانت تبدو كأنها أكبر من حجمها، كنت قد رأيت الميدالية فى ذلك اليوم الذى تركها فيه فى الحمام، وكان محفوراً عليها "لو كانت الحياة شرطًا..."

قام عرفات من على السرير، ومر من أمام عرصات ووضع كفه على فمه وضغط، ثم رأيت ظله الذى كان منعكساً على ظهر عرصات العريض، ورأيته هو نفسه يخرج من الصورة.

صدر من الحجرة صوت خشخشة، وصوت انتقال شىء، وجَرُ شىء، ثم بدا عرفات الطويلتين وبهما ستة كتب، وضعتاها على المائدة وعادتا خاليتين.

أطفأ عرصات النصف المتبقى من السيجارة، واتجهت يده إلى الكتاب الموضوع على المائدة، وكان الكتابُ مفتوحًا، أخذ الكتاب واستند على ظهر المقعد، الذى راح يهتز كأنه مهر.

ومرة ثانية عادت يدا عرفات بستة كتب أخرى وضعتاهما على المائدة مرصوصة فوق بعضها كالطوب اللبن.

تحركت عينى من على الكتب إلى الجدار المواجه حيث اللوحة الكبيرة المرسومة لمدينة بمبانيها العالية وشوارعها الممتدة، وفى كل شارع منها حاوى وناى، والنوافذ كلها من المصبعات الحديدية، والرؤوس تطل من خلف النوافذ. و... دق هاتف المصعد. قفزت من مكانى، وحملت المقعد، وإلى أن أصل إلى المصعد كانت الأبواب كلها قد صارت شبه مفتوحة، ونور الحجرات انعكس فى المكان، وكان المستأجرون كلهم قد مدوا أعناقهم فى الممر.

دخلت إلى المصعد ورفعت السماعة: كان المتحدث واحد من مستأجرى الطابق الأول وكان يتحدث بلهجة قروية وصوت خافت تفوح منه الخشونة فقال:

- يا أستاذ غش غش... ضيعت عمرى كله علشان حتة أوضة صغيرة جداً لا فيها ميه ولا عفش... لو طلعت عينى فيها عمرى كله عارف انها مش ها تبقى أوضة... دى الواحد يتخنق فيها... يا أستاذ أنا مش عارف ليه ما بيأجروش أوض حلوة وكبيرة وواسعة ومنورة ومريحة... جُم دلوقتى علشان يشيلوا الفواصل ويخلوا التلاتة حتة واحدة عشان ورشة بتاع اللباد.

قاطعتٍ حديثه وقلت له:

– يا أستاذ إنت ليه بتزعق كده؟... وأيه التهم اللى عمال بتلفقها دى يا أستاذ؟ ورشة لباد أيه بقى؟...

قال:

– هوه اللى افتكر المكان بتاعه.

كان يُخرِف وكأنه أُصيب فى رأسه. كان يخفى سعادته، وضعت السماعة فى مكانها. كان المصعد قد انزلق وهبط إلى أسفل. كانت هناك فى ممر الطابق الخامس عجوز وشابة وطفلة ينتظرن المصعد، فسألتهن:

– الدور الكام؟

وبمجرد أن دخلن قالت العجوز:

– المكان اللى يخرجنا من العمارة دى.

وقالت الشابة:

– وللأبد.

فابتسمت الطفلة.

قلت:

– مش الدور الخامس...

لم يكن كلامى قد انتهى حتى غنت الثلاثة معًا. وكأنهن كورس.. بلحن خاص:

– يامستنى السمنة من حليب النملة عمرك ما هاتقلى.

وحين وصلنا إلى الطابق الأرضى نزلن من المصعد. ضغطت على الزر وصعدت لأعلى، وذهبت باتجاه غرفة عرفات. كانت الأبواب كلها مغلقة. كان صوت جهاز التدفئة المركزى المتصل يبعث على النوم، وفى الممر الأبيض – بلون الحليب – وصلت إلى غرفة عرفات وألصقت عينى بثقب المفتاح فرأيت عرصات جالسًا على كرسى الخيزران يقرأ الكتاب، وعرفات معلق فى السقف والكتب مبعثرة على المائدة، كانت عقدة الحبل قد أحكمت على تفاحة آدم فى حلق عرفات، ولونه قد تحول إلى الزرقة، وكانت جثته تبدو وكأنها قد تمددت، وراحت تتحرك بهدوء كبندول ساعة الحائط.

قرب طلوع الصبح جاءوا وأنزلوا جثة عرفات ووضعوه على أرضية الممر. كان المستأجرون قد اصطفوا أمام المرحاض ينتظرون الدور. كانت شعورهم شعثاء وعيونهم قد علاها الرمص، وفى أيديهم المسواك وماكينات الحلاقة، بينما راحوا يتلوون ويتململون فى وقوفهم، ويتقدمون إلى الأمام لحظة بعد لحظة، وكانوا حين يصلون إلى جثة عرفات يديرون رؤوسهم بهدوء، ويلفون حول الجثة فى انحناءة هادئة ويمرون. كانت عينا عرفات المحملقتان تبدوان مشوشتين وكأن نظرته تتحرك مع حركة طابور المستأجرين.

كانت الأحاديث متداخلة ببعضها كطنين أجنحة البعوض بعد الظهر فى أيام الصيف وخلف النوافذ السلكية.

– أد أيه البعض بيضيعوا وقت.

– أصلاً لا فيه وقت ولا مسئولية ولا أى حاجة...

– مفيش على بالهم أى حاجة.

– طب يا سيدى لو عندك إمساك عالج نفسك.

– أنا زهقت...

– دفتر الحضور والغياب.

– العلامة الحمرا...

– يوم من المرتب...

– مفيش حد يقول له إن التواليت قليل؟

– طب حد ينادى عليه.

كانت الشمس قد أشرقت مائلة من النافذة على وجه عرفات الأزرق الذى جاء اثنان يلبسان ملابس زرقاء ليحملا جثته على نقالة حمل الموتى. كانت رأس عرفات قد خرجت من على النقالة بينما يسير الرجلان اللذان يلبسان الأزرق، كانت الرأس تتحرك والنظرة الحزينة كانت تبدو معلقة بالصف وكأنها كانت قلقة.

حين ذهب الرجلان صاحبى الملابس الزرقاء، جاء اثنان يلبسان السواد وتحدثا مع عرصات.

كان عرصات فاتحًا باب الحجرة متكئًا على إطاره، ولابسا السواد كانا واقفين أمامه يتحدثان معه.

كان حديثهم طويلاً، وكان عرصات هادئًا بينما كان لابسًا السواد سيىء الخلق وعصبيين.

ثم راحت الأبواب تنفتح واحدًا واحدًا، ثم تنغلق، والمستأجرون يخرجون بذقونهم المحلوقة وشعورهم الممشطة، والسيجار بين الشفاه، والحقيبة فى اليد، ويغلقون أبواب الحجرات، ثم يتجهون نحو المصعد.

راح طابور انتظار المرحاض يقل، وطابور انتظار المصعد يمتد وأمام المصعد كان العبوس يعلو الوجوه، وتعود الأحاديث لتختلط ببعضها من جديد.

- ليه ماحدش بينادى عليه ويقول إن أسانسير واحد قُليل؟ .

- يا أخى واحد فيكم يتكلم.

- يقول له إن الأسانسير ده...

- طب ياسيدى حد يقول له إن العمارة دى بكل السكان اللى فيها يبقى أسانسير واحد قليل عليها.

كانت بداية صف المرحاض ترتبط بنهاية صف المصعد، وكان لابسا السواد لا يزالان يتحدثان مع عرصات. طال حديثهم، ثم نظر أحدهما حواليه، وبحث أحدهما عن التليفون فأشرت له إلى المصعد فذهب وطلب رقمًا وتحدث وطلب رقمًا وتحدث، فتعطل المصعد فى الطابق الثانى عشر.

عندما تعطل المصعد علت الهمهمة ثم صارت وشوشة.

- لو كان حد يقول له إن الوقت ده مش بتاع تعطيل الأسانسير...

- قولوا له إن الأسانسير ده طبعًا كويس، ويكفى كمان، بس لو ماكانوش يعطلوه ساعات...

- يا أخى حد يقول له...

انتهى حديث لابس السواد، وخرج من المصعد، وذهب ناحية عرصات. كان العرق الملتصق بزجاج الممر قد تبخر فبدت المدينة بأبنيتها العالية التى علاها الدخان، ومداخنها الطويلة وسمائها.

كان طابور المرحاض قد انتهى، وطابور المصعد قد صار قصيراً.

وفجأة سُمِعَ صوت صفارة، وانغلق باب المصعد وانزلق إلى أسفل، ثم صعد وبه خمسة يلبسون ملابس سوداء، ثم عاد خالياً، وصعد ممتلئاً من جديد.

عندما خلا فى الطابق الثانى عشر، اجتمع لابسو السواد فى غرفة عرفات فأوقفت المصعد ونظرت إليهم.

كان لابسو السواد يتحدثون بالدور، ونظرة عرصات الباردة تنتقل بين لحظة وأخرى بين هذه العين وتلك، ومن فم هذا إلى فم ذلك.

كان أحد الذين يلبسون السواد يتحدث، بينما تنتفخ عروق رقبته ويزرق لونها.

وواحد آخر كان متوسط العمر ولغده بلون الدهن الطازج، كان من بداية الجلسة إلى آخرها يعض على أسنانه فقط بينما هو صامت ونظر و...

لم يكن قد بقى شىء على آذان الظهر وفجأة قام أحدهم من مكانه منتفضاً - وكان ضئيل الحجم وعجولاً وقد نفذ صبره - وصرخ:

- ليه؟

ضم عرصات شفتيه على بعضهما، وألقى كتفيه إلى أعلى.

هجم الرجل الضئيل الحجم على عرصات وسأله بغضب وحنق:

- إزاى؟

تحرك عرصات وملأ صدره بالهواء ثم زفر. وكأنه قد أزاح عن كاهله حملاً ثقيلاً. ثم وضع قبضته على المائدة واختبرها. ثم جلس بهدوء على حافة المائدة وأشعل سيجارة وابتلع دخانها، وحين وصلت إلى نصفها أطفأها.

كانت نظرة لابسى السواد تتابع حركة يدى عرصات الذى كان وقتها يرص الكتب ذات الغلاف الأبيض المبعثرة بمزاج ودقة فوق بعضها كالطوب.

عندما انتهى عمل عرصات، وقف فى مواجهة لابسى السواد ونظر فى عيونهم ببرود شديد، ووضع مؤخرة كف يده على حافة المائدة وقفز إلى أعلى مثل القط وجلس على يديه وقدميه، وتفحص الكتب وغير أماكنها.

صار عرصات الآن واقفًا على الكتب ونظرة لابسى السواد مرتكزة على السقف وعلى الحبل الذى كان متدليًا منه، وعلى يدى عرصات الذى أمسك بالحبل وراح يسحبه، ثم ألقى بمشنقة الحبل حول عنقه.

كانت نظرة عرصات الحادة تُحرق مثل النار، وعيناه تطرفان تحت حاجبيه الكثيفين. ولون وجهه كان يشبه ضوء القمر وشفتاه مفتوحتان، وكان بياض أسنانه واضحًا.

اعترت المنطقة الواقعة أسفل وجنتى عرفات تجعيدة باهتة فبدأ وكأنه يضحك، وكأن نظرته كانت خنجرًا، وكأنها كانت سحرًا... وفجأة، بعثر عرصات الكتب بكعب قدميه.

خلا المكان تحت قدمى عرصات، وثقل جسده، واستحكمت المشنقة فاهتز لابسو السواد وارتفعت نظرتهم إلى السقف وإلى الحبل الذى كان قد صار قويًا، وإلى جثة عرفات التى طالت، وإلى لون وجهه الذى راح يزرق رويدًا رويدًا ويميل إلى السواد.

* * *

بيت على المـــاء

كان أمامهم مبنى بأبراجه وأسواره وأبوابه ونوافذه و... كانت الألوان أحيانًا تخيف العين وتؤذيها، وكانت أحيانًا أخرى لطيفة، بلون الخشب الأبيض الذى لا يخيف العين ولا يؤذيها، وكانت أحيانًا ثالثة بلا لون.

كان الرجل والمرأة والطفل جالسين فى مواجهة المبنى وعيونهم عليه، وظلالهم منعكسة تحت أرجلهم.

كانت المرأة تمضغ اللبان وذقنها فى حركة دائبة، ودخان سيجارة الرجل - التى لم تكن تفارق شفته أبدًا - كان تنسج ستارًا أزرق، كان المبنى فى مواجهتهم بأبراجه وأسواره وأبوابه ونوافذه.

كانت عين الطفل تلازم الرجل والمرأة، ولا تفارق أيديهم وشفاههم، راح الرجل يتكلم والسيجارة بين شفتيه، كان حديثه كأنه نجوى، قال:

- بُصى هناك ياولية، هناك من الأرض لحد الشباك الأولانى، كأنه وارم.

أجابت المرأة على ما قاله الرجل وفكاها لا يتوقفان عن الحركة:

- أيوه يا راجل من أرضية الدور الأول لحد حلق الشباك.

أى أن الجدار ذى اللون الساروجى(*) من الأرض حتى حلق شباك الدور الأول كان منتفخًا.

عاد الرجل يتحدث والسيجارة المستقرة فى فمه تتراقص مع الكلمات، ورقصها كان مبهجًا للطفل وكأنه لون من الفن...

(*) الساروج: خليط من مواد البناء التى تتحمل الحرارة الشديدة وتمتص الرطوبة، وتصنع منها أحجار صلبة تستخدم فى البناء.

- لحد حلق شباك الدور الأول.

كررت المرأة كلام الرجل.

- لحد حلق شباك الدور الأول.

قال الرجل:

- إنتى ياولية ... إنتى متأكدة من اللى إنتى شايفاه؟ يعنى صحيح فيه ورم.

قالت المرأة:

- إنت اللى شفت ... وإنت اللى قلت.

قال الرجل:

- يعنى صحيح ها تقع؟

قالت المرأة:

- لو كانت وارمة، يعنى لو اتفتحت زى الدمل، ولو أساس المبنى يقع... يبقى هايتهد طبعًا.

التصقت اللبانة فى حلق المرأة، فراح لسانها يدور فى فمها كثعبان الماء الذى جمده البرد فصار عديم الخطر، صار لسانها يلف فى فمها ويعلو إلى حلقها لكى يفصل عنه اللبانة، وتحدثت ولسانها لا زال يدور فى حلقها وقالت:

- طيب ... أيوه، خلينا نقول إنه هايتهد.

قال الرجل:

- علشان إذا كان هايتهد ...

قالت المرأة:

- مش لازم نسيبه يتهد.

قال الرجل:

- أنا فيه حاجات حاسس بيها، كأن فيه كلام كاتم على نَفَسى، وخانِقنى كأن قلبى تقيل...

ورقصت السيجارة فى فم الرجل من جديد، وابتسم الطفل الذى كانت نظراته لا تفارق فكى المرأة الدائبى الحركة، ورقص سيجارة الرجل المتواصل.. و... كانت المرأة هى التى تتحدث هذه المرة:

- طيب. يبقى لازم تشيل الحمل ده عن قلبك، علشان قلبك يرتاح. الحيطة دى ليها كِرْش، من أول الأرض لحد حلق شباك الدور الأول، عاملة زى الحيوان اللى مات وانتفخ.

قال الرجل:

- نقول!

فأجابت المرأة:

- نقول؟

لم يكن المكان خلفهما صحراء جرداء، كانت الظلال متجاورة، يلازمها رقص السيجارة المستقرة بين الشفتين.

سأل الرجل:

- وهو أنا واثق فى عينيه؟ يعنى هو فعلاً هايتهد؟

وسأل من جديد:

- طيب وانتى؟... قصدى عينيكى.

قالت المرأة:

- أنا شايفة اهه. وطلعت لفوق كمان عن حلق شباك الدور الأول. زادت دلوقت عن حيطة الشباك اللى فى الدور الأول.

قال الرجل:

- وبعدين؟

قالت المرأة:

- أنا عاوزه أتأكد .. عاوزه اقول .. انها وصلت كمان لحد شباك الدور التانى وكأن المبنى بيتهز، مش عارفة، يمكن كمان الهزة دى تكون السحابة الزرقا بتاعة السيجارة بتاعتك.

لم يكن المكان خلفهما صحراء جرداء. كان ظلالاً متجاورة، كانت حركة الفكين الدائبة تلازم الظلال، كما تلازمها سيجارة الرجل التى ترقص.

- "الكلام" وبس؟

انفصلت اللبانة عن سقف حلق المرأة وراح تلف فى فمها مع الكلمات وهى تقول:

- ماهو الكلام هو كمان فعل.

قال الرجل:

- يبقى نقول!

قالت المرأة:

- لازم نقول!

قال الرجل:

- وليه مانقولشى؟

كان لون الساروج الداكن يتصدع ويزداد قتامة، وانتفخ المبنى الذى كان يبدو محكمًا وقويًا وثابتًا بأبراجه وأسواره وأبوابه ونوافـذه، وكذلك أساسه الذى كان وكأنه بقرة سوداء ميتة لدغها ثعبان ونفث كل سمومه فى جسـدها، فتسممت حتى النخاع، وسقطـت ميتة وانتفخ جسدها.

- لو قلنا ...

كان الرجل هو الذى يتحدث، وسيجارته ترقص. أما عين الطفل فكانت قد ملت رقص السيجارة المتواصل...

- لو قلنا؟... طيب ولو كانت ثقتنا مش فى محلها؟

راحت المرأة تكرر ما قاله الرجل:

- لو كانت ثقتنا مش فى محلها؟

- عينينا!

- هل ممكن نثق فيها؟

- يعنى ممكن نقول؟

دوى صوت انهيار شىء ما، وصوت انهدام شىء ما، وكسر شىء ما.

قالت المرأة:

- سمعت؟

فقال الرجل:

- سمعت.

ورأى الطفل المبنى يهتز من الأرض حتى حلق شباك الدور الأول، وانجذبت عين الطفل - التى ملت رقص السيجارة المتواصل فى فم الرجل، كما ملت دوران فكى المرأة الذى لا يتوقف - إلى المبنى؛ فرأت أن أساس المبنى المواجه لهم المنتفخ يسقط قطعًا قطعًا كحيوان ضخم تسمم، فصرخ الطفل وسمعت المرأة صراخه كما سمعه الرجل فقالت للرجل:

- إنت سامع!.

فأجابها:

- سامع.

وأعقب ذلك صوت انهيار ودمار، فعاد الرجل يسأل:

- ياترى ممكن نثق فى ودانا؟

وكررت المرأة ما قاله الرجل:

- هل ممكن؟

قال الرجل - وكأنه شارد يحدث نفسه بينما عينه تتابع القشرة الزاحفة ذات اللون الساروجى، وسيجارته التى كانت قد انتهت ما زالت ترقص:

- عاوز، عاوز أثق فى ودانى.

- طيب مانثق فيها!

- ولو كانت ثقتنا مش فى محلها؟

- أيوه لو كانت ثقتنا مش فى محلها!

كان الطفل قد انفصل عن المرأة والرجل، وكأنه قد كبر ونضج، ولم تعد عينه تتابع رقص السيجارة ولا حركة ذقن المرأة المتصلين، ولكنها صارت مع السواد الذى سيطر على المبنى، وصار حلقه كأنه قد تورم، ولم يسمع المرأة وهى تكرر ما قالته:

- نتكلم.

ولا الرجل وهو يسأل:

- كلام، بس؟

ولم يسمع إجابة المرأة:

- الكلام هو كمان فعل.

انتفخ حلق الطفل، وصرخ بفمه وجسده وبكل كيانه، وصرخ... وقال الرجل دون أن يحرك ساكنًا غير أنه راح يُرَقص سيجارته:

- سمعتى يا ولية؟

أطلق لسان المرأة - الذى كان مثل ثعبان الماء المصاب بالبرد الذى يلف وراء اللبانة - سراح اللبانة وقالت:

- سمعت.

- متأكدة انك سمعتى؟

- نِفسى ... نِفسى قوى....

- طيب ولو كنا غلطانين؟

- أيوه لو كنا غلطانين؟

صرخ الطفل - الذى كان قد أصبح أكثر نضجًا ونموًا من الرجل والمرأة - بكل كيانه، بينما كانت التصدعات الساروجية اللون الزاحفة قد صعدت حتى سقف الطابق الأخير، واهتز أساس المبنى المنتفخ، ثم دوى صوت انهيار شىء، وخراب شىء، بينما عاد الرجل يسأل بهدوء:

- يعنى ممكن نثق فى نفسنا؟

وراحت المرأة تكرر ما قاله الرجل:

- ممكن؟... يعنى ممكن؟!

* * *

الأغـــراب

كنت طوال الليل أرتعد من شدة البرد، وفى الصباح عندما كان رشيد قد ملأ الراكية الموجودة فى وسط العنبر الخشبى الواسع بالفحم والرماد الذى كانت الحرارة كامنة فيه، ألقت حمرة الفحم المشتعل ذات اللون الجميل بلونها الأحمر الناعم فى فضاء الحجرة شبه المظلم. كنت جالساً بجوار الحفرة فسمعت قلقلة البراد النحاسى الكبير. أحسست أن برودة الليل كله التى كانت قد ملأت كل جسدى كأنها تجمعت فى فقرات ظهرى، وراحت تخرج من عمودى الفقرى برعشة خفيفة، بل وممتعة أيضاً.

ملأ رشيد قبضة يده الكبيرة بالشاى، وصبه فى البراد. وقف أبى للصلاة وجمع الأولاد الفراش، وكوموه فى ركن الحجرة، تلا أبى تسابيحه بصوت عال. كانت الشقوق الطويلة الواسعة فى خشب الحجرة مليئة بلون الرماد الذى يميز أوقات السحر. كان صوت القاطرة البخارية – التى يبدو أنها كانت فى مناورة – ينفذ إلى الداخل. أحسست برعشة لذيذة تسرى فى كيانى من نبرة صوت أبى، كانت فى صوته حشرجة، الذى كان يُسبح بصوت عالٍ.

كنا جالسين حول الراكية، وكنا نُسَخِن كِسَر الخبز البائت بجوار النار، وفجأة دوى صوت صفارات متتالية هزنا، فجمعنا السفرة بسرعة، ولم يكن لدى أبى الفرصة لكى يلف سيجارة ما بعد الإفطار ويدخنها.

خرجنا من تحت سقف مضجعنا الخشبى المنخفض، وعاد صوت الصفارة مرة ثانية، ووقع أقدام بعيدة، ثم راح يخفت على الرمال.

وفجأة خلا المكان من خلف خط السكة الحديد المهجور الذى كان مغروساً فى الرمال حتى صف مخازن السكك الحديد المهجورة الواقعة خلف الأكشاك العالية.

والفناء الندى الواسع للألواح الخشبية الرقيقة وامتداد خطوط الأسلاك الشائكة على حدود الثكنة العسكرية.

فى منتصف الليلة الماضية تقريبًا كانت السحب الرمادية الكثيفة قد اكتسبت لونًا أحمر من خلف سلسلة الجبال العالية ذات اللون الأخضر الداكن الواقعة شمال المدينة، ثم جرت وانهمرت على الأرض الخضراء، واندفعت فوق الثكنة العسكرية والبيوت المتداخلة المتناثرة فوق تل مخروطى بجوار النهر.

والآن وقد تنفس الصباح، كان السحاب الكثيف ملاصقًا للأرض، وعين كشافات النور الواسعة الصفراء تشق الضباب من فوق أبراج المراقبة، وراحت خطوط النور البرتقالية اللون تتداخل وتنفصل، ثم تتداخل من جديد.

كانت أقدام العساكر الضخمة تبدو من تحت قاطرات القطار المهجور، كانت أقدامهم تنفتح وتنغلق مثل المقص، كانت أربطة أقدامهم البيضاء - التى صارت رمادية اللون من رطوبة الأرض والهواء - تتصل وتنفصل. ونعول أحذيتهم المدببة تنزلق فوق الرمال المجاورة لشريط السكة الحديد، وتصدر صوتًا دِرِب دِرِب، فوق الفلنكات الخشبية المتهالكة التى أكلتها الرطوبة.

مرة ثانية دوى صوت الصفارة، ودوى فى الهواء صوت رصاصة مكتومة، كانت كأنها أصوات مكتومة وكأن الصوت يسبح فى ضباب كثيف عاريًا ثقيلاً.

مر من أمام المحطة قطار ضخم، واتجه إلى خلف مخازن القطار، وانفصل عن الخط الأصلى، ثم انزلق على الخط الفرعى ووصل إلى جوار القطارات المهجورة، وخرج من أسفله بخار أبيض اللون، وصوت عالٍ، ثم غاب القطار فى البخار الكثيف، وتلاشى شيئًا فشيئًا.

كانت عينى على القطار الداكن اللون حين علا صوت أقدام، أعقبه صوت رجل غريب - صار الآن صديقًا - فتسمرنا فى مكاننا.

كنا قد وقفنا أمام جدار الحجرة مصطفين، ولا زالت حرارة الفحم تملأ جلدنا وملابسنا، كانت تمتلئ بهواء الفجر البارد، فيخرج دافئًا مصحوبًا بالبخار.

تراجعنا إلى الوراء مع صوت الجندى الغريب الخشن الذى كانت كل جبهته غائبة تحت القبعة الخضراء الداكنة اللون، وألصقنا ظهورنا بأخشاب مضجعنا الرطبة.

كانت عينى على وجنتى الجندى الغريب الورديتين اللون، والذى كانت قامته الطويلة المشوقة تتقدم بخفة على خطواته الواسعة، وشرائط رتبته تبدو على كتفه وكأنها حُشيت بالقش وقد استحال لون أربطة قدمه البيضاء إلى اللون الرمادى.

كانت نظرته الصفراء الحادة التى تشبه نظرة الصقر تلتقى بنظراتنا واحداً واحداً، ثم تتركه، وتنتقل إلى عين الآخر، وحين وصلت إلى آخر واحد منا انفتحت شفتاه - اللتان كانت كأنهما ملتصقتان دائماً، ولطم صوته وجناتنا كالكرباج.

- نعمت!

وكأن الفرحة ملأت وجودنا.

تنفسنا معاً، وهززنا رؤوسنا.

- ... نعمت، هرب.

فتح الرجل الغريب ضلفتى باب مسكننا بركلة من قدمه، ودخل، بعثر كومة الفراش، ثم خرج وأخذ رشيد معه.

فى البداية قاوم رشيد، ثم هدأ عندما رأى ماسورة المدفع وقد استقرت فى صدره، ونظرة الرجل الغريب قد طار منها الشرر، فسار برفقته.

حين ذهب رشيد وقفنا فى أماكننا صامتين للحظات، ثم سرنا كأننا قافلة جمال متعبة، سرنا خلف بعضنا البعض ناحية مخزن الألواح الأبلاكاش.

كان طريقنا مجاوراً لخط الأسلاك الشائكة للثكنة العسكرية المؤقتة، وكان الجنود يجرون بخطى ثابتة وهم نصف عراة، وقد نصبوا البنادق على الأرض، وكانوا فى صف واحد.

فى نهاية خط الأسلاك الشائكة التى كانت تتجه ناحية أرض خضراء كان الدخان يخرج من ماسورة علاها الدخان لمدفأة فى أعلى كشك صاجى، وراحت رائحة القهوة المعدة لتوها تنتشر فى بطء وسط الضباب الكثيف.

حين وصلنا إلى مخزن الألواح الأبلاكاش كان المكان كله مليئًا بالجنود، يجوبون المكان بين الألواح الأبلاكاش المكدسة فوق بعضها يتحدثون بلغة أجنبية ونظراتهم غريبة كذلك. ثم يمرون.. أعطانى أبى معطفه وعلبة دخانه المعدنية وقال لى أن أذهب وأجلس فى الكوخ وألف له سيجارة.

أخذت علبة الدخان، وابتعدت عن أبى الذى كان ذاهبًا مع العمال، واتجهت إلى الكوخ الخشبى.

ذهبت إلى الكوخ الخشبى، ورتبت الأخشاب على أرضية الحجرة، ولففت حول نفسى المعطف الواسع الذى كان لا زال يحمل سخونة جسد أبى، وجلست، ووضعت علبة الدخان أمامى لألف السيجارة.

كانت أشعة نور الشمس قد خرجت أمامى من خلف التل المخروطى الشكل على حاشية المدينة، كانت أشعة نور الشمس متعددة الألوان على مسافات، كانت صفراء شاحبة، وذهبية ودامية، وكان بعضها أيضًا باللون البني المحروق، وكانت كلها قد اختلطت بضباب الصباح والسحب المتناثرة.

فى اليوم السابق، وعند الغروب شاع فى كل مكان فجأة أنهم قد أخذوا نعمت وأحضروه إلى الثكنة، فانخلعت قلوب الجميع وظهر الأسف على شفاههم. كان رشيد قد قال حين تناولنا طعام العشاء وجلسنا حول النار لنشرب الشاى ونتحدث عن نعمت كالعادة حتى يملأ النوم عيوننا: "يارب يهرب" وكنا قد دعونا له سرًا دون أن ننطق بأى شىء، وها هو دعاؤنا قد لقى الإجابة فهرب نعمت.

لم أكن قد لففت السيجارة الثانية حين أحضروا رشيد ويداه مكبلتان، وأبقوه فى وسط الميدان أمام الثكنة العسكرية.

وضعت علبة السجائر على الأرض ونظرت إليه.

انغرس فأسا جنديين على الأرض الندية حتى حفرا حفرة بارتفاع خاصرة رشيد، فكوا يدىْ رشيد وألقوه فى الحفرة، فصار الجزء الأعلى من جسده خارج الحفرة، وكانت يداه الضخمتين مرفوعتين لأعلى، تحملان رشاشًا دون خزانة طلقات، وأمامه الرجل الغريب - الذى صار معروفًا الآن - يحرسه.

كان عامل البريمة يتوقف عن العمل أحيانًا، وأحيانًا النجار والحداد، وينظرون إلى رشيد الذى كان يرزح تحت ثقل الرشاش.

تجمدت يدى، قمت وجمعت بعض قطع الأخشاب ووضعتها فى الراكية الموجودة وسط الكوخ، وأشعلت النار. استقر دخان النار نصف المشتعلة فى عينى، وبرق فيها الدمع، ورأيت رشيد من خلف قطرات الدموع، كان رشيد كأنه يتلوى تحت الرشاش الثقيل.

وكأننى سألت نفسى لماذا قبضوا على رشيد؟ ثم اعتدلت فى المعطف الدافئ دون أن ألف السيجارة لأبى، واحتضنت ركبتى، وفكرت فى رشيد.

كانت كلمات رشيد ترن فى أذنى، كانت كلماته دافئة، مليئة بالحيوية وتبعث الاضطراب فى نفس الإنسان.

فى الأيام الأولى التى جئنا فيها لكى نرتب صناديق الأسلحة، وأماكن قطع غيار السيارات والدبابات، ونرص ألواح الخشب فى مجموعات، كان رشيد قد جاء مع عدة عمال آخرين.

- عاوز اشتغل.

فهمت من كلامه أنه فلاح، وأن جفاف الأرض قد أعوزه و.... الجفاف، والجوع، والعرى، والحوجة.

كان رشيد عندما يتكلم يشبك يديه الكبيرتين خلف رأسه، وكتفاه العريضان تحت العباءة الصوفية، وكانت جبهته العالية وفمه الواسع ووجنتان البارزتان العظام اللتان لفحتهما الشمس تأسر الإنسان.

- ... متجوز، وعندى ولد، ولازم أأكل أبويا العجوز كمان... لم يكن السكرتير يريد هذا كله، كان يريد اسمه فقط، واسم ابيه، ومحل إقامته الذى كان "بندبال".

كان قد أحضر معه لحافه وصرته، وعندما حل الليل وأكلنا طعام العشاء وجلسنا حول الراكية التى تتوسط عنبرنا بجوار ضوء الراكية المخملى حتى نوصل ليل الشتاء إلى نصفه، تحدث عن نعمت وكم هو جذاب... وها هو الآن حتى خاصرته فى الحفرة، ويداه مقوستان تحت الرشاش.

كان الدمع قد استقر فى عينى، وأظن أن الحفارين والبحارين كانوا يعملون ببطء فى ذلك اليوم، وأن أبى لم يكن لديه عتاب ووعيد.

كانت الشمس قد اتسعت، وراحت الأرض الندية تنفث البخار، كان العمال يتبرمون، وكانوا بين الحين والحين يعتدلون ويتمطون ويستندون على البريمة بينما راحت عيونهم تتعلق بوسط الأرض الواسعة أمام الثكنة العسكرية حيث كان العسكرى الغريب واقفًا أمام رشيد لا يتحرك.

كانت كلمات رشيد ترن فى أذنى، كان يحكى كيف أن نعمت كان يفصل عن القافلة شاحنة بها خمسة أطنان من الملابس، ويقودها إلى قلب القرية ويعطى الملابس والبطاطين والأحذية للفلاحين، ثم يترك الشاحنة فى الصحراء.

كان نعمت أمام عينى بنظرته الحادة وقامته المتوسطة وحاجباه المتصلين، وشاربه الكبير وذقنه العريضة القوية.

كان رشيد يتحدث.

كنا جالسين بجوار النار، وكان صوت المطر حلواً. وكانت عينى على فم رشيد وشفتيه الغليظتين "... كانت الدنيا ليل، والجو كان برد و...".

كانت السماء صافية، والنجوم كانت كأنها قطع من الثلج فى كأس السماء البللورى. كانت الهضبة قابعة فى جو بين النور والظلام فى ليلة مقمرة، وكان القمر قد سطع، وصوت الليل، وتناجى الليل المكتوم المتداخل فى قلب الليل أنا وأنت و ".. كنا مستخبيين..." كان دفء الفحم يسرى فى أجسادنا، وفى آذاننا صوت رشيد الذى يجلب النعاس " كان نعمت قاعد فى حفرة جنب خط السكة الحديد. وأنا كنت جنبه. وكنا عارفين انه لما القطر ها يوصل ها يكون مش فاضل وقت. كنا عارفين انه ساعتها مشى من المحطة الخامسة. كانت الدنيا برد. الهوا كان بيعدى من على الحفرة المليانة بالميه وزى ما يكون بيلسع وشنا بالكرباج. كانت سيجارتى فى إيدى، وأسنانى مش قافلة على بعضها من البرد. نعمت كان هادى. ولا كان فيه حاجة، ما كانش هامه حاجة. عينيه كانت زى عينين القطط، كان فيها زى البرق، كان فيه لمعة كده فى عينيه. كان لافف نفسه فى عبايته الصوف، وواخد رُكبه فى حضنه. كان مسنود على جدار الحفرة. أخد سيجارتى، وحط راسه تحت العباية وشد نفس وبعدين إدانى السيجارة فى إيدى وقال لى اطفيها، وبعدين قال لى اروح واحط ودنى على خط القطر، ولما حطيتها، لقيت زى ما يكون بيننا وبين القطر خطوتين. رجعت جرى وقلت له على اللى انا سمعته فقال لنا: انتوا ماتتحركوش من مكانكم لحد ما ادى لكم الإشارة. وقال لى اقول للأولاد انهم ما يظهروش خالص قبل ما نعمت خان مايدى العلامة. زحفت على الأرض، ورحت للحفرة اللى فيها الأولاد. ما تعرفوش أد أيه الدنيا كانت صعبة. سنة جفاف، وسنة تيفود. وسنة جوع، واحنا اللى كان عيالنا دايماً بيتمرغوا فى نعمة ربنا، دلوقت بيموتوا علشان لقمة عيش..."

كان رشيد يتحدث. كان يتحدث بارتياح... رجعت من عند الأولاد، وقعت جنب نعمت خان، وبصيت على وشه من الجنب. مناخيره كانت مناخير عقاب، وكأنها معمولة من الحجر. ودقنه كانت عريضة وفيها طابع حسن غويط: ولونه كان زى لون النحاس... وكنت عمال افكر يا ترى ممكن يبقى فيه بنى آدم عنده كل الجرأة والشجاعة دى، وفجأة قال القطر جه. دورت راسى وبصيت لقيت نور فانوس القطر باين من بعيد، وبعدين اختفى، وظهر تانى. والمرة دى كان نور جامد قوى، وكان صوت القطر كمان جاى. ومرة واحدة حسيت بالخوف. كانت دى

اول مرة اروح فيها مع نعمت خان علشان نعمل حاجات زى دى. كان قال لنا ان احنا لو ما كناش عاوزين نسواننا تموت من المرض والعلل يبقى لازم نروح معاه. كنا ٢٢ واحد وكلنا كنا من "بند بال" سبنا بهايمنا فى الهوْ ومشينا ورا نعمت خان. القطر قرب، وكان قلبى بينتفض واسنانى كمان. إيد نعمت راحت ناحية الطبنجة اللى كان رابطها على وسطه. وبعدين رمى العباية على الأرض. وبعدين زحف على صدره على الأرض زى السحلية، وراح داخل فى الحفرة جنب شريط السكة الحديد، ولم نفسه زى القطة اللى عاوزه تنط. والقطر جه. واتهيألى انه كان عامل دوشة اكتر من عوايده. وكان نور الفانوس الكبير بتاعه بيزحف على الأرض ويجرى قدام القطر. ولما عدى القطر نط نعمت خان وجرى مع القطر. وبعد كده ما فهمتش ايه اللى حصل. بص انا شفت فى الدنيا اللى كانت منورة شوية، من القمر... شفت نعمت خان متعلق فى واحدة من عربيات القطر...

كان رشيد هو الذى يتحدث، ثم صار الآن صامتًا، وعينه مثبتة على الفحم المخملية التى كانت حرارتها قد اشتدت وراحت تخبو وتشتعل.

كنا جالسين حول النار، ونظراتنا مثبتة على رشيد. كانت جبهته العالية تميل إلى الاحمرار. كانت حرارة الفحم منعكسة على جبهته ووجنتيه و...

جعلت حرارة الأخشاب المتوهجة رجلى سروالى الصوفى ساخنتين، وأحرقت حرارة السروال ساقى، فارتجفت، كانت الشمس قد علت، وكانت يدا رشيد مثنيتين تحت الرشاش، وكان الحارس يبدل رجليه من الملل.

خرج من ناحية الثكنة العكسرية المؤقتة أربعة جنود أغراب، وكلهم يحملون المدافع، خرجوا جميعًا من باب الثكنة بصحبة الصول، وتقدموا بخطى متزنة ناحية رشيد، تغيرت نوبة رشيد، وسارت المجموعة. وقفت النوبتجية الجديدة – كعامود حجرى – أمام رشيد، ثم، أظن أنها صاحت، واستقامت انحناءة يدى رشيد، وارتفع الرشاش وانزلقت أكمام ثوب رشيد لأسفل، وكانت يداه المدودتان المتمرستان تميلان إلى السواد فى الشمس.

كنت أعرف أن هناك خطًا أبيض على ساعد رشيد الأيمن، كان أثر جرح قديم يمتد من ساعده حتى معصمه، لم يكن الخط واضحًا فى هذه اللحظة، وفى أوقات الليل حين كان يتحدث ويحرك الفحم. بالماشة، كان الخط الأبيض على ساعده يبدو وكأنه يلعب. ثم كان يلف يديه حول ركبتيه ويتحدث فيقول "... ما فهمتش أيه اللى حصل، وكان نور القمر فى الدنيا اللى شبه منورة..."

كان صوته يخرج من أعماق حلقه، كان صوتًا أجش أخاذًا"... وفجأة شفت نعمت خان متعلق فى واحدة من العربيات وبيشاور بايده فقمنا وجرينا... كان القطر بيبعد، وكان صوته بيبعد، وكنا احنا كأننا بنجرى على الفاضى. عدينا ميدانين، تلاتة من غير ما نتكلم مع بعض، كنا كلنا يئسنا. وكنا بنلهث، ورجلينا كانت تعبت جدًا لكن... فجأة عينينا وقعت على العربية التى كانت مفصولة لوحدها وكانت حركتها بطيئة، وكأن الروح اتردت فينا فرجعنا وجرينا، جرينا لحد ما شفنا نعمت خان متعلق فى جسم العربية، وبعدين نط على الأرض، وجرى قدام العربية اللى كانت بتجر نفسها بصعوبة على مَطْلعَ وأخد لوح خشب مبلول من الخشب اللى كان متكوم جنب الخط فوق بعضه، ورماه على خط السكة الحديد فسمعنا صوت اصطدام عجل العربية بالخشب، وبعدها دوى صوت نعمت خان زى الرصاص وهو بيقول: ثبتوها من وراء. كانت العربية واقفه ورا، وقبل ما تمشى على خط السكة كنا ثبتناها من ورا وهجمنا على أكياس الدقيق. وبعدها بيوم الأغراب جُم لحد " بندبال " وكنا احنا كلنا جرينا على الصحرا، ولما رجعنا بالليل قالت لى مراتى:

جُم وش الفجر، والبنادق على اكتافهم، والخوذات على عينيهم، وكأنهم جم علشان أشولة الدقيق. وقفوا العربيات قدام الضريح. وبعدها نزلوا من العربيات زى النمل والجراد. لما سمعنا صوت عربيات خرجنا كلنا من البيوت والعشش. أنا كنت لسه عاجنة العجين، ويادوب ولعت الفرن.

وابويا قال انهم هجموا علينا مرة واحدة وقبل ما نفهم هُما مين وعاوزين أيه.

وقالت لى مراتى:

صوت جِزَمْهُم كان بيرج قلب الواحد. وقالت لى كمان:

نرجس خافت، وصرخت، ورحت أخدها فى حضنى فلقيتهم حدفوا ماجور العجين برجليهم فى الحفرة اللى فى وسط الحوش...."

كان رشيد يقول:

"روا الزِلَعْ بتاعة الغَلَة، يمكن بكعب البندقية، مش عارف، يمكن رفسوها برجليهم... إبنى ورانى فخده كان لونه أزرق.

ابويا قال لى: انهم ضربوه بالشلوت.

ومراتى قالت لى: أنا حطيت نرجس على الأرض، قمت ومسكت إيده وعضيتها، بس هو ضربنى فى عضم صدرى ضربة خلتنى مش قادرة آخد نفسى لحد دلوقت. لقيوا أكياس الدقيق فى الصندرة وفى الزريبة.

مسكوا ابويا من رقبته وجرجروه زاحف لحد اكياس الدقيق.

وقال لى:

كانت رُكبى بتتنى. وقال: أجبرونى انى أروح غيطان اللفت والبنجر. وكانوا طول الطريق بيضربونى بالشلاليت. وقعت كذا مرة. وركعت على ركبتى، قومونى بالشلوت. كان ظهر ابويا مَهْرى. وظهر جعفر كان كله كدمات. والمكان اللى كانوا بيضربوه فيه بالشلاليت كان كله أزرق خالص.. لكن وماله، الحمد لله انها جت على أد كده وماوصلتش ايديهم للجرن... ده كان فيه، كيس دقيق..."

كان الجو بالخارج بارداً. وكان عنبرنا دافئًا، من أنفاسنا، ومن حرارة الفحم، ومن بخار الماء المتصاعد من البراد. كان صوت المطر الشديد يترامى إلى السمع حينًا، وحينًا آخر صوت انفجار الرعد. كنا جالسين حول بعضنا البعض، كانت أجسادنا دافئة. كانت أجسادنا قد ارتخت، وعيوننا – التى راحت تمتلئ بالنوم رويداً رويداً – كانت مثبتة على فم رشيد الكبير.

"... شوية شوية بعدوا الأولاد. كلهم مشيوا. مشيوا من مدينة لمدينة ورا الشغل. من اتنين وعشرين واحد فضلنا تلاتة؛ أنا ومظفر واسكندر كنا ساعات بنروح مع نعمت خان، وساعات ما كناش بنروح، لما كان بيحتاج لنا كان بيبعت لنا مرسال يقول لنا إنه الليلة دى هايصطاد أسد، أو إن الديب هايهجم على القطيع، فاحنا كنا نفهم. كذا مرة هجمنا على مخزن الحبوب وكذا مرة على مخزن الهدوم... بس ربنا ما يوريكش حاجة وحشة، لما اسكندر انضرب بالرصاص كان بيئن زى البقرة، والدم كان بينزف من تحت باطه الشمال زى الحنفية.

كنا احنا مستقتلين، لكن نعمت خان كان زى الحجر. قال لنا ما تخافوش.

قال لنا انفدوا بعمركم. قال اسكندر خلاص راح مننا، انفدوا انتوا بعمركم..."

وارتسم الحزن على وجه رشيد، وتلون صوته بلون الحزن "كانت الدنيا ليل، كان اسود كحل، ما كانش فيه قمر، جرينا جسم اسكندر التى كان شبه حى وحطيناه ورا مبنى من المبانى... ما كناش نعرف مين الجبان، ابن الحرام اللى نشن دوغرى كده على قلبه فى الدنيا الظلمة

كده. حطينا اسكندر وجرينا على حفرة ورا المبانى. وضرب نعمت خان عيارين فى الهوا، وفضلنا فى مكاننا شوية. وكأن ما كانش فيه ولا بنى آدم يتجرأ انه ييجى ناحيتنا.

كانت سنانى بتخبط فى بعضها، ونفسى كان مولع. نعمت خان اتمدد على الأرض، فاتمددنا احنا كمان، وبعدين زحفنا... زحفنا أد أيه الله أعلم. متهيألى انهم كانوا فاكرين ان احنا مستخبيين فى الحفرة... كانوا خايفين من نعمت خان. كانوا خايفين زى الكلاب..."

زفر رشيد وكأن أنفاسه كانت مخنوقة فى حلقه "... ربنا ما يوريكوش حاجة وحشة... لما طلع النهار حطوا جثة اسكندر علشان الناس تتفرج عليها. كان طوله ذراعين، وشنبه عريض، وصدره واسع... وكانوا كاتبين حكايته كمان وحاطينها على صدره. كانوا كاتبين ان هى دى نهاية اللى يهجم على المخزن علشان يسرقه. وكانوا كاتبين ان نعمت خان فى يوم من الأيام ها يقع فى نفس الحالة دى. زى ما اكون خفت، اتفزعت. كانت الناس متجمعة حوالين اسكندر. كانوا حاطينه فى الساحة وقاعد جنبه عسكرى من الأغراب.

وكان فيه واحد معاه بندقيته كمان. كان بُقْ الاسكندر مفتوح، ولونه زى الجبس. سواد عينيه كان ضايع، والبياض خارج من عينه. كأنى خفت. كانت ايديه متنيين وواقعين على اجنابه..."

كانت يدا رشيد الطويلتان مثنيتين من عند ساعده تحت الرشاش الثقيل وكأنهما يدى اسكندر. وكانت علبة سجائر أبى بجوارى، وذقنى على ركبتى، وصوت رشيد يرن فى أذنى. والخط الأبيض يتلوى على ساعده الأسود كخيط الحرير. راح يقلب النار بالكماشة. كان الليل قد تجاوز المنتصف. وكان صوت رشيد يبعث النوم... نعمت خان قال لى: "يا رشيد ما تجيش معايا تانى. أنا متهيأ لى انت عرفت. وانت لسه ما اتكشفتش خالص. اشتغل..."

كنت ساعتها شارداً أفكر فى أن رشيد قد صار " مكشوفًا ". ذن فلقد اعتزل بعد نعمت وجاء ليكسب قوت زوجته وابنه وابيه الشيخ.

قلبت قطع الأخشاب المتوهجة، ثم رصصتها فوق بعضها، ورحت أحدث نفسى أن على أن أتذكر قامة ذلك الرجل الأصلع الذى كان واقفًا منذ ثلاثة أيام أمام رشيد، وقد رسمت البسمة خطوطها على وجنتيه، وقد وضع يديه القصيرتين فى خصره وقال:

– ها نشوف يا رشيد... زى ما تكون بتشتغل؟

كان الرجل قصيرًا وعريضًا وأصلع، وكان يلبس سروالاً قصيرًا ملونًا، وقد ربط على عنقه شالاً صوفيًا لازوردى اللون، قال وكأنه يغرس سكينًا فى قلب رشيد.

- أنا ما كنتش فاكر أبدًا إن واحد غفير ييجى عليه يوم يشتغل فواعلى.

ورشيد الذى كان صامتًا فى البداية، ثم عض على شفته السفلى، ثم أرغى وأزبد. وعندها رفع رأسه، وضغط بقبضته على يد الكوريك وقال من بين أسنانه:

- انت شايف... شايف انى باشتغل.

ثم هز الكوريك وقال:

- شايف الكوريك ده؟... شايفه؟...

انفجر الأصلع من كثرة الضحك، وراح يتلوى من كثرة الضحك، ثم أخفض صوته وقال:

- لكن يا رشيد، أنا لو كنت مكانك، ما كنش سبت نعمت خان لوحده أبدًا... أبدًا... خصوصًا لو وقعت فى محنة.

أما الآن فرشيد تحت الكوريك، وقد صار الجو مظلمًا والريح باردة تؤذى وجنتىَّ، وفى الليل حين كنا نجلس حول منقد النار كان الجو جميلاً، والشاى أيضًا كم كان جميلاً، والأحلى كان الإصغاء إلى قصة رشيد التى لا نهاية لها " كان نعمت خان معدى من قرق آباد، وهو شايل بندقيته على كتفه، ورابط الحزام، على وسطه، وجراب الطلقات نازل على صدره من الشمال واليمين..."

ها هو رشيد الآن يئن تحت ثقل الرشاش، والدنيا قد أظلمت والرياح الباردة تلسع وجنتىَّ، ما كان أحلاها من ليال عندما كنا نجلس حول راكية النار، والشاى، ما كان أحلاه من شاى والاستماع إلى حكاية رشيد التى لا تنتهى، وما أحلى ما كنت أستمع إليه عندما كان يقول "كان نعمت خان بيعدىَّ مرة من قرق آباد. وكان شايل بندقية على كتفه. ورابط الغدارة والطبيعة حوالين وسطه، وعلى صدره أحزمة الذخيرة والرصاص مدلية من الناحية اليمين والشمال...".

أما الآن حيث أجلس فى الكوخ الخشبى، فكأنى كنت أرى الليل وقد حل، وقبعت قرق آباد فى الوادى، والريح تسحب جسدها البارد على الأرض، والأكواخ مبعثرة والأشجار قد برزت من الأرض وحيدة هنا وهناك.

الآن، أرى "نعمت" وقد امتطى صهوة جواد قوى، يسوقه فى هدوء وماسورة بندقية تلمع فى بريق هارب، وعباءته فوق كتفه، ووقع أقدام الجواد، له صوت مألوف محبب.

كان "نعمت" يسوق جواده بين الغيطان، فيثير التراب ليستقر تحت حوافر جواده. وقد أخذت رقبة الجواد شكل القوس، بينما انتفش ذيله مرفوعًا، وقفاه العريض يلمع فى الظلام. ابتعد عن الغيطان وقاد جواده صوب "قرق آباد". بدا القمر وكأنه قد تلون بلون الدم. بينما تماوجت نعومة ظلمة القرية بصوت همهمة كلب. وبعدها تعالى عواء ونباح كلاب أخرى. وتلى ذلك صوت الثعالب الجائعة يترامى من بعيد. وكانت "قرق آباد" تغط فى نوم عميق ثقيل، وبدت وكأنها قد تجمدت من البرودة.

عبر "نعمت" ميدان القرية الكبير، وقاد جواده صوب حارة ضيقة، وتقدم بلفتين بسيطتين إلى جوار سور حجرى قصير، فوق السور، تشابكت أغصان الشجر الجافة. شد "نعمت" لجام جواده وأوقفه، ومن بين الأغصان والأفرع الرفيعة المتشابكة نظر إلى داخل الفناء. كانت نهايات أفرع أغصان شجر الليمون الكثيفة الجافة قد تداخلت فى بعضها البعض، بينما أشجار الليمون تقف إلى جانب بعضها فى أحواض صغيرة غمرها الماء.

نادى "نعمت" بصوت خافت:

– هيه... هيه... هيه... يا مندل.

حيث رفع كلب من ركن فى الفناء رأسه، وعوى.

نادى "نعمت" مرة أخرى:

– هيه... هيه... هيه... يا مندل.

فنهض الكلب من مكانه وأخذ يلف المكان.

من خلف أشجار الليمون جاء صوت باب ينفتح. وبعده ظهر صوت "مندل"، وها هو "مندل" الآن، ومعه فانوس بخَّارى، يظهر ويختفى خلف الأشجار.

– تعالى يا مندل افتح لى الباب.

كان صوت "مندل" يخالطه النعاس.

– أنا جاى أهه يا "نعمت خان"، أنا جاى...

سحب "نعمت" لجام جواده وأداره وقاده ناحية الباب الكبير للبيت. قال "مندل":

- خير إن شاء الله يا "نعمت خان".

نزل نعمت من فوق جواده. وأخذ الجواد تحت مظلة وربط لجامه فى خية أمام طويلة العلف.

- "مندل" حط شوية تبن للحصان ده. عشان أنا يمكن أمشى بعد نص ساعة.

رفع "مندل" الفانوس ونظر داخل الطويلة.

- عينيه يا "نعمت خان"... بس إنت جاى منين فى الوقت ده من الليل؟...

كان الجو باردًا، والقرية نائمة. والكلب يسحب أقدامه على الأرض، ويتشمم بأنفه فى مقدمة نعل "نعمت".

أزاح "مندل" حزمة من أعواد "عباد الشمس" من أمام "نعمت" وقال له:

- من الناحية دى يا نعمت خان، اتفضل!

وضع الكلب ذيله بين رجليه. وأخذ يدور حول "نعمت" ويزوم فى هدوء.

قال "نعمت":

- أنا هاكل لى لقمة وأمشى.

قال "مندل":

- فى الوقت ده من الليل؟

قال "نعمت":

- يمكن برضو أنام لى شوية.

علا صوت قرع على باب البيت. توقف نعمت عند عتبة باب الغرفة، ونظر إلى عينى "مندل".

- تفتكر يكون مين؟

- ما اعرفش والله.

وفتح باب الغرفة.

كان بداخل الغرفة مصباح كيروسين مشتعل له قاعدة مرتفعة، إتكأ "نعمت" على فرشة نوم مطوية وملفوفة ومدد ساقيه. ألقى "مندل" بقطع حطب جافة فى المدفأة.

ومرة أخرى عاد صوت قرع الباب.

قال "نعمت":

- روح يا مندل شوف مين.. وسيب لى الدفاية أنا هاأولعها.

ونهض وجلس على كعبيه أمام المدفأة، وأثناء قيامه بإشعال المدفأة، ذهب "مندل" وعاد وفى رفقته جاره الساكن فى البيت المواجه لبيته.

- ده "كل مراد" يا نعمت خان... شافك من ورا السور لما جيت، فجه عشان يسلم عليك.

كان الكلب قد أقعى أمام عتبة باب الغرفة، ألقى "كامل مراد" بالتحية وسلم وجلس. إتكأ "نعمت" على الفرشة المطوية. خرج "مندل" من الغرفة، دخلت زوجة "مندل" إلى الغرفة وأخذت تسأل "نعمت" عن أحوال زوجته وابنه.

- تعيشى يا أختى... الحمد لله أحوالهم طيبة.

عاد صوت الدق على باب البيت من جديد، وأثناء قيام "مندل" بذبح الدجاج وانشغال زوجته فى نتف الريش وتنظيف الدجاج وإشعال النار، كان أهل القرية قد ملأوا الغرفة حول "نعمت" واختلط الجميع معه فى أحاديث وحكايات عن الشباب الذين حلوا كل ما يكون من حطام الدنيا ورحلوا إلى المدن بحثًا عن عمل يتقوتون من أجره. عن السيل الذى اجتاحهم فى غير موعده وأغرق الأراضى وأفسد البذور. عن الفقر والعوز والحاجة وضيق ذات اليد. عن الصقيع والبرودة المبكرة عن موعدها التى فاجأتهم فى منتصف الخريف وعن مساعدات "نعمت خان" التى كانت تنقذهم بين الحين والأخرى.

كان "نعمت" قد أسند بندقيته إلى الحائط، ووضع الطبنجة والغدّارة إلى جانبه، بينما كان حذاؤه ذو الرقبة لا يزال فى قدميه. وكان الدخان قد ملأ جنبات الغرفة، والكلب لا يزال جالسًا على عتبة بابها وعظام الدجاج يصدر أصوات التكسير تحت أسنانه، والشاى يغلى فى البراد الكبير، وفجأة ترك الكلب العظام وانتفض على قوائمه وزمجر والتف حول نفسه، ثم عوى وقفز من أمام عتبة الغرفة إلى فناء البيت.

قام "نعمت" نصف قومه، وربط الطبنجة والغدارة إلى وسطه، وألقى بعباءته على كتفه، وأخذ البندقية في يده وقام منتصباً على قدميه، وعبأ البندقية بالذخيرة، وأخذ يتفحص وجوه الحاضرين بنظراته الحادة الثاقبة.

كان نور مصباح الكيروسين قد ألقى بضوئه على وجوه الحاضرين.

سحب "نعمت" أنفاسه بصوت عال ونظر بحدة ناحية باب الغرفة.

أفسح القرويون وانسحبوا متدافعين على بعضهم البعض. وإذا بصوت رجل ينفجر بغلظة في فناء البيت:

- ولا حركة يا نعمت. البيت كله محاصر من جميع الجهات.

انقبضت أسارير وجه "نعمت" وقطب جبينه وضغط على أسنانه، وبدت حركة فكيه تظهر بشدة تحت الجلد وصاح مزمجراً من بين أسنانه المقفلة.

- مين الجبان اللى بلَّغ؟

ومشى متباطئًا صوب باب الغرفة. ونظر في الفناء. كان القمر قد ارتفع في السماء، وارتسمت صورة أفرع أشجار الليمون وأغصانها الجافة على الأرض. ثم عاد صوت الرجل من جديد.

- مكانك يا نعمت، ما تتحركش، أقف مكانك وإلا هاافجر دماغك.

وقف "نعمت" على أعتاب باب الغرفة، وأخرج الكلمات مثل طلقات الرصاص من عمق حلقه وحنجرته.

- الجبان!... أنا باخدم مجموعة من الجياع... أنتوا بقى بتخدموا مين؟... هه؟... بتخدموا السلطة والقوة؟... بتخدموا القوة الأجنبية؟ اتفوه!...

وعاد صوت الرجل مرة أخرى في ارتعاشه واضحة.

- إرمى بندقيتك يا "نعمت".

تقدم "نعمت" إلى الأمام. وخرج أهل القرية من الغرفة وتراجعوا منسحبين من جانب الحائط حتى أحواض الأرض الجدباء المحيطة بأشجار الليمون.

لم يهدأ الكلب ولم يستقر له قرار وأخذ يجرى فى أنحاء الفناء. ينبح ويعوى ويقفز. وأحيانًا ينبح ويجرى إلى ناحية الرجل الذى كان مصوبًا بندقيته من وراء عشة الدجاج نحو "نعمت".

– قلت إرمى بندقيتك يا نعمت.

وضع "نعمت" بندقيته بهدوء على الأرض.

– حط إيديك فوق رأسك.

وارتفعت يدا "نعمت" إلى أعلى، ووضع كفى يديه فوق رأسه.

خرج الرجل من خلف عشة الدجاج.

– معاك أسلحة أيه تانى؟

– ما إنت شايف أهه... ما كانش فيه غير البندقية.

تقدم "نعمت" إلى الأمام ببطأ حتى لم تعد تفصله أى مسافة عن الرجل الذى كانت ذقنه مدببة ووجناته تبرز عظامها، وقامته طويلة وكان قد انحنى على البندقية ليلتقطها، بحيث كان فى مقدور نعمت أن يقفز ويخطف بندقيته و... حيث عاد صوت الرجل مرة أخرى يقول:

– ارفع عبايتك دى، ورينى.

وعندما نزلت يدا "نعمت" وذهبت إلى طرف العباءة، وقبل أن تقع عينا الرجل على الغدارة التى كانت مربوطة فى خاصرة "نعمت"، رفع "نعمت" ماسورة بندقية الرجل مع طرف عباءته وقبل أن يتحرك الرجل كان قد أصبح أسيرًا فى يد "نعمت" الذى هز صوته الفضاء مثل المدفع عندما قال:

– هيه يا جبنا.. ارموا بنادقكم وأسلحتكم. الجبان ده أهه أسير تحت إيدى دلوقتى... إذا اطلقتم نار أنا هاقتله فى الحال.

وضغط بفوهة ماسورة الطبنجة الطويلة فى وسطه، وسحبه معه إلى أسفل المظلة.

– مندل! هات لى بندقيتى.

كان الكلب يعوى. وتقدم القرويون إلى الأمام، وأحضر "مندل" البندقية.

– فك حصانى.

و... كانت الحرارة تملأ جو العنبر. بينما كانت عينا رشيد تلمعان، كأن الدموع قد استقرت فى مآقيه وبلغ به التأثر مداه. أخذ صوته يتهدج ويرتعش. صب "موسى" الشاى، وكانت الأمطار تضرب سقف العنبر. ويتداخل معها صوت القاطرة التى كانت تناور لتتحرك. كانت أقدامى قد تراخت. بينما استقر رماد النار فوق الراكية، وكنت قد سحبت البطانية حتى أسفل ذقني، بينما كانت نظرتي - التي لم تتحرك - قد تعلقت بفم "رشيد" الكبير وهو يقول: ".... وفجأة حدث شيء مضحك..." وارتسمت ابتسامة حول شفتي "رشيد"، "... كانوا اتنين فقط من الغفر، ولما التانى فيهم وعرف إن الأولانى وقع أسير فى إيد "نعمت" قال يا فكيك. وقام "نعمت" فاكك خزنة الذخيرة من بندقية الراجل الخسيس وقام واخد حزام الذخيرة بتاعه كله، ورمى بندقيته على صدره وهو مرمى على الأرض، ونط هوه فوق حصانه وفتح بحصانه على المرج والصحراء..."

وصلت إلى أنفى رائحة احتراق شئ ما. رائحة قماش يحترق تحركت. كان طرف بالطو أبى قد تمدد على الأرض، ولامس طرف الراكية وطالته النار، أطفأته. وكان أبى يأتى من بعيد. وكانت الحراسة على "رشيد" قد تبدلت. وبدأت الأمطار تهطل بغزارة وأخذت تدق بضرباتها فوق الأرض الخضراء وفوق الهضبة المخروطية على أطراف المدينة وفوق معسكر الجنود وفى فناء وساحة ألواح خشب الأبلاكاش.

ومن بين خيوط المطر الكثيفة شاهدت يدى "رشيد" وقد انحنتا تحت ثقل الرشاش. وسمعت صيحة الحارس التى تداخلت مع أصوات المطر المنهمر. رفع الرشاش من فوق يدى رشيد، فانثنى نصفه الأعلى فوق حافة الحفرة بينما ملأت مياه الأمطار التى تحولت إلى سيول، كل الحفرة المحيطة بجسده.

ولما تولى الليل، لم يكن "رشيد" قد أطلق سراحه بعد.

وفى العصر، كنا قد سمعنا أنهم قاموا بتسليمه، سمعنا أنهم ربطوا يديه بالكلبشات الحديدية ودفعوا به داخل عربة چيب وتوجهوا به فى طريق المدينة.

كان الليل باردًا، وأصوات القاطرات التى تناور تبعد أحيانًا وأحيانًا تقترب. قام "موسى" بسد فتحات الباب بأوراق أكياس الأسمنت وبالقار والزفت. وصار الجو فى الغرفة ثقيلاً والهواء راكدًا.

ولما انتهى أبى من صلاته، أخذه النوم، وكذلك نحن جميعًا عندما أنهينا صلاتنا تمدد كل منا فى فرشته دون أن نفتح فمنا بكلمة. وظللنا ننظر إلى السقف حتى منتصف الليل حيث كان انعكاس نيران الراكية الهادئة قد حول السقف إلى اللون الأحمر. وكنا نستمع إلى صوت المطر الذى كان يشتد أحيانًا ويخفت أحيانًا أخرى، وأحيانًا كان يسكت تمامًا.

وعندما حل الصباح، كان الجو قد تحسن، فالسماء التى أمطرت جميع غيومها طوال الليل، أصبحت صافية تمامًا وصار لونها أزرق صافيًا. كانت رائحة الربيع تهب علينا. رائحة الحشائش البرية، رائحة الجبال ورائحة النهر المنهمر بمائه. ولما أشرقت الشمس كان الوادى الأخضر بلونه الداكن والقابع تحت سلسلة الجبل الشمالى العالية، قد تمدد بالخضرة إلى مسافات بعيدة، كانت الخضرة تبدو بلون محبب للنفس، بينما صارت تشققات الجبل فى لون بنى جميل. كانت الأمطار قد غسلت كل شىء. الأسقف، حوائط الأكواخ، مبانى العسكريين الحجرية وكذلك الطريق الأسفلتى الذى يبدأ من باب المعسكر ويمتد حتى الهضبة المخروطية القابعة على أطراف المدينة وكأنه قد أبعد هذه الهضبة حتى اختفت.

أما داخل فناء ألواح خشب الأبلاكاش، فقد كان كل شىء هادئًا. كان الجنود الأجانب قد خرجوا من الفناء، وكان المطر قد جرف التراب والرمل من حول الحفر وامتلأت الحفر بالمياه.

أخذ العمال معاولهم ومناشيرهم وفؤوسهم، وانتشروا داخل الفناء أعطانى أبى معطفه وعلبة دخانه وطلب منى أن أجلس فى الكوخ وألفَّ له السجائر.

خرجت دورية عسكرية بأقدامها الثقيلة من باب المعسكر. وتغيرت النوبتجية فى أماكن الحراسة. ارتدى الجنود الذين كانوا نصف عرايا قمصانهم وحملوا بنادقهم على أكتافهم. ووقفوا معًا وذهبوا فى اتجاه عنبرهم.

كانت الشمس قد أشرقت لتوها. تلمع بلون الذهب المصقول، وقد استقرت فى زرقة السماء، ويا له من ضياء ولمعان كانت تبعث به.

عندما لففت السيجارة الأولى، رأيت سيارة جيب زيتية اللون تأتى نحونا قادمة من أسفل الهضبة المخروطية. وكان زجاج مقدمة السيارة يعكس أحيانًا نور الشمس فيبرق ثم يختفى.

وصلت الجيب، وبلفة ودورة سريعة دخلت إلى المعسكر ووقفت أمام المبنى الرمادى اللون حيث مكتب قائد المعسكر وقفز منها رجل بسرعة ودخل إلى مكتب القائد.

بعدها بقليل، حيث كنت لم أنته بعد من لف السيجارة العاشرة. تناقلت الأفواه اسم نعمت حيث ملأت كلمة نعمت المكان كله وانتقلت من فم إلى فم وملأت المكان وانتشرت فيه مثلما تنتشر رائحة الورود مع هبوب النسيم أو مثلما تنتشر الشمس بأشعتها فى كل مكان عندما تشرق. تهدلت الأيدى والسواعد وتوقفت المعاول عن العمل، وألقى العمال أدواتهم دون أن يتكلموا بكلمة واحدة. وأخذوا يخرجون واحداً واحداً ومثنى مثنى من فناء ألواح خشب الأبلاكاش، وأثناء مجئ أبى ليأخذ علبة دخانه وسجائره كان العمال قد بدأوا مسيرهم على طوال الطريق الأسفلتى متوجهين إلى ناحية المدينة.

جاء أبى، كان الغضب والأسى قد سد حلقه.

- قوم يا بنى... قوم نمشى من هنا.

- نروح فين؟

- نروح نشوف نعمت... واجب علينا نشوف الراجل ده.

ظل فمى مفتوحاً فاغراً.

- نعمت؟

ارتدى معطفه وبدأ يمشى.

- فينه؟... فينه يابا؟

وقف. لف حولى طرف معطفه وأمسك بيدى.

- فى الميدان يا بنى... ميدان المدينة.

خرجنا من باب الفناء، وعلى طرف الطريق الأسفلتى حيث كانت آثار أقدام العمال قد لوثته بالطين سرنا إلى ناحية المدينة.

وحيث كان أبى وكأنه فقد القدرة على الكلام، وأثقل قلبى بالحزن، لحق بنا "موسى".

- سمعتوا؟

بعده، جاء "نبى"، ثم "على رضا".

سحبت رأسى من تحت طرف المعطف، قال "موسى"!

- لما كـان رايح "مام زرد" عشان يشـوف مراته وابنـه قطع عليـه خمسـين نفر من غفر الحكومة.

قال أبى:

- خمسين نفر؟

قال "فولاد":

- قتل عشرة منهم.

لسعت الريح الباردة وجنتيَّ. كنت أتمنى أن أكون جالساً أمام راكية النار، ويكون "رشيد" قد أخذ جلسته ليحكى عن "نعمت".

قال "نبى":

- كانوا بيضربوه بالنار فى بطنه.

قال "أبى":

- الجبنا.. ولاد الحرام.

قال "على رضا":

- ده قدر ينط من فوق حصانه، ويسحف لغاية حفرة عجن الطوب وكان ماسك بندقيته فى إيده.

قال "موسى":

- بس، هوه ما كانش فيه حد قادر يحركه من مكانه؟

قال "أبى":

- بالبساطة دى؟

قال "فولاد":

- ما أنا قلت إنه قتل عشرة منهم.

وصلنا عند الهضبة المخروطية. كان الطريق الأسفلتى منحدراً. كنت أعرف أن أسفل الطريق كان يمتد - بعد عدة منعطفات - حتى يصل إلى طرف الجسر، وكنت أعرف أن هذا الطريق يلتقى عند نهايته بمدق يوصل إلى بعض القرى.

نظرت من أعلى. كانت مجموعات من العمال والفلاحين والقرويين تسير على منعطفات الطريق متوجهة إلى طرف الجسر. وعلى أكتافهم عباءاتهم وقد غطوا رؤوسهم وآذانهم بالمناديل والشيلان الصوف وأغطية الرؤوس الشتوية.

عندما وصلنا إلى المنعطف الأول، قال "موسى".

- فى الفجر، وفى أول الصبح، قام واحد من الكلاب اللى نجيوا من إيده، وخدته الجرأة وسحف فى خط من الغيطان المحروثة لغاية ما وصل لحفرة قمينة الطوب.

قال أبى:

- كويس.

قال "موسى":

- وشاف "نعمت" متمدد جنب طرف الحفرة، والبندقية فى إيده ماسكها ومتبت فيها، والدم من تحت بطنه مغرق الدنيا ومخليها حمرا لغاية أرضية الحفرة...

صرخ أبى:

- الجبنا... ولاد الحرام.

قال "نبى":

- وبقى زى ما يكون حتة خشبة ناشفة.

قال "على رضا":

- البرودة نشفته.

قال "أبى":

- بالسهولة دى؟

أكمل "موسى":

- ... ولما جه الجبان يتجرأ ويقوم على حيله عشان ينادى الجبنا التانيين، قام حصان "نعمت" اللى كان واقف من غير حركة فى الحفرة صهل صهلة شديدة وشب على رجليه وفضل يضرب بإيديه ناحية الجبان ده، ومن خوفه صوب بندقيته للحصان الغلبان وشقت الرصاصة صدره.

وصلنا للجسر. فوق الجسر كان الزحام شديداً. ولا مكان لموضع قدم. كان النهر يجرى منهمراً هادراً، ويضرب بمياهه المندفعة قواعد الجسر الأسمنتية، لتنشق المياه فى تدفق وتهجم على الفتحات الموجودة تحت الجسر.

أحسست بدوار فى رأسى. فحولت نظرى عن المياه تداخلت الكلمات فى بعضها.

- حصانه قتل اتنين منهم.

- بيقولوا ان "مظفر" كان معاه كمان.

- لأ... ده كان لوحده.

- بس امبارح كانت الليه ضلمة جداً... إزاى ضربوه فى الضلمة دى؟

- كان راجل!

- الجبنا، ولاد الحرام!

- أنا لما سمعت الخبر قعدت أبكى.

- أنا لسه مش مصدق الكلام ده.

- لسه عندى الهدوم اللى إداها لى.

خرجت من تحت طرف المعطف. كانت يدى لا تزال فى يد أبى. عبرنا الجسر فى صحبة الجماعة حتى وصلنا إلى طرف الميدان. كدت أن أدهس تحت الأقدام، لكن أبى أمسك بيدى وساعدنىً ورفعنى إلى أعلى فى خفة، وجلست فوق كتفه.

كانت أطراف الشوارع تدفع بموجات من الناس من الأطراف الستة وتقذف بهم إلى الميدان.

قال أبى:

- إنت شايف أيه قدامك؟

رفعت نفسى قليلاً فوق كتفه، وتطاولت بعنقى.

- قول... قول انت شايف إيه؟

قلت:

- الغفر يا بويا... أنا شايف غفر ماسكين بنادقهم.

قال:

- غفر بالبنادق؟

جمع قواه ودفع الجمع وفرق بين المتلاحمين وتقدم للأمام. وفجأة صدرت منى صرخة وشببت فوق كتف أبى.

- ها... يا بنى شايف إيه؟

قلت:

- الغفر بالبنادق متحلقين حوالين جثة "نعمت" داير ما يدور.

ضغط رجل كان يقف إلى جوار أبى على قدمى وقال:

- جثة "نعمت"؟

قال أبى:

- قول... قول فيه إيه تانى؟

قلت:

- حطوا لوحين خشب تحت باطه...

قال أحدهم:

- إيه تانى؟

قلت:

- رافعينه وماسكينه واقف على رجليه.

قال أبى:

- أيه اللى حصل؟

قلت:

- أبويا! دول عمالين يصبوا عليه جبس.

انكتم الصوت فى حلق أبى:

- جبس؟

- أيوه يا بويا... وصل الجبس لغاية ركبه.

عندها أخذ أبى يدفع بكتفه الجمع من حوله ويتدافع إلى الأمام، ويعود مدفوعًا إلى الخلف.

وكان صوت أبى الذى قال:

- قول... قول.

قلت:

- أقول إيه بس يا بويا؟

قال:

- أوصف لى شكله ورسمه وجسمه.

كان صوتى يرتعد وأنا أقول:

- كتافه عريضة يا بويا... وذقنه زى ما يكون منحوته من الحجر.

- قول... احكى، أوصف.

- ما ينفعش حد يبص لعينيه، ولا يقدر يشوفها.

وإذا بصوت رجل لم أكن أعرفه يقول:

- ليه! هو عينيه مفتوحة؟

- دى خارجة لبرَه.

تدافع الجمع من ورائنا. فدفع أبى إلى الأمام، الآن وصل الجبس إلى منتصف قامة "نعمت". هجم الغفر ببنادقهم على الناس المحتشدة وأخذوا يدفعون الجموع المحتشدة إلى الخلف، تراجع أبى. وإذا بصوته الحزين يقول:

- قول يا بنى... قول... اوصف لى الراجل شكله إيه؟

سأل أحدهم:

- هو صحيح الرصاص مضروب فى بطنه؟

وقال أبى:

- إنت ليه سكت يا بنى؟

كان البكاء قد انحبس فى حلقى.

- إيه اللى حصل يا بنى قول؟

قلت:

- أبى... ما عدش باين خلاص، مش شايفه.

- مش شايفه! يعنى إيه؟

- دلوقتى يا بويا فيه عمود من الجبس واقف فى النص بس... عمود جبس...

تراخت قوى أبى وتراجع للخلف، وإلى أن انفصل عن الجموع المحتشدة وابتعد عنها، كانت كتلة من السحاب قد وصلت فوقنا وأظلمت السماء وبدأ المطر يتساقط فى هدوء ونعومة.

* * *

سماء "دز" الصافية

قال "بمان":

- تا... تا... تا... تانى الل... الل... الليل جه.

كانت الشمس تهبط لتغيب وراء قمم النخيل الكثيف. وقد ألقت بأشعة أرجوانية اللون على أطراف أغصانه المشوقة وعلى رؤوس الحراب المشرعة من سعف نخل البلح، ولونت صفحة السماء الرمادية الكئيبة بلون الدم القانى.

تلاشت الأشعة فى النخيل الكثيف. واختفت خلف الأرض الجدباء. وأخذت العتمة تسرى فى أرجاء المكان، فقد وصل الغروب بكل أحزانه وآلامه وعذاباته.

وصل "قاصد" إلى البيت على صوت احتكاك نعليه على الأرض، وفى يده لفافة صغيرة. وقف فى مدخل الدهليز. وأجال عينيه الواسعتين، اللتين بدتا كأنهما مذعورتان وخائفتان بياضهما المصفر وسوادهما الباهت داخل محجنيهما الكبيرين البارزين. وصل مدى نظرة "قاصد" حتى حافة الحوض الكبير الذى توسط فناء البيت، بدا الفناء معتمًا وبدت فى العتمة حركة خفيفة كان مصدرها تلك الإضاءة الباهتة التى تبعثها الفوانيس فى ومضات متفرقة أمام حجرات البيت.

سحب "قاصد" نفسًا عميقًا ومسح عرق جبينه بطرف قميصه، وتقدم يرافقه صوت سحب نعليه على الأرض، ودخل غرفة معتمة وأشعل الفانوس بداخلها.

كانت ساحة الفناء كلها مرشوشة بالماء وقد بسطت الأكلمة وفرش اللباد والحصير، وعليها جلس الرجال فى جماعات متفرقة هنا وهناك متحلقين حول الفوانيس، يتجاذبون أطراف الحديث.

خرج "قاصد" من الغرفة. وأمام الغرفة جلس على كعبيه، وبنصفى قالب طوب بدأ يجهز موقد النار، حيث ألقى بقطع الفحم الصغيرة فى هذا الموقد، وصب عليها قليلاً من الكيروسين وأشعل الكبريت وبدأت النار تشتعل.

جذب اشتعال النار انتباه الجميع إليه.

كان "ياقوت" كعادته كل مساء قد جلس القرفصاء فوق عتبة باب الغرفة وأخذ ينحت بمطواته ويشذب في جريدة من سعف النخيل، ويلقى سمعه للعبارات والكلمات التى كانت تقال.

- "قاصد" عايز يعمل إيه؟

- فى الجو الحر ده، بيولع نار عشان إيه؟

- ده زى ما يكون اتخبط فى دماغه.

- أصلاً.. عى.. عى.. عى... عينيه.. شى.. شى.. شكلها.. غـ.. غـ... غريب.

دخل "قاصد" غرفته وأحضر صينية صفيح يلفحها الصدأ، ووضعها إلى جانب الموقد.

خمدت شعل النار، واستقرت النار مشتعلة فى أنصاف قطع الفحم الصغيرة وأخذ الدخان يتصاعد منها.

انتشرت الظلمة، وغطت المدينة طبقة تشبه الضباب الخفيف واختلطت الرائحة النفاذة لبسر البلح الطالع لتوه برائحة الغبار المشبع بالرطوبة.

بدت النجوم قليلة، متفرقة فى صفحة السماء، وبدت معتمة متكدرة خلف ستار الضباب، تظهر على استحياء وانكسار.

فتح "قاصد" لفافة ورق الجرائد. وأخرج من بين طياتها قطعة من كبد الضأن فى حجم كف يد كبيرة، وألقى بها فى الصينية. تصاعد دخان النار إلى عينى "قاصد". وسال ماء أنفه. فمسح أنفه بطرف قميصه ثم مسح عرق جبينه، ومسح كذلك الدموع من عينيه. ثم أخذ ينظر حوله. ولما وقعت عيناه على وجه "ياقوت" قال بصوت خافت.

- ياقوت! إدينى الجريدة دى أعمل منها سيخ للشوى.

تقلقل "ياقوت" من مكانه، وزحف بنصف قومة صوب "قاصد" ودون أن ينطق بكلمة، مد يده بالجريدة.

عاد "قاصد" يتحدث بصوت خافت:

- كويس، إدينى مطوتك دى برضو.

وهنا تحركت رأس "ياقوت" الصغيرة، ومط خطمه الذى يشبه خطم سمكة القرش.

- المطواة، لا يا قاصد... دى أنا مافرطش فيها... ماسيبهاش فى إيد حد أبداً.

بقيت عينا "قاصد" على نصل المطواة دون حراك. كانت المطواة لا تزال فى يد "ياقوت" بينما بدت نظرة "قاصد" متعبة مستكينة مسالمة.

- بس... أنا... مش ها اعمل حاجة فى مطوتك يا ياقوت.

وهنا تحرك فك "ياقوت" الكبير تصاحبه حركة ذقنه.

- المطواة دى سلاحى يا قاصد. ما اسيبوش فى إيد أى بنى آدم.

سكت "قاصد" ونظر إلى قطعة الكبد التى كانت ملقاة على صفحة الصينية. ثم نظر لقطع الفحم المتجمر الذى بدأ يخبو. ثم عاد ليهمس.

- أنا عارف ده يا ياقوت... عارف إنها مطوتك وسلاحك...

رفع "ياقوت" صوته.

- قلت مش هاديهالك... مش هاسيبها من إيدى...

اشرأب "قاصد" بعنقه. فبدت التفاحة البارزة فى حلقه وهى تعلو وتنخفض.

- طب خد إنت عصاية الجريد وإعمل لى منها سيخين.

وألقى بالجريدة أمام قدمى "ياقوت"، وأخذ "ياقوت" الجريدة وقلمها وشذبها وبراها وقطعها إلى نصفين.

دفع "قاصد" بالصينية الصفيح إلى ناحية "ياقوت" وقال له فى صوت خافت:

- دلوقتى إنت عملت السيخين، خد بقى قطّع الكبد ده حتت صغيرة.

- لا... ده بقى لأ...

ومد يده بالسيخين إلى "ياقوت".

- .... مطوتى تتوسخ.

فرش "قاصد" الفحم المجمر وهو يتكلم، وكأنه يحادث نفسه.

- قطّعها حتت يا ياقوت... هادى لك منها.

تقدم "ياقوت" زاحفًا على مقعدته وتعامل مع قطعة الكبد، ثم بعد أن أنهى عمله، انتصب واقفًا، ومشى وهو لا يزال رافعًا كتفيه تبرمًا وملأ الإبريق من برميل الماء وجلس على حافة الحوض وغسل المطواة ونظفها بطرف قميصه، وعاد ليجلس القرفصاء في مواجهة "قاصد" مبتعدًا قليلاً عن الكانون.

قام "قاصد" بتسييخ قطع الكبد الصغيرة في السيخ. كان العرق قد تفصد على جبهة "قاصد" كما طال البلل رقبته وظهره، وقد تحولت نظرته – التي لم تكن قد رأت المكان بعد – صوب ومضات الفوانيس الخافتة الباهتة، بينما كانت نظرات الرجال الآخرين الذين جلسوا في مجموعات أمام الغرف تتجه صوب الشرر الأحمر الذى كان يتطاير من داخل الكانون ويفرقع في الظلام وينطفئ، ويعود شرر آخر ليتطاير ويرتفع.

كان المساء هو وقت جلوس الرجال إلى بعضهم البعض، كان وقت تجاذب أطراف الحديث، والوقت الذى يخرج فيه البعض عن شعورهم فجأة وتتعالى أصواتهم.

– طب هوه معلوم مين اللى بيعملوا كده فى البلد؟

– طب هوه معلوم حتى هدفهم إيه من اللى بيعملوه ده فى المخروبة دى عشان يجيبوا سيرتها على كل لسان؟

وأحيانًا يفرغ أحدهم ما يحس به من مرارة في قلبه، نتيجة لما عاناه من هزيمة وانكسار وعجز، من جوع وتشرد، وتفكيره في كل ذلك عندما يخلو إلى نفسه.

– يا أخى... لو كنت أنا وأنت وهو ما شيلناش حاجاتنا فوق كتافنا وما سمعناش الكلام الفارغ اللى بيقوله أى شخص عشان نرحل فى المخروبة دى، لو كنت أنا وأنت وهوه قعدنا وفكرنا فى حالنا وأحوالنا وما رميناش نفسنا للمجهول ده، وما سيبناش بيوتنا اللى كنا عايشين فيها تخرب، ما كانش عمال البنا وعمال التراحيل كتروا فى المخروبة دى بالشكل ده، عشان ييجوا همه ويلاقوا قدامهم عمال كتير كده وصنايعية كمان وبأى أجرة همه يحددوها.

تصاعدت روائح الكبد المشوى من فوق الكانون، وتماوجت فى بطء مع الهواء الساخن بين الحوائط الأربعة، وملأت الفناء كله. ماتت الكلمات فى الحناجر وثقلت الشفاة على الأفواه، واستدارت الرؤوس فوق الأكتاف، وشق مرور النظرات فراغ الفناء شبه المعتم واستقر فوق الكانون.

رفع "قاصد" سيخ الكبد المشوى من فوق الكانون، وأخذ يضع قطع الكبد نصف المشوية ساخنة فى فمه، وأخذ يلوكها ويمضغها بين أسنانه. تجمع لعاب "ياقوت" داخل فرا غ فمه. زحف إلى الأمام على كعبى قدمه، وأخذت نظرته تتابع يد "قاصد" وهى تتحرك من فمه إلى سيخ الكبد، ومن سيخ الكبد إلى فمه.

تلمظ "ياقوت" شفتيه بلسانه، وقال وهو يزوم.

– أمال فين حق مطوتى؟

رد "قاصد" بصوت خافت متقطع وبكلمات ممضوغة:

– طب اصبر... دلوقتى هاادى لك... اصبر شوية بقى...

ولم تكن نهاية كلمات "قاصد" قد خرجت من فمه بعد، حيث رأى "الأسطى موسم" بقامته الطويلة وقد وقف فوق رأسه، وعيناه العجوزتان اللتان تشبهان عينى فيل قد تسمرتا على وجهه دون حراك.

– انت بتعمل كده ليه يا قاصد؟

تحركت لحية "الأسطى موسم" البيضاء الصغيرة، وأخرج الكلمات من بين شفتيه العجوزتين، فى شدة الصخر الصلد وفى ثقل الرصاص.

– قاصد! هو أنت مش عارف إن مافيش حد فينا لاقى حاجة ياكلها هنا؟... هو أنت مش شايف ده، فى البيت اللى احنا قاعدين فيه ده.. إنت ما بتشوفش؟

توقفت قطعة كبد نصف ممضوغة فى فم "قاصد" وانخفضت يده عن فمه فى تثاقل، واستقرت نظرته على جمرات النار، وطأطأ برأسه وقال:

– طب هوه أنا كمان لاقى حاجة آكلها يا أسطى موسم؟

زحف ياقوت إلى الأمام وقال فى غمغمة:

– إدينى حق مطوتى.

شد "الأسطى موسم" ظهره وقال:

– طب لما انت مش لاقى تاكل، إيه اللى بتعمله ده...

تراجع "قاصد" من أمام "ياقوت"، ورفع رأسه، ونظر إلى وجنتى الأسطى موسم البارزتين:

– شوف بقى يا أسطى موسم، أنا نظرى عمال يروح منى شوية بشوية، بيقولوا إن الكبد المشوى ودخان الكبد المشوى فيهم فايدة ليا. أنا حتى دلوقتى مش قادر أشوف وشك كويس... أنت نفسك عارف إن مفيش فلوس معايا حتى عشان أدفع ثلاثة تومانات فى الكبد ده. أنا بعت جزمتى يا أسطى موسم. أنا عينيا ما بقتش بتشوف حاجة خالص بالليل.

سحب الأسطى موسم نفسًا عميقًا:

– طب يا حبيبى كنت تعمل الكلام ده بره... كنت شويت الكبد ده وسط النخيل برّه الـ...

امتدت يد "ياقوت" صوب سيخ الكبد، فسحب "قاصد" السيخ بسرعة وتراجع للخف على كعبيه، تعالى صوت "ياقوت" كان صوته غليظًا وخرج دفقة واحدة، دون تباطؤ.

– زى ما تكون مش عايز تدينى حق ما استعملت مطوتى؟

تحركت قامة الأسطى موسم الطويلة، وجالت عينا "قاصد" الواسعتان فى محجنيهما.

– طب بس استنى شوية.

صاح "ياقوت":

– لغاية لما تطفحهم كلهم يعنى؟

نهض "قاصد" واقفًا. وأخذت نظرته تتابع شبح الأسطى موسم الذى أخذ الآن يدور بأقدامه المفلطحة حول الحوض وسط الفناء. وأثناء اختفاء شبح الأسطى موسم عن مدى رؤية "قاصد" كانت يد "ياقوت" قد امتدت مرة أخرى إلى سيخ الكبد، فعاد "قاصد" ليسحب يده بالسيخ. وإذا بياقوت وقد وقف فى مواجهة "قاصد" وهو يشهر نصل المطواة أمام وجهه ويصرخ قائلاً:

– طب انت أخدت مطوتى واستعملتها ليه وعشان إيه؟

وحرك نصل المطواة ملوحًا بها فى تهديد.

– ... وعشان إيه وسخت مطوتى وسلاحى؟

ملأ الخوف والطمع عينى "قاصد" الواسعتين. وتمدد فم ياقوت الواسع إلى الأمام وأخذ يتحرك، ويخرج الكلمات غليظة منفجرة من بين شفتيه.

– أنا حتى لغاية دلوقتى ما سيبتش المطوة دى فى إيد حد خالص حتى أخويا نفسه، لكن عشانك... عشان خاطرك إنت...

وإذا بقاصد يهمس فى نعومة:

– ما إنت سمعت يا ياقوت، سمعت أنا قلت إيه للأسطى موسم، مش سمعتنى برضو؟

تعالى صوت ياقوت أكثر وهو يقول:

– طب وأنا مالى أنا لو بقى عندك عشى ليلى؟... مالى أنا بكده...

وصار صوت "قاصد" أكثر نعومة وهو يقول:

– طب كويس يا ياقوت، كويس خـــالص... تعـــالى خد... خد كل... بس يا ياقــوت... إنت عينيك سليمة...

ومد يده بسيخ الكبد الذى أكل نصف ما به إلى ناحية "ياقوت".

عندما كان يحل المساء ويهبط الليل، ويُكنس الفناء ويرُش، وعندما كانت تضاء المصابيح والفوانيس، كان يحين وقت جلوس الرجـال إلى بعضهم ويحين وقت الحديث والكلام، ويقول أحدهم.

– آه... بس لو كان عندى بير مية... يااه!

عندها كانت العيون تبرق ببريق هارب، وتنفرج طيات الوجوه وتجاعيدها، والكلمات، كانت تبدو وكأنها قد توقفت فى الحلقوم.

– آه... بس لو كان عندى بير مية كنت خرجت من الأرض خير وثروة يعيش حتى عليها أولادى وأحفادى وعيلتى كلها عيشة هنية... هو قدرنا ونصيبنا كده، ده زى ما يكون رشوا على أرض تراب القبور. نشفان وجفاف وقحط. ده حتى فى السنتين الأخارى دول السماء كأنها كشرت فى وش الفلاحين وغضبت عليهم هيه كمان.

كانت الأصوات تصدر فى حشرجة، تخرج من الحناجر والأفواه بصعوبة ولون الأيام الخوالى وطعمها الذى كان يتمازج مع هذه الأصوات، أصبح بعيداً بعيداً... فارقها وكأنه أصبح فى المجهول.

– الله يرحم دى الأيام اللى كانت الأرض فيها كلها بركة، والسماء كلها بركة، السماء كانت فيها بركة، والأرض كانت فيها بركة.

- كانت الأرض فى حضن الجبل وفى الوادى بتبقى كلها بيضا من لون الغنم اللى كان بيرعى فيها، كانت كل قطعان الدنيا ترعى فيها.... أما دلوقتى، بقدرة قادر، بقت الأرض زى ما يكون غطاها نحاس دايب. وفجأة وفى لحظة واحدة لاقينا البيت والزوجة والأرض كله على صوته. قلوبهم بقت تتقطع، وبطونهم فضيت، ونفوسهم اتزلزلت والكلام، بقى يحرق فى الحلقوم واللسان وجلد الشفايف عشان يخرج.

- أنا باقول بقى نرجع بلدنا تانى، وأى شىء يحصل هايكون أهون بكثير من الغربة.

- بـ... بـ... بلدنا؟

- بقى بعد الشهور دى كلها من الغربة والترحيلة؟

- و... و... وبايد... فا... فاضية كمان؟

- طب بأى وش ترجع؟

ويقول أحدهم:

- زى ما يكون بيقولوا أن فى الأيام دى هاتبدأ أعمال البناء والمبانى تبع مصلحة البناء والتشييد.

كانت طيات التعب والشقاء قد استقرت على الجباه، وامتعاضة السخط والتذمر قد ارتسمت على الشفاه، وأخذ نور الفانوس يظُهر عظام الوجنات أكثر بروزًا، ويلقى بظلاله على وجوه جامدة، لا حركة فيها، والعيون تتحول وتجول فى هدوء لتتجه إلى فم كل شخص يأخذ بطرف الحديث ويتكلم.

- لو كنت قدرت إنى أسد جوع العيال من الشغل، ما كانش ولا حتى أى مدفعجى يقدر يحركنى من المدينة.

- ما يقدر على القدرة غير ربنا... وما يذلش الرجالة غير الحاجة والعوز فيضيف آخر:

- آه هى الحاجة هوه العوز هوه الذل.

كان "قاصد" قد انضم إلى الجماعة وجلس فوق كعبى قدميه وانكفأ على نفسه مثل الدجاجة فى كمونها.

وجاء إليهم أيضًا "ملا قباد".

- سلام يا سادة.

وجلس.

- صلوا على النبى وأهل بيته.

حيث لم يكن لتردد الصلوات وطنينها ذلك البهاء الذى كان يزينها دائمًا، والأصوات فيها كانت خافتة مخنوقة، وإلى أن ينتهى "ملا قباد" من فتح الشاهنامة ذات الطبعة الحجرية القديمة والغلاف الجلدى ويسحب الفانوس أمامه، كان "الأسطى موسم" قد بدأ الكلام وقال:

- "مُلا قباد" أظن إن إحنا بنتكلم الليلة دى، وعايزين نشوف إيه اللى يجب علينا نعمله، ونشوف المصيبة اللى إحنا فيها.

وقال "فولاد":

- بقى الأول نشوف هانقدر نعيش إزاى وبعدين...

وقال "بمان":

- وإلا ح... ح... حكى الح... حكاوى ولاً س - س... سماعها لا هايعالج و... و... وجع، ولا هايبقى له... لا... لا لازمه ولا هنـ... هنـ... هانحس بيه.

أثناء ذلك أخذت نظرة "ملا قباد" تنتقل من فم هذا إلى فم ذاك بينما كان نور الفانوس يتلاعب على وجهه.

كانت ذقن "ملا قباد" الصغيرة جامدة ثقيلة، وكان شعره البنى يبدو أصفر اللون تحت نور الفانوس الباهت الخافت. وشعر صدره الأبيض قد خرج من فتحة قميصه المتسخ. أغلق "ملا قباد" غلاف الشاهنامة، وأشعل سيجارة، وقال وهو يزوم وكأنه يتحدث مع نفسه:

- أنا يا خواننا ما باآخدش منكم أجر على كده. أنا بس عايز إن إحنا على الأقل فى الليل، نريح نفسنا شوية ساعة أو اتنين من التفكير، ونقعد شوية من غير تفكير فى الزوجة والعيال، من غير تفكير فى البلد والشغل والعطلة والقعاد من غير شغل، مفيش أى فايدة لىٍّ من وراء الكلام ده غير كده...

- متشكرين جدًا يا "مُلا قباد".

- خلاص زى ما إنتوا عايزين.

جلس "الأسطى موسم" على ركبتيه. وتركزت نظرته على فتيلة الفانوس والدخان يتصاعد منها، وتحركت لحيته الصغيرة.

– شوفوا يا ولاد، كل واحد فيكوا عنده شاى، يقوم يجيب لنا تلقيمة.

كان "أحمد على" الذى وصل لتوه من الخارج، قد جلس إلى جانب الجماعة، وأخذ يمسح عرق جبينه بالمنديل الصغير الذى كان يضعه دائمًا على كتفه.

بينما كان "الأسطى موسم" مستمرًا فى حديثه ويقول:

– ... إحنا لازم نساعد بعضينا... مش لازم أبدًا يكون كل الخلاف ده بينا، ومش لازم كل واحد فينا يفكر فى نفسه وبس... احنا لازم نعيش كلنا.

استقر كفا "على رضا" الكبيران فوق ركبتيه، وأخذت شفتاه الغليظتان تتحركان!

– كلام "الأسطى موسم" مظبوط، إحنا لازم نفكر فى بعضينا أكتر شوية. يمكن بالشكل ده نقدر قوى نلاقى شغل نشتغله.

تحرك "نبى" فى مكانه. وجمع ساقيه تحت مقعدته. وقال:

– كلام "الأسطى موسم" صحيح، وكلام "على رضا" صحيح برضو... بس طيب... إزاى احنا هانفكر فى أمور بعضينا؟... لما ما يكونش فيه شغل أصلاً إزاى نقدر نشيل بعضينا؟

قال "أحمد على":

– أنا كنت من شوية فى سويقة الجزم، كانوا بيقولوا زى ما يكون مقاول جه من طهران وعمل مقاولة عشان يبنى خمسميت بيت كل بيت فيه تلات غرف.

فغر "ياقوت" فمه الكبير وقال فى دهشه.

– خمس... ميت... بيت؟!

أضاف "أحمد على" قائلاً:

– وبيقولوا برضو إنه هايبدأ فيها الأيام دى.

قال "الأسطى موسم":

– على الله... ربنا يبعت.

ثم قال:

- لكن دلوقتى، طالما إن الشغلانة دى لسه ما بدأتش. علينا نفكر فى فكرة.

غلى الشاى وتصاعد دخانه. وقام "على محمد" بغسل الأكواب فى السطل. وطاف "ياقوت" بصينية الشاى. رفع "الأسطى موسم" كوب الشاى إلى شفته، كان لا يزال شديد السخونة، وقال:

- إحنا لو كنا فكرنا التفكير ده من الأول، يمكن كنا قدرنا نعمل حاجة دلوقتى وكنا حققنا شيء.

قال "نبى":

- فيه حاجات لازم تحصل من نفسها الأول.

انفغر فم "ياقوت" الكبير وقال:

- طب دلوقتى هيه حصلت خلاص إيه اللى علينا نعمله دلوقتى؟

قال "على رضا":

- لو كنا شيلنا هم بعضنا من الأول، كنا قدرنا نعمل حاجات كثيرة.

قال "ياقوت":

- زى إيه مثلاً؟

قال "الأسطى موسم":

- زى مثلاً نروح بكره بدرى قدام الإدارة، ولما توصل اللوارى عشان الشغل، نحوطها كلنا، وما نخليش حد غيرنا يعدى ويركب. ونعمل بينا دور بالتناوب، بحيث كل يوم نتعاون على أن عدد منا بس هو اللى يركب اللوارى. وبالطريقة دى نضمن على الأقل إن كل واحد مننا يلاقى شغل عدد من الأيام كل شهر.

تحرك خطم "ياقوت" الكبير.

- طب همه التانيين يعنى مش هايقفوا قصادنا؟

وقال "ملا قباد":

- همه يعنى هايسيبونا نعمل كده؟

قال "على رضا":

- كل شغلانه لها تعبها وشقاها.

وقال "فولاد":

- إذا كنا عايزين ده، هانعمله.

سعل "الأسطى موسم" سعلة وبعدها أخذ طرف الحديث من "فولاد" وقال:

- أيوه ممكن تحصل معركة وخناقة بينا وبين التانيين، لكن النتيجة تستاهل وهى أن عدد مننا هايروح ويشتغل ويلاقى له شغلانه.

قال "على رضا":

- طب قول لنا بقى بكره هايكون الدور على مين.

تفحص "الأسطى موسم" بنظرته الوجوه. كانت النظرات يشوبها عدم التصديق، بينما استقر الشك على تجاعيد الجباه، واستمرت الأفواه فى تساؤلاتها.

كانت ليلة ثقيلة وخانقة، واصطكاك سعف النخيل واحتكاكه مع أصوات "بهمنشير" كان أكثر قوة عما كان عليه فى سابق الليالى، و"فولاد" كان فى جلسته قد احتضن ركبتيه وسمر نظرته إلى أركان الفناء المظلمة، وأخذ يسرح بفكره منفصلاً عن الجمع حوله، وصُمَّت أذناه عن سماع كلامهم وأحاديثهم، حيث أصبح فكره وذهنه وخياله يجول بريبة وفزع فى أنحاء بلدته "مام زرد" التى رآها آخر مرة وقد قبعت فى الجفاف والقحط تحت شمس محرقة، وأصبحت أرضها وطينها وكأنه تراب ناعم نُخل فى مَنخُل؛ يتلوى ويثور مع كل هبة ريح خفيفة ليعلو ويرتفع فى دوامات ترابية غبراء، ليغطى بعدها جذوع الأشجار الجافة المنقعرة هنا وهناك على أرض بوار، ويغطى معها أكواخ القرية المتهالكة.

كان قد خرج من بلدته "مام زرد" تاركًا أرضه وزوجته وعياله فى ذمة الله، وطوال الطريق من بلدته حتى وصل إلى "كرخة" ومنها إلى "كارون" ومن "كارون" حتى "بهمنشير" ظلت عيناه تتحسران على كل هذه الأراضى التى أصابها القحط والجفاف وصارت مثل النحاس المصهور «آه.. لو كانت كل المية دى اللى بتروح البحر، تروح على الأراضى دى، كانت كل البلاد دى بقت جنة، كانت بقت روابى وغابات وأحراش، وماكناش كلنا نبقى مضطرين ومجبورين إننا نسيب بيوتنا وحياتنا، ونرحل ونترحَّل ندور على قرشينماينفعوش فى حاجة، نترحل ونقعد فى

مكان كله خنقة وذل ومهانة.. مال الفلاحين ومال الكلام ده.. إنت بس إدى لأى فلاح فدان أرض واديله البذور والميه ويعدين تعالى له وشوف القوة والإصرار يعنى إيه، شوف البركة تبقى إيه، شوف الحياة هاتبقى إزاى.. آاه بس لو كان معايا فلوس.. آاه!.. لو كان عندى فلوس كنت حفرت بيها قناية ووصلت الميه لـ... » كان العرق قد تفصد على جبهة "فولاد"، وأخذت حبات العرق تسيل فوق رقبته وفوق سلسلة ظهره، وتختلط بالشعر الكثيف فى صدره وعلى كتفيه. وكأنه يرى الآن بحرًا مواجًا من غيطان القمح والغلة، يتماوج أمام عينيه، وكأن سنابل القمح التى لم تنضج بعد وذات اللون الأخضر الباهت كانت قد أشاعت الحركة فى المروج التى لا نهاية لها، وأخذت تتمايل مع النسيم وتتشابك مع بعضها ثم تنفصل. وأخذ تمايل وتماوج هذا الحرير الأخضر المنسوج من هذه السنابل يزيل ويمحو التعب والمشقة والعناء عن عينيه. الآن، صارت السماء رحيمة، والأرض رحيمة، سخية وكريمة، صارت معطاءة مثمرة. بينما أشاعت زهور الصفصاف، المبعثرة، بين أعواد القمح الكثيفة الفتية لونًا من الزرقة المحببة هنا وهناك. بينما يهبط هو بحد معوله وجاروفه على الأرض الندية الريانة وقد رفع أطراف سرواله الأسود إلى أعلى، ووضع قدمه فوق المعول واتكأ بثقله على يد المعول فى قبضته، وأخذ يجول بنظره فى كافة أنحاء المرج المحيط به وفجأة...

– فولاد!

تحرك

– إنت فين يا "فولاد"؟

كان "على رضا" هو الذى فاجأه بهذا السؤال.

– هنا معاكو..

– لا ماكنتش معانا.

سحب "فولاد" أنفاسه بصوت عالى.

– لا.. ماكنتش

– طب إنت فهمت إيه اللى حصل؟

– عشان بكره يعنى؟

– أيوه طبعًا

– آه، لازم يكون أنا طبعًا.

كانت أنفاس الليلة قد ازدادت اختناقًا، وتناقصت النجوم فى السماء، وضع "ياقوت" كفيه على الأرض وقال:

- أنا رايح أنام.

حيث كان النعاس قد تثاقل على الجفون وخفتت الأصوات بين الجمع، وأخذت النسائم التى كانت تهب بين الحين والحين، تجفف العرق فوق الأجساد والرقاب والجباه، وأخذت أسراب الناموس تتباعد من حول الفوانيس.

نفخ "على رضا" فى فتيلة الفانوس، وتمدد على ظهره أمام عتبة الحجرة.

كان "على رضا" يوجه نظرته إلى السماء التى صارت الآن كقطعة قماش سوداء، كان "على رضا" يبحث فى صفحة السماء عن مجموعة نجوم "الدب الأكبر" لكنه لم يجد لها أثرًا. فقد كانت النجوم فرادى متفرقة هنا وهناك بلا لون ولا بهاء، مبهوتة، منكسرة. فسماء "دز" - عندما كان يمضى من الليل نصفه - كانت تصبح صافية، شفافة، تملؤها ألوف وألوف وألوف من النجوم المضيئة اللامعة، تصبح وكأنها قد صارت صفحة من الحرير الرمادى الوضاء اللامع قد طرزت باللآلئ البراقة. أما الآن فما فوق رأس "على رضا" كان كله ضباب فى ضباب ونُتَف من السحب العقيمة المتفرقة تجعل الجو ثقيلاً خانقًا، ورائحة غاز النفط مصحوبة برطوبة ملوثة، ممزوجة بملوحة البحر وبتناجى فروع النخيل وسعفه المتشابك، كانت تسرى لتمر من أمام هذا البيت الذى يبيتون فيه حتى تصل إلى حدود الرمال المنبسطة على شاطئ "بهمنشير".

تقلب "على رضا" فى نومته، ونام على جانبه الأيمن وأشعل سيجارة، وسحب منها نفسًا، وبعدها أخذ يدندن وهو لا يزال ممددًا ويغنى بلحن رتيب وبلهجته الريفية:

"مرسالى اللى بعتوهولى كان حمامة"

"راحت فين؟ وليه ماجاتنى"

"ما اعرفش إن كانوا صادوها"

"ولا صقور البر خطفوها"

كانت دندنته هذه حزينة مريرة ومثيرة للخواطر المحزنة، كانت فى هذا الضباب الخانق والجو الثقيل الذى يخنق الأنفاس، وكأنها تأتى إلى الخاطر والذاكرة برائحة "بالا رود" المنعشة،

وبرائحة "العشش النهرية"، ورائحة "القوارب الخفيفة" التى تسبح فى هدوء وسكينة على صفحة نهر "دز" طوال الليالى الصيفية. والقمر كان وكأنه قد هبط فوق صفحة الماء فى صورة طبق من الذهب له لون لطيف رقيق يناسب ما كان يصحبه من سعادة وبهجة وفرح، والأصوات فى الليل كانت تسرى باسطة أجنحتها مثلما تسرى طيور السنونو، وتتمازج مع صوت ماء النهر فى رقة وعذوبة.

ويواصل "على رضا" دندنته بلهجة بلدته:

"وفى آخر الليل جه حبيبى على بالى"

"قلت له ارتاح إنت فى مكانك، بس"

"وصلنى لمرادى وريحنى أنا وبالى"

... عندها كان الليل قد تجاوز نصفه بكثير.

عند الفجر، كانت جماعة الرجال من "دزفول"، قد اختاروا من بينهم أحد عشر رجلاً وجلسوا أمام مبنى الإدارة على حافة طريق المدق المرشوش بالنفط فى انتظار وصول الشاحنات التى ستقل العمال.

كان وجه "فولاد" منحوتًا له شكل مثلث، وبجبهة مرتفعة، وبفراغات، من أثر الجدرى استقرت على وجنتيه وحول شفتيه.

وخطم "ياقوت" الواسع الذى يشبه خطم سمكة القرش، كان يزأر بالجوع، ونظرة "على رضا" تبدو حادة تصحبها حسرة واضحة فى عينيه، أما "قاصد" فقد كان يبدو بجسده النحيل والقصير وبعينيه الواسعتين ولونهما الباهت، وهو واقف إلى جانب "على رضا" كأنه طفل قد احتمى بحضن أبيه.

كان "الأسطى موسم" قد جلس فوق كعبيه، بينما كان "شيخك" يمسك بمسبحة كالحة اللون، وقد تدلت شفته وهو يلف حبات المسبحة بين أصابعه. ويرقب بعينين اختفتا بين تجاعيد رقيقة وغليظة، ويجول بهاتين العينين ويراوح بهما بين جماعات الرجال المنتظرة ومبنى الإدارة الذى بدا طويلاً ممتداً فى لون أبيض، وببوائك كثيرة وفتحات ونوافذ كثيرة، بينما كان يقف تحت ظلة بائكة من بوائك الطابق الثانى، رجل فرنجى سمين وقد تعرقت قلنسوته الضخمة، وبلل العرق سرواله القصير الأبيض.

كان الفرنجي يدخن سيجاراً، بينما كان يتفحص بنظراته جماعات الرجال دون أن يطرف له جفن، الرجال من "يزد" والرجال من توابع "يزد" والرجال من "أصفهان" وقد جلسوا جميعًا فى جماعات متفرقة أمام مبنى الإدارة.

أهل أباده على يمين أهل لنجان

وأهل دوان خلف أهل جتوند

والدزفوليون، إلى جانب الشوشتريين

و....

وكأن الأماكن قد تحددت كلها، وكل جماعة فى مكانها المحدد تتحادث وتثرثر فى هدوء وتداخل.

بعضهم يدخنون السجائر، والبعض يتناوبون الغليون فيما بينهم، والبعض الآخر بدوا وكأنهم فى غنى عن كسب قوت يومهم فغابوا فى نعاس وهم جالسون.

ألقى الفرنجي السمين بسيجاره الذى وصل فى تدخينه إلى نصفه ودهسه بقدمه، وبعدها لف قلنسوته الضخمة المستديرة، وذهب إلى داخل إحدى الغرف، وبعد قليل خرج وفى يده صندوق التصوير الفوتوغرافى وأخذ يلتقط صوراً من زوايا مختلفة.

بعد ذلك، ذهب الفرنجي إلى داخل الغرفة وأغلق بابها خلفه. وإذا بسيارة رمادية اللون، ذات غطاء أبيض كان يعكس أشعة شمس الصباح الحادة، وقد مرت من أمام الإدارة، وتصاعد خلفها الغبار الملوث بالنفط وتعالى ليتساقط فوق رؤوس الجماعات المنتظرة.

وبمجرد أن ذهبت السيارة، وصلت عربة رش النفط، وأخذت تصب نفطًا أسودَ فوق طريق المدق، ولم تكن عملية رش النفط أمام مبنى الإدارة قد انتهت بعد، حتى ظهرت عدة شاحنات لتصل وتتوقف أمام المبنى واحدة وراء الأخرى.

ولم تكد الشاحنات تتوقف، وأثناء زحفها فوق النفط الأسود اللزج على طريق المدق، بدأ الهجوم والتكالب.

كانت نعال الصنادل البلاستيكية تنزلق فوق نفط الطريق اللزج، فيسقط أحدهم منطرحًا على الأرض، وقبل أن يتمالك من يأتون خلفه ويتماسكوا يتعثرون فيه، فيتساقط عدد منهم فوق بعضهم البعض.

تفسخت حلقة الدزفوليين الذين كانوا قد أحاطوا فى البداية باثنين من الشاحنات الواصلة، وتداخلت أكواع الرجال وقبضاتهم لتضرب فى أجناب بعضهم البعض، وتصاعدت أصوات الصفعات والركلات واختلطت الأصوات بالسباب والشتائم.

– ياجبان يا ظالم، رجلى دهستها، فرمتها.

– آاى...

– سنانى اتكسرت

– يطلع لى هنا سبعة فواعلية ومعاهم مجاريفهم

وهذا الرجل الذى كان أسود البشرة ويضع على رأسه قبعة قش ذات حافة عريضة قد وضع كفيه وحلق بهما حول فمه على شكل بوق وأخذ يصيح:

– سبعة فواعلية ومعاهم مجاريفهم واللى مامعاهوش جاروف مايطلعش.

وإذا بالمجاريف تتطاير من فوق رؤوس الجمع إلى داخل الشاحنة. وقد صعد إلى الشاحنة من رجال "دزفول"، "على رضا" و"نبى" و"فولاد" وقد مدوا أيديهم لكى يرفعوا "أحمد على" ولم يكونوا قد سحبوه بعد حتى منتصف ارتفاع الشاحنة، وإذا بأيدى كثيرة تمسك بطرفى الكوفية التى كان يلفها حول رقبته لتشدها وتخنقه بشدة فتنقطع أنفاسه، ويزرق لونه، وترتعش شفتاه، وتبرز عيناه من محجنيهما، فيضطر "فولاد ونبى وعلى رضا" إلى ترك يدى " أحمد على"، ليسقط هو ومعه مجموعة من العمال على الأرض.

كانت يد ملوثة بالنفط قد لطمت وجه "قاصد" المستدير الصغير الملئ بالتجاعيد حيث صارت ذقنه ووجنتاه فى لون النفط الأسود، أما "الأسطى موسم" الذى كان قد انزلق على النفط اللزج فقد وقع منطرحًا على الأرض، وإلى أن استطاع أن يخلص نفسه من تحت الأقدام والسيقان الغليظة، التى هجمت فى تداخل وتشابك صوب الشاحنة، كان سرواله وقميصه ووجهه ورأسه قد لوثهم النفط بلزوجته ولونه الأسود. عندما كانت عربية رش النفط قد تجاوزت الطريق – الذى كان ينحرف عند نهاية مبنى الإدارة ويدور ليذهب صوب بيوت الأجانب الفرنجة ثم إلى ناحية المسجد المبنى حديثًا وبعدها إلى النخيل – لتلف وترجع خلف مبنى الإدارة. أما الشاحنات التى امتلأت بالعمال فقد استطاعت أن تشق طريقها بصعوبة بين العمال الذين تزاحموا حولها، وأثناء ابتعادها قام رئيس العمال بقذف المجاريف الزائدة من

داخل الشاحنة إلى الخارج، وصوت مكتوم لرجل منطرح على الأرض يودع الشاحنات بقوله:

– ياولاد المرا، لو كان فى دور كان يبقى دورى...إنتو ليه كده قلبكو حجر ومافيهوش رحمة؟

كانت الشمس قد نشرت أشعتها، والنفط على الطريق يعكس نور الشمس على سطحه ومع النور خليط من مختلف الألوان قد تداخلت مع بعضها البعض. والفرنجى السمين يقف تحت بانكات المبنى ويلتقط من خلال زجاج صندوق التصوير الشفاف صوراً عديدة لهؤلاء العمال الذين انسحبوا خلف الشاحنات وتخبطوا فى بعضهم وسقطوا على ظهورهم وأخذوا يلملمون أنفسهم ويتماسكون ليقوموا ويذهبوا إلى مجاريفهم التى كانت قد تقاذفت على جانب الطريق.

كان الفرنجى السمين يستدير، ويدير قبعته الضخمة فوق رأسه كحجر الطاحون ويجرى مسرعًا من هذه الفتحة إلى فتحة أخرى فى محاولة لالتقاط أكبر عدد من الصور ومن زوايا مختلفة وإلى أن تفرق العمال جماعة جماعة من أمام مبنى الإدارة كان وكأنه قد انتهى من تصوير الفيلم الرابع.

أما الآن فتأتى سيارة نصف نقل رمادية اللون لتتوقف بشكل متكرر أمام البيوت وبين الأكواخ الخشبية المتناثرة فى المنطقة الملاصقة لمبنى الإدارة إلى عمق أرض النخيل، وتقوم بتسليم علب الليمونادة ولفافات الخبز الأبيض وعبوات الأطعمة المحفوظة والمعلبة والفواكه المعلبة إلى خدم البيوت والنزل ومعها رجل يقع فوق رأسه كاب بينما ملأ العرق وجهه المكتنز وقامته العريضة يقوم بتدوين الطلبات، والسائق يقود السيارة فى صبر وتكاسل لعدة أمتار ثم يتوقف أمام أحد البيوت، ويطفئ محرك السيارة، ويخرج من كابينة القيادة وإلى أن يستلم الخادم العلب واللفائف يذهب هو ليقف تحت إحدى أشجار الكافور المزروع على جانب الطريق ويهوّى على وجهه بمنديله.

كان الصمت والهدوء يملأ الباحات فيما بين المبانى وأحيانًا كان يقطع هذا الهدوء مرور طفل أو طفلة على دراجة بإطارين أو بثلاثة من حديقة هذا البيت إلى حديقة بيت آخر وأحيانًا يقطع هذا الصمت صوت مقص البستانى الذى كان يقوم بتقليم وتهذيب أشجار السور أمام البيوت.

الآن خلت الساحة أمام مبنى الإدارة. ولم يعد يسمع حتى ولو صوت رفرفة طائر. واشتدت حرارة الجو، وصارت الشمس أشبه بأتون النار.

ولم يكد يحل وقت الظهيرة، وكان العمال قد ذهبوا فى مجموعات متفرقة إلى السويقات التى كان يزداد عددها يومًا بعد يوم وكانت وكأنها تنبت من الأرض مثل الفطر وتتناثر هنا وهناك. خبز منزلى وخضروات ذابلة، وفواكه عطنة ودكاكين ومحال متهالكة نُصبت بالورق المقوى وبقطع الخشب المتهالكة وعلب الصفيح فى السويقة كل شىء ينفع، وكل شىء يشترى ويباع.

لفة سلك مهملة

متر من الحبال المتهرئة

جوالان من الخيش

علبة من الكارتون والورق المقوى كان بها معلبات الأجانب و.... كل شىء من هذه الأشياء ينفع، ينفع فى عمل ظلة أو سقيفة تكون بمثابة بيت على أطراف أرض النخيل، ينتفع بها عامل يكون قد وصل لتوه، أو تفيد فى عمل فرشة لبائع متجول فقير.

قبيل وقت الظهيرة كانت هذه السويقات فى الغالب تعج بعمال متعطلين بلا عمل، تغلب عليهم الخوف والصمت، وجوههم كأنها نحتت من حجر، وأيديهم بارزة العروق، ولم يكن حديثهم فى الغالب إلا مساومة أو فصال:

– ما شاء الله على ذمتك! بقى حزمة كرات مفعصة زى دى تبيعها بريالين؟!

– أيه يا أخى فيه أيه؟ أيه اللى حصل؟

– هو أنا جايبها ببلاش، أنا دافع فيها فلوس، وكمان بالكام حزمة خضرة اللى مش عاجبينك دول ممكن تسد جوع كام عيلة.

– هو عيش ده برضو، ده ممكن تدبح بيه معزة.

– أهوه هو كده بقى وإن كان عاجبك.

– إدينى يابلدينا حبة زبادى فى الزبدية دى وأجيبها لك العصر.

– أيه!! عشان زبدية واحدة؟!

حيث تأخذ الأيدى فى تفتيش الجيوب، جيوب خفية سرية ثم إخاطتها فى بطانة السراويل، وخلف أطراف القمصان وفى أى مكان آخر يكون خفيًا عن العيون، وفى كل جيب منها عدة أوراق نقدية مكرمشة ملفوفة بللها العرق، يقل عددها يومًا بعد يوم حتى تنتهى لتصبح تلك الجيوب الخفية السرية لا استخدام لها ولا فائدة منها.

ذات يوم حار عصراً، أخذ "ياقوت" سرواله ذى الصدرية فى يده، وأخذ يلف به فى فناء البيت.

- أنا باابيعه..... الجو حر موت. الواحد ممكن يقعد بالسروال التحتانى كفاية.

- بكام؟

- أنا عايز فيه ثلاثة وثلاثين تومان كفاية.

- إنت بقى لك سنة لابسه.

- لا.. أقل.

- طب بكام بقى دلوقتى؟

- تشتريه بكام؟

مر "ياقوت" على جميع الغرف ولم يستطع أن يعثر له على زبون. ألقى بالسروال على كتفه وفتح مغلفة جلدية صغيرة للحجاب كان يربطها على ساعده.

- لو تشترى البنطلون، معايا برضو حجاب دعاء الحرز الكبير ومتغلف بجلد طبيعى خالص، وكان مربوط على دراعى من وأنا صغير، بس دلوقتى مش نافعنى فى حاجة... وطبعاً ده ينفع عشان الحسد والكلام ده.

ألقى "أحمد على" بكوفيته على كتفه وأخذ الحجاب ليتفحصه. ثم مط شفتيه إلى أسفل وقال:

- كويس... يمكن ينفع حد تانى، بس...

- إنت مش عايزه؟ ده عشان الحسد...

- لو تبيع مطوتك؟ يمكن...

ولم يكن "أحمد على" قد أنهى كلامه بعد، وإذا بياقوت وقد انفتح فمه الكبير:

- المطوة.. لا!... لا المطوة دى سلاحى، ماابيعهاش حتى لو مت من الجوع.

- بقى يا أخى، فى الزمن اللى إحنا عايشينه ده، الحجاب ينفع فى أيه؟!

وحيث لم يشتر أحدهم لا الحجاب ولا السروال، استمر "ياقوت" فى طريقه وخرج من البيت وهو لا يزال رافعًا كتفيه تبرمًا وتذمرًا وذهب إلى جماعات الرجال والعمال من أهل القرى الأخرى مثل "آباده" و"شهررضا".

* * *

عندما حان وقت الغروب، قاموا من جديد بكنس فناء البيت ورشه بالماء؛ حيث صارت رائحة الأرض والتراب الرطب ورائحة العش وقش التبن المندى فى طوب الحوائط، وكأنها تثير فى الأفواه طعمًا منعشًا لذيذًا.

ولما أضيئت الفوانيس، جاء مالك البيت. بقامته الطويلة النحيلة ولحية بنية قصيرة ورأس حليق. وعندما أخذ يتكلم بدأت أوداجه تنتفخ، وأخذت التفاحة فى رقبته الطويلة تعلو وتهبط أحيانًا فى سرعة وأحيانًا فى بطء وهدوء.

- أنا باقول لحضراتكم أهه، أنا إذا ما أخذتش منكو أجرة الغرف يوم بيوم، أنا هـ....

قاطع "الأسطى موسم" كلامه :

- ليه بقى يوم بيوم، طب خليها زى كل البيوت. وخدها أول كل شهر.

- أنا باقول لحضراتكم أهه إنه ماينفعش أبدًا إنى أكون مطمن للوضع ده...

وقال "بمان":

- أيه.. أيه.. أيه الكلام ده يا... يا.. ياحاج

قاطع مالك البيت كلام "بمان"

- أنا باقول لحضراتكم يعنى إذا جيتوا يوم لميتوا حاجتكم ومشيتوا أروح لمين أنا بقى آخد منه الأجرة؟

وهنا تدخل الجميع فى الكلام، وعلا صوت "على رضا"، أما "ياقوت" الذى كان قد باع سرواله للجماعة الأصفهانيين بسبعة تومانات، فقد أساء القول، وقال ما لا يليق وبعدها... وعندما اتخذ صاحب البيت طريقه ليمشى من هناك، أخذوا يودعونه بعبارات نابيه.

– إذا جيت بكرة هنا، هانقطع رقبتك.

– يـ.. يـ.. ياللا امشى... غو... غور

– الراجل ده مابيزهقش كل ليلة بليلة ييجى ويلف علينا ويقول لنا الكلمتين دول!

– ده زى مايكون بيبيع لنا دهب أمه.

– أيوه، ده عامل زى مايكون أجر لنا قصر قارون، دى مقابر وخرابة شبر فى شبر.

بعد أن ذهب مالك البيت، وصل "نبى" كان لون وجهه مخطوفًا وقد انحنى ظهره. ولف ساعديه تحت إبطه وأخذ يرتعش.

جلس "نبى" إلى جوار حوض الفناء ونادى على "الأسطى موسم".

ألقى "الأسطى موسم" بمنامته المطوية الملفوفة فوق فرشته ومشى ليقف فوق رأس "نبى" وأمسك بكتفيه:

– حصل أيه يا "نبى" مالك؟

كانت أسنان "نبى" تصطك فى بعضها، ولا تثبت على حال.

– اتكلم يا "نبى". قول أيه اللى حصل؟... إنت ليه بتترعش كده؟

وهنا أخذ "نبى" يتكلم بشكل متقطع:

– مش عارف يا "أسطى موسم"... أنا كنت فى السوق... و... وفجأة حسيت بجسمى كله منمِّل... وبعدين... بقيت زى التلج...

جاء "على رضا". وأمسك هو والأسطى موسم "نبى" من تحت إبطيه، ورفعاه، ومدّداه فوق فرشة "الأسطى موسم".

وأثناء قيام "على رضا" بإحضار منامة "نبى" من غرفته الموجودة فى ركن الفناء، وأثناء قيامهم بإشعال فانوس "نبى"، كان "الأسطى موسم" قد ألقى بمعطفه النصفى فوق جسد "نبى" الممدد، الذى ما زال يرتعش، وظل "نبى" يرتعش رغم ما ألقوه فوقه من البطاطين والمعاطف والأغطية، حيث كانت كل هذه الأغطية تتحرك مع ارتعاشة جسده.

دخل "رحمان" من الباب.

فقال له "الأسطى موسم:

- يا "رحمان" بالله عليك إغلى لنا شوية مية، عشان نغسل بيها رجليه وندفيه.

أشعل "رحمان" وابور الجاز، ووضع فوقه براد الماء الكبير.

- إذا كان جاله دور حمًى، يكون ربنا معاه بقى.

واختلط وشيش وابور الجاز بكلام الحاضرين.

- يا رب مايكونش دور حمًى.

- بكرة يقدر يروح المستوصف وياخد دوا للى هو فيه ده.

- بيه... المستوصف!

- أيوه المستوصف.

- طب هو المستوصف بيدى دوا لأى حد كده يا أخى.

- ليـ... ليـ... ليه بقى مايديلهوش؟

- ياحبيبى إنت إذا ماكانش معاك كارت العمالة مش هايدخلوك من الباب من أصله.

كان صوت اصطكاك أسنان "نبى" يتعالى، بينما تتحرك طبقات الأغطية فوقه مع ارتعاشة جسده.

- يا رب بس ربنا يحفظنا كلنا وما ناخدش الدور ده.

قال "الأسطى موسم":

- يا إخواننا هاتو إلحِقَة، بطاطين، أى حاجة وغطوا بيها أخينا ده.

- بس ده ممكن يتخنق تحت كل الغطا ده.

خفت صوت وابور الجاز وانطفأ.

- الجاز خلص خلاص.

- هاتوا لنا شوية جاز طيب.

مشى "قاصد" ساحباً معه صوت زحف نعليه وذهب ليشترى "الجاز". بينما أشار عليهم "الأسطى موسم" أن يقوموا بتفريغ ما فى أحد الفوانيس من كيروسين فى وابور الجاز، وعندما سمع "قاصد" ما أشار به "الأسطى موسم" توقف عند حافة الحوض.

وأثناء بحثهم عن الجاز وتفريغ أحد الفوانيس فى وابور الجاز، توقف جسد "نبى" عن الارتعاش، وذهبت البرودة عنه، وبعدها بلحظات أخذ العرق يتفصد على جبهته.

أزاح "نبى" الأغطية عن جسده ونهض ليجلس، وبدا وجهه تحت نور الفانوس وقد ضرب لونه إلى بياض كأنه الجبس بعينه. وتثاقل جفناه وأخذ النوم يغالب عينيه. ركع "الأسطى موسم" على ركبتيه إلى جانب "نبى" وأمسك بمعصم يده.

– ايه يا "نبى" إنت من إمتى وأنت على الحالة دى؟

كان "نبى" متعباً. وعندما تكلم كان صوته متحشرجاً.

– ما أنا قلت... النهارده، من أول النهـــار... دى أول مــرة تحصل لى... قلت لما كنت فى السوق.

ملأ الأسى تعابير وجه "فولاد" المسلوب.

وقال "ملا قباد":

– طب ماتسيبهاش تتمكن منك، الصبح من الفجرية تروح المستوصف.

قال "قاصد":

– ما أنا قلت إنه... مش مستوصف ببلاش... دول مابيدوش دوا لأى حد كده.

قال "ملا قباد":

– لأ... بيدوا بقى.

قال "قاصد":

– إنت مش فاكر ديك اليوم لما كنت أنا با اتلوى من شدة الوجع زى اللى عضه تعبان؟... إنت فاكر؟

قال "بمان":

– ط... ط... طب... عا... عا... عايز تقول إيه؟

قال "قاصد":

– عايز أقول إنى قعدت أجر فى نفسى وأسحبها لغاية ماوصلت بصعوبة للمستوصف وهناك عاملونى كأنى مش بنى آدم.

قال "ياقوت":

– احنا ندفّى له رجليه بالمية السخنة مرتين وهو هايقوم ويبقى كويس.

استند "نبى" على يديه. وقام واقفًا بانحناءة شديدة فى ظهره. ومشى ليجلس فوق منامته. بعدها بقليل، شمل العرق جسده كله. فخلع قميصه. وإذا بالعرق يتفصد فوق كتفيه. اتكأ على منامته المطوية. كانت عضلاته قد أصابها الوهن. وضعفت مقدرته على النظر. فأمام عينيه، بدت فتيلة الفانوس وكأنها تتلوى وتتلاشى وتختفى، و... أخذ لون وجهه يتحول إلى الزرقة.

قال "الأسطى موسم":

– إنت يلزمك أعمل لك كوبايتين شاى مضبوطين كده؟

جاء صوت "نبى" وكأنه صاعد من بئر عميقة. خافت لا رمق فيه:

– ولّع لى سيجارة.

كان صوت "نبى" يأتى من قاع بئر.

– كل عضامى بتنشر، بتوجعنى، زى مايكون حطونى بين حجر طاحونة. زى مايكون فضلت أسبوع كامل شايل على كتفى ليل نهار حجارة ثقيلة.

أخذ "على رضا" إبريق الماء وجلس على حافة حوض الفناء وأخذ يتوضأ.

تعالى صوت الآذان قادمًا من بعيد، كان الصوت يتصاعد من فوق المئذنة القصيرة لمسجد سويقة الأحذية، كان الجو حارًا مشبعًا بالرطوبة، وصوت الآذان ينتشر فيه ببطء وخفوت. نفض "فولاد" فرشة الطعام فوق ورقة شيكارة أسمنت. وأخذ يجمع قطع الخبز وفتاته الصغيرة. كان "على رضا" يمر من جانب "فولاد" وإذا به يقول له:

– بص بقى يا فولاد، أنا معاك أهه، إذا كان فى حاجة لازماك أنا معايا قرشين كده فكة فى جيب الصديرى بتاعى.

أشعل "الأسطى موسم" سيجارة وأعطاها لـ "نبى" و... فجأة، انفجرت صيحة رجل فى الفناء، وهو يقول:

- كلكو أندال وجبنا، كلكو!

تحولت الرؤوس إلى ناحية الصوت، واستقرت النظرات على قامة رجل كان فارع الطول، عريض الصدر والمنكبين، يتدلى شاربه على جانبى فمه، حليق الرأس كالح اللون، بسروال لصيق.

وقف الرجل إلى جانب الحوض فى وسط الفناء.

- كلكو أندال.

خلفه كان "ممدو"، رجل أسود البشرة، له شعر جعد كثيف، وجسم عريض لا تناسق فيه، ورجل آخر "اسفنديار" كان نحيف الجسم، متوسط السن، كان ثلاثتهم قد وقفوا على حافة الحوض كأنهم أعمدة منصوبة. وداخل الحوض ملأته الأعشاب وفتات القش الذى حرقته الشمس بينما استقرت المياه الراكدة فى القاع.

- مين فيكو بقى الى مش عاجبه الكلام وعامل لىَّ فيها، عشان أطلع له مصارينه بره.

كان نصل السكين يبرق فى قبضة الرجل فارع الطول. نهض "الأسطى موسم" من جانب "نبى" وذهب ناحية الحوض.

ارتفعت تفاحة زور "الأسطى موسم" تحت جلد رقبته الطويلة وانخفضت ثانية:

- انتو بتقولوا إيه انتو؟

تحدث "الأسطى موسم" برصانة. فدار الرجل ذو القامة الطويلة حول الحوض.

- إحنا بنقول إن كلكو أندال وجبنا.

قال "الأسطى موسم":

- انتو مين اللى بعتكم هنا؟

وقف الرجل ذو القامة الطويلة وجهًا لوجه أمام "الأسطى موسم".

- ده شىء مايخصكش أنت ياراجل يا عجوز.

ونظر شذراً فى عينى "الأسطى موسم" الغائرتين، وقال:

– طب فتح لى ودانك إنت ياراجل يا كبير. أنا بس محترم سنك الكبيرة، بس لازم تعرف بقى إن هنا مش بيت خالتك يعنى. وإذا كنتو عايزين تقعدوا هنا، فلازم تدفعوا أجرة البيت ليلة بليلة... وإذا ماكانش معاكو لموا حاجاتكم دلوقتى وغوروا فى داهية من هنا.

تراجع "الأسطى موسم" وقال:

– طب ياسيدى إنت لازم تعرف وضعنا إزاى يعنى.

كان "ممدو" قد تقدم ليقف إلى جانب الرجل ذى القامة الطويلة، وكان الحاجب الأيمن لـ"ممدو" منقسماً نصفين، كأنه مكان جرح قديم. تكلم "ممدو" وقال:

– مالناش إحنا دعوة بالكلام ده يا ابويا... إنت سمعت. قال لك لازم تدفع ليلة بليلة.

كان "على رضا و "فولاد" قد أسرعا ووقفا خلف "الأسطى موسم". ثم جاء "ياقوت"، يصاحبه صوت زحف نعليه على الأرض. ثم انضم إليهم "ملا قباد". ثم "رحمان"، "أحمد على" وفى اللحظة تجمع الآخرون، كانوا ينهضون من أمام غرفهم مثنى وفرادى ويأتون ليقفوا متجمعين خلف "الأسطى موسم".

وضع الرجل ذو القامة الطويلة يديه فى خصره. كانت يده اليمنى مقبوضة الكف، وقد أمسك بالسكين فى قبضته. أصبح صوت ذاك الرجل أجش غليظاً. كان صوته يخرج من عمق حنجرته عندما قال:

– لا... ماتفتكروش يعنى عشان انتو تلاتين أربعين واحد، تقدروا تاكلوا مال الناس وتاكلوا على الناس حقهم.

تقدم "على رضا" قليلاً وقال:

– بص يا أخينا، احنا ماعندناش نية إننا ناكل مال أى حد.

تكلم "اسفنديار". كانت أزرار قميصه المربعات الشبيه برقعة الشطرنج، مفتوحة عن آخرها وقد عقد طرفى القميص بربطة فوق بطنه. كان "اسفنديار" يتحدث من أنفه.

– إذا ماكنتوش ناويين تاكلوا مال الناس، طب ما تدفـ...

قاطع "فولاد" كلام "اسفنديار" وقال:

- ما إحنا بقى لازم يكون عندنا دخل عشان...

قاطع الرجل ذو القامة الطويلة كلام "فولاد":

- لا... الكلام ده مايدخلش دماغنا.

قال "ممدو":

- بيعوا هدومكو.

ضحك ياقوت بصوت مسموع.

فقال "ممدو":

- سم فى دم أهلك... بيضحك عليّا ده يعنى.

قال "ياقوت":

- طب تشترى إنت الكراكيب بتاعتنا؟

قال "ممدو":

- إتلهى إنت على دمك واسكت.

انتفخت أوداج "ياقوت" وقال:

- أنا أتلهى على دمى واسكت؟

وتقدم للأمام.

أشار الرجل ذو القامة الطويلة إلى اسفنديار وقال:

- فتِّشه يا اسفند... نشوف كده حقيقى اللى بيقوله إنه ماعندوش حاجة!

وهنا قفز اسفنديار فى براعة وخفة، وسحب "ياقوت" للأمام واعتصره بساعديه. بينما وقف الرجل ذو القامة الطويلة فى وجه الجماعة، وأخذ يلوِّح بنصل السكين.

- اللى هايتحرك منكو، ها اشرَّحه بالسكينة دى.

فتش "ممدو" جيوب صدرية "ياقوت" التى كان يلبسها على جسد عارى.

- بيه!... أيه المطوة الجميلة دى.

وضغط على زر سوستة المطــواة، حيث اندفع نصـــل المطــواة خارجًا ومعه صوت معدنى خشن.

صاح "ياقوت":

- إدِّينى مطوتى.

قال الرجل ذو القامة الطويلة:

- معاه إيه تانى؟

قال "ممدو":

- مفيش تانى غير القمل اللى معشش فى جيوبه!

فك "اسفنديار" ساعديه عن "ياقوت" وتركه حرًا. فبادر "ياقوت" بمهاجمة "ممدو".

- إدِّينى مطوتى.

جذب "الأسطى موسم" "ياقوت" إلى الخلف وقال له:

- اصبر شوية يا "ياقوت".

انتفخت أوداج "ياقوت" وقال:

- اصبر؟!... بقى أخد منِّى المطوة السلاح بتاعتى وتقول لى أصبر؟... ده أنا لو قطعوا رقبتى يا "أسطى موسم" مش هاسيب مطوتى تروح منى.

قال "على رضا":

- إدى له فرصة بس يا "ياقوت". وهو ها يرجع لك مطوتك.

تكلم "الأسطى موسم" فى ثقل وتباطؤ:

- شوف ياابنى لو كان الحاج "تراب" هو اللى بعتكم، فأنا لازم أقول إن ده تصرف مش كويس، لأنه هو نفسه يعرف إن إحنا طالما ماجالناش شغـــل فمش هايبقـــى عندنا ولا معانا أى حاجة.

أشار الرجل ذو القامة الطويلة إلى "اسفنديار".

- وريِّهم كده بقى اللى عندهم واللى معاهم.

وهنا اندفع "اسفنديار" صوب إحدى الغرف وانحنى وأمسك بطرف سجادة وسحبها وطبقها وطواها فى الهواء وتأبطها تحت إبطه، وقال:

- البنى آدم اللى ماعندوش ومامعاهوش هو اللى مات بس.

انفصل "أحمد على" عن الجمع وذهب صوب "اسفنديار".

- مالك إنت ومال سجادتى، هاتعمل بيها إيه؟

ووقف معترضًا طريق "اسفنديار"، وقبل أن يتحرك "أحمد على" ويمسك بخناق "اسفنديار"، كان "ممدو" قد هجم عليه من الخلف وكتَّف ساعديه خلفه، ودفعه للأمام، اندفع "أحمد على" إلى الأمام، وسقط على ركبتيه، وقبل أن يتحرك الآخرون، قفز "اسفنديار" منطلقًا إلى قبو الممر وخرج من الفناء، بينما أخذ "أحمد على"، الذى لم تساعده ركبتاه، يجرى وراءه وهو يعرج.

هجم "ياقوت" على "ممدو" قائلاً:

- إدِّينى مطوتى.

وقف "أحمد على" على عتبة الممر، ونظر إلى الأسطى "موسم" وصاح:

- ليه انتو ما تنطقوش، واقفين كده ليه.

وجرى إلى الخارج وأخذ يصيح.

- حرامى... سرقوا سجادتى.

لوّح الرجل ذو القامة الطويلة بنصل السكين مهددًا:

- السجادة دى هى ضمان لأجرة البيت. إذا دفعتوا هانرجعها، وإذا مادفعتوش هانيجى لكم تانى.

صرخ "ياقوت":

- طب ومطوتى؟

وأمسك بساعدى "الأسطى موسم" وأخذ يهزها ويقول:

- مش إنت قلت لى برضو اصبر وهو يرجعها لك؟

طأطأ "الأسطى موسم" رأسه، وانحنى برقبته، وركَّز نظرته إلى الأرض وتلون صوته بنغمة حزينة، وقال:

– ما إنت شفت يا "ياقوت". شفت أهه بنفسك،ماينفعش نتكلم معاهم دول.

ترك "ياقوت" ساعدى "الأسطى موسم" وجرى وفى مدخل المر أمسك بـ "ياقوت" محتضنه من الخلف.

– تكونش فاكر إنى هاسيبك تمشى؟

تحرك "ممدو" وتملص من حضن "ياقوت" متخلصاً منه، ولف ليقف فى وجهه.

– هاتمشى من قدامى ولا أكسر لك سنانك؟

– إذا ما إدِّيتنيش مطوتى أنا هاسيح دمك... ياللا هاتها.

همَّ "ممدو" بالمشى من أمام "ياقوت"، لكن "ياقوت" أمسك به من ساعده وأخذ يستعطفه.

– دى إداها لى المرحوم أبويا... المطوة دى هى حرزى... عشان خاطر ربنا، هاتها.

حرك "ممدو" ساعده ولف نصف لفَّه، ووقف فى مواجهة "ياقوت"، وأخذ ينظر شذراً فى عينيه، وزمجر من بين أسنانه المقفلة.

– إمشى غور، داهية تاخدك.

– مش هاسيبك إلا لما تدِّينى مطوتى... دى ذكرى من المرحوم أبويا.

أمسك "ممدو" بكتفى "ياقوت" ودفعه بعيداً.

– روح كده يحرقك ويحرق أبوك.

وهنا تمسَّك "ياقوت" بيد "ممدو"، وعض بأسنانه الجزء الطرى فى ساعده. وفجأة هوت قبضة "ممدو" على قفا "ياقوت"، ثم جاءته ركلة من الرجل ذى القامة الطويلة، أصابت جنبه.

جرى "على رضا" وخارت قوى "ياقوت" وتتابعت شتائم "فولاد" وسبابه، بينما جلس "الأسطى موسم" إلى حافة الحوض، محتضناً ركبتيه بساعديه. وبينما سقط "ياقوت" منهاراً على ركبتيه كان الرجل ذو القامة الطويلة قد خرج هو و "ممدو" من بوابة الفناء.

* * *

بدأت برودة الجو تزداد يومًا بعد يوم وزادت معها أعمال "ياقوت". فقد كان العمال يقيمون أشيائهم وأمتعتهم، ويقضون مصالحهم من بعضهم البعض، ثم إذا وجدوا شيئًا أو متاعًا لا ينفعهم - على الأقل - فى أيام الشتاء الباردة، كان يعهدون به إلى "ياقوت" الذى كان قد تحول إلى بائع متجول يقنع بالكسب القليل، وكان يقطع المدينة بطولها وعرضها ماشيًا على قدميه من الصباح حتى المساء ويجوب جميع السويقات حاملاً بضاعته على كتفيه وفى يديه.

- كويس قوى يا أسطى يد الله... أنا ها ابيع لك سروالك، بس وكيلنا ربنا وها آخد حقى على المية عشرة.

- لا... خمسة بس.

وكان "ياقوت" يقبل دون مساومة.

- خلاص على البركة.

وكان يأخذ السروال الذى كان قد تم تنظيفه جيداً، وتم تطبيقه بدقة، ويفــرده ويهزه ويفرده على آخره ويلقى به على كتفه، فوق السراويل الأخرى التى كان قد أخذها من عمال آخرين.

- غلام على، أنا معاك أهه... الشراب الصوف ده ليه زبونه الأيام دى.

وإذا بغلام على وقد بدا وكأنه خرج من قبر، يلوى عنقه القصير ويقول:

- لا. الشراب الصوف ده، هو اللى هاينفعنى كمان يومين لما البرد يشتد.

- طيب... أنا ماعنديش كلام أقوله... بس إنت عارف أنا باادور على مصلحتك، وأنا مش ها آخد أكتر من خمسة على المية، ووكيلنا ربنا، زى الأسطى يد الله...

- مش هابيبعه يا "ياقوت".

- طب بص يا غلام على. شوف البناطيل دى. شوف الساعات دى، إدوهانى كلها عشان أبيعها لهم. أنا بااعرف كويس أسوِّق الكراكيب وأى حاجة مستعملة وأبيعها كويس، وكمان فى مين هنا أحسن منِّى فى الموضوع ده؟... أهه بااكسب بالحلال وكمان همه بيثقوا فىَّ.

- إنت مش سمعت... أنا قلت له مش ها ابيعه. دلوقتى قوم بقى اتكل.

ولما اشتدت برودة الجو، صار "الأسطى موسم" يقطع طريق "المدينة". فذات يوم كان يجمع أشياءه وأمتعته، وكان يقول: "لحد كده كفاية... القعاد هنا مش جايب همه، والصرف من اللحم الحى. الأوضاع دى لو جه عليها الشتا، هاتكون أيامنا هنا أسوأ من كده... يلعن أبو اللى دلنى على الخرابة دى..." وكان "على رضا" يقول له "طب إنت مش شايف مصلحة فى إنك تقعد كام يوم كمان، يمكن ربنا يسهلها و..." عندها كان "الأسطى موسم" قد وضع غطاء الصندوق الخشبى، وجلس فوق الصندوق، وأخذ يشعل سيجارة فى تثاقل شديد، ثم وجه عينيه العجوزتين الضيقتين إلى عينى "على رضا" السوداوين الواسعتين، وقال له "لو سلمنا إنى قعدت كام يوم كمان... طب بعدها إيه اللى هايحصل؟... على الأقل فى البلد ووسط العيال، لما ييجى الشتا، لو صدرى قام عليا، ها الاقى مراتى العجوزة تغلى لى شوية مية... هنا مين هايعمل كده؟... هنا هايبقى فيه إيه؟... وكمان، فى الخرابة دى زى ما يكون عاملين الملاليم بتاعتهم دى ثروة. طب قوم إمشى كده واقف عند البوابة، وشوف كده كام عربية بتيجى فى اليوم... اقف كده يوم بحاله وشوف... يمكن تفهم فى الآخر زيى ان القعدة هنا مالهاش فايدة... وكمان فى الشتا هاتمر علينا أيام أشد وأسوأ من كده... أسوأ بكتير..." وبعدها كان قد سحب نفسًا من سيجارته وأطلق دخانها فى الهواء، وركّز نظرته على الدخان الأزرق المتصاعد، وسرح بفكره.

لما كان البرد قد اشتد، أصبحت الأيام أسوأ عما كانت عليه من قبل وصار الجو صعبًا والهواء يضرب ببرودته فى عظام الأبدان ويصيب الجلد والبشرة بالتشقق.

لما كان الخريف قد انتهى، كان العمل يسير لعدة أيام قليلة، وكانت الحياة تتحرك قليلاً مثل دودة تتحرك فى طين راكد، وأحيانًا ما كانت تتصاعد رائحة الطعام الساخن من تحت الأسقف المنخفضة الملوثة بهباب الدخان التى تسقف الغرف الصغيرة فى هذا البيت الشبيه بعنابر الجنود. ثم عادت الدودة مرة أخرى إلى كمونها وبياتها الشتوى بعد أن انقطعت نظرتها عن شمس الشتاء الغائبة، كانت دودة الحياة قد غارت برأسها وفروعها فى لجة الوحل والطين الراكد، وعادت البطالة من جديد.

– أقعد عشان إيه؟...أصلاً، قل لى إنت إزاى أقعد؟

كان "نبى" قد أصبح نحيلاً جداً. كأنه خيال المآتة بعينه، كأن حفنة من العظام تتلقلق داخل طيات سرواله وصدريته الواسعة التى صارت الآن فضفاضة عليه وواسعة على حجمه. وعرف "على رضا" طريق الرهن والاستدانة مرتين لكى يشترى له دواء "الكينين" ورغم ذلك لم

تعد له صحته كما يجب ولم يفق من أعراض مرض الملاريا الذى كانت نوباته تصيبه فى الصيف كل يومين، لكنها منذ بداية الخريف أخذت تصيبه كل يوم بنوباتها الحادة، حيث كانت النوبة تأتيه ساعة الغروب، فى البداية كان الغدر يسرى فى جسده، ثم تأخذ البرودة به مأخذها وتسرى فى سائر بدنه وتستمر فى شدتها، بعدها تأتيه نوبة استفراغ ثم يأخذ نبضه فى التسارع، وتخور قواه، وينام طريحًا غير قادر على الحركة، وعندما يعم الظلام المكان، يتخلص من الاحساس بهذه البرودة الشديدة لتحل به نوبة من الحمىّ والسخونة بعدها يتفصد جسمه كله بالعرق ليتحول لون جسده كله ولون بشرته إلى الزرقة عندما كان يأتى الليل، كانوا يمشون إلى بساتين النخيل، ليحجموا سعف النخيل الجاف – إذا حالفهم الحظ ولم يسقط المطر – الذى كانوا قد قطعوه فى الليالى السابقة، ليحملوه ويأتوا به إلى البيت ويكوّموه فى ركن من الغرفة، ويغلقون الأبواب، ويشعلون منه النار فى حفر حفروها فى أرضية كل غرفة، حيث كانت تتصاعد شعلات النيران بألسنة اللهب ومعها الدخان الأسود بهذا تتدفأ الغرفة وتمتلئ بالدخان المتصاعد من النار.

وفى أحدى الليالى من النصف الأول من الشهر الثانى من أشهر الشتاء. كان نبى قد جلس متربعًا على منامته، مستندًا بظهره إلى الحائط وقد سحب غطاءه على جسده حتى عنقه وأخذ ينظر إلى رماد الكانون البارد. وعندما ذهبت عنه الحمى والرعشة فى أول الليل، لم يستطع النوم بسبب الألم الذى كان ينخر فى عظامه. فمنذ ثلاث ليالٍ كان قد بلع آخر قرص لديه من أقراص الكينين، وكان كلما توجه إلى أحدهم ليقرضه ثمن الدواء وجده أسوأ منه حالاً.

كان "نبى" يتقلب طوال الليل تحت غطائه، ويرتعش من البرودة، وكان قد بلغ به الفكر مبلغه. كانت نظرته مركزة على الموقد البارد. وأخذته نوبة من السعال الجاف. رفع علبة السجائر من جانب منامته وأشعل منها سيجارة. كان "على رضا" يغط فى نوم هادئ عميق. وكان زجاج الفانوس البحارى قد أصابته عتمة الدخان المتصاعد من فتيلته العريضة. سحب "نبى" نفسًا من سيجارته، ثم أطفأها، بعدها نهض واقفًا وأخذ يلبس صدريته وسرواله الواسع، وحمل فى يد حذاءه الثقيل، وبعد أن دلف خارجًا من بين فتحة مصراعى الباب، انتعل حذاءه، ولف حول الحوض فى وسط الفناء فى حيطة وحذر وترقب، توجه بعدها ليخرج من البيت.

كانت السماء قد ضرب فيها لون مثل البللور المعتم. وانتشرت فيها النجوم هنا وهناك، كانت تشبه قطع الماس الرمادية المعتمة. والريح لافحة. كانت الأرض جافة، وصوت تدفق المياه على شط "بهمنشير" يترامى من بعيد. وتأتى معه أصوات احتكاك سعف النخيل المتكاثف.

سار "نبى" إلى جوار سور اللبن القصير الذى يحصر خلفه بساتين النخيل، ومشى فى اتجاه الطريق المعبد بالنفط المسال، حتى يصل إلى الساحة الواقعة خلف مبنى الإدارة، وظل يمشى أمام البيوت الخشبية التى يسكنها الفرنجة، حتى وصل إلى آخر بساتين النخيل.

كان "بنى" قد رفع ياقة صدريته لأعلى ليغطى بها قفاه ورقبته، ودس يديه فى جيوبه، ومشى منحنيًا، بينما كانت أسنانه تصطك، لا يقر لها قرار. والهواء البارد يدخل إلى رجليه من أسفل سرواله الواسع، وإلى جسمه من الطرف السفلى لصدريته، وصارت البرودة تلسع عموده الفقرى وظهره وكأنها الرصاص البارد. كان قد ترك خلفه السور القصير المحيط ببساتين النخيل. والآن حيث أخذ يمشى على جانب الطريق المعبد بالنفط، كان مبنى الإدارة على يمينه، طويلاً ممدداً يضرب لونه إلى البياض، بعقوده وبواكيه الكثيرة. وفى مواجهته كانت البيوت الخشبية قد قبعت متفرقة هنا وهناك تتخللها أشجارالنخيل العالية.

وبمجرد أن تجاوز آخر هذه البيوت، وجد نفسه فى الصحراء، حيث الأرض قاحلة جدباء، تغطيها طبقة سميكة من الرمل الناعم الرخو، الذى كان ينزاح تحت قدميه ليزيد من ثقلهما، كانت شعلات الغاز المشتعل برتقالية اللون والتى كانت تتصاعد من فوهات الأنابيب العالية فى معمل التكرير، تقطع استمرار سواد الليل وظلمته بين شعلة وأخرى.

عندما صار بعيدا عن البيوت الخشبية، جلس متربعًا إلى جانب أحد الأعمدة الخشبية لخط التلغراف البحرى، مستنداً إليه، وأخرج علبة سجائره من الجيب الواسع فى صدريته وأشعل سيجارة وأخذ يدخن.

كان الخليج واسعًا أمام وجه "نبى"، وصوت هدير أمواجه القوية يضرب أذنه، وصوت احتكاك الأسلاك النحاسية لخط التلغراف البحرى يشبه ثغاء الثعالب الجائعة عندما تتداخل أصواتها.

لسعت الريح بسوطها وجنتى "نبى"، ترك السيجارة مشتعلة فى فمه وأحاطها بكفيه وسحب نفسًا عميقًا، حيث سرى دفء قليل إلى كفيه من حرارة لهب السيجارة.

ألقى "نبى" بعقب السيجارة ودهسه بقدمه، ثم قام منتصبًا موجهًا وجهه إلى عمود التلغراف وأمسك بقطر العمود الخشبى الملوث بالنفط فيما بين كفيه، ونظر إلى أعلى، ثم دس بأصابعه زرادية قطع الأسلاك المعدنية فى داخل جيب صدريته الواسع. كانت البرودة قد ذهبت عن جسد "نبى" وبدأت السخونة والحرارة والحمى تسرى فى جسده، حيث وصل رحـ
يركب دراجة بخارية ودخل عبر الممر إلى فناء البيت.

كان راكب الدراجة البخارية ذا بنية متينة وقامة طويلة، ويرتدى ملابس صـوفية ثقيلة، ولما وصل إلى جانب حوض الفناء، أسند دراجته على مسند، وذهب متجهًا إلى الغرف.

كان صوت موتور الدراجة قد دفع رؤوس الرجال لكى تطل من فتحات أبواب الغرف كان الجو قد اقترب من ساعة الغروب، وما زالت الدنيا بها بعض الضوء. بحيث كان من يقف إلى جانب الحوض يستطيع أن يرى أقصى مكان فى الفناء. فرك راكب الدراجة يديه وهو لا يزال يلبس فيهما القفازين، وتوجه ناحية "على رضا" و "فولاد" اللذين كانا قد خرجا من الغرفة.

– عرّفونى... مين فيكو اللى قطع سلك خط التلغراف ليلة إمبارح؟

وبينما كان راكب الدراجة يتكلم، كانت نظرات الريبة تتطاير من عينيه.

– ... أيوه أنا أقصد اللى وراء البيوت الخشبية.

ارتفع حاجبا "على رضا" وفغر فاه وتركه نصف مفتوح.

– مننا إحنا... مين، عمل إيه؟

وضع راكب الدراجة البخارية يديه فى وسطه وقال:

– إذا كنتوا هاتلفوا وتدوروا عليّا،لأ أنا أعرف أخليكو تقولوا الحقيقة كويس.

تكلم "فولاد" وقال:

– إنت بتقول أيه أصلاً؟.... إنت عايز أيه بالظبط؟

تقدم راكب الدراجة إلى الأمام قليلاً وقال:

– إذا كنتوا ما تعرفوش حاجة حقيقى... فانا.... لكن...

سأله "أحمد على" الذى كان قد خرج لتوه من الغرفة:

رمق راكب الدراجة "أحمد على" بنظره وقال:

– لا با ادور على الحرامى اللى سرق سلك خط التلغراف.

قال "يمان":

– حـ..... حـ..... حرامى.....إ...إ...إيه؟

- زم راكب الدراجة البخارية شفتيه، ثم أمسك برقبته وأخذ يتكلم من عمق حنجرته وزوره.

- صحيح يمكن تقدروا تكسبوا لكو حبة فلوس مثلاً من ورا الخمسين متر سلك نحاس، بس اعرفوا برضو إن عقوبة العمل ده تقيلة قوى.

خرج "قباد" من الغرفة كان يلف نفسه ببطانية سميكة، ووقف إلى جانب "على رضا"

- أيه ده، عايز إيه؟

التفت راكب الدراجة البخارية نصف التفافة وقال:

- مين اللى موجودين جوا الغرف دى.

وأشار إلى صف الغرف التى تراصت إلى جانب بعضها فى صف دائر ما يدور حول الفناء.

قال "على رضا"

- إنت عايزهم يبقوا مين يعنى؟

قال راكب الدراجة البخارية:

- قول لهم إن ذنبهم على جنبهم.

ومشى بأقدام ثابتة صــوب دراجته وأدارها وركـب فوقها وساقها صوب الممر ليخرج من البيت.

دخل "على رضا" إلى الغرفة. كان نبى" متكئًا إلى الحائط،بينما قطرات العرق الكبيرة تسيل فوق جبهته. وإلى جانب منامته كانت هناك زجاجة كينين ذات خمسين قرصًا، أخذ يتكلم بصعوبة:

- تسلم لى إيدك يا على رضا... إدينى شوية ميه.

دخل " أحمد على" إلى الغرفة وهو يقول:

- أنا برضو مافهمتش الراجل ده كان عايز يقول إيه؟

استقرت نظرة "نبى" على شفاه "أحمد على" وهو يقول:

- مين ده وأيه اللى عايز يقوله؟

قال "فولاد" الذى كان يقلب جمر النار النصف محترق فى حفرة المدفأة:

- أظن أن.....

قاطع "أحمد على" "كلام" فولاد.

- يعنى أنت بتقول إنه كان بيظن أن احنا اللى عملنا كده؟

قذف "نبى" بقرص كينين فى فمه وسأل:

- ما قولتوش انتوا بتتكلموا عن مين؟

- قال "على رضا":

مفيش حاجة ياسيدى.... راجل كده جه لنا هنا وقال كلام فارغ كده.

سأل "نبى":

- عن أيه يعنى؟.. من مين؟...

ورفع كوب الماء إلى فمه.

قال "على رضا":

- هو نفسه مايعرفش.

- يعنى انت بتقول راح فين؟

- بجسمه المرضان ده وبالحمى والسخونية اللى عنده مايقدرش يخرج من البيت آخر الليل كده.

كان الجو بارداً، والمساء قد ضُرب فيها بلون شبيه بالبللور المعتم.

- طب بس أيه اللى حصل له طيب؟

أخذ "على رضا" تلفيحته على كتفه، وخرج مندفعًا من الغرفة، وملأ البراد الكبير بالماء، وعاد ليشعل النار ويضع البراد فوق الحامل على النار، وجلس متربعًا إلى جانب الموقد.

كانت منامة "نبى" خالية.

- ربنا يستر ومايكونش اتخبط فى دماغه.

كان كليم "نبى" وغطاؤه مطوياً، بينما كانت زجاجة أقراص الكينين ملقاة إلى جانب غطائه.

كان "نبى" قد وصل إلى البيت عند غروب اليوم السابق، وقد أخذته الحمى والرعشة أيما مأخذ، كان جسده كله مغطى بالعرق، وتناول أقراص الكينين، ثم أخذ يتحادث مع رفاقه فى الغرفة، ولما كانت عيناه قد ثقلتا، أخذه النوم، وها هى منامته خالية الآن.

كان الجو يلسع بالبرودة، والهواء الذى كان يدخل من فتحات باب الغرفة، يضرب فى وجوه الرجال كأنه حد الموسى.

- بس ده كان نايم لغاية نصف الليل.

يعنى ممكن يكون...

- يكون إيه؟

- يكون جاب مصيبة وبلوى لنفسه؟

- الله أعلم.

مر "ياقوت" على كل الغرف يبحث عن "نبى" لكنه لم يجده.

- اليومين اللى فاتوا دول لما كان بياخد أقراص الكينين، كانت حالته بقت أحسن.

- ربنا يلطف بيه.

ولما ذهب "على رضا" أمام مبنى الإدارة، ولم يحالفه الحظ فى أن يركب شاحنة العمال، توجه إلى أطراف المنطقة ليبحث عنه، ومن سويقة إلى أخرى، ومن هذه الورشة إلى تلك، ومن جماعة إلى جماعة أخرى، لم يجد له أثراً وكان "نبى" قد تحول إلى زيت وتسرّب إلى باطن الأرض.

لم يكد النهار ينتصف حتى كان "على رضا" قد عاد إلى البيت. كان "فولاد" و"أحمد على" و"قاصد" و"ملا قباد" قد تحلقوا حول منقد النار وأخذوا يتحادثون. بينما كان البرد الكبير يغلى إلى جانب الجريد المشتعل فى المنقد. والقدر النحاس الكبير فوق الحامل على النار. كانت الغرفة دافئة مفعمة بالدخان وحرارة النار.

- حصل أيه؟

رفع "على رضا" كتفيه، وجلس فوق كعبيه إلى جانب الموقد.

- اختفى خالص آهه.

وأخذ يقلب بالماشة الكبيرة حبات البطاطس فى الماء المغلى داخل القدر، ثم فرك كفيه فى بعضهما.

- أنا لفيت عليه أى مكان يخطر ببالك.

وصب لنفسه كوبًا من الشاى.

قال "فولاد":

- يعنى ممكن يكون خرج من البيت وهوه فى الحمى والهذيان اللى فيه ده، وقعدله فى حتة وسط غيطان النخيل، والبرودة جمدته ونشفته؟

قال "أحمد على":

- بس الحمى والرعشة يعنى بتقول إنها جاية؟...مايمكن جات له فى نص الليل برضو.

رفع "على رضا" كوب الشاى إلى فمه. فلسع شفته، صب الشاى فى طبق الكوب وأخذ ينفخ فيه ليبرده.

دفع "ياقوت" باب الغرفة من الخارج ودخل قائلاً:

- إنتوا سمعتوا؟

توجهت إليه النظرات متسائلة:

- سمعنا إيه؟

- بيقولوا إنه كان فيه جثة راجل تحت كوبرى بهمنشير ورفعوها من المية.

انتفض "على رضا" وقام نصف قومه.

- جثة راجل؟

- مين اللى قال كده؟

- كلهم كانوا بيقولوا؟

- كلهم؟

- انت شفته بنفسك؟

– شفته؟

أغلق "ياقوت" خلفه باب الغرفة، وألقى بالسراويل التى يحملها على كومة الملابس فى الغرف. وفك الساعات من معصميه ووضعها داخل كومة الغرفة، وجلس متربعًا إلى جوار الموقد.

سأله "فولاد":

– إنت شفته بنفسك؟

قال "ياقوت":

– أنا، لا!.... ماشفتهوش بنفسى.

نظر"على رضا" إليه غير مصدقًا وقال:

– يعنى ممكن يكون هو "نبى"؟

صب "ياقوت" الشاى لنفسه وقال:

– أنا لما وصلت، كانوا شالوا جثته خلاص.

قال "أحمد على":

– طب كويس

– كانوا بيقولوا إنه كان لابس سترة وسروال بلون رمادى

نهض "على رضا" منزعجًا.

– هدوم رمادى؟.... وأيه تانى؟

أخذ "على رضا" ملفحة كبيرة كانت معلقة على مسمار فى الحائط، وألقى بها على كتفه.

ارتشف "ياقوت" رشفة من حافة الكوب، وقال:

– كانوا بيقولوا إنه زى ما يكون انتحر، قتل نفسه يعنى.

قال "قاصد"

– انتحر؟!...طب ليه؟

مشى "على رضا" صوب باب الغرفة، بينما قال "فولاد":

– طب دلوقتى نعرف منين إنه مايكونش " نبى"؟

قال "على رضا":

هدومه رمادى...طويل و....

– قال أنا ما قلتش إنه كان طويل

قال "أحمد على":

– ماتخليش خيالك ياخدك لبعيد يا"على رضا"

امتدت يد "على رضا" صوب ضلفة باب الغرفة وهو يقول:

قال "قاصد":

– أنا قايم معاك.

وإذا "على رضا" وكأنه قد بُهت فجأة، يقول بصوت خافت فى هدوء وشك:

– أنا مش عارف ليه، قلبى بيقول انه هو؟

تحرك باب الغرفة قليلاً مدفوعًا من الخارج، ففتح "على رضا"ضلفة الباب وإذا به "نبى" يدخل إلى الغرفة. كان يبدوا متعبًا وفى حالة يرثى لها، وقد جرحت جبهته بجرح عميق، بينما تحول تحت عينه اليمنى إلى اللون الأزرق، والدماء قد تخثرت وجفت فوق وجنتيه.

وقف "نبى" مطأطئًا رأسه منحنيًا إلى الأمام وقد وضع يديه ولفهما تحت إبطيه.

– إنت كنت فين ياراجل؟

كان "على رضا" هو الذى سأله هذا السؤال.

لم ينطق "نبى" كانت أقدام سرواله ترتعش. كان وكأن الهواء يدخل مندفعًا إلى سرواله وإلى داخل أطراف سترته.

وجلس إلى جوار حفرة النار محتضنًا ركبتيه إلى صدره قذف "على رضا " بالملحفة إلى ركن الغرفة، وجلس فى مواجهة "نبى".

– إنت ليه مش عايز تتكلم؟

وسأله "فولاد":

- إنت كنت فين من ليلة امبارح لغاية دلوقتى؟

كانت شفتا "نبى" مطبقتين فوق بعضهما، بينما كانت نظـرته مركزة على شعلات النار وقد غارت رقبته بين كتفيه النحيلتين قال له "قاصد":

- تشرب شاى؟

ثم صب البراد فى كوب، ووضعه أمام "نبى".

زحف "على رضا" ناحية "نبى"، وأمسك بيده.

- إنت كمان لسه حرارتك عالية وسخن؟!

ولم ينطق "نبى" بكلمة، وظل مكانه متخشبًا تحت جلده الجاف، بينما كانت وجنتاه ترتعشان.

سأله "على رضا":

- إنت كنت فين ليـلة إمبارح؟.... كنت فين لغاية دلوقتى؟.... وإيه الزرقان اللى تحت عينك ده؟

نطق "نبى" وجاء صوته متحشرجًا، وكأن البلغم يمنع كلماته من الخروج:

- أنا جسمى كله مكسر ومنمّل.

- برضو الحمى تانى؟

- فى نص الليل كده؟

- لا... مش حمى ولا حرارة!

- أمّال أيه طب بس؟

لم يكن "نبى" قد شرب شايه، نهض وقام ليتمدد بملابسه على منامته، وتبعه "على رضا" ليجلس إلى جانبه:

- طب إنت ليه مش عايز تتكلم؟

أخفى "نبى" رأسه تحت غطائه وقال:

طب سيبنى دلوقتى أنام يا على رضا... أنا ليلة إمبارح حتى ماغمضتش عينى، يمكن بعد كده أقول لك كنت فين.

كانت الشمس قد دخلت من الشقوق الطولية فى باب الغرفة، وألقت بثلاثة خطوط متوازية من النور على أرضيتها، بينما كان دخان السجائر يتلوى فى مسار شعاعات النور الثلاثة، وأخذ "على رضا" يراوح بنظراته بين وجه "فولاد" و"أحمد على" و"قاصد" و"ياقوت" وبدأ الصمت يخيم على جنبات الغرفة، وبعدها بلحظات كان صوت شخير "نبى" يتصاعد بما يشبه الأنين الذى صار وكأنه يطن فى أنحاء الغرفة.

عندما حل المساء، نزل المطر شحيحًا كأنه الندى، وانكسرت حدة البرودة قليلاً وصارت السماء معتمة، وصار الجو داخل فناء البيت كأنه قد خربه الصقيع، بينما تساقطت على أرض الفناء خطوط من أشعة النور هنا وهناك أمام الغرف، كانت تخرج من الفتحات الطولية بين مصاريع أبوابها التى لا تنغلق بشكل جيد. كانت أطراف السعف تتشابك مع بعضها ثم تنفصل لتعاود اشتباكها من جديد.

والمشاعل الراقصة فى أعالى المداخن المرتفعة فوق أفران النفط قد ضربت تلك السماء المعتمة بلون الدم فى مواضع متفرقة.

كانت الرياح تدوى داخل فناء البيت، وتصطدم بالحوائط التى تقف فى وجهها. فتح "رحمان" باب سرداب صغير كان تحت الدرج المفضى إلى سطح البيت، وخرج منه.

مشى "رحمان " متسحبًا على أطراف قدميه إلى الغرفة المجاورة ونقر على الباب بطرف إصبعه. فجاءه صوت "على رضا":

– مين؟

قال "رحمان":

– قول لياقوت ييجى على اوضتنا.

ورد عليه صوت "ياقوت" :

– إنت "رحمان"؟

عاد "رحمان" إلى السرداب أسفل الدرج. انفتح باب غرفة "على رضا " وخرج منه "ياقوت"،

وفتح باب السرداب حيث سقط خط عريض من النور على أرضية الفناء لينزوى بسرعة ويختفى من جديد.

كانت "فتاة غجرية"، تجلس فوق منامه، و"أحمد على" يجلس بجوارها بينما جلس "رحمان" إلى جانب حفرة النار. وبمجرد أن أغلق "ياقوت" باب السرداب خلفه ووقع بصره على الفتاة، تسمّر فى مكانه، فاغراً فاهه مبعدا شفتيه الغليظتين عن بعضهما، بينما ارتفع حاجباه وأخذت ذقنه العريضة تتحرك. واندفعت رجلاه - اللذان يشبهان عمودين من الطين - إلى الأمام، وقذف بنفسه فوق المنامة، وقال فى تودد ممزوج بالرغبة:

حبيبتى... روحى يابنت الأيه!

سحبت الفتاة نفسها متزحزحة عنه قائلة:

- إوعى تلمسنى!

ارتسمت ابتسامة على شفتى "ياقوت" ثم عبس بوجهه، وقام على ركبتيه والتفت الى "رحمان":

- طب ليه جيت تنده عليا؟...هه... ليه؟

كانت نظرة "ياقوت" متوجهة الى الفتاة.

- أنا ناديت لك عشان....

وبدت حبات كبيرة قرمزية اللون فوق جفنى الفتاة

- .... عشان تيجى تشاركنا.

كان جفنا البنت الغجرية بهما تورم.

- طب أمال ليه بتقول لى إوعى تلمسنى؟

وتزحزح ناحية البنت.

- عشان أنت ماقلتليش هاتدينى كام؟

استقرت طيات الابتسامة تحت عينى "ياقوت"

- طب، أنا هاادى لك كل اللى إنتى عايزاه، تمانين.... ميه.... أنا معايا فلوس كتيرة. أنا بيّاع سريّح... بيدخللى فلوس كل يوم... ميتين.... تلتماية ويمكن أكتر.

زحفت البنت إلى الخلف... كانت شفتاها تضربان إلى السواد وبدا بعض التشقق عليهما، بينما انفغرا قليلاً فظهرت من بين شفتيها ثلاثة أسنان من القواقع العليا وقد أصفر لونها وصار كالحًا.

– أنا قلت لك أوعى تلمسنى.

عاد "ياقوت" إلى عبوسه من جديد. وقام نصف قومة وذهب ناحية "رحمان"، كان "رحمان" يفرد يديه فوق النار. وها هو يرى الآن وجه البنت من نصفه الجانبى.

سأله "ياقوت":

– بقولك، فيه حد عرف إنها جت هنا؟

هز "رحمان" رأسه بالنفى.

– كويس، طب ليه مش عايزانى ألمسها؟

– ياسيدى ماينفعش كده قدام بعض.

– طب ماتطلعوا إنتوا بره، هوه مش عزا يعنى.

كانت أنف الفتاة على استقامة واحدة مع جبهة قصيرة. وفوق جبهتها بدت بعض البقع السوداء، وبدت عظام وجنتيها فى بروز واضح، بينما تدلت شفتها السفلى بلون البشرة الذى لفحته الشمس.

مدت الفتاة رجليها. كانت الحفرة خلف عرقوبيها تصل حتى كفى القدمين، بينما كانت البشرة فوق عضلات ساقيها تبدو صفراء اللون. وقد أخفت قميصها تحت سترة صوفية رجالية، وجمعت شعر رأسها فى خصل معقوصة إلى بعضها البعض حيث تدلت شرابات وأشرطة الشعر المعقوص فوق صدغيها وعلى وجنتيها.

سأل "ياقوت":

– إيه قولتوا إيه؟.... أنا خلاص صبرى هاينفد

قال "أحمد على":

– لازم تديها ٣٠٠

– فغر "ياقوت" فاهه وقال:

- ٣٠٠؟ .... عشان إيه يعنى؟

وسرت منه نظرة استنكار إلى وجه "رحمان" وقال:

- الكل بيقولوا إن الغجرية بخمسين بس.

قال "أحمد على":

- بس إحنا ثلاثة أنفار.

قال "ياقوت":

- طب أنا مالى ومالكم إنتم.

قال "رحمان":

- ما إحنا لو كان معانا فلوس ماكناش ندهنا لك.

قال "أحمد على":

- وإحنا اللى لقيناها وجبناها هنا وإحنا خايفين.

خرج صوت الفتاة بما يشبه الزمجرة:

- اصلاً، أنا ماشية خلاص.

وهمت لتقوم، فأمسك "أحمد على" بمعصمها.

- أصبرى بس دقيقة واحدة.

- إنت مش قلت أن "ياقوت" معاه فلوس، هيه فين دى بقى؟

زحف "ياقوت" على كتفيه وركبتيه ناحية البنت.

- أيوه صدق اللى قالوه أنا معايا فلوس ..... مكسبى يوماتى ٣٠٠ وأكتر .... وكمان تعرفى إيه تانى؟....أنا عندى حداشر ساعة يد، ولو بعتهم هاالكسب من وراهم جامد.

بدت الدهشة على عينى الفتاة:

- حداشر ساعة يد؟

ضرب "ياقوت" بطرف سبابته تحت ذقن البنت، وقال:

– أيوه ياحبيبى... وكمان أنا ماقلتلكيش على البناطيل والچاكتات.

ألقت ابتسامة بطياتها تحت وجنتى الفتاة النحيلتين.

– طب هو فين ده؟

– تقصدى الساعات؟

– أيوه نعم... أقصد الساعات...الحداشر دول.

– فى الأوضة عندى.. لو أشوفك بكره، أوريهملك.

ضحكت الفتاة قائلة:

– بكرة...

وبرزت أسنانها الكبيرة الأمامية بما عليها من صفرة وسواد.

– ياريت أقدر أشوفك بكرة.

ابتلع "ياقوت" ريقه. وأمسك بمعصم الفتاة الرقيق بين قبضته الضخمة. فبدت العروق خضراء اللون على ظهر كفها بارزة.

قالت البنت:

– لازم تدفع الفلوس الأول.

– هاديكى...هاديكى الأول.

انتصب "ياقوت" بنصفه الأعلى. ثم مال على البنت وألصق شفتيه الغليظتين على وجنتها.

سحبت البنت نفسها إلى الخلف.

التفت "ياقوت" ورمق "ريحان" بنظرة فى عينيه وقال:

– طب ليه ماتخرجوش بره بقى انتوا؟

سأله "أحمد على":

– يعنى انت الأول؟

تراجع "ياقوت" من جانب الفتاة، وقال:

– طب تعال إنت الأول، وادفع إنت.

قال "رحمان":

– بس دى ندالة بقى

اعتدل "ياقوت" فى نصف جلسة وقال:

– أصلاً، أنا هاامشى بقى.

أمسك"رحمان" بيد "ياقوت" وقال:

– اصبر بس يا أخى دقيقة واحدة.

قالت البنت:

– ماتعطلونيش كده من غير فائدة.

دخلت ريح باردة من فتحة مصراع الباب. فارتفعت فتيلة المصباح إلى أعلى ثم هبطت من جديد. أمسك "ياقوت" بكتفى الفتاة وهم بها.

– طب كويس.... اصبر بس دقيقة وهمه هايخرجوا دلوقتى.

نهض "أحمد على" واقفًا. ولف المعطف حول جسمه وتوجه ناحية الباب.

– "ياقوت" ماتتأخرش كتير... الدنيا برّه برد قوى.

وبعدها، خرج "رحمان" من الغرفة.

كان الصمت يخيم فى أنحاء الفناء، والبرودة تلف المكـان، والسماء تملؤها العتمة، وبينما كانت كل الأبواب موصدة، كانت خطوط النور المتوازية قد امتدت على أرضية الفناء أمام أبواب الغرف.

منذ منتصف الليلة السابقة، وهطول الأمطار الساحلية يضرب أنحاء المدينة، وفى الصباح عندما قاموا من نومتهم، أخذوا يفرغون الأوانى والقدور من الماء الذى امتلأت به، وهى تحت تقاطر مياه الأمطار من فتحات فى السقف، أعدوا الشاى، ولف كل منهم بطانية أو ملحفة على كتفه، وتحلقوا حول الموقد ليختلط كلامهم وأحاديثهم من جديد.

– لو يكون المطر فى البلد كله خير زى كده، يبقى قعدتنا هنا ماعادش ليها أى فايدة.

- بس "الأسطى موسم" مابعتش أى مرسال عشان نعرف هو عمل إيه هناك.

- والله اللى عمله "الأسطى موسم" ده عين العقل، كويس إنه مشى.

- ياسيدى، كل واحد رزقه اللى مقسوم له بييجى له مطرح مايروح.

برقت عينا "فولاد" وقال:

- بس ربنا مايرضاش لعبيده الجوع والمصايب وقلة البخت دى...

- ربنا عادل.

قال "على رضا":

- لو فضل الحال كده بدون شغل لغاية آخر الأسبوع، أنا هاآخد بعضى وارجع على البلد... أنا خلاص قربت اتخنق...

قال "نبى":

- قعدتى هنا بجسمى المرضان ده مافيهاش خير من أصله.

كان صوت انهمار المطر ونهيب الرياح التى أخذت تضرب سعف النخيل الكثيف يقتحم الغرفة عليهم.

أخذ "ياقوت" يرص السعف الجاف فوق بعضه، وهو يقول:

- لو كلكوا مشيتوا أنا ها اقعد، أنا شغلى ومكسبى بيتحسن يوم بعد يوم، دلوقتى أنا معايا حداشر ساعة ودى فيها مكسب تمام.

قال "ملا قباد":

- أيوه ما هو كل ما حالتنا تسوء، شغلانتك إنت تتحسن

قال "ياقوت":

- مالى أنا ومالكم أنتم، أنا نيتى سليمة مع ربنا ويا اتكل عليه، عشان كده شغلى ماشى.

زام "فولاد" من بين أسنانه قائلاً:

- يعنى انت عايز تقول ان نيتنا سيئة وقلوبنا سودا يعنى؟

فغر "ياقوت" فمه الكبير، وأخذ يضحك مقهقهاً.

وقبل الظهر كان المطر قد توقف. وخفت حدة البرودة، وسرت السحب فى اتجاه الغرب، وصارت السماء كلها صافية.

ولم يكن النهار قد انتصف بعد وإذا بباب الغرفة يدق، فقال "على رضا":

- أدخل.

انفتح الباب، وإذا بشاب قصير القامة يقف فى إطار الباب. كانت رأسه كبيرة وشعره مجعد. وقد ارتدى على نصفه العلوى قميصاً صوفياً رمادى اللون.

قال "فولاد":

- أى خدمة؟

قال "على رضا":

- اتفضل ادخل.... اقفل الباب الدنيا برد.

ألقى الشاب بالتحية وأغلق باب الغرفة.

سأله "على رضا":

- إنت عايز مين؟

نطق الشاب فى تردد:

- أه.... أنا عايز .... ياقوت.

- أنا ؟

سأله الشاب:

- إنت "ياقوت" ؟

تحدث ياقوت باندفاع وقال:

- أيوه أمّال، أنا بنفسى، حتى أسألهم، كلهم عارفينى. أنا باابيع للكل اللى عايزين يبيعوه.

والتفت إلى "على رضا" قائلاً:

– دلوقتى بقى كل الناس تعرف إسمى. مش برضو عشان أنا نيتى سليمة ومابأكلش حق الناس.

ابتسم الشاب، ثم جلس إلى جانب الموقد، ووجه نظره إلى "ياقوت".

– أنا سمعت إنك بياع متجول وبتبيع المستعمل... مش كده برضو؟

– سمعت إنى... طب كويس... للكل... بص هناك، وأشار بيده إلى الملابس الملقاه فوق المنامة.

– ... أهه كل ده بتاع الناس... ادوهونى عشان أبيعه لهم.

قال الشاب فى هدوء:

– أنا عندى ساعتين وعايزك تبيعهم لى.

ابتسم "ياقوت وقال هو يبتسم:

– أبيعهم لك، ماشى... على المية تلاتين.

سأل الشاب:

– تلاتين؟

ثم قال:

– بس أنا سمعت إنك بتاخد أقل. وأنا جيت لك أصلاً عشان سمعت إنك بتاخد نسبة أقل من البياعين التانيين، وإلا فالبياعين كتير.

ابتسم "ياقوت" من جديد:

– آه، الأيام دى خلصت خلاص. دلوقتى الشغل حاجة تانية... أنا معايا دلوقتى حداشر ساعة، وبعدين إنت تعرف، أنا نيتى سليمة وأمين فى شغلى... وحاجته فى إيدى أمانة عندى، وهاتبقى زى ماتكون فى بيتك بالظبط.

تقلقل الشاب فى مكانه وقال:

– المية عشرين.

قال "ياقوت":

- أنا ارتحت لك... ماشي... إديني الساعات أشوفها.

قال الشاب:

- مش معايا دلوقتي.

- مش معاك؟... أمّال جيت عشان إيه؟

- يا أخي ماكنتش عارف إني هالاقيك.

نهض "ياقوت" واقفًا.

- خلاص، أجي معاك... قوم ياللا... نمشي... أهه رزق وبعته ربنا... أنا قلت النهارده كان كله مطر...

ونظر إلى الشاب:

- ليه مش عايز تقوم؟

قال الشاب وهو لا يزال جالسًا:

- اصبر بس دقيقة أدفّي إيديه.

أفرغ "ياقوت" إناء من تحت تنقيط السقف مما به ماء، وجلس.

- ماشي... وقت ماتحب.

بعدها بلحظات، قام الشاب واقفًا وقال:

- طب إذا أنا كنت عايز أبدلهم مع ساعتين من معاك؟... ممكن تبدلهم يعني؟...

لم ينطق "ياقوت". فاستمر الشاب ليقول:

- طب ايه؟ إنت واخد بالك من كلامي؟

قال "ياقوت":

- أنا مش عارف، يمكن أبدلهم معاك... بس لأ، الأول لازم أقول لأصحابهم.

قال الشاب:

- طب ياللا بينا.

ربط "ياقوت" الساعات فى معصميه، وألقى بالصدريات على كتفه، وأخذ السراويل والقمصان على يده، وخرج من الغرفة برفقة الشاب.

على حافة أطراف غيطان النخيل، كانت الأحذية تلتصق بالطين وتغوص فى الأوحال بحيث يصعب رفعها مع كل خطوة.

كانت رائحة النخيل المندى بقطرات المطر قد ملأت غيطان النخيل. دلف الشاب إلى داخل الغيطان من شق فى سور الطوب اللبن المحيط بها، بينما وقف "ياقوت" متردداً خارج هذا الشق. فقال الشاب:

- تعال إدخل.

قال "ياقوت":

- إنت داخل لغيطان النخيل عشان إيه؟

قال الشاب:

- هانخرًم منها... الطريق هايبقى أقرب.

دخل "ياقوت" فى حذر وحيطة إلى غيطان النخيل من فتحة السور. تعثرت قدمه، وقبل أن يتماسك ويمنع نفسه من السقوط كانت السراويل والقمصان قد سقطت على الأرض. عبس "ياقوت" بوجهه وقال:

- يلعن أبو الشيطان... يا أخى إيه الطريق اللى إنت واخدنى منه ده... الهدوم النضيفة المكوية كلها بقت مطينة.

رفع الشاب الملابس من على الأرض وتبسم وهو يقول:

- مش مهم يا راجل... لما نوصل ننشفهم وننطرهم ينضفوا على طول.

وأمسك بساعد "ياقوت"، ومشيا معًا إلى جوار بعضهما ليستكملا طريقهما بين جذوع النخيل المنتصبة. كانت الريح تدوى بين جذوع النخيل، بينما نزول المطر قد غسل الأغصان والفروع والسقف ولون الخضرة الداكنة فى الأوراق الإبرية لأشجار النخيل يأخذ العين ويجذبها.

عندما ابتعدا عن السور، وبمجرد أن عبرا أول قناة لمر السيل وكانت موحلة يملؤها الطين، توقف "ياقوت" ونظر بريبة إلى وجه الشاب وقال:

- إنت واخدنى على فين يا أخينا؟

سحب الشاب ساعد "ياقوت" وقال:

- خلاص قربنا، أول ما نعدى القناية التالتة، نحوِّد على السور ونعديه ونبقى على طول فى سويقة الجزم.

لم يتحرك "ياقوت" وقال:

- طب ليه بس من الطريق ده؟

ابتسم الشاب. ولمعت عيناه السوداوتان.

- إنت خايف؟...

قال "ياقوت":

- يلعن أبو الشيطان.

قال الشاب:

- إنت راجل برضو.

قال "ياقوت":

- خليها على الله.

ورفع رأسه إلى أعلى.

- امشى طيب.

مشى "ياقوت"، كان يرفع خطوته فى تثاقل، بينما كان كتفاه قد تقوسا. والهواء البارد يلسع فى وجنتيه.

بمجرد أن عبر القناة الثانية، إذا بشاب ذى وجه أحمر فى حدة لون الدبور، وشعر قرمزى يظهر فجأة ويقطع الطريق عليهما، وقبل أن يدرك "ياقوت" ما يحدث، انقض عليه الشاب ذو الوجه الأحمر ولكمه لكمة قوية فى ذقنه، فاختنقت صرخته فى حلقومه، ودارت رأسه، وأخذ يترنح ليسقط منطرحًا على الأرض، بينما كانت الساعات تفك من معصميه، وبعدها عندما حاول جاهدًا أن ينهض على ركبتيه. شاهد شبحى الشابين وهما يعدوان متسللين من بين

جذوع النخيل ويبتعدان ليختفيا فى الظلام...

... كانت الرياح قد خففت من حدتها وخفتت أصواتها قليلاً، وإذا بالماء الموحل الممزوج بالطين وقد انساح على الأرض بين جذوع النخيل يتقدم فى خطوط إلى عمق غيطان النخيل.

* * *

عندما حل الغروب، كان "ياقوت" قد أخذته حمًى وارتفعت حرارته. كان قد لف نفسه ببطانيته، وانزوى قابعًا فى ركن الغرفة مركزًا نظره إلى الأرض، ولم ينطق بحرف. كان لا يزال يعانى من دوار الرأس. ولا يزال الألم يضرب فى رقبته. إذ أنه عندما وجهت تلك اللكمة القوية إلى ذقنه كان وكأن البرق قد تطاير من عينيه، وفى لحظة واحدة رأى كل المكان حوله وقد أضىء بما يشبه ألوان الطيف، وبعدها أظلمت الدنيا واسودت فى عينيه، ثم أخذت غيطان النخيل بكل ما فيها من نخيل وفروع وجذور وأكوام سعف جاف تدور حول رأسه. كان فم "ياقوت" الكبير قد انغلق وأطبقت شفتاه الغليظتان على بعضهما، وصارت ذقنه العريضة وكأنها قد قدت من حجر.

عندما أضىء فانوس الغرفة، عاودت "نبى" رعشته المعهودة. نهض "نبى" ودس رأسه تحت غطائه، وزام قائلاً:

– الملعونة رجعت تانى.

كان "أحمد على" قد نفد صبره من "ياقوت" فقال له فى ضيق:

– إنت مش عايز تقول برضو أيه اللى حصل لك؟

بدا "ياقوت" كأنه قد نسى الكلام أصلاً.

فأكمل "أحمد على":

– من ساعة العصر وإنت جيت دايخ كده، وقعدت بالشكل ده فى ركن الأوضه وانت عمال تبص على الأرض... ماتقول بقى أيه اللى حصل لك... قول.

قال "على رضا":

– مالكش دعوة بيه، سيبه.

فجأة، قام "فولاد" نصف قومة وهو يقول:

– فين الهدوم، والساعات يا "ياقوت"؟

رفع "ياقوت" نظره من على الأرض. فبدت دموع فى عينيه، وتحركت شفتاه فى صعوبة وتثاقل وكأنها قدت من رصاص.

– أنا راجع معاكوا على البلد.

قطب "على رضا" جبينه، وقال متسائلاً:

– يكونش هوه الشاب اللى كان جالك الظهرية ده؟

طأطأ "ياقوت" رأسه وعاود النظر إلى الأرض.

قال "قاصد":

– نروح ندور عليه طيب.

قال "على رضا":

– إنت طيب وعلى نياتك إنت كمان.

تعالى صوت اصطكاك أسنان "نبى". نهض "فولاد" وألقى ببطانيتين فوق "نبى".

ظل "نبى" فى ارتعاشته. ولم تفلح الأغطية فى وقفها.

قال "على رضا":

– الحالة دى خلاص هاتقضى عليه.

قال "فولاد":

– ده خلاص مابقاش فيه رمق ياعينى.

قاموا برص السعف الجاف داخل حفرة الموقد، وصبوا عليه قليلاً من النفط وأشعلوا فيه الكبريت، فتعالت ألسنة النار مصحوبة بدخان كثيف.

كانت الحمى والسخونة قد تمكنت من "ياقوت". قام "على رضا" وملأ البراد الكبير بالماء، ووضعه إلى جانب راكية النار. بينما جلس "فولاد" عند رأس "نبى". كانت أسنان "نبى" تصطك فى بعضها... ذهبت الارتعاشة، وجاءت الحمَّى والحرارة والسخونة. دفع "نبى" الأغطية والبطاطين عن جسده.

كانت عينا "نبى" قد غارتا فى محجنيهما. بينما بدت أظافره باهتة اللون. وشمل العرق جسمه، وظهر البلل دفعة واحدة على جبهته كلها ورقبته. ارتفعت حرارته كثيراً. وصارت عيناه فى احمرار غريب. وكان معصمه فى يد "فولاد" الذى قال:

- ده عمال يسخن زى الفرن... ده بقى أسوأ من أى يوم فات.

ووضع "على رضا" كفه على وجه "نبى".

أحس "نبى" بأن الأرض تسيخ تحت قدمه، أحس أنه قد سقط فى دوامة وأخذ يلف ويلف. أغلق عينيه. وضغط على البطانية بين أصابع كفيه. وصار وجهه فى لون الدم. بينما احمرَّت أذناه. وأخذ يتمتم ويهذى: "لا... لا... عشان خاطر ربنا. لا... ". فتح عينيه. بدت عيناه كأنهما كأسى دم. عادت أهدابه لتنطبق على بعضها. وتعالى صوته أكثر: "أنا قلت لأه... قلت إنه مش أنا... الصحرا دى ملك ربنا. الغفير ده بيقول كلام فارغ... ماتظلمنيش... " نظر "فولاد" و"على رضا" أحدهما إلى الآخر، بينما جلس "قاصد" على ركبتيه إلى جانب "نبى" وسأله:

- إنت بتتكلم مع مين يا "نبى"؟

كانت شفتا "نبى" جافتين، وقد بدت الزرقة عليهما، نطق وكأن صوته يأتى من قاع البئر:

- مع مين؟... مع الظالم المفترى ده.

ثم سكت وسحب نفساً عميقاً ثم تكلم فى تلاحق "يا اه، هو انت حيوان؟... هو انت ما بتحسش... ده أنا كنت جعان يا أخى، كنت عايز أجيب دوا الكينين. يا أخى دى كانت مرة واحدة. والله كانت مرة واحدة بس. وأنا قلت لك الكلام ده... أنا كنت قلت لك إنهم هايقولوا لخديجة... أنا جت لى نوبة حمَّى الملاريا... والسيدة زينب أنا كنت قلت. آاه من الولية دى. خديجة خديجة خديجة قولى لهم إن الصحرا دى ملك ربنا... آاخ، إنتى عميتى لى عيونى... والله العظيم أنا راجل كويس خالص... هوه مش سيدى أبو الفضل قال لكم الكلام ده برضو... وآدى ابنى... قولى له إنتى يا خديجة إنها كانت مرة واحدة بس... قولى له إنتى إنى مش حرامى".

ولملم قدميه وجمعهما إلى بطنه ونكس رأسه إلى صدره، وخلص معصمه من يد "فولاد" ورفع يديه مدافعاً عن رأسه: "ماتضربنيش ماتضربنيش يامفترى. الجو بيمطر... أيوه أنا أقدر أشتغل... بصى لايديه... بصى لصوابعى وعضلاتى... أنا مش حرامى.. أنا قلت لك إنى كنت

عايز اشترى كينين... أنا خلاص هاتعمى... ماتضربنيش على رأسى... الدنيا بتلف حوالين راسى... يا ظالم يامفترى... حيوان... كافر ". ومد قدميه وفرق بينهما، واستمر يقول فى هدوء: "إنتى ماقلتيلهوش إنها كانت مرة واحدة؟ ماقلتيش إنها أول مرة وآخر مرة؟..." وفتح عينيه من جديد.

- إنت يا "نبى"؛ إنت عمّال تكلم مين؟

ورد "نبى" بصوت كأنه يأتى من أعماق الوادى:

- قولى له... قولى للغفير أبو شنب كبير ده.

كان معصم يد "نبى" فى يد "على رضا"، بينما كان جلده وبشرته تسخن مثل شعلة النار.

- إنت بتقول أيه يا "نبى"؟

أغلقت الغصة والمرارة حلق "نبى"، وبدت عيناه كأنهما كأسا دم، وهو يقول:

- لازم أمشى... لازم أروح البلد... البلد كويسة برضو.. على الأقل هناك الواحد مابينضربش بالشومة، مافيهاش غفير ظالم ومفترى كده... أقصد البلد.

وتقلّب على يده، ووضع ساعده فوق عينيه، كان صوت "نبى" محمومًا. يخرج من أعماق حنجرته، بينما جفاف فمه يقطع الطريق على الكلام الخارج منه، وهو يقول: "طب أنا كنت أعرف منين إن الغفير ده كان واقف متربص لى لغاية لما أقص سلك التلغراف... منين كنت أعرف بس!..." سحب نفسًا عميقًا وقال: "ما اعرفش إيه اللى رماه عليًّا.. الجبان ظهر لى مرة واحدة كده زى القضا المستعجل... أنا قلت له ده "على رضا" اشترى لى دوا الكينين مرتين... قلت له كمان أنا عايز... قلت له...." ورفع صوته بأقصى ما يستطيع: "موِّتنى، اقتلنى ماتسلمنيش للنقطة... أنا بنى آدم شريف أخاف من الفضيحة... لو عرف ابنى؟... إدفنى بالحياة... إدفنى حْى... حى... إدفنى...".

وسكت وباعد رجليه عن بعضهما، ووضع يديه فوق جبهته وهدأت شفتاه المختومتان بالزرقة، ولم يعد يصدر منهما أى صوت.

* * *

معـــاً

عندما خرجت من الخمّارة كان الليل قد أوشك أن ينتصف، ألقيت بسترتى فوق يدى، ووضعت رابطة عنقى فى جيبى، وفتحت أزرار قميصى.

كان دفء الخمّارة قد ذهب هو الآخر عن جسدى، وجفت حبات العرق فوق جبهتى. أخذت أنظر إلى كافة جنبات الشارع، لا أثر لطائر يرفرف. والمصابيح، بدت مستقرة بين تشابكات فى نهايات أغصان الأشجار.

كان الهواء عليلاً، وخرير الماء فى الجدول الجارى على حافة الشارع يشيع صوتًا جميلاً. طاب لى أن أشعل سيجارة. فتشت فى جيوبى، ولم أعثر على كبريت، فوضعت السيجارة بين شفتى وواصلت السير. وإذا برجل كان يأتى من بعيد. فى البداية سمعت صوت أقدامه، ثم رأيته وهو يقبل نحوى متثاقلاً. توقفت. واستندت إلى جذع شجرة. كان الرجل يدندن. لنفسه ومع نفسه: " تربع حبك فى سويداء القلب بدلال ليلى حين تتربع فى هودجها ". ناديته:

- يا أستاذ!

وقف. وقطع دندنته، وتوقف صوت ثقل أقدامه.

- مين... أنا؟!!

كأنه كان ثملاً.

- معاك كبريت؟

رمقنى بنظرة... ثم فتش فى جيوبه، وبعدها قال:

- هوم... أيوه معايا...

وأقبل نحوى....

- طب إدينى سيجارة.

أعطيته واحدة، سحب منها نفسين، وأخذ ينقل في قدميه، ونظر إليَّ مرة أخرى ومشى في طريقه. وعادت دندنته إلى أذني: "لا تعذب قلبي..." وانقطع صوته ثانية، وتوقف صوت أقدامه:

– يا أستاذ إنت ما رجعتش لي الكبريت بتاعي.

مشيت ناحيته.

– سامحني... نسيت...

قال:

– معلش... ما إحنا آخر الليل دلوقتي، والكبريت له قيمة برضو.

مشينا معًا في اتجاه واحد.

سألته:

– إنت قلت الكبريت له قيمة برضو؟

توقف. وضع يده فوق كتفي، ونظر في عينيَّ:

– أيوه، أنا أعرف ده كويس قوي...

وسحب نفسًا من السيجارة، وأكمل كلامه.

– ... لو كنت إنت كمان زيي كنت تعرف إنه أحيانًا في آخر الليل، سيجارة واحدة، أو عود كبريت واحد بيبقى له قيمة كبيرة.

واستأنفنا السير معًا:

– طب إنت كل ليلة بتقعد تتمشى كده؟

لم ينطق بكلمة. وأخذ يدندن " إذا دخلت شوكة في قدمي فسهل عليَّ إخراجها– فماذا أفعل بشوكة استقرت في قلبي " كان صوته ينفذ إلى القلب، وفي دندنته شجن، شجن مألوف، شجن كان قد تآلف معه.

وها نحن في شارع طويل، ينحني عند منتصفه، لكي يفضي إلى العتمة والظلمة، وليس فيه سوى صوت أقدامنا، صوت رتيب متثاقل في غير انتظام.

كانت سترتى لا تزال فوق يدى. وكنت أسير معه قدمًا بقدم. أحيانًا أتقدمه وأحيانًا أمشى بعده. كان يبدو متوسط القامة، له وجنتان بارزتان، ونظرة حادة أخاذة، تبدو الآن منهكة متعبة. كان عندما يتكلم يخرج صوته رخيمًا.

سألنى:

- إنت ليه ساكت؟

قلت:

- كنت بسمع دندنتك.

ثم قلت

- بتأثر فى القلب جامد.

ابتسم وقال:

- الناس بتصاحب بعضها وتحب بعضها بسرعة.

وقبل أن أرد عليه، عاد ليقول:

- بس ... بيبقى صعب قوى لما يفترقوا.

كان فى صوته شىء ما، شىء جذاب، شىء لم أكن أعرفه، كنت أحسه، لا أعرف، كأنه شرايين تخرج من القلب وتمتزج بالكلمات لتنقل حميمية القلب وحرارته ودماءه وترسل بها إلى قلب السامع.

عادت دندنته من جديد: "لا تعذب قلبى فهذا الطائر الجارح...". كانت أوراق الخريف تتساقط، ولا أثر للريح، والسماء بدت كأنها حزينة غارقة فى الشجن، وها قد وصلنا إلى نهاية صف مصابيح الشارع، حيث العتمة والظلمة، وصوت خرير ماء الجدول ما زال مستمرًا.

عند العصر عندما كنت أهم بالخروج من البيت، كان صوت زوجتى قد تعالى من داخل صالة المنزل وهى تقول لى:

- إنت متصور إن الشرب اللى بتشربه ده والسكر ده واللف والمشى طول الليل هو ده طريق العلاج.

عندها كنت قد توقفت عند عتبة باب الغرفة وقلت لها:

- لأ يا ستى... أنا عارف إنه مش هو ده طريق العلاج... أنا عارف ده كويس، بس ده على الأقل طريق للهروب.

بعدها كانت قد قالت وكأنها تحادث نفسها:

- طب أمَّال أنا أعمل إيه؟... أنا!... أنا أم برضو!....

صمت الرجل، قلت له:

- إيه رأيك بقى فى كاسين عرقى؟

قال:

- كاسين، ماشى.

ولم تكن الخمارة بعيدة، وعادت دندنة الرجل من جديد:

".... إذا انتفض منقضاً من فوق سقف فصعب أن يعود إليه "

ملأت كأسى إلى نصفه، وملأ كأسه إلى النصف، وشربنا، عبَّ كل منا كأسه فى جرعة واحدة، وتبادلنا "فى صحتك". مسح شفتيه بظهر يده ونظر إلىَّ. فى بياض عينيه كان شريان دقيق أحمر يجرى، بينما بدت أهدابه ثقيلة متهدلة.

ارتسمت طية تحت وجنتيه وانبسطت شفتاه ببسمة:

- تشرب تانى؟

قلت:

- الليل طويل.

قال:

- وأكيد الواحد ما وراهوش حاجة.

قمنا كلانا، وخرجنا من الخمَّارة. وسرنا حيث وضع أحدنا ساعده فى ساعد الآخر، وكنا نمشى على جانب الطريق يستند أحدنا على الآخر.

زوجتى كانت قد قالت:

- أنا أم برضو!... وأقعد كده لوحدى وحيدة، يقتلنى الهم والتفكير.

قال الرجل:

- إنت واخد بالك من كلامى؟

قلت:

- أيوه واخد بالى.

قال:

- طب إنت تعرف إيه عن الحريم؟

عندما كانت زوجتى قد رفعت سماعة الهاتف، وسقطت على الفور على الأرض فى ذهول، وكنت عندها قد فهمت وأدركت المصيبة التى حلت بنا، سحبت كرسى و....

قال الرجل:

- ماقلتش حاجة يعنى؟

.... دون أن أنطق بحرف، جلست على الكرسى وأشعلت سيجارة ونظرت إلى زوجتى التى كان البكاء قد احتبس فى حنجرتها، وأخذت تُنهنه و.... كأن زمنًا قد مضى وأنا أنتظر مثل هذا اليوم.

قال الرجل:

- طب... إنت ما تقولشى....

قلت:

- إيه ماأقولش إيه؟

قال:

- أنا باعرف عن الحريم حاجات كتيرة.

ومد يده ليجاملنى بسيجارة، فأخذتها.

كان الشارع طويلاً. وقد انحنى عند منتصفه، بينما أخذت النسائم العليلة التى كانت قد شرعت فى هبوبها، تتلاعب بأطراف الأغصان الطويلة الرقيقة فى أشجار الشارع حيث يترامى الآن صوت خشخشة أوراق الخريف الصفراء وصوت الماء الذى كان يترفق فى سيلانه داخل قناة الماء على جانبى الشارع.

توقف الرجل. وضع يديه فوق كتفىَّ، وحملق فى عينىَّ:

– وانت أيه أحوالك؟... أقصد مع الحريم يعنى... تعرف حاجة عنهم؟

وزوجتى كانت فى اليوم التالى قد ألقت بالعباءة على رأسها وأخذت المصحف تحت إبطها وذهبت لكى تقسم بدلاً من ابنتها أن كل تفكيرها وعقلها وتركيزها كان منصبًا على مذاكرة دروسها وقراءة كتبها و....

قال الرجل:

– إنت سرحت فى إيه؟

قلت:

– أنا معاك أهه.

قال:

– يوم يحبوك. يبكوا بالدمع عشانك، دموع تماسيح... يبوسوا إيدك، ويحلفوا لو السماء انطبقت على الأرض هايفضلوا أوفياء ليك. وفى يوم تانى ييجوا...

أمسك بيدى. مشينا معًا. والصوت الثقيل لوقع أقدامنا يشق سكون الليل وصمته. كان الليل قد جاوز نصفه. ترك الرجل يدى، وأخذ يحادث نفسه:

– ... وفى يوم تانى ييجوا... آآه...

وزوجتى لَّما لم يسمحوا لها بذلك رغم ما كانت قد فعلته من إظهار لعجزها وضعفها، وصدوها لترجع عن ذلك، كانت قد تمرغت على الأرض وأخذت تنوح وتولول وترسل بلعناتها وبعدها... كانت قد عادت لتقرأ مختلف الأدعية وتتضرع وترسل بالنذور والصدقات، و... حيث لم يُجد كل هذا نفعًا ولم يكن قد خلصها من همها وتوهانها و...

كانت المصابيح الملونة فوق باب إحدى الحانات فى مواجهتنا.

قال الرجل:

- أيوه يا سيدى!... ييجوا يحطوا إيديهم فى إيدك، ويوعدوك ويتفقوا معاك، ويتكلموا ويضحكوا ويعدين، وفى وسط ده كله فجأة يظهر شخص تانى يرموك ويتخلصوا منك زى الكلب الأجرب ويمسكوا فى إيده هوه ويمشوا ويسيبوك، ساعتها بس تفوق إنت وتفهم المصيبة اللى كنت واقع فيها... ساعتها بس تفهم إن كل ده كان كدب فى كدب، تفهم إنك كنت مخدوع رغم كل حبك وصدقك... مخدوع... أنت فاهم أنا باقول أيه يا سيدى؟... إنت تعرف أيه بقى عن الحريم؟... إنت أصلاً تعرف أيه عنهم يا راجل؟

وكأن تعبًا، حزنًا أو غصة قد توقفت فى حلقه:

- أنا بقى أعرف حاجات كثيرة... حاجات كثيرة.

"لا... مفيش حد عارف أى حاجة" كنت قد قلت هذا لزوجتى، وكانت قد قالت لى "مفيش حد عنده أى معلومة". ولما كان الغروب قد حلَّ ولم نكن قد سمعنا صوت جرس باب بيتنا المعهود، ولم نكن قد سمعنا صوت ابنتنا الرنان، وبعدها لمَّا كنا قد رأينا أن أحدًا لم يسقْ زهور الحديقة الصغيرة ولا أصص الورد وأن رشاشة الماء الخضراء اللون لم تتحرك من فوق الحافة الأسمنتية المحيطة بالحديقة الصغيرة، كنت أنا قد لجأت إلى الشرب والعرقى، وكانت زوجتى قد ذهبت إلى دولاب البيت، وأخرجت معطف ابنتنا الأزرق اللون، وقالت وكأنها تحادث نفسها وتتكلم لقلبها " الخريف والبرد قربٌ خلاص... ولازم أودى هدومها الشتوية تتغسل وتتكوى عشان بنتى... بنتى دلوقتى ما تاخدش برد... " وبعدها كانت قد سمَّرت نظرتها بنظرتى وأخذت تلصق المعطف بوجنتها وتشمه والدموع فى عينيها - التى كانت تبدو متعبة منهكة - قد تحلقت حولهما و...

قال الرجل:

- ياللا بينا يا راجل!... ياللا نمشى نروح ناخد لنا كاسين تانيين عشان أقول لك وأحكى لك عن اللى عانيته... عشان أقول لك أنا أعرف أيه عن الحريم.

كان الهدوء والفراغ يخيم داخل الحانة، بينما يجلس رجلان إلى جوار بعضهما فوق مقعدين من المقاعد المرتفعة أمام البار وقد ألقيا بنصفيهما العلويين على رخامة البار.

وقبل أن نسحب مقعدين من مقاعد البار لنجلس عليهما سمعت أحدهما يقول:

- أيوه يا أخى... فيه حاجات أهم من الشغل ومن المكسب. كان الرجل الذى يتكلم، رجلاً أصلع قصيراً ويقعّر فى الكلام. كان لسانه قد ثقل.

- أيوه يا عزيزى... أهم... أهم بكثير.

وابنتى، كانت قد قالت "لو ما عرفتش أتكلم، الأكل هيفيدنى بأيه... الشغل هاينفعنى فى إيه..." وفى العصر، وقبل أن أخرج من البيت، كانت زوجتى قد قامت بتغيير الملاءات فوق سرير ابنتى وأخذت تنظر من النافذة إلى السحب التى بدت نتفًا فى السماء، وبعدها كانت قد ذهبت إلى دولاب الملابس، وأخرجت أجمل معطف، كان لونه يشبه لون الفيروز الشفاف، وطرحته فوق سرير ابنتنا، وركعت أمام السرير وأخذت تتمتم "... يمكن نص الليل يبقى برد قوى - يمكن بنتى حبيبتى دلوعتى تبرد... "وبعدها عندما كانت قد خرجت إلى صالة البيت ورأتنى وقد ارتديت ملابسى لأخرج، كان صوتها قد تعالى"... طب أمّال أنا أعمل إيه؟... أنا أم برضو!... "والآن هذا الرجل القصير الذى يبدو وكأنه قد ابتلع غيظه، وأخذ يزمجر من أعماق حنجرته:

- البطن دى ممكن تتملى بأى زبالة... لكن...

حيث قتلت قهقهة الرجل الآخر الذى كان يجلس بجواره، الكلام فى حلقه.

- كفاية كاس فى الخمسينة؟

قلت:

- كفاية!

حيث عبّ كل منا كأسه فى جرعة واحدة.

- أيوه أنا كنت بااتكلم عن الحريم، عن المرأة.

قلت:

- أيوه... كنت بتتكلم عن المرأة.

فبدأ فى الحكى:

- معاك... تخرج... تمسك فى إيدك. وأنت تستلف بدلها. وتتملى بالمحبة. قلبك يرفرف... وتبقى عايز تفرش لها الأرض ورد تحت رجليها... وتحس أنك بتملك كل سعادة الدنيا وجمالها... والدنيا تبقى جميلة. جميلة فى جمال كل ألوان الطيف... تحس أنك محظوظ وسعيد الحظ...

انك كبير وعظيم... وتشم في خدودها ... وتبقى مليان بالحياة والنشاط وتقعد تفكر وتسرح... تفكر فى الحب، فى عظمة الحب وإزاى بيخلى بنى آدم يبقى زى ما يكون نصف إله... أنت فاهمنى يا راجل!... وأنت بقى كده هيمان ومغرم بيها ومسطول وغايب عن نفسك فجأة تشوفها بترقص فى حضن واحد تانى فرحانة مبسوطة وبتضحك ومظـــأططة. تشـــوفها أنها رمتك. زى ما تكون فردة جزمة قديمة، زى ما تكون شراب قديم معفن. تشوفها وهيه طول الليل عماله تتكلم وتضحك مع واحد تانى غيرك.

تنهد بصوت عال، وقذف فى عينىّ بنظرته الحادة الفطنة التى تبدو الآن متعبة منهكة مخدوعة، فراوغت بنظرتى عنه.

قال:

- قوم يا راجل!... قوم بينا نمشى!

ولمَّا خرجنا، وتنفسنا الهواء فى الخارج وأشعلنا سيجارتين، عاد ليتكلم. فى كلامه كان شىء ما يجذب الإنسان. كان كأنه صدق ومحبة تفيض بحرارة الدم.

- أنت ما تعرفهمش... أقصد الحريم.

أمسك بساعدَى:

- إمشى يا راجل!... أمشى معايا عشان أقول لك وأحكى لك. وزوجتى كانت قد قالت "إمشى يا راجل!... شرب العرقى مش بيعالج أى ألم... قوم أمشى معايا عشان نشوف هانوصل لإيه فى النهاية... بنتى الصغيرة... بنتى حبيبتى دلوقتى..." حيث كنا قد ذهبنا ومشينا وتكلمنا و...

قال الرجل:

- أنا قلت لك.

زوجتى كانت قد قالت:

- أنا قلت لك... أحلف بالله إنها كانت دايمًا ما تفكرش غير فى دروسها وكتبها.

وحيث كان داخل الآذان وكأنه امتلأ بالرصاص، وكأن الشفاه كلها قد قدت من رصاص وانطبقت على بعضها ومع رص فى الكلام من أنيس يصعب العثور عليه وصدق هارب فى عيون كانت خائفة.

كان الرجل الأصلع قد قال:

- أهم من الشغل وغير الأكل فى حاجة تانية ضرورية.

وقال الرجل:

- آآه يا راجل!... المرأة، دى حتة...

وزوجتى كانت قد قالت:

- بنتى الدلوعة دى حتة جوهرة.

وقال الرجل:

- إنت معايا؟

قلت:

- أيوه معاك.

قال:

- ولمَّا تيجى تسألها إزاى قلبها قدر يطاوعها انها ترميك وتروح ترقص مع واحد غيرك، تلاقيها تبص فى عينيك وتقول بكل سهولة ولا كأنها بتشرب ميه، إنها كانت فى الأصل بتدور على فرصة زى دى عشان تفهمك إنها مش بتحبك.

كانت السحب قد عبرت نتفة نتفة ولون السماء أخذ يميل إلى البياض، والنسيم العليل الذى أخذ يواجهنا، كان يلطف من حرارة وجنتىَّ ويذهب بما بهما فى سخونة.

وعلى حافة قناة الماء - الذى كان صوته محبباً - سرنا حتى نهاية الشارع.

قال الرجل:

- إنت سمعت أنا قلت إيه؟

- أيوه سمعت.

قال:

- فجأة تلاقى نفسك واقع مهدود، زى أى مبنى، زى عمارة اتبنت فوق الطين والوحل، وتسمع بنفسك صوت وقوعك وهدتك... أقول لك إزاى؟... تسمع إنه فيه شىء جوه قلبك اتهد وانكسر. وقع فوق بعضه، فوق بعضه!

كان الرجل يتكلم فى تثاقل، يتكلم بشكل متقطع، كان كأنه ينهنه، وزوجتى التى كانت نهنهتها قد أوقفت البكاء والكلام فى حلقها، كانت قد قالت وسط بكائها "الواحد هيقع من طوله. ومفيش حد يقدر حتى يستمع لكلامك اللى بتقوله" وكان الرجل الأصلع قد قال:

- ده ضرورى أكتر من الأكل والشرب.

وابنتى كانت قد قالت:

- فى داهية معدتى، تتفجر بالرصاص، لو كان الهدف هو ملو البطن وبس.

ووقف الرجل:

- أنا تعبت خلاص.

قلت:

- طب نقعد شوية.

وجلسنا على حافة قناة الماء.

كان صوت الرجل، هادئًا، يغالبه النعاس:

- ... وبعدين ولمًّا تعوز تعرف ليه؟... تيجى قايلة لك بكل سهولة برضو وكأنها بتاكل ملبن. وإيش يعرفك أنى ما كنتش فى الليالى التانية مع رجالة تانيين غيرك؟

خلع حذاءيه وكذلك جوربيه، ووضع قدميه داخل قناة الماء. أشعل سيجارة أخرى ودون اكتراث سحب منها نفسًا. ولا زال دخانها داخل فمه وقال:

- ... وهنا بقى تفضل تسأل نفسك هوه فعلاً ده حقيقى؟... حقيقى إنها كانت بتبقى فى الليالى التانية مع رجالة تانيين غيرى؟... طب والعيون دى اللى كنت بتحبها كل الحب ده، وكل الدلال والدلع والحب ده اللى كانت بتبص لك بيه، كان أيه؟... كله كان كدب... كله؟... تنهد الرجل. تنهد بصوت مسموع.

- أيوه يا سيدى... إنت ماتعرفش الحريم... تيجى تفتَّح عينيك وتفوق وتشوف إن كل ده كان كدب... كله!... وزى ما يكون كنت بتحلم بكابوس، كابوس مخيف ومرعب؟...

وزوجتى التى كانت قد صرخت وكانت قد انتفضت مفزوعة من النوم، وأخذت ترتعد تماماً مثل شخص هزيل أصابه الصقيع، وكانت قد أمسكت بيدىَّ وأخذت تبكى بحرقة ومن أعماق قلبها كانت قد قالت: " بنتى الصغيرة دلوعتى... بنتى... زى ما يكون كده يعنى حصل لها مصيبة وحطت عليها... آآه يا راجل!... كان كابوس مخيف ومرعب!..." وبعدها حيث كانت قد وضعت رأسها على صدرى: " زى ما يكون كانت الدنيا ليل... ليل مخيف... والبرد والتلج مالى الدنيا. وبنتى الصغيرة... زى ما يكون كانت فى قعر بير... زى ما يكون كانت ورا أسياخ حديد... زى ما يكون كانت بتغرق فى دوامة من الدم، دم أسود... بنتى الصغيرة بنتى الدلوعة... " حيث كانت غصة مهلكة قد ملأت حلقى، وكان عرق بارد قد تفصد فوق جبهتى، وكان عمود ظهرى قد تجمد كالثلج، وحيث كنت قد أخذت أربت على رأس زوجتى وأمسح على شعرها وأهدئ من روعها.

قال الرجل:

- ساعتها بقى يبقى انت فقدت كل شىء... لا إيد تمسح ولا تطبطب عليك... ولا ثقة ولا... تعرف يا راجل... ساعتها تكره نفسك أكتر من أى حد تانى... وتبقى عايز إن الدنيا كلها تتهد فوق دماغك... اتفووه!... سكت الرجل وفتش فى جيوبه. ثم أخرج قدميه من الماء، بعدها رفع أسه، ونظر إلىَّ بنظرة كانت تبدو مخدوعة، وقال:

- إنت معكش سجاير؟

ولم يكن معى.

فقال:

- شفت بقى يا راجل!... شفت بقى مش قلت لك إن فى آخر الليل. الواحد بيبقى مستعد أنه يدفع كل اللى معاه عشان سيجارة واحدة.

نهضت من جانبه. فسألنى:

- على فين؟

قلت:

- أروح أشترى سجاير.

استند إلى جذع شجرة عجوز وانطبقت عيناه على بعضهما.

- هاانعس لى شوية لغاية ما تيجى.

حيث مشيت، وعبرت الشارع عند المنحنى، وذهبت لأشترى السجائر كانت المرارة تملأ فمى. ورأسى بها دوار. ووجنتيَّ تملأهما السخونة. وفجأة سرى فى الشارع هواء الفجر بلونه الصافى، وهبت طراوة وقت السحر، وذهبت أنفاس الصباح بسخونة وجنتيَّ.

كانت أوراق أشجار الخريف، بلون أصفر مغبر، وبلون بنيٍّ ذاهب، وبلون ذهبى قاتم، وبلون نحاسى باهت، تتطاير على قارعة الشارع مع كل هبة نسيم.

ولمَّا وصلت عند مفترق الطرق، توقفت أمامى سيارة.

– الأستاذ رايح فين؟

سألته:

– معاك سجاير؟

قال:

– آه، إنت أكيد جاى من الخمَّارة؟

فتحت باب السيارة وركبت.

– أنا رايح البيت... على الناحية اليمين.

وتحركت السيارة من مكانها.

* * *

الدمـــل

جاءت خالتى "جول" وأخذتنى معها إلى بيتهم. كان الوقت غروبًا، والجو مغيمًا. أخذنى زوج الخالة "جول" فى حضنه وأخذ يمسح على شعرى، ثم قبَّل جبهتى ووجنتىَّ. وأخذت أنا أداعب شاربه الذى كان مثل خيوط القطن الناعمة لكنه لم يكن أبيض اللون مثلها.

بقيت فى بيت خالتى "جول" لعدة أيام. عشرة أيام أم إثنى عشر يومًا لا أتذكر بالضبط، لكنى أتذكر أن ذلك كان فى الصيف، وكان الجو حارًا.

– خالة "جول"، ليه مش لازم أروح بيتنا؟

تحضننى الخالة "جول". وتضممنى إلى صدرها بشدة، وتداعب شعرى الطويل وتمسح عليه وتقول:

– أمك بعافية شوية يا حبيبى.

كانت الخالة "جول" هى نفس أمى بعينها، متوسطة القامة، نحيفة، ذات بشرة بيضاء وعينين سوداوتين، وشعر طويل منسدل.

– طب ماشى يا خاله "جول"... أنا مش هاعمل لها حاجة.

كان الجو قائظًا. وأحيانًا كانت تهب نسائم عليلة تذهب بحرارة الجو. وقبل ساعات الظهيرة كنا نجلس فى الشرفة. كنت أنا مع "نى نى" ابنة خالتى "جول" و"نانا" ابن خالتى "جوَل" وكانت نينه "الجدة" نرجس معنا أيضًا.

كانت نينه "نرجس" تبدو دائمًا وكأنها باقة من الورود... دائمًا نظيفة فى نفسها وملابسها. وكانت الخالة "جول" تعد لنا أحيانًا "مهلبية" لنأكلها، وأحيانًا تضع الشربات لنشربه باردًا. ولكن فى أغلب الأيام حيث كنا نجلس فى ظل النخلة وسط فناء البيت ونلعب بالدمى والعرائس، كانت الخالة "جول" تأتى لنا وهى عائدة من السوق بحبات المشمش اللذيذ. وكانت تنادى علـ أول ما تصل، فكنت أذهب إليها وأجلس على ركبتها وأتشمم رائحتها. كانت رائحة حـ

تشبه رائحة جسد أمي، وكانت تنتخب عدداً من حبات المشمش اللحيمة الكبيرة، وتضعها في يديّ، ثم تنادى "نى نى" و "نانا" ثم عندما نعود مرة أخرى لنجلس تحت ظل أجمة النخلة الخضراء تأخذ هى فى إخراج اللحم وحزم الخضروات والخضرة من السلة التى عادت بها من السوق.

وفى الليالى كنا نصعد فوق السطح. عند الغروب، كانت "نى نى" تقوم بكنس أرضية السطح بيديها الصغيرتين. كانت " نى نى " نحيلة. ذات جديلة مضفورة طويلة. وقامتها أطول منّي، وذات وجه مستدير، مثل وجه الخالة "جول"، مثل وجه أمي، وكان " نانا " يأتى بعد "نى نى" ليرش السطح بالماء. حيث كان الجو يتعبأ برائحة العلف والتبن الندية الطيبة ثم نقوم ثلاثتنا بفرش المنامات فى هذا الجو اللطيف. وكنا ننظر من فوق السور اللبن المحيط بالسطح لنتفرج على الحارة، على الأبقار والماشية وهى عائدة من البرارى، حيث كان الغبار يتصاعد من أرضية الحارة. بينما كان كلوب الجاز المعلق فى المخبز المواجه لمنزل الخالة "جول" ينير كافة جنبات الحارة. ولما كنا نتعب أو نصاب بالملل، كنا نتمدد فوق المنامات ونتدحرج ونتقلب فوقها ونظل نلعب حتى يأتى زوج الخالة "جول". عندما كان يأتى زوج الخالة "جول" كنا نجتمع جميعاً ونتحلق لنتناول طعام العشاء. ونضع الفانوس البخارى إلى جانب مفرش الطعام. كان عشاؤنا من الخبز والبطيخ مع الجبن. وأحياناً يكون فيه أيضاً دبس التمر مع الأرز باللبن وأحياناً يكون معه لبن الأبقار مع التمر والرطب. ولما كنا نفرغ من العشاء، وينهى زوج الخالة "جول" صلاته، كنا نتحلق حوله ليحكى لنا حكاية.

– بابا، إحكى لنا حكاية.

لم يكن لنينه "نرجس" أى شأن بنا. كانت تنتحى فى الناحية الأخرى من السطح، وتجلس فوق سجادة الصلاة وتأخذ فى التسبيح بمسبحتها، وكانت الخالة "جول" تذهب هى الأخرى لتنزل وتنظف الصحون، أو تغسل الملابس، أو أى شىء آخر من أعمال المنزل. وكان زوج الخالة "جول" يحكى لنا حكاية.

– كان يا ما كان...

وبعدها، عندما كنا نتعب، كنا نقوم لكى ننام، وبالأحرى كنا لا نرغب فى أن ننام، وكنا لا نزال نرغب فى أن يدخن زوج الخالة "جول" سيجارته ويحكى لنا من جديد حكاية أخرى.

– يالللا يا ولاد قوموا... يالللا يا حبايبى قوموا، قوم يا ناصر.

ولما كانت "نى نى" و "نانا" ينهضان ليناما كنت أنا أيضًا أنهض. كنت أنا و "نانا" ننام إلى جانب بعضنا. وقالت لى أمى ذات مرة أننى أصغر من "نانا" بثلاثة أشهر:

– لما خالتك "جول" وضعت، كنت أنا حاملة بيك فى ست شهور.

– أمى...

– أيوه يا بنى مالك؟... نور عينى.

كنت أتدلل عليها وأقول لها بسرعة فى كلامى:

– أمى... ليه الخالة "جول" خلفت أخت لنانا وإنتى مش عايزة تخلّفى لى أخت زيها؟

أفهمتنى أن الخالة "جول" قد أنجبت "نى نى" أولاً. كانت "نى نى" تكبرنى بسنتين وستة أشهر. وكانت أكبر من "نانا" بسنتين. لكن أمى لا تلد لىّ أخت قط.

بقيت فى منزل الخالة "جول" لعشرة أيام لا أدرى، ربما كانت اثنى عشر يومًا. كنا فى الليل ننام أنا و "نانا" إلى جانب بعضنا، كنا ننظر إلى صفحة السماء ونتفرج على النجوم. ونظل نتحدث حتى يغالب النوم عيوننا.

وفى اليوم العاشر، لا أعلم ربما كان اليوم الثانى عشر، أخذتنى الخالة "جول" مرة أخرى معها ومشينا وعادت بى إلى بيتنا.

كانت حالة أمى قد تحسنت. كانت قد نُصحت بأنها يجب ألا تلبس ملابس سوداء حتى تتخلص تمامًا مما بها من تعب وإرهاق. كانت عينا أمى قد بدتا محمرتين. وقد شملها ورم ظاهر. أخذتنى فى حضنها، وبعدها لا أعلم ماذا حدث كى يأخذها البكاء فجأة، كنت قد أدركت من قبل أنها كلما كانت تتذكر أبى كانت تأخذها نوبة من البكاء.

– أمى....

قبلت شفتىَّ.

– أمى... إمتى بابا هاييجى بقى؟

لم تقل شيئًا. وأخذت تقبلنى مرة وتبكى أخرى. بعدها وفى المرات التالية، عندما كنت أسألها عن أبى، كانت تقول:

– اصبر شوية يا بنى... ما شاء الله، ألف ما شاء الله أنت خلاص كبرت آهه.

لا أتذكر متى كان الوقت عندما رحل أبى. كان وكأنه فى الصباح الباكر جداً، أو كان وقت الغروب. أتذكر فقط أن الشمس لم تكن موجودة، والجو كان معتمًا قليلاً. وكنت أنا قد جلست فى صالة البيت. كان الجو بارداً، وكان حلقى يؤلمنى، وكأن أمى كانت قد ربطت شالها الصوفى حول رقبتى. رفعنى أبى من على الأرض مثل قشة خفيفة وقبّلنى. ثم وضعنى على الأرض كان كأنه فى عجالة شديدة. كأن أحداً كان ينتظره. بينما كان تركيزى فى لعبى. أظن أن عينى أبى واسعتان، وأنفه عريض. ووجنتيه تبرز عظامهما، مثل زوج الخالة "جول". لكنى لا أتذكر أن له شارب.

- أمى، إيه هوه شكل بابا؟

- طويل يا بنى.

زوج الخالة "جول" قصير القامة. ووجهه منحوت أيضًا.

- طب هوه زى خالى حبيبى؟

فتأخذ أمى فى تمشيط شعرى. كانت قد تركت شعر رأسى يرسل ويطول مثل البنات.

- أيوه يا بنى هوه زى خالك الحبيب. بس كتافه هوه عريضة. وطويل شوية.

عندما رحل أبى، كنت أنا أجلس فى صالة البيت، وكان حلقى قد التهب، كنت ألعب بلعبى ودميتى. كنت أراه بوضوح بينما كان تركيزى مع لعبى. كان الجو بارداً. كان معتمًا أيضًا، ولم أكن أعرف ساعتها هل الشمس لم تكن قد أشرقت بعد، أم أنها كانت قد غربت.

حاليًا أنا أعرف كيف هو شكل أبى. فقد أطلعتنى " نى نى " ابنة خالتى "جول" على صورة له. كانت صورته منشورة فى صحيفة.

- بس إوعى تقول لحد هه!

- مش ها اقول لحد يا "نى نى"، وحياة بابا ما ها اقول لحد.

ليس لدى "نى نى" جرأة لكى تطلعنى على الصورة، فأعاود القسم لها بأننى لن أخبر أحداً. واستعطفها.

- "نى نى"، إنتى بس وريها لى... وأنا مش ها اعمل أى حاجة.

فتقول:

- ماشى... ها اوريها لك... بس لو قلت لحد، ها افضل مخاصماك لغاية يوم القيامة.

كانت الخالة "جول" قد ذهبت إلى السوق لتشترى الخضار. وكان زوج الخالة "جول" قد ذهب هو الآخر إلى مصنع النسيج الذى يعمل به. وكنت أنا قد ذهبت إلى بيت الخالة "جول" لكى ألعب مع "نى نى" و"نانا". وكانت نينه "نرجس" قد جلست أمام المنقد.

– نينه "نرجس" دى زى ما تكون صحبة ورد بعينها... دايماً كده نظيفة وجميلة.

كان الجو بارداً، كانت نينه " نرجس " قد ربطت طرحتها على رأسها، وألقت بعباءتها فوق كتفها، بينما وضعت مسبحتها الكبيرة حول رقبتها، ورفعت يديها الصغيرتين العجوزتين فوق نيران المنقد. كانت يدا نينه "نرجس" بيضاء ونظيفة مثل القطن. وكانت تدخن سجائر محلية.

كان "نانا" قد جلس فى مواجهة نينه "نرجس" وأخذ يقزقز اللب حيث كان إلى جانبه خليط من اللب الأبيض واللب السورى موضوعًا فى كيس. وكان المطر يتساقط على استحياء فى فناء البيت، بينما بدا الجو معتمًا قليلاً. كانت أجمة النخلة تبدو فى لونها الأخضر الزيتونى. أمسكت "نى نى" بيدى، وأخذتنى وذهبنا معًا ودخلنا إلى سرداب البيت. كان داخل السرداب مظلمًا فأزحنا الستارة قليلاً. فصار الجو داخل السرداب يشع فيه بصيص من النور. كانت "نى نى" تتلاحق أنفاسها، وكنت أنا أيضًا تتلاحق أنفاسى. ساعدت "نى نى" كى تصعد فوق الثلاجة الخشبية، قالت لى بأن أنتبه لئلا يدخل علينا "نانا" فجأة. قالت أن "نانا" لا يكتم سراً أبداً.

– كل حاجة تحصل يجرى على طول ويقولها لبابا ... يقوله كل واحد بيعمل أيه، لما حد يعمل حاجة، لما حد يقول حاجة.

فتحت "نى نى" ضلفة الخزانة، ثم أخرجت من داخلها لفة جرائد وصحف وأعطتها لى.

– حطها على الأرض عشان ندور فيها على الصورة.

تصاعد غبار الصحف ودخل إلى حلقى، فسعلت. قالت "نى نى":

– كح بالراحة ... لو حس "نانا" بينا هاييجى. وهو ما تتبلِّش فى بقه فوله.

حبست أنفاسى. وضعت الصحف على الأرض، وضغط شفتاى على بعضهما لكى لا أسعل. ساعدت "نى نى" كى تنزل من فوق الثلاجة الخشبية.

لم يكن فى إمكانى أصلاً أن أمنع نفسى السعال. فوضعت كفى أمام فمى كى أكتم صوت السعال. وبعدها عندما انتهى سعالى جلس كلانا على الأرض، وكنا نراقب الوضع فى الخارج من فتحة باب السرداب كيلا يأتى " نانا " فجأة. وكان صوت خرير المطر المستمر هو الذى يدخل علينا ومعه كذلك هزيم الرعد يدخل إلينا متفرقًا. أخذت "نى نى" تتصفح الجرائد ورقة ورقة. حيث كانت أنفاسنا عندها قد هدأت أما أنا فلم يعد قلبى فى مكانه من شدة التوتر.

– أمال فين بقى يا "نى نى" صورة بابايا؟

– طب اصبر شوية بس.

فرت أوراق كثيرة من الصحف ورأينا صورًا كثيرة، آلاف الصور منشورة فى هذه الصحف. ورؤوس أكثر هؤلاء الأشخاص محلوقة عن آخرها. ذلك اليوم الذى كنت أجلس فيه فى الصالة، وكان حلقى يؤلمنى، وكنت ألعب بلعبى ورفعنى أبى من على الأرض مثل القشة وقبّلنى، كانت رأس أبى غير محلوقة، كان شعر رأسه طويلاً مسترسلاً، أسود اللون، به عدة طيات كبيرة. لقد نفد صبرى.

– بيبه يا نى نى... هوه إنتى ما تعرفيش صورة بابايا كانت فى أنهى جورنان؟

– لأ... عارفة.

– طب فين هيه؟

– يا أخى ده كان من وقت بعيد، وكان بابا بيوريها لنينه، وأنا مش فاكرة كانت فى أنهى جورنان.

وكأننى أوشكت أن أختنق. كان السرداب ضيقًا، وتفوح فيه رائحة الرطوبة العطنة. وكذلك رائحة غبار الجرائد. كانت إحدى عيننا على باب السرداب وعلى باب الغرفة فى الخارج، لئلا يدخل علينا " نانا"، والعين الأخرى على الجرائد. كانت كل الصحف والجرائد قد أصبحت قديمة. وأصفرّ لون أوراقها. تصفحنا أوراقًا كثيرة ورأينا صورًا كثيرة، بعضها صحف إلى جانب بعضها البعض وأخذت تنظر إلينا... وبعضها تفرقت بعيدًا عن بعضها البعض. كان المطر لا يزال يتساقط فى فناء البيت. والجو بارد، إلا أننى كنت أتصبب عرقًا. وقلبى يخفق بشدة.

– طب هيه فين بس يا "نى نى"؟

وفجأة فتحت ورقة من جريدة وقالت:

- آهه.

وكانت صورة أبى فى مواجهتى، طويل القامة، عريض المنكبين، له عينان واسعتان، ووجنتان برزت عظامهما. بدت رأسه وقد حلقت بالموسى. كان ينظر إلىّ. كان يقف إلى جوار منضدة. وبدا كأنه يتكلم. كانت المنضدة طويلة. وقد ظهر النصف الأعلى من رجل سمين كان قد جلس خلف المنضدة، حيث وضع مرفقيه فوق المنضدة وأخذ ينظر لأبى بريبة، بينما بدت أمامه مجموعة من الأوراق. انخلع قلبى من مكانه. وأخذت أنفاسى تتلاحق. ولم يعد صوتى يخرج. وبذلت جهداً كبيراً لكى أتكلم:

- إننى متأكدة يا "نى نى" إن ده بابايا أكيد؟

كانت "نى نى" قد أحمر وجهها.

- أيوه... بابا قال كده... وبعدين ما هو مكتوب تحتيها أهه.

كانت "نى نى" فى الصف الثالث، بينما كنت أنا لا أزال فى أول عام لى من المدرسة. فقلت لها:

- طب كويس، إقرى لى بقى مكتوب إيه.

قرأت "نى نى" ما كتب تحت الصورة. لم تقرأه بسهولة ويسر ودفعة واحدة. لا!... بذلت جهداً كبيراً، وتهجت حروف الكتابة ولم أفهم مما قرأته سوى اسم أبى، وبعده عدة كلمات أخرى. ولم أدرك شيئاً منها أصلاً.

جلست أنا وهى فى مواجهة أحدنا الآخر. كانت الصحف مبعثرة ومنتشرة على الأرض. والجو داخل السرداب فى لون العتمة الخفيفة. وأحياناً كان يدخل علينا صوت الرعد. كما كان صوت المطر يأتينا مستمراً. حيث كانت تمطر بشكل مستمر. قلت لـ"نى نى":

- ممكن تدينى الجورنال ده يا "نى نى"؟

فشرعت فجأة فى جمع الصحف والجرائد.

- لا... لأ!... لو عرف بابا هيـ........

- قلت لها:

- أنا مش ها اقول حاجة لباباكى خالص.

وضعت "نى نى" الصحف فوق بعضها، وشرعت فى حملها والقيام بها، فأخذت أستعطفها وقلت لها:

– دى صورة بابايا يا "نى نى".

قالت:

– لو بابايا عرف هيـ.....

ونهضت من على الأرض، ووضعت الصحف فوق الثلاجة الخشب. فأقسمت لها.

– "نى نى" والله العظيم ما ها اقول لباباكى... وحياة بابايا أنا ما هاتكلم. وشرعت فى أن تعتلى الثلاجة. فلم أتركها تفعل ذلك وأمسكت بيدها ووقفت فى طريقها.

قالت:

– ما ينفعش... لو عرف بابايا هايقوِّم القيامة علياً.

عدت أستعطفها. ثم قلت لها إننى سوف أعطيها جميع النقود الموجودة فى حصالتى. ولم ترضْ بذلك، لم ترضْ بأى شىء قلته لها. كانت تريد أن تصعد فوق الثلاجة. فأخذت الصحف واحتضنتها بشدة. كنت أريد أن أجرى بها خارج السرداب. اعترضت طريقى، وسحبت الصحف بالقوة من بين ذراعىَّ. فاستجمعت قواى وقفزت فوق الثلاجة الخشبية. وأغلقت ضلفة الخزانة وقلت:

– لو ما إديتهانيش دلوقتى أنا مش هاسيبك.

أخذت "نى نى" تستعطفنى وقالت:

– بالله عليك...

نزلت من فوق الثلاجة، فتراجعت هى للخلف. فتقدمت نحوها وأمسكت بساعديها وقلت:

– إذا ما إديتهانيش، هاقول لباباكى إنك وريتينى الصورة.

اصفرَّ لون " نى نى ".

– إذا ما إديتهانيش هاقول له.

قالت "نى نى" إنها سوف تخاصمنى. فقلت:

- ماشى يا نى نى... ماشى... خاصمينى... إعملى اللى إنتى عايزاه. وأنا مش ها اسيبك تحطى الجرايد فى الدولاب إلا لما آخد صورة بابايا. رضيت "نى نى" فى النهاية. حيث اضطرت إلى ذلك ولم يكن لديها حيلة. فقالت.

- ماشى أنا هاديها لك... بس وحياة باباك ما تقولش لحد.

جلسنا مرة أخرى على الأرض. وفرشنا الصحف. وذهبت "نى نى" وأحضرت مقصًا من درج ماكينة الخياطة الخاصة بالخالة "جول". وقصت الصورة من الجريدة وأعطتها لى فى يدى. وقمت أنا بقص صورة الرجل الضخم وفصلتها عن صورة أبى. كنت قد كرهت هذا الرجل أصلاً منذ اللحظة التى رأيته فيها إلى جانب أبى وتلك النظرة المريبة التى كان ينظر بها لأبى وتلك الشفاة المكتنزة. لا أعلم لماذا انقبض قلبى منه فجأة.

طويت صورة أبى، ووضعتها فى جيب سترتى تحت إبطى، ثم أخذت أساعد "نى نى" فى وضع الصحف والجرائد داخل الخزانة، وأغلقت ضلفة الخزانة. ووضعت المقص فى درج ماكينة الخياطة. وأسدلنا ستارة السرداب، وذهبنا إلى نينه "نرجس" حيث كانت تجلس إلى جوار المنقد. كان براد الشاى يئز بصوته. بينما كانت نينه "نرجس" تتمتم بالدعاء والتسبيح. كان المطر قد توقف. والجو صار معتماً.

قال "نانا" :

- إنتوا رحتوا فين؟

قالت "نى نى" له أننا ذهبنا لكى تطلعنى على درجاتها فى الشهادة. كانت "نى نى" على شىء من المهارة والذكاء. كان أمام "نانا" حفنة كبيرة من اللب، وداخل الغرفة كان الجو دافئًا. وبدت فرشة النوم مطوية وملفوفة فى ركن الغرفة. واللمبة فى مكانها داخل الكوة. كانت غرفة نينه "نرجس" تبدو دائمًا نظيفة ومرتبة فقد كانت تقوم بكافة أعمالها بنفسها. نهضت واقفًا من جانب المنقد.

- نينه "نرجس"! أنا عايز أرجع بيتنا.

- إنت راجع البيت يا حبيبى؟... طب أوعى تاخد برد فى الطريق.

كانت أسنان نينه "نرجس" بيضاء فى لون الحليب، فقد كانت تغسلها دائمًا بالملح ورماد الفحم. أوصلتنى "نى نى" حتى باب البيت. ولم تكن الخالة "جول" قد عادت من السوق بعد.

قالت لى "نى نى" :

- إذا قلت لحد أنا هاافضل مخاصماك ليوم القيامة.

داخل الحارة كان الهواء باردًا. وبدا الجو معتمًا أيضًا.

انتقلت "نى نى" إلى الصف الخامس. بينما انتقلت أنا إلى الصف الثالث. وصارت المدرسة فى عطلتها السنوية. كانت أمى لا تزال ترتدى السواد. فقد انتهى بها الأمر إلى أن اعتادت على ذلك. ولم أعد أسألها أبدًا متى سيعود أبى من السفر.

كنت أحيانًا حينما أخلو إلى نفسى، أجلس وأخرج صورة أبى من جيبى وأتحدث معه.

ولما كانت المدرسة فى عطلتها السنوية، كنت فى النهار أذهب إلى دكان خالى "أمير" فى السوق، كى أكون إلى جانبه وأساعده. كان خالى "أمير" طويل القامة وعريض المنكبين. وكانت دكان خالى "أمير" داخل وكالة كبيرة، وداخل الدكان كان الجو منعشًا. يخيم عليه الظلام إذا لم نشعل المصباح. كان خالى "أمير" يتاجر فى الأرز.

فى كل صباح كنت أخرج بصحبة خالى "أمير" وأذهب معه إلى الدكان، وأجلس فوق مقعدى، واستمع إلى كلام الدلالين والتجار. وكلما كان يأتى ضيف لخالى "أمير" أذهب إلى قهوجى الوكالة وأقول له أن يأتى بالشاى. هكذا كان عملى.

كان قلبى ينقبض أحيانًا من صياح وصرخات الدلالين. فهم يتكلمون دائمًا بصوت عال ومزعج. وأحيانًا كنت أضيق وأمل من الجلوس فى الدكان. وعندما كنت أحمل كرسى بدون ظهر وأضعه أمام الدكان وأجلس لكى أتفرج على الناس. ويا له من صبر عجيب ذلك الذى كان يتسم به خالى "أمير" فهو لا يتعب حتى لو جلس داخل هذا الدكان من الفجر إلى نصف الليل، لا يتعب ولا يمل.

كانت الدكانة طويلة ممتدة وضيقة. وقد وضعنا عينات الأرز فى أقصاها. بينما كان مكتب خالى "أمير" بالقرب من الباب وكانت خزنته إلى جانب يده أيضًا. كما كان يوجد داخل الدكان أريكة وأربعة كراسى، ومقعدان صغيران بلا ظهر. وكانت رائحة الأرز تفوح داخل الدكان بشكل دائم. وكنت إذا قضيت اليوم بطوله وأنا أجلس أمام الدكان أتفرج على الناس، فإن خالى "أمير" لم يكن يقول لى شيئًا. وأنا الآن إذا أغمضت عينى، فإنى أستطيع أن أعدد وأذكر عن ظهر قلب كافة الأشياء التى كنت أشاهدها فى الوكالة. جميع الدكاكين وكل الأعمدة وألوان الأبواب والنوافذ والشبابيك. وأعرف كل العصافير والطيور التى اتخذت لها أعشاشًا

داخل ثنايا وشقوق الأعمدة والحوائط. وأعرف الحمائم البنية أيضًا. ومنذ أيام جاءت حمامة بنية اللون يشوبها بعض الإحمرار وعششت داخل فتحة أعلى باب المقهى. لم تستطع أن تختلط مع الحمائم الأخرى ذات اللون الأحمر الداكن. كانت تلك الحمائم تقوم بنقرها، تهجم عليها فجأة. فتضطر أحيانًا إلى الطيران لتذهب بعيدًا وتختفى ثم تعود عند الغروب. وأحيانًا أخرى تلجأ إلى عشها ولا تخرج حتى رأسها من هذا العش.

كان المقهى فى مواجهة دكان خالى "أمير". وكان سقف الوكالة فى شكل قباب صغيرة إلى جانب بعضها، وفى كل قبة فتحة للتهوية تعمل بمثابة ملقف للهواء. وكانت أشعة نور الشمس تتساقط من هذه الفتحات على أرضية الوكالة وكان وقت الظهر يحين عندما يصل شعاع نور الشمس الساقط من القبة الثالثة فوق عتبة دكان خالى "أمير".

كنت أحتفظ دائمًا بصورة أبى داخل جيبى. وأحيانًا عندما كان خالى "أمير" يخرج من الدكان، وفى أوقات الظهر عندما كان يملأ صوت المؤذن جنبات الوكالة ويذهب خالى "أمير" إلى المسجد، كنت أخرج الصورة من جيبى وأنظر إليها. فعلت هذا مرات عديدة وبكل سرِّية واستخفاء، وألصقت ورقة خلف الصورة حتى لا تتمزق. إلى أن وضعت الصورة فى طية جلدة من الورق المقوى جعلتها بحجم جيب سترتى الداخلى. وكنت أتحين الفرصة لكى أتحدث إلى أبى أحيانًا إلا أنه لم يرد علىَّ حتى الآن. ولم يحدث أن تحركت شفتاه ولم يحدث حتى أن يبتسم لى ولو مرة. فقط كان ينظر إلىَّ. كان ينظر إلىَّ بعينيه الواسعتين السوداوتين بشكل تنخلع معه أعطاف قلبى. وكنت إذا رأيت خالى "أمير" قادمًا، أو رأيت أحدًا يقبل علىَّ. كنت أضع الصورة فى غلاف الورق المقوى وأخفيها داخل جيبى. كان هذا ديدنى معها دائمًا.

لقد مللت هذا الدكان وضقت ذرعًا به. فعوارض السقف بلونها الصدئ تجثم على صدرى وتقبض قلبى. فيزيد ضيقى يومًا بعد يوم. أضع المقعد الصغير أمام الدكان وأجلس. ليمتلأ قلبى بالحماس. وأظل أنظر إلى كافة أنحاء الوكالة وجنباتها. كان بعض الدلالين والحمالين يجلسون فوق أرائك المقهى. وأبواب جميع الدكاكين مفتوحة. وقد تساقطت خطوط أشعة النور على أماكن متفرقة من الأعمدة الحجرية المستديرة التى تحمل قباب السقف، وكنت كأن أحدًا يحوِّل رأسى فأعود لأنظر إلى مدخل الوكالة. لأرقب باب الوكالة الكبير. وإذا بالسويقة تأخذ فى الازدحام. وعربات العمل التى تجرها الجياد تمر من أمام الباب أحيانًا محملة وأحيانًا فارغة. وتتداخل الأصوات. أسمع رفرفة جناح. فأنظر إلى أعلى باب المقهى. كانت الحمامة البنية قد خرجت من عشها. حيث كانت بعض الحمامات ذات اللون الأحمر

الفاتح الذى تضربه الزرقة تغبغب عليها وتضرب رأسها بأجنحتها، وتتوقف شاحنة خضراء اللون أمام باب الوكالة. ويصدر منها صوت انفلات العادم، ثم يسكت صوت محركها فيطل خالى "أمير" ويشرأب بعنقه ثم يخرج من الدكان ويتوجه صوب باب الوكالة. بدا الوضع وكأنه قد وصلتنا حمولة من الأرز. فيأخذ الحمالون فى التحرك، يخرجون من الوكالة ويصعدون فوق الشاحنة. وإذا بالحمامة البنية تبسط جناحاها وتطير لتخرج من فتحة سقف القبة أعلى المقهى.

وفى لمح البصر يتم تفريغ حمولة الشاحنة. ويتم رص أجولة الأرز داخل مخزن خالى "أمير" فوق بعضها البعض. وتهدأ الحمامات ذات اللون الأحمر. ويصير الجو داخل الوكالة عليلاً هادئًا. فيتحمس قلبى وكأنى أنتظر أحدًا أو شخصًا ما وفجأة تتعالى زقزقة العصافير وتخرج مجتمعة فى دفعة واحدة من الفتحة الكبيرة أعلى بوابة الوكالة وترفرف وتطير صوب فتحات التهوية فى السقف. من المحتم إنها شعرت من جديد بظهور ثعبان مخازن الحبوب أصفر اللون فأصابها الرعب.

تختفى العصافير عن عينىَّ، فأعود لأرقب باب الوكالة من جديد ولا أعرف ما الذى حدث بالضبط فلم تعد عينى تطرف حتى. وخالى "أمير" لا يزال داخل المخزن. أتحرك أنا فجأة وأقوم من على المقعد الصغير، يتراءى لى كأنه أبى يوشك أن يدخل من باب الوكالة. بقامته الفارعة ووجنتيه البارزة عظامهما. و... لا!... وفجأة أفيق وأنتبه إلى أن رقبة أبى ليست بكل هذا القصر، وفوق وجنتيه لم يكن به أثر جرح قديم كهذا. لكن عينيه... واسعة وسوداء مثل عينى أبى تمامًا!... إنه هو، هو بنفسه... ولكن ما هذا الخط من اللحم الأبيض الزائد الذى خط وجنته اليسرى السمراء من تحت عينه حتى طرف ذقنه؟... بدأ قلبى يخفق بشدة، نظرته، هى نظرة أبى. أسمع الآن خفقان قلبى يدق فى شقيقتىَّ. يأخذنى الحماس للحظة. تملأنى رغبة بأن أقوم وألقى بنفسى فى حضنه. قدماه طويلتان وممشوقتان يسير بخطوات واسعة. لا يتجه ناحيتى. لا ينظر إلىَّ ولا ألفت انتباهه، مثلما كان دائمًا، مثل صورته. لا!... حتى لا ينظر إلىَّ أيضًا مثل صورته. لقد انطبقت شفتاه على بعضهما. وبدا العرق وقد استقر على جبهته وعلى رأسه المحلوقة. وقد شمَّر أكمامه حتى مرفقيه. فبدا ساعداه يملأهما الشعر. أنه لا يتجه ناحيتى حتى يمر الآن من خلف الأعمدة المستديرة أمام باب الوكالة، ويتجه صوب المقهى. تأخذ ركبتاى فى الارتعاش. ترتجف عيناىَّ فى سخونة فتهتز خيوط النور أمامهما. أتراجع وأجلس على المقعد الصغير وأنظر لطوله وقوامه حيث جلس الآن فوق أريكة المقهى. وحيث يتحلق حوله بعض الحمالين وعدد من الدلالين. فأخرج صورة أبى من جيبى. وأتحدث معه!

- هوه إنت... مش كده؟

لا يرد عليَّ. كعادته دائمًا. نظرته كأنها حجر صلد.

- إنتى متأكدة يا "نى نى" إن دى صورة بابايا بالفعل؟

ويملأ أذناى صوت خرير المطر. وأسمع صوت الرعد، وأحس بالعتمة التى كانت تملأ جو السرداب وأسمع رد "نى نى".

- وبعدين... ما هو مكتوب تحتها آهه.

ليتنى ما قصصت ما كان مكتوبًا تحتها، أتحدث معه:

- أعلم أنه أنت.

شفتاه لا تتحركان أصلاً، كعادته دائمًا. فأضع الصورة فى جيبى. وإذا بخالى "أمير" يخرج من المخزن. ويقف فوق عتبة باب الدكان ويشرأب بعنقه. وإذا بالرجل حليق الرأس طويل القامة يظهر من بين الرجال الذين وقفوا حوله. وإذا بخالى "أمير" يعبس بوجهه ويقطب جبينه ويزوم بصوت ثم يدخل إلى الدكان. وأدور بناظريَّ فى أنحاء الوكالة وإذا بالجميع وقد خرجوا من دكاكينهم ومحلاتهم. ويأخذون فى التهامس إلى أذن بعضهم البعض، لا أسمع لهم صوتًا ولا أعرف ما يقولون. لا أعرف ماذا حدث حتى تنكتم جميع الأصوات هكذا. وإذا بالرجل ذى القامة الطويلة يضع الكوب خاليًا فوق المنضدة، وينهض واقفًا، ويشق ما بين الرجال الذين وقفوا حوله. ويمشى فى اتجاه باب الوكالة ويخرج منها.

وتتعالى الأصوات من جديد، ويدخل الجميع كل إلى دكانه. ويترامى إلى أذنى صوت خالى "أمير" وقد أخذه النعاس، وفجأة ينقبض قلبى.

كان خالى "أمير" ينام هو وزوجته فى تلك الناحية من سطح البيت. وكنت أنا أنام فى الليل إلى جوار أمى، كانت أمى تفرش منامتى إلى جوار منامتها. كنا نتفرج على السماء معًا. كانت أمى تعرف أسماء جميع النجوم. من المؤكد أن أبى هو الذى عرفها بها. كانت السماء فى مدينتنا مليئة بالنجوم. وكانت أمى تتحدث إليّ فى الليالى. كنا عندما نتمدد سويًا إلى جانب أحدنا الآخر كانت تحكى لى حكاية، وتظل تحكى إلى أن يغالبنى النوم.

وأحيانًا كانت "نى نى" تأتى عندنا. و"نانا" كان يأتى عندنا أيضًا أما أنا فقليلاً ما كنت أذهب إلى بيت خالتى "جول"، فلم أكن أصبر أصلاً على فراق أمى أو البعد عنها. وعندما

كانت "نى نى" و"نانا" يحضران إلى بيتنا، كنت أتمنى ألا يبيتان عندنا حتى تحكى لى أمى الحكاية وحدى وأكون معها بمفردى. ومن المحتم لو كان خالى "أمير" قد أنجب وكبر طفله لكان قد رغب هذا الطفل لأن يأتى وينام بجانبنا ويستمع إلى حكايات أمى. فلا قدر الله أن يكون لخالى " أمير" ولد الآن لتكون أمى لى وحدى.

كنت فى الليل أنام إلى جوار أمى، أتحدث إليها وتتحدث إلىَّ:

– أنت ما زهقتش من الدكان لسه؟

وتمسح على وجنتىَّ ورقبتى.

– لا يا أمى... ليه أزهق من الدكان يعنى؟

كان على طرف لسانى أن أقول لها أننى رأيت أبى اليوم. كان على طرف لسانى أن أسألها لماذا لا تبدو رقبة أبى فى الصورة بكل هذا القصر. لماذا لم يظهر فى الصورة ذلك الخط من اللحم الأبيض على وجنته. لكن لم أجد فى نفسى الجرأة على ذلك. فقد خفت أن تأخذ منىّ الصورة، خفت أن تسألنى ممن أخذت هذه الصورة... لكن ماذا لو كان هذا الرجل هو أبى؟... ماذا لو كان هو نفسه؟... إذن لماذا لم ينظر إلىَّ أصلاً... لماذا من أصله... لا!... ربما لا يكون هو نفسه... لكن نظرته؟... طوله وقوامه؟... أود أن أنهض من جانب أمى وأنزل تحت وأدخل إلى غرفتنا، وأنظر إلى الصورة، وإذا بيد أمى تمسح على رأسى، وتخمش بأناملها جذور شعرى. فيسرى خدر جميل فى جسدى. وأستلذ هذا الإحساس. أسمع صوتها:

– إوعى تكون بتضايق خالك حبيبك؟

وأضع كف أمى فوق شفتاى وأقول:

– لا يا أمى... كل ما يقول لى حاجة بأعملها له.

وأضغط بيد أمى فوق شفتاى حتى لا تخرج من فمى كلمة فجأة رغمًا عنى.

– لما الصيف يخلص ترجع المدرسة تانى... إن شاء الله هاتبقى فى الصف الرابع...

ما زالت كف أمى فوق شفتاى.

–... ما شاء الله... ألف ما شاء الله عليك، بقيت راجل خلاص.

أتقلب على جنبى الأيمن وأقول:

– بس إنتى لو عايزانى ما اروحش المدرسة تانى مش هاروح.

تتعجب لما أقول.

- إيه؟ ماتروحش؟

وتبرق عينا أمي السوداوتان. وأعود لأنام على ظهري وأنظر إلى السماء.

- يعني أنا بااقول لو إنتي عايزة... لأني أنا عايز أروح دكان خالي "أمير" على طول.

وتمسح يد أمي على وجنتي.

- لا يا حبيبي... أنت لازم تروح المدرسة وتذاكر دروسك.

أوشك أن أختنق. ولو قلت لها إنني رأيت أبي لتخففت تمامًا من هذا الثقل الذي يجسم على صدري.

وأسمع صوت أمي:

- خالك حبيبك قال إنه هايديني راتبك.

لم أعد أستطيع أن أمنع نفسي.

- أمي... طب بابا إمتى هاييجي؟

لا تقول شيئًا، ولا ترد عليّ بشيء. ولا تبكي أيضًا. وفقط تمسح على شعري بيدها. عندما ذهبت إلى المدرسة قاموا بقص شعري. أغلق عينيّ. وأحس بدفء أمي فوق وجنتيّ، وأعود لأفتح عينيّ. وأرفع رأسي وأنظر إلى أمي فأرى عينيها السوداوين تلمعان، وكأنهما قد امتلأتا بالدموع. فأندم على أنني عدت من جديد لأسألها عن أبي.

لم يكن خالي "أمير" قد تناول لقمة إفطاره بعد عندما كنت أنا أهم بالخروج من البيت، وعندما سمعت صوت أمي تقول:

- إنت مستعجل كده ليه؟

فأكذب عليها.

- أنا عايز أتمشى على مهلي. وأتفرج على الحواري، وأشوف الناس و... يمكن أعدي من الميدان وأشوف "جليل كويتي" أصطاد سمكة كبيرة ولاّ لأ.

وأخرج من البيت، وأطلق ساقاى للجرى. واستمر فى الجرى حتى أصل إلى الوكالة. تأخذنى الجرأة، فأذهب وأجلس فوق أريكة المقهى. ويأتى صبى المقهى ليضع كوب الشاى أمامى. لم أكن حتى ذلك الوقت قد شربت الشاى داخل المقهى. لم تكن الوكالة قد ازدحمت بعد. وأخذ صوت انفتاح أبواب الدكاكين يترامى إلى أذنى. كانت الأصوات تأتى من خارج السويقة لتترامى داخل الوكالة. وأظن أن صاحب المقهى عندما وضع كوب الشاى أمامى سألنى ما الذى حدث حتى أحضر مبكرًا هكـــذا، وأسمع صوت خــالى "أمير" فأضع كوب الشاى وهو لا يزال إلى نصفه على طبق الكوب وأقوم مسرعًا.

– إنت ليه مشيت قبل منى النهارده؟

لا أقول له شيئًا. يحمر وجهى. وأنظر إلى جنبات الوكالة. فلا أجد أى أثر للرجل ذى القامة الطويلة ولم يظهر بعد. وإذا بخالى "أمير" يفتح باب الدكان. فأحضر المقعد الصغير وأضعه خارج الدكان وأجلس عليه، ويترامى إلى سمعى صوت خالى "أمير" وقد غالبه نعاس الصباح. والدلالون يتوافدون، والحمالون وقد جاءوا مبكرًا عن الجميع. ولا تزال عيناى على باب الوكالة، أريد أن أخرج صورة أبى من جيبى، وأنظر إليها، لكن لم تواتنى الجرأة على فعل ذلك. أخاف أن يخرج خالى "أمير" علىَّ فجأة ويمسك بيدى. لأكثر من عامين وأنا أتحدث إلى صورة أبى، ولا أحد يعلم شيئًا عنه. وحتى هو لم يرد علىَّ بكلمة واحدة. فعندما أتحدث إليه، وعندما أكون وحدى ومع نفسى وأتحدث إليه، ينظر إلىَّ فقط ولا يرد علىَّ.

سقطت أشعة الشمس من فتحات السقف على الأعمدة، وها هى الآن فى النزول إلى أسفل. أحس وكأن أحدًا يحول رأسى صوب باب الوكالة. يرتعد قلبى. ها هو قادم ليدخل. بطوله الفارع وقوامه المشوق. بعينيه الواسعتين، وحاجبيه الكثيفين وذقنه المشدود. وقبل أن يشرع فى المرور من أمامى أنهض واقفًا، وتتلاقى نظرته بنظرتى للحظة. وأتسمر فى مكانى. أود أن أتكلم، أتحدث لكننى كأنى قد خرست. رقبته قصيرة إلى درجة استقرت معها ذقنه على صدره. يمر من أمامى ويتوجه صوب دكان الحاج " سيد توفيق " ويقف منتصبًا فى الدكان. أظن أنه يقول شيئًا، يعود إلى المقهى ويجلس فوق الأريكة. ها هى الوكالة وقد ازدحمت الآن. وصوت نعاس خالى "أمير" يترامى إلى أذنى، فأخرج صورة أبى من جيبى للحظة وأنظر إليها. أكتاف هذا الرجل الطويل لا تتمشى مع أكتاف أبى من أصله، فكتف أبى ليس عريضًا ومشدودًا إلى هذه الدرجة. لكن نظرته؟... طريقة مشيته؟... ليتنى كنت أنظر ذلك اليوم جيدًا إلى أبى وهو

يخرج من البيت حتى أعرف مشيته جيداً. لا بد أن تكون خطواته ثابتة وواسعة وراسخة. أضع الصورة فى جيبى. ما زال صاحب المقهى يتحدث مع أبى... أبى؟!... ماذا لو لم يكن هو؟... لا!... إنه هو. هو نفسه. حتماً هو.

اختلطت أصوات السويقة بأصوات الوكالة. لا أعرف ماذا يقول أبى حتى يكتم صاحب المقهى ضحكته هكذا. بدا وكأنه ينظر إلىّ أخفض رأسى وأنظر إلى الأرض. وأختلس النظرات إليهما. وفجأة أشعر بخالى "أمير" وقد وقف فوق رأسى. ويأخذ فى النظر إلى أبى. وأرمق خالى "أمير" بنظرة خاطفة. ما زال ينظر إليه. وإذا ببعض الأشخاص يتجمعون حول أبى. كلهم من العاطلين فى السويقة. أنتفض من مكانى رغمًا عنى وأمسك بيدى خالى "أمير":

– هوه نفسه؟... مش كده؟... هوه نفسه؟

ولا يفهم خالى "أمير" شيئًا مما أقوله. فأعود لأستعطفه.

– قولى لى يا خالى يا حبيبى... قول لى وحياة مراتك حبيبتك... قول لى إنه هوه، هوه بنفسه.

فيقول خالى "أمير" فى بطء وقد تملكه العجب:

– إنت عمَّال تتكلم عن إيه بس؟!

يتملكنى الإحباط. فأطأطأ برأسى. وقد امتلأت عيناى بالدموع يأخذنى خالى "أمير" تحت ساعده ويصطحبنى معه إلى داخل الدكان، أجلس فوق أحد الكراسى، بينما يجلس هو خلف المكتب. ويشعل سيجارة. يظل ينظر إلىَّ لدقائق، ويطلق عدة أنفاس كثيفة من الدخان، ويختفى وجهه خلف الدخان الكثيف. وأسمع صوته من جديد.

– ما قلتليش، إنت كنت بتتكلم عن إيه؟

عندها وكأن جو الدكان كله قد أصبح معتمًا. أصبت بالخرس. أوشك أن أختنق، وتضيق أنفاسى داخل صدرى. وأعود لأسمع صوته من جديد.

– ها؟... مش عايز تقول أى حاجة؟

– مفيش حاجة يا خالى... مفيش حاجة.

يتنفس خالى "أمير" الصعداء... ويتعالى صوت أنفاسه. وها أنا الآن أرى وجهه. وقد بدت تجعيدة حول عينيه، وقد ضاقت عيناه السوداوتان، وبشرته البيضاء تضرب إلى الصفرة. وأسمع صوته.

– طب يعنى مفيش حاجة... مش كده؟

أود أن أقوم وأخرج من الدكان، وأجرى صوب أبى وأصيح فى وجهه وأخرج صورته من جيبى وأضعها أمام وجهه وأقول:

– إنت عايز تتجاهلنى مش كده؟... طب هوه أنا عملت إيه؟... ها؟... ليه أنت مش عايزنى أعرف أن أنت أبويا؟

لكنى أقوم برفق من فوق الكرسى. فيسألنى خالى "أمير":

– على فين؟

أقول له.

– هنا... قدام الدكان...

وأخرج من الدكان. لقد ذهب أبى. وإذا بشعاع الشمس الساقط من ملقف الهواء الثالث يأخذ فى الاقتراب من عتبة دكان خالى "أمير".

كنت قد وضعت المقعد الصغير خارج الدكان، وجلست عليه حتى يأتى أبى إلى مقهى الوكالة ليشرب الشاى. وكنت أستمع إلى الكلام الذى يترامى إلى أذنى وأعض على شفتى وأكتم سرى.

كنت قد أرهفت سمعى. لم يكن الحاج " سيد توفيق " لديه مقدرة على الكلام بصوت عال. كنت أسمع صوته بصعوبة.

– أنا كنت فى قسم الشرطة وهمه عملوا اللازم و...

الجميع يتكلم من وراء أبى، لكن أحداً لا يتجرأ على أن يقف أمامه وجهاً لوجه ويتحدث إليه، ويقول له ما يريد.

فهو عندما يدخل من باب الوكالة، يكتم الجميع أنفاسهم. عندما يسمعون وقع أقدامه يشرأبون بأعناقهم. و"سيد توفيق" هذا يصبح كالفأر بعينه. أود أن أقف وسط الوكالة وألعن أحياءهم وأمواتهم، أود أن أصرخ وأصيح وأقول لهم لو كان لديهم الجرأة والشجاعة فليقفوا أمامه وينظروا فى عينيه ويقولون له ما يريدون فى وجهه.

وأبى لا يعبأ بشىء. وكأن لا أحداً يتكلم من ورائه ويعيب فيه ويسبه. يتردد على مقهى الوكالة عدة مرات قبل الظهر ليشرب الشاى. وأحياناً يرافقه أيضاً عدد من الرجال. كانوا كأنهم يحسبون له ألف حساب، يمشون خلفه ويسمعون كلامه وينفذونه.

وذات يوم حيث لم يكن أبى قد جاء إلى المقهى وكان قلبى قد رغب بشدة فى رؤية أبى، فخرجت من باب الوكالة وذهبت إلى سوق الخضار. لم يكن بعيداً. كان قريباً منّا. أبعد بقليل عن سوق الجزارين. لكننى عندما عدت فهمت من نظرة خالى "أمير" لى أنه قد غضب منى.

سألنى:

– إنت رحت فين؟

كذبت عليه.

– رحت دورة المية.

– طب وهوه يعنى الوكالة مافيهاش حمام؟

– أيوه بس الريحة فيه صعبة... الواحد بيتخنق فيه.

لم يقل شيئًا آخر لكن نظرته لى كانت تنم عن أنه قد فهم أننى ذهبت إلى سوق الخضار. حتى أننى ظننت أن خالى "أمير" قد أدرك أننى قد عرفت أبى. فهو دائمًا ما يدرك دواخل نفسى.

وقبل أن أنوى على التحدث إلى أبى كان يرمقنى بنظرة تنم عن أنه يدرك ما فى نيتى، لكنه لم يقل لى شيئًا حتى الآن. وأنا أظن أنه قاطع أبى لأنه يأخذ أتاوه فى سوق الخضار، ولأن أبى كان مسجونًا فقد قاطعه الجميع.

الآن صار أبى يعلم جيداً أننى فى انتظار مجيئه فى أى لحظة حتى أسعد برؤيته. فى الأيام الأولى كان يمشى من خلف الأعمدة المستديرة ويتجه مباشرة إلى المقهى دون أن يلقى إلىّ بابتسامة، ودون أن ينظر ناحيتى حتى. لكنه الآن بمجرد أن يدخل من باب الوكالة أول شيء يفعله يأتى إلىّ ويسألنى عن أحوالى. وحتى لو أتى للوكالة عشر مرات فى اليوم الواحد كان يفعل هذا فى كل مرة يأتى فيها للوكالة. عندما يتحدث إلىّ تسرى الحرارة فى جسدى ويحمرّ وجهى حتى أطراف أذناى. يتوقف الكلام فى حلقى، وينعقد لسانى. لم أستطع فى أى مرة من هذه المرات أن أنظر إلى عينيه. لم أستطع فى أى مرة من هذا المرات أن أرد على كلامه بما يجب وبالشكل السليم، كنت فى كل مرة أتحدث إليه بكلمات ممضوغة مقتضبة.

كنت أطأطئ رأسى إلى أسفل وأبذل جهداً كبيراً حتى تخرج كلمة واحدة من حلقى. هكذا كان حالى معه حتى لو تحدث إلىّ فى اليوم الواحد عشر مرات، أكون هكذا معه فى كل مرة.

وذات مرة أو مرتين عندما جلس فوق أريكة المقهى أرسل إلىّ بإشارة فهمت منها أنه يريدنى أن أذهب لأجلس بجانبه وأشرب الشاى معه. كنت أود من كل قلبى أن أذهب إليه لكن فكرت ملياً فى خالى "أمير" وأنه على انقطاع تام وخصومة شديدة مع أبى. وأنه حتى لم يكن راضياً عن أن أتكلم مع أبى من أصله. فمن عجب أنه كان يتضايق كثيراً لهذا الوضع. كنت أفهم هذا من نظراته.

لم أقل شيئاً لأمى حتى الآن ولكن يوماً ما يجب أن أمسك بيد أمى وأحضرها إلى الدكان.

فى اليوم الثالث حيث كان الرجل أسود البشرة قد جاء إلى المقهى فى صحبة أبى. كان قصيراً ممتلئ الجسم قوى البنية. لكن من الواضح أنه يحسب لأبى ألف حساب. كان كلاهما يأتيان معاً ويجلسان فوق أرائك المقهى ويتحدثان معاً. أحياناً يقومان بعدّ ما معهما من نقود وأموال وأحياناً يعطى كل منهما نقوداً ومالاً للآخر.

وينادى علىّ خالى "أمير" لأذهب إلى سوق الجزارين لأشترى اللحم المعهود. كان "جعفر" الجزار صديقاً لخالى "أمير". ولم يكن ليؤخرنى مطلقاً. مجرد أن تقع عينه علىّ يعد لى طلبى وآخذه لأذهب. وكان دائماً يخصنى بعدد من العكاوى. كان خالى "أمير" قد أوصاه بذلك. وعندما كانت زوجة خالى "أمير" تملأ القدر بهذه العكاوى ويوشك القدر على النضوج فى الفرن وتنضج العكاوى جيداً، يود الإنسان عندها أن يأكل أصابعه وراءها.

وأخذ اللحم من "جعفر" الجزار لأعود مسرعًا. كان أبى قد وصل، وجلس فوق أريكة المقهى لكنه كان يبدو فى شدة الضيق، وقد جلس الرجل الأسود بقدميه فوق مقعد أمام أبى وقد ضم ركبتيه إلى صدره وأخذ يدخن سيجارة. وقد وقف حولهما عدد من الأشخاص المتعطلين المتبطلين فى سوق الخضار. ولم يكن أبى يبتسم أصلاً. حتى عندما وقعت عينه علىَّ، وأدخل إلى الدكان مسرعًا، وأضع اللحم الذى أحضرته، وأعود بسرعة لأجلس على مقعدى الصغير أمام الدكان. وإذا بالرجل الأسود يطفئ عقب سيجارته ويتكلم. أبى يحرك شفتيه. لا أسمع صوته. ففضلاً عن أنه بعيد، فقد كانت أصوات الناس فى السويقة وأصوات مرور العربات والشاحنات تختلط ببعضها البعض وتغطى على صوته. كان أبى قد لزم الصمت. وقد أخذ يعض بأسنانه على شفته الوسطى. أود أن أقوم وأتقدم وأقترب قليلاً حتى أسمع ما يقوله ذلك الرجل الأسود. أود أن أذهب وأجلس فوق أجولة الأرز التى رصت فوق بعضها تحت القبة الثالثة. ويلتفت أبى برأسه وينظر شذرًا لذلك الرجل الأسود. وإذا بأحد الحمالين يخرج من المخزن ويرشق خطافه الحديدى فى جوال أرز، ويضع يديه فى وسطه ويقف أمام المقهى وينظر إلى أبى. وكأن الهواء قد توقف عندها، والمتعطلون وقد وجموا وتسمروا فى أماكنهم، وقد جلس الرجل الأسود القرفصاء فوق الكرسى وصار تمامًا مثل قطة تتحفز للهجوم والانقضاض. وما زال يتكلم. وفجأة ينطلق صوت أبى منفجراً. ويدوِّى صوته فى كل مكان. الآن وكأن رقبته قد طالت وانتفخت أوداجه. ووجنته لامعة. الآن كتفاه لا يفرقان عن كتفى صورة أبى قدر أنملة. لكن الشرر يتطاير من عينيه. وأنظر فى كافة أنحاء الوكالة. لقد انتفض الجميع من خلف مكاتبهم وخرجوا ليقفوا على أعتاب الأبواب. ويتجمع بعضهم الآن ويتهامسون فيما بينهم. ما عدت أطيق الصبر على رؤيتهم وهم يتهامسون. وإذا بصوت الرجل الأسود يتعالى، نفس صوت البقرة، صوت العجل نفسه، وإذا بصوت أبى يرعد، وقد لزم الجميع الآن الصمت. وتوقفت جميع الأصوات وإذا بالرجل الأسود يقوم من فوق الكرسى ويقف وجهًا لوجه أمام أبى. كان شعر رأسه كثيفًا ويلمع. وينهض أبى واقفًا من على الأريكة، ويختلط صوت أبى مع صوت الرجل الأسود. كلاهما يزمجر ويصيح. وقد خرج الجميع من دكاكينهم. وإذا بخالى "أمير" وقد وقف فوق رأسى، ويأتى "الحاج توفيق" ليقف إلى جانب خالى "أمير". وأسمع همسه وهو يقول:

- يا رب يمسكوا فى بعض ويخلصوا على بعض علشان نخلص منهم هما الاتنين ونرتاح من شرِّهم.

أخذت النار تشتعل فى قلبى. أرغب فى أن أغرز أسنانى فى رقبة "الحاج توفيق" وأعض حلقومه حتى تخرج روحه. وبدا القهوجى وقد نفض يده عن التدخل فيما يحدث. وليس معلومًا ما الذى يحدث أصلاً. فمنذ ثلاثة أيام ليس أكثر ظهر هذا الرجل الأسود. كان دائمًا ما يتكلم مع أبى ويتضاحك معه. حتى أنهما كانا كل منهما يعطى الآخر نقودًا وأموالاً ويأخذ منه أيضًا. وانتفض فجأة. إذ يبدأ أبى الهجوم على الرجل الأسود. وقد تحلق الجميع حولهما. فأقوم من فوق المقعد الصغير، واعتلى فوق أجولة الأرز التى رُصت فوق بعضها تحت القبة الثالثة. وها هو أبى وقد أمسك بخناق الرجل الأسود. وفجأة أرى الرجل الأسود وقد رفعه أبى بكلتا يديه. فأطير من الفرح. وأرى أبى وهو يطرح الرجل الأسود بكل قوة على الأرض. أود أن أقول للحاج توفيق. إذا كان ما يقوله صحيحًا فليقله الآن فى وجه أبى. أرغب فى أن أصيح بأعلى صوتى وأصرخ فى الجميع. إذا كان فيكم رجل حقًا فلا يتكلم من وراء أبى، وليأت الآن ليقف أمام أبى وجهًا لوجه ويقول له ما يقوله. وفجأة يرتعد قلبى. إذ أرى الرجل الأسود يقفز صوب الخطاف الحديدى المغروز فى جوال الأرز، وقبل أن يتحرك أبى ليتجنبه كان سن الخطاف الحديدى قد مزَّق وجنته اليمنى. وإذا بالدم يتفجر. وتظلم الدنيا فى عينىَّ. وتصدر منى صرخة مدوية. أقفز من فوق أجولة الأرز إلى الأرض وأبدأ فى الجرى بكل ما فىَّ من قوة. وقد خرج الجميع مندفعين من دكاكينهم. وقبل أن يسأل خالى "أمير" عن سبب صرختى كنت أخرج من باب الوكالة. وأخذت أجرى مندفعًا وأمر من داخل سوق الخضار. لأجــرى فى نفس واحد حتى أصل إلى البيت. وقد جلست أمى فى قاعة البيت، وبمجرد أن رأيتها أخذت أصرخ وأصيح:

- قتلوه يا أمى... قتلوا أبويا.

وإذا بقواى تخور وترتعد ركبتاى.

وتقفز أمى من مكانها كالقذيفة. وأرى عيانًا لونها وهو يتحول إلى ما يشبه لون الجص الأبيض على الحائط. وتصرخ فىَّ:

- مين الى قال لك؟

وينخفض صوتى ليصدر مكتومًا.

- أنا شفته بنفسى يا أمى... شفته بنفسى...

وتأخذنى أمى فى أحضانها. وتغلى عيناها بالدموع.

- قتلوه... قتلوا أبويا... خلاص يا أمى مش هاييجى... خلاص مش هايرجع...

وإذا بخالى "أمير" يصل إلينا. خائفًا، منزعجًا، تتلاحق أنفاسه. وأنا أوشك أن أفقد وعيى، وأسمع صوت أمى. وكأنه يأتى من قاع بئر.

- مين اللى قال له بس؟

ويأتى صوت خالى "أمير" بالكاد أسمع صوته.

- مفيش أى حد قاله يا أختى... ما حدش قال له حاجة... هوه اللى بيتدخل من نفسه.

وإذا بصوت أمى يأتى من جديد.

- طب خلاص كفاية...

ولم أعد أسمع شيئًا. أحس بالأرض تنزاح تحت قدمىَّ. أجراس تدق فى أذنىَّ. أحس بأننى أخذت أهوى فى ظلمة حالكة وبرودة شديدة.

* * *

المؤلف فى سطور :

أحمد محمود قصاص

- وروائى إيرانى معاصر انعكست فى ثنايا قصصه مراحل من حياته ، وأحداث حية وصور من البيئة الجغرافية والسياسية والاجتماعية التى عايشها عبر مراحل حياته المختلفة، لذا تمتاز أعماله الأدبية بالصدق والواقعية.

- كانت أكثر قصصه نضجاً تلك التى عبرت عن عمال الجنوب وحياتهم ، وحياة الفلاحين المعدمين الذين ارتبطت حياتهم وبيئتهم فى الجنوب الإيرانى بثالوث النخل والبحر والنفط، وهى العناصر الثلاثة التى تعد عماد حياة أهل الجنوب، وعماد بيئتهم الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية.

- بدأ أحمد محمود حياته الأدبية متأثراً بصادق هدايت وصادق جوبك إلى أن بدأت شخصيته الأدبية تتبلور وتتضح فى عام ١٩٦٧م عندما ألف مجموعة "زائرى زير باران" أو مسافر تحت المطر، حيث اعتبرت هذه المجموعة نقطة مفصلية فى حياته الأدبية.

- يعد أحمد محمود من بين الأدباء الذين صوروا فى قصصهم القصيرة حياة السجون، حيث صاغوا ذكرياتهم خلال الفترات التى قضوها فى السجون السياسية والعامة فى إطار قصص، وحولوا هذه المذكرات والذكريات إلى قصص قصيرة.

المترجمان فى سطور :

أ.م.د عادل عبد المنعم على سويلم

أستاذ مساعد بقسم اللغات الشرقية، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

المؤهلات العلمية :

- ليسانس اللغات الشرقية وآدابها، فرع اللغة الفارسية وآدابها ١٩٧٨، من كلية الآداب، جامعة عين شمس، بتقدير (جيداً جداً)، دبلوم الآثار الإسلامية، كلية الآثار، جامعة القاهرة ١٩٨٢ - ماجستير اللغة الفارسية وآدابها ١٩٨٨، من كلية الآداب، جامعة عين شمس، بتقدير ممتاز - دكتوراه اللغة الفارسية وآدابها، جامعة عين شمس ١٩٩٤، من كلية الآداب، جامعة عين شمس، بتقدير مرتبة الشرف الأولى.

وظائف عمل بها :

عمل معيداً ومدرساً وأستاذاً مساعداً بكلية الآداب - جامعة عين شمس.

عمل أستاذاً زائراً بكلية الآداب، جامعة صنعاء باليمن ١٩٩٥ .

كما عمل أستاذاً مشاركاً بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية من ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٧ .

حصل على جائزة جامعة عين شمس لأفضل البحوث والدراسات المستقبلية لعام ١٩٩٨م، عن الاشتراك مع مجموعة أخرى من الباحثين فى وضع الدراسة المستقبلية لاحتمالات عملية السلام خلال فترة ولاية حكومة اليمين الإسرائيلى حتى عام ٢٠٠٠.

كما حصل على جائزة الترجمة من الفارسية إلى العربية لعام ٢٠٠٣م، من المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، مناصفة عن ترجمة رواية "دابة الأرض" للكاتب الإيرانى بزرج علوى.

"مدير المدرسة" ترجمة لقصة الكاتب الإيرانى جلال آل أحمد القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، ٢٠٠١م.

من كتبه المترجمة

- "دابة الأرض" ترجمة لرواية الكاتب الإيرانى بزرج علوى، القاهرة ١٩٩٩م، - بالاشتراك مع د. منى حامد.
- "عيناها" ترجمة لرواية الكاتب الإيرانى بزرج علوى، القاهرة ٢٠٠٣م، بالاشتراك مع د. منى حامد.
- "الإسلام والغرب" ترجمة عن الفارسية لكتاب من تأليف عطاء الله مهاجرانى، القاهرة ٢٠٠٦م.
- "مصر من زاوية أخرى" ترجمة بالاشتراك مع آخرين لكتاب الكاتبة الإيرانية جميلة كديور، مركز بحوث الشرق الأوسط، القاهرة ١٩٩٦م.

أ.م.د منـى أحمـد حـامد

- أستاذ اللغة الفارسية المساعد بكلية الألسن - جامعة عين شمس.
- حصلت على الدكتوراه من كلية الألسن- جامعة عين شمس عام ١٩٩٥م.
- قدمت العديد من الترجمات عن اللغة الفارسية فى المسرح والرواية والقصة القصيرة وغيرها ونشرت فى مصر، منها:
  - ألف مد ألف بدون مد
  - أحسن أب فى الدنيا مسرحيتان للأديب الايرانى غلامحسين ساعدى.
  - تاريخ العلاقات المصرية الايرانية "دراسة تحليلية وصفية" تأليف حسين عليزاده.
  - النبتة السامة "شوكران" سيناريو فيلم.
  - كأنك قلت يا ليلى رواية من تأليف سبيده شاملو.

كما شاركت فى ترجمة الأعمال التالية:

- دابة الأرض؛ رواية للأديب الإيرانى بزرك علوى بالمشاركة مع د/ عادل عبد المنعم سويلم الأستاذ المساعد بكلية الآداب - جامعة عين شمس وقد فازت هذه الترجمة بجائزة أفضل عمل مترجم من اللغات الشرقية عام ٢٠٠٢ م من المجلس الأعلى للثقافة.
- عيناها؛ رواية للأديب الإيرانى بزرك علوى بالمشاركة مع د/ عادل عبد المنعم سويلم الأستاذ المساعد بكلية الآداب - جامعة عين شمس.
- سطفئ المصابيح؛ رواية للأديبة الإيرانية زويا بير زاد بالمشاركة مع أ.د/ هويدا عزت الأستاذ بكلية الآداب - جامعة المنوفية.

- علاوة على العديد من الأبحاث فى الدراسات اللغوية الفارسية المنشورة فى المجلات والدوريات العلمية، وكذا الإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراة فى الجامعات المصرية.

التصحيح اللغوى : أحمد الشقيرى
الإشـراف الفنـى : حسـن كـامل